ما ... علم الاجتماع

دكتور
محمد سعيد فرح
أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع .
كلية الآداب - جامعة طنطا

الناشر
منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه

الإهــداء

إلى

زوجتــي

منتدى الكتاب الشيعي
شبكة انا شيعي العالمية
www.imshiaa.com
حسين ٢٠١٢م

تصدير

ما علم الاجتماع ؟ كتاب لطلاب علم الاجتماع والمبتدئين في دراسة العلم سواء المتخصصين أو غير المتخصصين ، وفى هذا الكتاب نعرض محاولة لتدريس مقرر مدخل علم الاجتماع طوال عشر سنوات ، وهى محاولة تحمل الكثير بين طياتها من النجاح والاخفاق ، ولكن ماوصلت إليه من نتيجة حاسمة هو ضرورة تكوين رؤية نقديه اجتماعية عند طالب علم الاجتماع وارتباطه بقضايا مجتمعه .

أما عن الباب الأول الخاص بالمفاهيم ، فيرمز إلى جهد متواضع ضمن فريق عمل من اساتذة علم الاجتماع حاولوا ترجمة قاموس مصطلحات « علم الاجتماع » ، ولكن عقد الفريق انفرط وذهب كل فى طريق ، ونسيت هذا الجهد ضمن أوراق قديمة ، ثم وجدته صدفة ...

اعظم الشكر والتقدير إلى طلابى فى جامعتى صنعاء وطنطا الذين ساهموا فى المحاورات التى كنت أبدأها اثناء القاء دروس المقدمه وشكراً اكثر إلى من ساهم برأى أو فكرة حول موضوع هذا الكتاب .. وشكرا جزيلا لكل من ساهم فى اخراج الكتاب إلى النور ،،

الاسكندرية
سان استفانو
سبتمبر ١٩٨٧

المقدمـة

يوصف علم الاجتماع بأنه علم حديث . وهذا الوصف لايعطى إلا بعض الحقيقة لا كلها . وبالتأكيد فإن تدريس علم الاجتماع فى الجامعات بدأ فى اوائل القرن العشرين . فقد بدأ تدريس علم الاجتماع فى الجامعات الانجليزية منذ ١٩٠٧ . كما بدأ تدريس علم الاجتماع فى الولايات المتحدة الامريكية قبل الحرب العالمية الأولى . أما فى مصر فقد بدأ تدريس علم الاجتماع فى الجامعة المصرية منذ عام ١٩٢٥ . وفى الجامعة الامريكية فى القاهرة منذ ١٩٢٣ . وعرفت قاعات الدرس فى العالم العربى علم الاجتماع ابتداء من الستينيات .

وثمة عوامل اساسية أدت إلى الاهتمام بتدريس هذا العلم الجديد فى مصر . ومن أهم هذه العوامل :ـ

١ ــ دعوة بعض الاساتذة الأجانب لزيارة الجامعة المصرية والجامعة الامريكية والتدريس بهما .

٢ ــ عودة بعض المبعوثين المصريين من الخارج الذين تخصصوا فى علم الاجتماع أثناء بعثاتهم . وقيام هؤلاء بعد عودتهم بتدريس هذا العلم فى الجامعات المصرية ومن بين هؤلاء ومن جيل رواد علم الاجتماع فى الأربعينات والخمسينيات الأساتذة على عبد الواحد وافى والسيد محمد بدوى وعلى عيسى وحسن الساعاتى وعبد العزيز عزت .

٣ ــ انتشار حركة ترجمة التراث السوسيولوجى الغربى إلى العربية . فترجمت بعض مؤلفات اوجست كونت ودوركيم وليفى بريل وبرستيد إلى العربية .

٤ ــ التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المحلية والعالمية التى حدثت ابتداء من الحرب العالمية الأولى ونجاح الثورة الاشتراكية فى روسيا واعلان حقوق الانسان ، وقيام ثورة ١٩١٩ على المستوى القومى ، ونمو حركة الاستقلال السياسى والاقتصادى وانتشار الافكار التحررية .

ولكن إذا خرجنا من محيط الجامعات ، وتفحصنا كتابات المفكرين فى القرن التاسع عشر ، وجدنا علماء كثيرين اسهموا فى الموضوع ، ابتداء من اوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الذى ميز علم الاجتماع عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية . ويرجع إلى كونت فضل صياغة مصطلح علم الاجتماع ، ويصفه بأنه العلم الذى يدرس المجتمع . وبعد كونت جاء سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) ثم دوركيم (١٨٥٨ — ١٩١٧) ثم فيبر (١٨٦٤ — ١٩٢٠) ثم تونيز (١٨٥٥ — ١٩٣٦) .

وإذا غصنا فى اعماق التاريخ الاجتماعى والسياسى وجدنا ان الاهتمام بالإنسان والمجتمع موجود منذ القدم ابتداء من عهد الفلاسفة اليونان ومن بعدهم . وقد أدلى بعض المفكرين العرب بدلوهم فى مسألة علاقة الانسان بالمجتمع . ويعد ابن خلدون المفكر العربى من أوائل الذين اشاروا إلى أهمية دراسة المجتمع دراسة علمية .

وبالرغم من هذا الاهتمام القديم بالمجتمع ومشكلاته ، فان علم الاجتماع يوصف بأنه علم حديث ، ويرجع ذلك إلى الاسباب الاتية :ـــ

١ ـــ الاهتمام بتدريس علم الاجتماع فى الجامعة .
٢ ـــ الرغبة فى التخصص .
٣ ـــ الرغبة فى الحصول على درجة علمية جامعية من الاقسام التى تتخصص فى تدريس هذا العلم وفروعه .

ولكن لماذا ظهر علم الاجتماع وازدهر فى الجامعات فى أوائل هذا القرن ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة ، فثمة اسباب عديدة ادت إلى التوسع فى تدريس هذا العلم منها :ـــ

١ ـــ ان علم الاجتماع مثل علم الاقتصاد وعلم النفس والتاريخ ، كلها عموم نضجت فى نهاية القرن الثامن عشر فى فترة يطلق عليها عصر التنوير . وهذه الظاهرة التاريخية محصلة تطور وتطبيق افكار العلماء الرواد فى القرن التاسع عشر ، الذين كانوا يعتقدون ان العالم الطبيعى يمكن ان يفسر فى

اطار عدد من القوانين التى تدفع الانسان إلى التأمل والتفكير فيما حوله .

٢ ــ تغيرت نظرة المتعلمين نحو النظم الاجتماعية بتأثير ثورة علوم الفيزياء والاحياء . فلم يعد المتعلمون والمثقفون ينظرون إلى النظم الاجتماعية باعتبارها ذات أصل آلهى وأنها تنظم تنظيما آليا ، ولاشأن للإنسان بها . وقد حاول كثيرون ابتداء من مونتسكيو ان يطبقوا المنهج العلمى الجديد لفهم النظم الاجتماعية ودراسة الحقائق التاريخية ، ولقد حلل مونتسكيو النظم فى روما القديمة بطريقة جديدة ، وبين لنا كيف ان ظهور وسقوط الامبراطوريات يرجع إلى عوامل كثيرة ذات طبيعة اخلاقية وفيزيقية ، ولايرجع انهيار الحضارات وازدهارها إلى الصدفة العمياء وحدها . ولقد لجأ المفكرون والباحثون إلى المنهج العلمى لتحليل النظم الاجتماعية والسياسية والتعليمية والاقتصادية ونقدها ولقد ترتب على ذلك نتائج هامة أهمها تقويض النظام الفرنسى القديم ــ اى تقويض الحق الآلهى للملوك ــ واعادة بناء النظم السياسية والتعليمية والاقتصادية فى شكل جديد .

وليس من المبالغة القول بأن الثورة الفرنسية اثرت تأثيرا قويا على اتجاهات علم الاجتماع ، ولايعنى ذلك وصفنا لعلم الاجتماع بأنه علم ثورى ، بمعنى انه علم يرغب فى قلب النظام الموجود وتغييره . إذ اصبحت مهمة علم الاجتماع بعد الثورة كيف يصبح النظام ممكنا . كما يمثل علم الاجتماع نظرة مجموعة من المفكرين الذين يحللون المجتمع تحليلا علميا ــ اى وصف ماهو قائم وتفسيره لاتغييره ــ كما يعبر عن اتجاه فكرى يؤكد أهمية نقد الجوانب المختلفة فى المجتمع ، وتفسير مدى فاعلية النظم الاجتماعية ، وأن ثمة فرصة لظهور أنماط اجتماعية جديدة بعد إعادة تنظيم بناء المجتمع من جديد .

ومهما كانت جهود هؤلاء العلماء ، فدعنا نسلم منذ البداية بأن دراسة النظم الاجتماعية سواء فى حالة النظام الشرعى المستقر أو الدراسة ذات الرؤية التى تهدف إلى التغيير تعبر عن رؤية جديدة فى الثقافة

الغربية ، وكانت هذه الجهود هى المنبع الذى صدرت عنه مجموعة منظمة من المعرفة تعرف بأسم علم الاجتماع .

٣ — هناك محاولات منذ الحرب العالمية الأولى لاعادة فهم النظم الاجتماعية لمعرفة وتحديد المدى الذى تصبح فيه التغيرات مرغوب فيها بعدما زادت معدلات التقدم التكنولوجى وتغيرت وتعددت المطالب الانسانية ، وبعدما أصبح العالم يعيش حالة التهديد النووى وصراع الايديولوجيات .

٤ — كان ازدياد الحاجة إلى مهارات جديدة . واشتداد الطلب على القوة العاملة المدربة والمستنيرة ، وضرورة الاستفادة بأكبر قدر من المصادر الانسانية فى المجتمع ، والرغبة فى تحقيق العدالة فى النسق التعليمى ، من بين العوامل التى أدت بالحكومات إلى اللجوء إلى طلب مساعدة علم الاجتماع لتحسين العلاقات بين العمال والادارة وتحديد العوامل التنظيمية التى تحد من نشوب الخلافات فى مجال الصناعة ودراسة العنف والتفرقة العنصرية والفتن الطائفية والهجرة ، ولوضع أفكار مناسبة عن تخطيط المدن وبناء المجتمعات المستحدثة ، واعادة تطوير المدن القديمة والاحياء الفقيرة ، ووضع سياسات عن اصلاح التعليم ، ودراسة الجريمة وانحراف الاحداث . وبايجاز فعلم الاجتماع عندما يتصدى لدراسة هذه الظواهر فانه يحاول لفت انتباه ولاة الامور وقمة السلطة التنفيذية إلى علم الاجتماع باعتباره علما مفيدا نافعا أو على الاقل باعتباره علما يمكن لمخططى المدن وقادة الحكم المحلى ورجال التخطيط الاجتماعى الاستفادة منه . ولكن هل نجح علم الاجتماع فى تلك المهمة فى بلدان العالم الثالث ؟ هذا سؤال من السهل الاجابة عليه .

٥ — الحاجة الماسة إلى تعويد الطالب الدارس للعلم على التفكير النقدى لمشكلات المجتمع وعلى المشاركة فى اكثر من مجال ، ليتاح له العمل فى اكثر من مهنة ، كما تساعد دراسة علم الاجتماع الدارس على تفسير النظم الاجتماعية المكونة للمجتمع الحديث ونقدها وجمع البيانات والمعلومات التى يمكن أن توضع تحت تصرف متخذى القرارات والسياسات .

فالقصد من تدريس العلم الاجتماعي . هو تعويد الطلاب الذين يدرسونه على أن يكونوا طريقة مميزة للنظر إلى السلوك الانساني .

ولكن هل الاهتمام بتدريس علم الاجتماع كان اكبر من الاهتمام باستخدام علم الاجتماع لحل مشكلات الانسان المعاصر ؟ وثمة اربع اجابات محتملة لهذا السؤال :

أولا : الرغبة في ايجاد مبررات للمحافظة على الوضع القائم والدعوة الملحة لقبول النظرية الوظيفية ورفض غيرها .

ثانيا : تعريف الطلاب بمجتمعاتهم ، وتعويدهم على تفسير الاحداث تفسيرا علميا .

ثالثا : الحاجة إلى رسم سياسة اجتماعية لتحقيق الرفاهية الاجتماعية .

رابعا : الرغبة في إحداث عملية تغيير ثورى باعتبار المجتمع كائن متغير متطور .

واستقراء كتب علم الاجتماع يبين لنا أن هذا العلم نشأ باعتباره اجابة ضرورية للمحافظة على التقاليد بعدما تفجرت المشكلات التي ترتبت على الثورة الفرنسية . ولقد اعتبر اوجست كونت المجتمع نسقا طبيعيا له قوانينه الخاصة به التي تنظم التغير والتطور وتحكمهما . كذلك قدم سبنسر من خلال مؤلفاته في علم الاجتماع دعما ايديولوجيا قويا للاقتصاد الحر الذى كان سائدا في عصره ، فعلى سبيل المثال يرى سبنسر أن اية محاولة لاجراء ثورة اجتماعية تواجه قوانين الانتخاب الطبيعي والبقاء للاصلح تعد تهديدا لرخاء الكائن الاجتماعي . ولقد أمن بهذه الفكرة اغلب علماء الاجتماع الامريكيين . فمعظم كتابات هؤلاء العلماء كانت كتابات تقليدية محافظة في اتجاهتها تقاوم الثورة أو على الاقل تنبثق من قيم تؤكد المفهوم الديمقراطي الامريكي . وتؤمن هذه النزعة المحافظة التقليدية بالتوازن بين العناصر المكونة للثقافة والمجتمع ، ونقصد بالتوازن حالة من التعادل والانسجام بين جميع افراد النسق الاجتماعي الذى تختفي منه الصراعات الدائمة التي لايمكن حلها . وفى مقابل هذه النزعة المحافظة ، ظهرت مدرسة في علم الاجتماع اكثر ثورية يمكن البحث عن أصول افكارها في كتابات ماركس ، وتدعو

إلى احداث تغيرات جذرية فى الفكر والاقتصاد والسياسة والعادات . ومثل هذه الدعوة تعد تمردا على الدعوة العلمية التى تطالب علم الاجتماع بالحياد والموضوعية والتحرر من كل قيمة كما تمردت هذه المدرسة على النزعة التجريبية واهتمامها بالقضايا الصغيرة ، وكان جل اهتمام هذا الاتجاه دراسة مشكلات الحرب والسلام والرفاهية الاجتماعية ، كما تعطى اهتماما اكبر للانحرافات الناجمة عن تطبيق الاقتصاد الرأسمالى والتى تظهر واضحة فى المجتمعات الرأسمالية .

والحقيقة أن بعض علماء الاجتماع الاوربيين قد قاموا باجراء العديد من الدراسات الاجتماعية فى بلدان كثيرة متنوعة مسلحين بقواعد المنهج العلمى عند دراسة المجتمعات ، ولقد كانت هناك حاجة إلى مساعدة علماء الاجتماع لبناء مجتمع السلام بعد الحرب العالمية الثانية ، مثلما كانت هناك حاجة إلى الاستعانة بالمهندس والاقتصادى واخصائى التنمية ومخطط المدن والمعلم . كذلك اثبتت التجربة ان عالم الاجتماع يستطيع ان يقدم مساهمة فعالة فى حل بعض المشكلات الاجتماعية إذا ما درسها وفق قواعد المنهج العلمى .

وعلينا أن نتقدم خطوة وندرس طبيعة التجريدات التى يستخدمها علم الاجتماع ودوافعه فى ذلك دراسة اكثر دقة ، وبهذه الطريقة وحدها نستطيع حقيقة أن نحدد بدقة موضوع علم الاجتماع ونفهم مايقوم به عالم الاجتماع ولماذا يقوم بمهمته ؟ من المحتمل ان تكون اكثر المفاهيم العقلية أهمية بين علماء الاجتماع هى فكرة أن المجتمع نسق .

وقد ينظر عالم الاجتماع إلى جماعة صغيرة من العمال تعمل فى ورشة نجارة باعتبارها نسقا أو مجموعة من التلاميذ داخل الفصل الدراسى باعتبارهم يكونون نسقا . وقد يكون النسق فصيلة من جنود البحرية أو قد ينظر إلى جماعة كبيرة باعتبارها تكون نسقا ، فالنسق الاجتماعى يتكون من اشخاص يشغلون اوضاعا معينة ، ويؤدون ادوارا محددة .

ونستفيد فروع كثيرة من المعرفة من فكرة النسق . فمثلا يدرس الفسيولوجى الكائن العضوى باعتباره نسقا من الخلايا ، وينظر عالم البصريات إلى الأجهزة البصرية من عدسات ومرايا باعتبارها نسقا من الجزئيات . وبطبيعة الحال فان خصائص

الوحدات التى تكون النسق تختلف من نسق لآخر . فالنسق الميكانيكى مثل الدراجة يتكون من اجزاء ميكانيكية مختلفة ومتباينة . بينما يتكون النسق الاقتصادى من مقومات مختلفة . ولكن نقطة الاستفادة من فكرة النسق هى أن نشير إلى العلاقات الداخلية بين الاجزاء التى تكون ذلك الكل المتكامل ، ومن ثم يمكن ان ينظر إلى أى مجتمع باعتباره نسقا . يضم انساقا فرعية اجتماعية ـ مثل انساق الاقتصاد والقرابة والقانون والعادات والسياسة والتعليم . ويحاول عالم الاجتماع عادة ان يستقصى العلاقات بين تلك الأجزاء . وبقدر مايترتب على استخدام هذه الفكرة وتطبيقها من فائدة ، فيترتب على ذلك ان التغيرات فى أى جزء من النسق قد يكون لها صدى فى الأجزاء الاخرى . وهذا يعنى أننا إذا غيرنا من طبيعة النظام الاقتصادى فعلينا إن نحقق التوافق فى السياسة التعليمية والقانون والقرابة .

ويتحدث الناس بكثرة هذه الايام عن أهمية التغير فى السياسة التعليمية لتوائم التغيرات السياسية والاقتصادية . وهناك من يدعى ان التغيرات فى مجالات التصنيع تتطلب تأكيدا اكبر على أهمية التعليم الفنى ، والاهتمام بتدريس المواد العلمية فى المدارس ، ويميل البعض إلى الادعاء بأن مانحتاج اليه هذه الأيام هو ادارة أفضل وتطبيق سيادة القانون ، ومديرون وتنفيذون اكثر شجاعة واكثر مهارة فى معاملة الناس مثلما نخطط للمستقبل . وان العلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع تستحق ان تلقى عناية اكبر لتواجه حاجات المجتمع الصناعى المتغير . بيد أن التعود على سيادة القانون والادارة الناجحة والمهارة فى معاملة الناس وكلها انماط من السلوك ، تتطلب تغير أساليب التنشئة الاجتماعية الاسرية ، كما إن دراسة العلاقات بين الاقتصاد والقرابة فى البلدان النامية ذات أهمية كبرى ، وخاصة فى الإقتصاد الزراعى حيث تعتمد معايشة الانسان إلى حد كبير على عمل الاسرة الابوية ومن ثم يعتبر نسق القرابة عاملا حاسما فى توجه المعاملات بين الأشخاص .

ويرى الكثيرون من دراسى علم الاجتماع ان فكرة النسق لازالت فكرة مفيدة للعلم ، ولكن يتعين على عالم الاجتماع أن يسأل نفسه مرارا سؤالا مؤداه عما إذا كانت هذه الفكرة قد نالت اهتماما اكثر مما ينبغى ؟ وعليه أن يتساءل ايضا عما إذا كان مفهوم التنظيم الاجتماعى أو الجماعة الاجتماعية موضوعين متكاملين بقدر

ماتوحى به فكرة كون كل منهما نسقا ؟

ان الغرض الاساسى من دروس علم الاجتماع هو تعويد الطالب المبتدىء فى دراسة علم الاجتماع على ممارسة واتباع هذا النوع من الحوار النقدى ، لذا يتعين عليه أن يعرف ويدرس النظم الاجتماعية والتنظيم الاجتماعى والجماعات الاجتماعية ، وهى نفس الموضوعات التى يهتم بها علماء الاجتماع . وعلينا عندما نعرض لهذه الموضوعات أن نبين كيف ان اهتمامات عالم الاجتماع توجه إلى المجتمعات الكبيرة قدر ماتوجه إلى المجتمعات الصغيرة اى إن علم الاجتماع يهتم بدراسة الانساق الاجتماعية الصغيرة أو النسق الاجتماعى الكلى الشامل .

والسؤال الاخير هو كيف يستفيد دارس علم الاجتماع من شهادته الجامعية لاريب ان دارس علم الاجتماع سيكون ممتنا جدا وراضيا للغاية إذا ماطبق دراساته . المواد التى حصلها عندما يعمل باحثا فى مراكز البحوث الاجتماعية او ادارات التنمية أو اخصائيا اجتماعيا فى الوحدات الاجتماعية أو مراكز الدراسات السكانية أو الشرطة أو القوات المسلحة أو فى جهاز تخطيط المدن أو اجهزة بناء المجتمعات المستحدثة أو حتى قام بتدريس ماتعلمه او عمل فى مجالات الاعلام . فهناك فرص كثيرة لتحقيق استفادة الطالب من هذا العلم فى مجالات العمل . ولكن ليس المهم هو الحصول على مؤهل دراسى بعد قضاء اربع سنوات فى قسم الاجتماع ليتحول الطالب إلى باحث ممتاز ، ففهم طالب علم الاجتماع للمجتمع الذى يعيش فيه والتزامه بقضاياه ليس محصلة الدروس التى تلقاها والكتب التى يحفظها والمعلومات التى تلقن له ، بل ينمو هذا الفهم ويتجدد باستمرار وفقا لقدرة الطالب الخاصة على التحليل الاجتماعى وتسلحه بايديولوجية وطنية نابعة من صميم الواقع الاجتماعى . فالصفات الشخصية للباحث الاجتماعى ، والقدرة على اكتساب حب الناس وثقتهم بالاضافة إلى الرغبة فى العمل والتضحية من أجل الآخرين ، صفات ضرورية لكل باحث اجتماعى ماهر يضاف إلى هذه الصفات الشخصية الرغبة فى الحصول على المزيد من المعرفة عن الناس الذين يعيشون حوله والظروف المحلية والعالمية التى تحيط به . إذ يتعين على الباحث الاجتماعى أن يعى انه يعمل من أجل الانسان الذى يعيش فى عالم ورثه عن أبائه وتهدده صراعات وتحديات محلية وعالمية .

الفصل الأول

مفاهيم العلم

ان الخطوة الاولى التى تدل على نضوج علم الاجتماع هى تمكنه من تحديد المفاهيم الاساسية . إذ تقدم لنا هذه المفاهيم الادوات العقلية التى يستخدمها عالم الاجتماع . وتستخدم هذه المفاهيم لتحديد الظواهر التى تدرس ، كما تميز علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الاخرى . فكل علم من هذه العلوم له مجموعة خاصة من المفاهيم . إذ يحدد كل علم مفاهيمه الاساسية التى يصوغ بها مشكلاته وطرق اجاباتها ، ومن ثم فان تعريف علم الاجتماع يتطلب فى البداية توضيح المفاهيم المتداولة ولايسبقها ومن ثم فاذا مافهم مايدرسه العلم وماالمقصود من كل مفهوم أصبح التعريف مجرد حكم اجمالى .

وفى الحقيقة إذا ماأعطينا اهتمامنا لتحديد المفاهيم الاساسية وتحديد المصطلحات الاساسية فى أى علم حديث التكوين فأننا نواجه بهجوم على اللغة الصعبة وغير المفهومة المستخدمة بين الاجتماعيين وغيرهم . وقد نهتم بأستخدام مصطلحات شائعة بأسلوب غير مألوف ، أو باستعمال كلمات غامضة لوصف ظواهر مختلفة شائعة ، وقد يتعذر التفاهم بين العلماء ويصعب فهم قضايا العلم بسبب غموض المفهومات أو بسبب كلمة يستعملها أحدهم ولايستعملها الأخر أو كلمة اعطاها احدهم معنى انكره الاخر عليه ، او اعطاها معنى مغايرا(١) . وكما نعرف فان علم الاجتماع يهتم بصور كثيرة مألوفة فى الحياة الاجتماعية مما يجعل الرجل العادى يفكر فى أننا لسنا فى حاجة إلى مفاهيم جديدة خاصة بعلم الاجتماع أو أننا لسنا محتاجين إلى تحديد المفاهيم التي استخدمها العلم ، فكل

(١) احمد تيمور ، معجم تيمور الكبير فى الالفاظ العامية تأليف أحمد تيمور تحقيق حسين نصار . القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص ٦٠٥

عضو فى المجتمع يعرف شيئا ما عن الظواهر الاجتماعية وكيفية اداء النظم الاجتماعية لوظائفها لكى يؤدى هو وظائفه ، وكل شخص قادر على أن يقدم لنا تفسيراً ممكنا ومقبولا لبعض افعال الناس الذين يرتبط بهم . ولاريب ان سلوك الناس وأسباب هذا السلوك يمكن ان يوصفا باللغة المتداولة بين الناس ، ولكن إذا مااستخدم دارس السلوك الانسانى مفاهيم ومصطلحات خاصة به وحده لوصف افعال العامة ، او يستبدل بتفسيرات العامة احكاما تتضمن فى احوال كثيرة كلمات غير مألوفة ، فإن هذا يزعج الشخص غير المتخصص ، حتى أن البعض قد ينكر امكانية أى تفسير سواء أكان علميا أو غير علمى ، وحتي يثبت العالم الاجتماعى أنه قادر على المساهمة بنجاح فى رفاهية مجتمعه ، فله بلا ريب أن يتحدث بلغته الخاصة إلى المهتمين فى مجال تخصصه ، وفى الوقت نفسه فهناك تبرير كامل للشك فى أن الانسان قادر على أن يدرس الاخرين دراسة موضوعية كما يدرس العالم الفراشة ، ولما كانت المعرفة قوة فاحيانا مايشك الناس فى أمر هؤلاء الذين يعرفون كثيرا ويتحدثون بلغة لاتفهم بسهولة . وفى الحقيقة فان احد القضايا الاخلاقية التى تواجه العلماء الاجتماعيين انفسهم هى بالتحديد اللغة الاجتماعية غير المفهومة . وإلى حد ما فان الانتقادات التى توجه إلى اللغة التى تكتب بها الدراسات الاجتماعية هى انتقادات لها مايبررها . فلا ريب فى أن هناك حالات كثيرة يبدو فيها علماء الاجتماع مذنبين لاستخدامهم المفرط بلا داع لمصطلحات خاصة . وقد ينجم هذا الافراط فى استعمال هذه اللغة غير المألوفة عن حماس المشاركين الجدد فى الحقل الاجتماعى وانبهارهم بمصطلحات جديدة فى علوم التكنولوجيا إلى حد ما . فاللغة الأصطلاحية هى محصلة جهود علم جديد يحاول تحديد مجال دراسته وبلوغ الاحترام الاكاديمى . ولكن رغم استخدام اللغة فاننا نستطيع أن نعرف الكثير من هذه المصطلحات وأن نحدد معناها . وبدون تحديد المفاهيم لن نقيم علم الاجتماع وماالعلم إلا مجموعة مفاهيم مترابطة تستند إلى منهج تصورى .

وقبل ان ندرس المفاهيم السوسيولوجية ، علينا ان نعرف ماالمقصود بالمفهوم وإن نبين لماذا تعد المفاهيم ذات اهمية . وبوضوح وبساطة فالمفهوم لفظ أو

اصطلاح أعام يشير إلى مجموعة خاصة من الموضوعات أو الأحداث أو العلاقات أو الاشخاص أو العمليات .

العلم والمفاهيم

وتتميز المفاهيم العلمية عن الكلمات العادية بأنها كلمات أدق تحديدا فى تجريدها وعموميتها ، كما أنها كلمات تستخدم استخداما منطقيا منظما . ونحن فى محادثتنا اليومية نسلم بمعانى الكلمات التى نستخدمها ، مفترضين ان الاخرين يعرفون مانقول . وهذا الافتراض سليم لأسباب عديدة رغم ان بعض الكلمات لديها اكثر من معنى . فكلمة وظيفة لها اكثر من معنى وكذلك كلمة اسرة التى قد تشير إلى أسرة المعيشة وإلى الوالدين والاخوة والاخوات أو إلى الاقارب . ولكن سرعان مايتحدد معنى الكلمة خلال السياق الذى تستخدم فيه ، كذلك هناك كلمات كثيرة لكل منها اكثر من معنى تدل عليه كما لاتفهم من خلال السياق الذى تستخدم فيه ، فاذا ماأردنا ان نحدد معانى كلمات مثل الحرية أو الدمار أو المحافظة أو حتى الشيوعية أو الوحدة أو مفاهيم لاتمت إلى السياسة بصلة مثل الطموح والنجاح والصداقة ، فاننا نرى بسرعة أنه لاتوجد معانى سهلة بسيطة لهذه الكلمات يتفق عليه الناس .

المشكلة ان علم الاجتماع لايشبه العلوم الاخرى إذ أنه يستخدم كلمات ومفاهيم سائدة فى الحياة اليومية . فبعض هذه المفاهيم مثل الثقافة ، و الجماعة ، و الدور ، والمركز ، والقوة ، والسلطة ، والوظيفة ، والجنس ، والبيروقراطية ، اصبحت مفاهيم اجتماعية هامة ، ويتطلب تعريف هذه المفاهيم تحليل الاشياء التى يشير اليها كل مفهوم ، وإذا ماعرفنا المفاهيم علينا أن نستخدمها بحرص ، مستبعدين من علمنا أى خلط أو لبس .

والمفاهيم المستخدمة فى علم الاجتماع مفاهيم محددة ومجردة من كل حكم خلقى أو معنى عاطفى . فهى مفاهيم لها دلالة علمية اى أنها مفاهيم تشير إلى انماط أو مجموعات من الاحداث والأشخاص والعلاقات اشارة مجردة خالية من اى حكم زمنى أو مكانى مثل الثورة والتعاون والديكتاتورية والصفوة أو الصراع .

ولكننا من جهة وفى أغلب الاحيان فى احاديثنا اليومية نهتم بأشخاص معينين او مناسبات معينة أو مواقف محددة أو أشياء ملموسة . فنحن نتحدث عن اسرتنا وأعمالنا وعلاقاتنا بالجنس الآخر . ونحن نقضى وقتا ضئيلا واضعين فى اعتبارنا مصطلحات عامة عن طبيعة الاسرة أو طبيعة العمل او الخطوبة . ومسئولية علم الاجتماع مثل مسئولية علوم أخرى هى أن يدرس مجموعة من الظواهر لا أن يدرس حالات فردية . فعالم الاجتماع عندما يدرس الطلاق فى اسرة معينة أو يدرس الثورة فى زمن محدد ومكان معين فهو لايهتم بذلك إلا ليلقى الضوء على طبيعة ظاهرة الطلاق أو الثورة باعتبارهما نمطين من أنماط الظواهر الاجتماعية . وعلى المدى الطويل كلما تعمق فهمنا للطلاق أو الثورة عامة كلما ازداد فهمنا للحالات الخاصة .

ان اهتمامنا بالعام بدلا من الخاص هو الذى يقودنا إلى القول بأن المفاهيم الاجتماعية تنزع إلى مستو عال من التجريد اكثر من مفاهيم الحياة اليومية . وعند النظر إلى الحالات الفردية باعتبارها نماذج لمجموعة من الظواهر ، فان عالم الاجتماع يجرد جوانب معينة أو صور مختارة عن السلوك من التعقيد الكلى للحقيقة .

المفاهيم والمنظور السوسيولوجى

وعندما نعرف مفاهيم علم الاجتماع فاننا نعرف طبيعة وحدود المنظور السوسيولوجى ونوضح تلك الجوانب الخاصة للحقيقة الاجتماعية التى سنهتم بها ، وربما نستطيع ان نوضح تلك النقطة ببساطة اكثر . فمثلا إذا ماأكلنا قطعة من الخبز والجبن فى الأفطار يمكن لنا أن نحلل فى اطار القيمة الغذائية للطعام المستهلك وعادات أكل الأفراد واقتصاديات الخبز وصناعة الجبن والصناعات المنزلية ونظام الغذاء السائد فى البيئة أو الخلافات الاسرية التى تنشب بسبب اهمال الزوجة فى اعداد الخبز أو لكونها مسرفة أو بخيلة ، إن الكلمات الاساسية فى كل مثال ابتداء من القيمة الغذائية للأكل وعادات الأفراد واقتصاديات التصنيع والخلافات الاسرية كلمات تستخدم فى علوم اخرى ، فهى تتداول فى علوم التغذية وعلم النفس والاقتصاد وعلم الاجتماع . والطالب الدارس لاى علم يستخدم مفاهيم هذا العلم الخاصة به مغفلا النظر إلى نفس الحدث من وجهة نظر أخرى .

وإذاماركزنا اهتمامنا على جوانب معينة للحقيقة فان المفاهيم فى الواقع تخبرنا بما ننظر اليه ولكن عندما نتقدم فى تحليلنا وخاصة عندما نهتم بمشكلات امبريقية فأنها ايضا تخبرنا بما ننظر اليه . وإذا ماأردنا مثلا معرفة اسباب انتشار تعاطى المخدرات بين سائقى اللوريات أو اللامبالاة بين عمال القطاع العام فان المفاهيم الاساسية قد توجه بحثنا إلى العوامل الملائمة المؤدية لحدوث هذه الظاهرة . وباعتبارنا علماء اجتماع علينا إن نحاول رؤية القيم الثقافية المتضمنة فى هذا السلوك الانحرافى ، وعلينا أن نتقصى الدور المميز للسائقين أو العمال فى الاقتصاد وعلينا أن نفهم الثقافة السائدة بين العمال . وسنجمع مادة علمية وفيرة لنرى ماإذا كانت المخدرات أو اللامبالاة سمة كل فرد فى كل الطبقات من عمال وطلبة وموظفين ومزارعين وفى كل المجتمعات فى العاصمة والدلتا والوجه القبلى والمدن الساحلية وفى الريف والحضر ؟ وهل الأفراد يتعاطون المخدرات بالتساوى فى كل الجماعات ؟ وهل اللامبالاة ظاهرة تمتد إلى الجماعات المنتجة وغير المنتجة . إن كل مفهوم من هذه المفاهيم يمثل احد المنظورات التى يهتم بها عالم الاجتماع .

وترجع إهمية المفهوم إلى أنه عنصر اساسى فى بناء النظرية ولكنه لايعادل فى قيمته قيمة النظرية ، فالنظرية تتكون من مجموعة من القضايا المترابطة ترابطا منطقيا فيما يتعلق بالعلاقات الموجودة بين المتغيرات أى العلاقات بين المفاهيم . وكما يدرس عالم الفيزياء العلاقات بين الضغط والحرارة وحجم الغاز يدرس عالم الاجتماع مثلا العلاقات بين المعتقدات الدينية والمعرفة العلمية أو العلاقات بين النظم الاقتصادية والنظام الاسرى أو بين السلوك الانحرافى وصراع القيم .

ان المسألة الهامة أمام عالم الاجتماع هى تحديد المفاهيم التى تتداول فى علم الاجتماع وتعريفها ، ولما كانت المعرفة فى علم الاجتماع مثل المعرفة فى كل العلوم الاخرى أى أنها معرفة تراكمية وتجريبية فكل المفاهيم والقضايا التى يقوم عليها العلم بالتالى ليست جامدة بل متغيرة ولها دلالتها فى الواقع المعايش .

ونحن فى تحليلنا وعرضنا للمفاهيم لن نعرض كل المفاهيم بل نعرض المفاهيم الاكثر فائدة والاكثر تداولا ، فبعضها محدودالإستخدام ولايستخدم إلا فى نظريات محدودة مثل علم الجريمة وعلم السكان وعلم البنية الاجتماعية . كما أن

بعض المفاهيم تستخدم استخداما واسعا مثل الثقافة والدور والمركز والبناء الاجتماعى والطبقة . وهنا يجب أن ننوه إلى قضية هامة واساسية وهى عدم اتفاق علماء الاجتماع على تحديد كل المفاهيم المستخدمة وتعريفها . فهم يستخدمونها بحذر باعتبارها مفاهيم اجرائية ويرجع هذا الخلاف إلى النمو السريع العام لعلم الاجتماع .

ومادام تعريفنا لعلم الاجتماع والذى عرضنا له قد تضمن مفاهيم كثيرة فمن الضرورى أن نحدد المقصود من هذه المفاهيم قبل ان نخطو خطوة اخرى إلى الأمام ونرى أن نعرضها بالترتيب الأبجدى .

بحوث الاتجاهات : Attitude research

وقد ظهر الاهتمام الاول للباحثين فى بحوث الاتجاهات عندما إكتشفوا مقاييس وحيدة البعد يستطيعون بها تقدير تطرف أو قوة الاتجاهات . وقد كان ثرستون . ل ورفاقه من أوائل من وضعوا مقاييس لتحقيق هذا الغرض .

والمنهج الذى استخدموه يتضمن وضع قائمة تضم عددا كبيرا من الاحكام التى رأوا أنها مناسبة لتحديد الاتجاه موضع البحث . وقد قدمت هذه القائمة إلى مائتى حكم ، طلب اليهم تصنيفها إلى احدى عشرة درجة من درجات القياس . تبدأ من التأييد المتطرف على أن تكون الابعاد بين الدرجات متساوية . ومن هذا التصنيف نختار احكام لدرجات المقياس الأخير تقوم على عدد من المعايير المختلفة تشمل المدى الكامل لدرجات المقياس . ويعرض المقياس المدرج الاخير على مختلف الاشخاص ويطلب منهم ان يختاروا تلك الاحكام التى يوافقون عليها ، وتعطى درجة لكل شخص على أساس متوسط تقييم درجات المقياس للاحكام التى اختاروها .

وقد قدم ر . ليكرت فى عام ١٩٣٢ تحسينا لهذا المقياس المدرج . وقد شمل تكوين هذا المقياس عددا كبيرا من الاحكام عرضت على مجموعة من المحكمين الذين قدروا اتفاقهم او اختلافهم حول كل حكم بمقياس يشمل خمس درجات . وكانت الاحكام المختارة لدرجات المقياس الاخير هى تلك الأحكام التى كانت درجاتها اكثر اتفاقا مع مجموع الدرجات الأخيرة للمحكمين ذاتهم فى المقياس

الاصلى . وبذلك كانت الدرجة التى يحصل عليها الحكم فى المقياس الاخير يحددها مجموع تقديرات قبوله أو رفضه كل حكم فى المقياس .

ان احدى المشكلات التى تكتنف هذه المحاولات عند تصميم المقياس المدرج هى صعوبة الحصول على درجات قياس وحيده البعد ، بحيث ان كافة الاحكام فى هذا المقياس المدرج لاتقيس الا اتجاها واحدا . ولقد حقق جوتمان . ل تقدما ملحوظا فى هذا المجال فقد استطاع التغلب على هذه الصعوبة باستعمال طريقة أطلق عليها تحليل المقياس المتدرج .

والمقياس الذى صمم بهذه الطريقة كانت له سمة تراكم حتمية بحيث انه إذا قبل الفرد حكما فى الموضع الثالث من درجات المقياس ، فأنه سيقبل حتما احكام الموضعين الأول والثانى فى درجات المقياس نفسه .

وباقامة هذه الاساليب الفنية أمكن استقصاء العلاقات بين العناصر المختلفة للاتجاهات . وسنجد عند كرتش ، وكروتشفيلد ، وبلاتش فى الفصل الخامس من كتابهم Individual in society 1962 عرضا شاملا لهذا الموضوع . وتبين نتائج هذه التجارب أنه رغم تأكيد العلاقة القوية المعقولة بين المقاييس اللفظية لمكونات سلوك الاتجاهات الادراكية والعاطفية والنزوعية ، فثمة علاقة طفيفة تظهر أحيانا بين اجابات الشخص على اسئلة البحث وسلوكه الظاهر .

وعلى نقيض ذلك ، فقد اهتمت بحوث أخرى بمدى استقرار السلوك ازاء عدد من الموضوعات الاجتماعية المختلفة ، بدلا من عدم الاستقرار ازاء الموضوع الاجتماعى نفسه . وقد أثبت باحثون كثيرون استعملوا طريق التحليل العاملى وجود استقرار فى السلوك ازاء مجال واسع من الموضوعات الاجتماعية . وقد شجعت هذه الاكتشافات الباحثين على محاولة ربط استقرار الاتجاهات هذه مع عوامل الشخصية .

ولقد اهتمت الابحاث المعاصرة أيضا بتطور الاتجاهات وظواهر تغير الاتجاهات . وثمة دراسات عديدة ــ صدر معظمها عن مركز يال لدراسة الاتصال وتغير الاتجاهات ــ اهتمت بأثر عوامل الشخصية ، ونظام ونمط المعلومات على تطور الاتجاهات وتغيرها .

وثمة تطور من أهم التطورات التى حدثت فى هذا المجال هو تطور نظريات الاتجاهات التي تقوم على مبادىء مختلفة للتوازن العقلى والتماسك . وقد وضع فستنجر نظرية عظيمة الأهمية فى دراسة تأثير المنبهة ، أكدت أنه إذا تمسك الشخص بعقيدة أو رأى فانه يقف موقف المعارض من أى رأى او عقيدة اخرى يتمسك بها غيره فى الوقت ذاته ، فهذان الادراكان متنافران ، وستتولد قوة لتحل هذا التنافر .

اجماع ــ اتفاق الآراء : **Consensus**

الاجماع خاصية متغيرة للأنساق الاجتماعية التى تتراوح بين جماعات تضم عضوين أو اكثر إلى المجتمعات الكاملة . ويظهر ويتحقق الإجماع عندما يتفق اعضاء هذه الأنساق فى حالة الاتفاق الإيجابى على مسائل أخلاقيه أو إدراكيه ترتبط بأفعالهم ، أو تخص الاشخاص الرئيسيين أو الادوار الرئيسية فى النسق ، والاشخاص والادوار والجماعات خارج النسق . ومن ثم فالاجماع ، يعنى الاتفاق حول القواعد التى ينبغى أن تحكم سلوكيهم فيما يتعلق بأهداف النسق ، وبتحديد الأدوار والمكافآت داخل النسق . وثمة عنصر آخر يكمن فى الإجماع . ألا وهو التماسك الذى يكون الشعور بالذاتية المشتركة المنبثقة من روابط العواطف الشخصية ، أو الخصائص الاصلية (إلسلالية والقرابية والمكانة الاقليمية) ، أو المكانه ، الارتباط المشترك بالأشياء المقدسة ، أو العضوية فى ثقافة عامة أو فى مجتمع محلى مدنى مشترك .

والاجماع هو اتفاق الجماعة كلها فيما يتعلق بمحور النسق ، الذى يتضمن الاشخاص ، والأدوار ، والنظم ، والمعتقدات ، والمعايير ، والتى يؤكدها الإجماع . وفى الإجماع يجوز أن يختلف عنصر التماسك إلى حد ما عن العناصر الادراكية (المعتقدات) والاخلاقية (القواعد) . فقد تقوم حالة من التماسك الفعال بين قطاعات من النسق الاجتماعى لايوجد بينها اجماع فيما يتعلق بالمعتقدات والقواعد .

ووجود الإجماع داخل اى نسق اجتماعى كبيرا كان أو صغيرا ، لايستلزم بالضرورة إجماعا كاملا يضم كل اعضاء النسق ويحكم كل طارىء قد ينبثق داخل

النسق او فى بيئته . وهكذا فقد يكون الإجماع حول بعض الموضوعات اكثر من الاجماع على موضوعات اخرى ، وقد يتغير رأى قطاعات من الناس كانت تشارك فى الاجماع ، ومن ثم تتبدل خطوط الانقسام التى تفصل قطاع الإجماع عن القطاعات المخالفة من حين لحين . وعلاوة على ذلك ، فشدة الصراع او الخلاف حول موضوع معين ، (أى عدم وجود إجماع فى الرأى أو ارجاء الحكم على الموضوع وبدرجات متفاوتة) يمكن ان تختلف اختلافا عكسيا فيما يتعلق بمقدار ومدى الاجماع على نتائج اخرى تصاحبه وفى قوة العنصر المؤثر على التماسك .

والإجماع عنصر ضرورى لقيام النظام الاجتماعى الكبير ، ونعنى بالنظام تنسيق الجهود المشتركة ضمن تجانس نسبى لتنفيذ المهام المقبولة أو المتفق عليها ، والقبول العام لتوزيع المكافآت والحل السلمى النسبى أو إلى حد كبير للصراعات بين الجماعات ، والطبقات والأفراد . وأهمية الإجماع للنظام لاتعنى أن النظام لايمكن أن يقوم إلا إذا استند على الاجماع الكامل ، فالنظام يعتمد على عوامل اخرى مثلما يعتمد على الإجماع ، بل فالإجماع الكامل لايوجد اطلاقا .

فالنظام لإيتطلب إلا وجود إجماع كاف على شرعية النسق التنظيمى الأساسى ، وعلى شرعية أسلوب تولى المسئولين للادوار الرئيسية فى النسق التنظيمى الاساسى ، وعلى القواعد العامة والأوامر الخاصة التى يشرعونها ، وعلى توزيع الأدوار ، والمكافآت ، والتسهيلات التى يقدمونها أو التى هم مسئولون عنها . وإذا وجدت درجة مقبولة من الإجماع على بعض هذه العناصر ، لاسيما العنصرين الأولين فانه يمكن احتواء الصراع حول العناصر الاخيرة وحله حلا جزئيا .

وبأسلوب موضوعى ودقيق ، فلنا ان نتصور الإجماع بإعتباره إجماعا من النظراء أو التابعين فى معارضة الأنساق الأساسية التنظيمية والثقافية . وإذا تحدثنا عن الإجماع بوصفه عاملا فى المحافظة على النظام الاجتماعى فاننا نتحدث عن الإجماع بين الحكام ، وقطاع ضخم وملائم من مؤيديهم من المحكومين . ومن المهم للمحافظة على النظام ان توجد درجة كبيرة من الاجماع بين الصفوة المختارة فى المجالات المختلفة وأتباعهم المقربين ، وأن يقبل هذا الاجماع الصفوة المعارضة واتباعها المقربين ، الذين يندرجون بين المحكومين ، رغم ان قبول هذه الفئة الأخيرة

للإجماع على الصفوة المختارة سيكون على مضض . وعندما يختفى هذا الإجماع المعتدل بين الصفوة الحاكمة والصفوة المعارضة يعاق عمل النسق الأساسى التنظيمى ، ويتفكك النظام السائد .

فالإجماع الكامل مستحيل وفى كل مجتمع يتميز فى شكله ووظائفه فلا مناص من وجود روابط ضيقة متباينة تتمركز على أنساق فرعية داخلية تتكون من طبقات ، وجماعات سلالية ، وانتماءات دينية ، ومجتمعات محلية اقليمية ، وتماسك تماسكا داخليا نسبيا ، مثلما توجد مصالح متباينة للوظائف والمهن والطبقات . وبالمثل تولد انشقاقات الأجيال المتباينة والجماعات القرابية بإستمرار نزعات تقاوم التمثيل الكامل لإجماع موحد على نطاق المجتمع ككل . ويؤدى عدم تكافؤ توزيع السلطة والدخل والاحترام إلى إستياء بعض الذين يعيشون فى قاع المجتمع ولاينالون إلا قليلا من عائد التوزيع من هؤلاء الذين يعيشون فى القطاعات العليا . وتؤدى هذه الثقافات المتباعدة والمصالح المتباينة والإستياءات المتزايدة ، إلى انكار شرعية مايفعله ويشرعه اولئك الذين يحتلون الطبقة العليا والذين يشتغلون الأنساق الأساسية التنظيمية والثقافية ، وهكذا ، فإذا نال اعضاء الطبقة العليا ، إجماع تلك القطاعات أو الجماعات الوثيقة الصلة بمركز المجتمع ، فليس من المحتمل أن يحصل هؤلاء على تأييد مكافىء من القطاع الهامشى .

وعلاوة على ذلك ، ففى كل المجتمعات الكبرى ، بما فيها المجتمعات الضخمة فى العصر الحاضر ، فإن عمليات الاتصال إبتداء من المركز حتى الطرف حافلة بالنواقص ، فإلى جانب العوائق المكانية التى تحول دون توافر الإتصال فى المجتمع من المركز إلى الأطراف ، فإن عدم تكافؤ توزيع القدرات والفرص التعليمية ، والثروات والآمال ، يعنى أن قطاعات معينة فى المجتمع ، وخاصة تلك القطاعات التى لاتنال إلا القليل من توزيع الدخل ولاتتمتع إلا بقدر قليل من الإحترام ، لن تقبل إلا القليل من القيم والمعتقدات الثقافية الرئيسية . ونتيجة ذلك ، فانهم لاينضمون إنضماما كليا إلى نمط الإجماع مثلما يفعل هؤلاء الذين ينالون النصيب الأكبر من عائد توزيع الدخل .

ومع ذلك ، فكل المجتمعات تحظى عادة بإجماع على توزيع السلطة والدخل

والإحترام يكفى ليساعدها على الإستمرار لفترة طويلة جدا بدون حرب أهلية وبدون ثورة . وعلى العموم ، فالحقيقة الخامة للضبط القهرى الفعال تميل إلى اضفاء الشرعية الذاتية على هذا القهر ، حتى أن مايبدو قوة غاشمة يكتسب جو الشرعية . وإذا كان المسئولون عن الأدوار الرئيسية فى النسق الرئيسى التنظيمى قادرين على الاستمرار فى مسئولياتهم ، مع فاعلية معتدلة فى المحافظة على أنفسهم ، وتنفيذ سياستهم ، فانهم ينجحون أيضا فى فرض أنفسهم فى مجتمعاتهم ، ومن ثم ايجاد قدر معين للإجماع حولهم .

ومثل هذا الإجماع لن يكون أبدا شاملا وعاما ، ولن يستمر إلا لفترة محدودة فكثير من مظاهر الحياة فى أى مجتمع تعيش بعيدا عن الإجماع الذى يتمركز حول التوزيع الشامل للسلطة والدخل والإحترام ، وتتركز اهتمامات كثيرة عند أغلب اعضاء المجتمع حول موضوعات تبدو لاعلاقة لها بالنسق الرئيسى التنظيمى . فثمة مجالات فى الحياة الاجتماعية لاتدخل فى نطاق الاجماع أو الشقاق . وهى من الناحية العملية غير ملائمة لتحقيق الاجتماع الاجتماعى على مستوى المجتمع الكبير . فالجهل ، واللا مبالاة ، على مستوى المجتمع والانعزال ، عناصر ضرورية فى بقاء النظام فى بعض الدول رغم انها شهادة على أن الإجماع ناقص . ومن ثم فالنظام فى المجتمع كله لايتطلب إجماعا مستمرا وعاما . وحقا فالإجماع حول موضوع النقاش لن يكون ملحا إلا إذا كان الموضوع يختص بالتوزيعات العامة .

ومع ذلك ، فان هذا الاجماع الجزئى المتذبذب والمتشعب والمتقطع قد ينهار أحيانا ، عندما يخفق النسق الرئيسى التنظيمى فى المحافظة على مستوى الفاعلية المقبول . وعندما تفشل الصفوة فى مواجهة المطالب التى أشبعها النسق فيما مضى أو عندما لاتستطيع الصفوة مواجهة المطالب الجديدة ، فإن الاجماع يتعلق بشرعية مسئوليتها وانجازاتها يتعرض للضعف فى نقاط حاسمة . وتنال الصفوة المعارضة تأييدا كبيرا ، ويصير رفضها للمساهمة داخل إطار الاجماع السابق العملى اشد قوة . وتحدث الثورات والإنفصالات ، وتتغير الصفوة القديمة ، ويعاد تشكيل الأنساق الرئيسية التنظيمية ، وبعد مرور وقت معين يتكون إجماع جديد لمواجهة نفس التحديات والعوائق القديمة .

الاستهلاك المظهرى : Conspicuous Consumption

وقد استخدم ثورستين فبلن هذا المصطلح كثيرا فى كتابة The theory of leisure Class 1899 ليصف الاستعمال المبدد للادوات الثمينة التى لها قيمة فعلية . على أن التظاهر يعنى الرغبة فى اظهار الثروة والوضع الطبقى بالتوحد بالطبقة المرفهة . وهكذا فالاستهلاك المظهرى ومايتبعه من طبقية مثيرة للحقد ، لانغماس افراد الطبقة المرفهة فقط فى هذا السلوك ، ولايسع الاخرون إلا إن يحسدوهم عليه أو يقلدوهم تقليدا باهتا ، وهم بذلك يقولون مالايفعلون .

الأسـرة : The Family

ان فهم الاسرة على أنها مجموعة طبيعية مكونة من الوالدين وابنائهما وتربط بينهم مجموعة علاقات فسيولوجية وسيكولوجية لهو فهم خاطىء لمعنى الاسرة الانسانية ، لان الاسرة التى تقوم على علاقات فسيولوجية وسيكولوجية بحته وجدت قبل ظهور الانسان فوق هذا الكوكب . ونجد اشكالا مشابهة لها عند الطيور والحيوان . وهذا التشابه بين الأسرة الانسانية والأسرة الحيوانية فى الوظائف البيولوجية والفسيولوجية ، لايفسر لنا قيام الأسرة الإنسانية . ولا التغير اللاحق وتركيبها ووظائفها واشكالها .

ويحق لنا أن نأخذ برأى كلود ليفى ستراوس بأن ارضاء الغرائز الجنسية أو الميول العاطفية ليست هى الأسس التى تقوم عليها الاسرة ، ولكن الضرورة الاقتصادية هى الدافع الأول لتكوين الاسرة . وتدفع هذه الضرورة التى تنتج عن طبيعة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للجماعة إلى تقسيم العمل بين الذكر والانثى فى كافة شئون الحياة سواء فى البيت أو الحقل أو المرعى أو الحرب . وكما قسم العمل على أساس الجنس قسم على أساس السن بين الكبير والصغير ، واصبح للاب عمله ودوره فى الجماعة وللأم عملها ووظيفتها التى تقوم بها وللشيوخ واجباتهم وللابناء حقوقهم .

ويقول كلود ليفى ستراوس ان تقسيم العمل يخلق حالة من الاعتماد المتبادل بين الرجل والمرأة ، ويضطرهم إلى تخليد أنفسهم وتكوين الاسرة .

فالأسرة الإنسانية نظام اجتماعى يتكون من مجموعة من الافراد تربطهم مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية . وقد عرف لوى الأسرة بأنها وحدة اجتماعية تقوم على الزواج ، كما أشار كوبر إلى أن الرجل والمرأة يكونان نواة الاسرة باندماجهما فى وحدة واحدة ماديا وروحيا ، كما عرف برجس الاسرة بأنها مجموعة من الافراد يرتبطون بروابط الزواج أو الدم او التبنى ويشغلون مسكنا مستقلا ، ويتعامل كل فرد من اعضائها مع الاخر ، كل حسب دوره الاجتماعى سواء أكان الزوج او الزوجة أو الاب او الأم او الابن او الابنة او الأخ او الأخت .

ولقد ادى استخدام الآلة إلى تحول الأسرة من وحدة انتاجية إلى وحدة استهلاكية قوامها الفرد ، وعجزت الاسرة لضيق مكانها وقلة افرادها وقيام العمل الجديد على المواهب الفردية عن متابعة التغيرات الاقتصادية المتلاحقة ، مما أدى، إلى فقدان الاسرة لوظائفها الاقتصادية والتربوية والاجتماعية الواحدة تلو الاخرى ، وقيام هيئات وأنظمة بهذه الوظائف خير قيام . ولم يتبق للأسرة المعاصرة من وظائفها التقليدية إلا وظيفتا الانجاب والتنشئة الاجتماعية للصغار ، بل واضطرت إلى تعديل هاتين الوظيفتين الاساسيتين ، بما يتلاءم والتغير الاقتصادى الحديث وأصبحت الأسرة تعتمد فى وجودها على العمل الثابت خارج البيت ، وعلى الأجر المنتظم الذى يتحصل عليه اعضاؤها .

ويقرر بعض علماء الاجتماع ان نمو التحضر والصناعة قد ارتبط بإنكماش حجم الاسرة واصبحت الاسرة تضم الزوجين وابنائهما الذين سرعان ماينفصمون عن الوالدين عند الكبر سواء بسبب الزواج أو العمل خارج المدينة ، وتميزت العائلة الزواجية بقلة عدد الابناء وانتشار الاتجاهات الديمقراطية ، وتحطيم سلطة الاب المطلقة وافساح المجال أمام المرأة للعمل خارج البيت ، وأصبحت مساوية له اجتماعيا واقتصاديا واستقلت إلى حد ما عن سيطرته ونفوذه . وازدياد التخصص المهنى وازدياد الحراك الاجتماعى لاعضاء الاسرة مما ادى إلى اضعاف وحدة الاسرة وتفتتها .

اغتــراب : Alienation

وبوجه عام ، يدل الاغتراب على حالة نفسية واجتماعية للفرد تقتضى شعوره بالغربة عن مظاهر معينة فى وجوده الاجتماعى .

« وبشكل أو بأخر ، فتصور الأغتراب يسيطر على الأدب المعاصر وتاريخ التفكير الاجتماعى » . ولقد قيم ميلفن سيمان أهمية هذا التصور فى التحليل الاجتماعى . وكما عرض نيسبت جوزفسون نظرة عامة عن الفكر الاجتماعى المهتم بالاغتراب فى كتابيهما :

R. Nesebet : the quest for Community, E. and M. Gosephson (Eds): Man alone: Alienation in modern society 1962.

وترجع الصعوبة إلى حد ما فى تحليل هذا التصور تحليلا ملائما يتمشى مع الحاجة إلى تقديم اداة تصورية محددة وواضحة للبحث الاجتماعى — الى إن هذا المصطلح يرد فى كتابات متباينة أشد التباين ، تشمل علم الاجتماع ، والفلسفة الاجتماعية والسياسية ، والتحليل النفسى ، والفلسفة الوجودية . وثمة صعوبة أخرى ، هى أن الأغتراب تصور من التصورات التى ترد كثيرا فى علم الاجتماع ويستعمل فى تفسير أنواع السلوك الاجتماعى كلها تقريبا ، ولايفلح عادة فى تفسير شىء منها . ويستخدم هذا التصور مثلا لتفسير الشعوبية ، والمرض النفسى ، والوعى الطبقى ، والصراع فى مجال الصناعة ، واللامبالاة السياسية ، والتطرف . وثمة محاولات حديثة نسبيا تبغى اعطاء التصور معنى اكثر تنظيما واكثر فاعلية .

وكان كارل ماركس ، أول من أدخل هذا التصور فى النظرية الاجتماعية ، مسايرا ومنقحا للتصور المثالى للأغتراب كما تمثله فى كتابات هيجل . وقد بين ماركس ، أن التنظيمات الاجتماعية التى تكون سياق العمل فى المجتمع الرأسمالى تدفع العامل إلى الأغتراب لفشلها فى أن تقدم له فرصا لوجود له معنى وخلاق . فالعامل قد صار مغتربا لأنه لايقبل عمله قبولا حسنا ، ولايتأتى منه عائد كامل . ومن ثم فالعامل قد اغترب عن الجوهر الحقيقى للانسان . ويبدو أن رأى ماركس فى هذا الصدد هو أن تخصيص الادوار ، وعدم المساواة فى توزيع السلطة ، والمكافآت الاقتصادية — وهما من سمتا الانتاج الصناعى المتقدم — يمنعان العامل من ممارسة قواه الخلاقة الكاملة والانطلاق بامكانياته الكامنة فى ضبيعته .

وقد حدد إريك فروم فى كتابه The Sane Society خصائص الاغتراب فى عدد من المظاهر ، مقتربا فى ذلك من ماركس إذ يرى فروم ان الاغتراب هو حالة

لايمارس الإنسان فيها ذاته بوصفه الإنسان المبدع خالق قدرته الذاتية وثروته، ولكنه الإنسان الفقير المحتاج إلى قوى خارج ذاته .

وقد بدأ التأكيد المعاصر على الأغتراب منذ دراسة سيمان التى اشرنا اليها من قبل . فقد واجه سيمان تراثا كبيرا غامضا مبهما ، فحاول أن يعزل الاستعمالات المختلفة للمصطلح ، وفى الوقت ذاته يعيد صياغة هذه الاستعمالات بأسلوب يتيح استعمالها فى دراسات تجريبية اكثر دقة ، مع الاحتفاظ بالمعنى الأصلى لها بقدر الامكان . وكان المعنى الأول الذى عزله هو (الضعف) ، ويعنى أن الاغتراب هو شعور الفرد بأنه لايستطيع التأثير فى (المواقف) الاجتماعية التى يتفاعل داخلها مع الاخرين . وكان المعنى الثانى (الخواء) ، وهو شعور الفرد بأنه يحتاج إلى هاد للسلوك ، أو انه يفتقد الايمان . والمعنى الثالث فقد المعايير السوية ، ويعنى شعور الفرد بأن عليه أن يلجأ إلى وسائل غير شرعية لتحقيق اهدافه . والمعنى الرابع هو (العزلة) وتعنى الشعور بالغربة عن اهداف المجتمع الثقافية . والمعنى الخامس والاخير هو الاغتراب الذاتى ، وهو عجز المرء عن اكتشاف الانشطة التى ترضى ذاته . ويرى سيمان ان كل معنى من هذه المعانى مستقل عن المعانى الاخرى . وقد قيس كل معنى من هذه المعانى بمقاييس مختلفة للاتجاهات كما تمكن كل منها من مواصلة التنقيب عن المضمون الاجتماعى للاغتراب . بيد أن هذه المحاولة لجعل الاغتراب ، تصورا اكثر موضوعية ، وقابلا للبحث الامبريقى ومتحررا من افتراضات قيم معينة ، قد لاقت هجوما عنيفا من عدد من علماء الاجتماع الذين يعتقدون ان علم الاجتماع ينبغى أن يصوغ احكاما وقيما لكيفية الحياة الاجتماعية .

وكما أشرنا من قبل ، فقد جعلت الصياغات الحديثة مصطلح الاغتراب محدودا بمستوى اتجاه السلوك الاجتماعى الذى بدوره ، يفترض بأنه يرتبط بخصائص معينة للبناء الاجتماعى ، فمثلا ، الاتجاه الماركسى التقليدى يرى أن الظروف الاجتماعية المفضية إلى إظهار مشاعر الاغتراب ، هى نمط الانتاج الصناعى . ويرى كرونهوسر ان ضمور الجماعات شبه المستقلة ، وهى جماعات مثل الروابط ذات العضوية الارادية ، والمجتمعات المحلية ، وروابط الجوار تولد مشاعر الاغتراب بين أعضاء مجتمع يعانى من هذا الضمور .

ويرى أخرون ان النمو الكلى فى المجال الاجتماعى ومايستتبعه من ضعف الشعور بالشخصيةأثناء تبادل العلاقات الاجتماعية هو العامل الاساسى الذى يولد الاغتراب .

وقد اهتم عدد من الباحثين بالاغتراب كما يتجلى فى بيئات تنظيمية محدودة وخاصة ، وبينوا صعوبة تفسير اسباب شعور الفرد بالاغتراب خارج هذه البيئات . وترجع صعوبة هذه النزعة إلى عدم قبول هؤلاء الباحثين للاستعمالات السابقة لهذا المصطلح والتى ترى أن بالإغتراب حالة عامة تمس المجال الكلى للادراك الاجتماعى للفرد . و بالمثل يرى دين Dean ان الاغتراب قد يكون متغيرا ملائما لتفسير موقف حيث يجرب الفرد درجات مختلفة من الاغتراب فى بيئات اجتماعية مختلفة .

الانتساب الثنائى : bilateral

مصطلح يستخدم لوصف انتقال السلالة أو حقوق الملكية من كلا الابوين ذكر أو أنثي ، دون تفضيل أحد الوالدين على الآخر ويستخدم هذا المصطلح تمييزه عن مصطلح احادية النسب .

علم الإنسان ــ الانثربولوجيا : Anthropology

الانثربولوجيا مصطلح شامل يضم فروعا تدرس (أ) التطور الاحيائى والثقافى للإنسان ، (ب) والعلاقات البيولوجية بين المجتمعات المحلية والمعاصرة ، (ج) والمبادىء التى توجه العلاقات الإنسانية فى كل المجتمعات القائمة حاليا لاسيما تلك المجتمعات التى تعيش على اطراف العالم الصناعى . وترتبط هذه الدراسات البيولوجية والاجتماعية معا بتركيزها المشترك على الإنسان ، وهو الحيوان الاساسى الذى يستعمل الثقافة ، ولكنها تتباعد فيما بينها بقوى متنابذه وتدفع بعض الدارسين إلى الاهتمام بالعلوم الاجتماعية من جانب ، بينما تدفع الآخرين إلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية من جانب آخر . واستعمل هذا المصطلح لأول مرة فى اللغة الانجليزية سنة ١٥٩٣ كما ورد فى قاموس اللغة الانجليزية الحديث (N.E.D) ويعنى علم الانسان بالمعنى الواسع . وهذا يتفق مع الاستعمال الشائع الآن .

لكن استعمال هذا المصطلح فى مجالات متضاربة قيد معناه الاصلى بدراسة الطبيعة الفيزيولوجية والنفسية للانسان ثم اقتصر فيما بعد على دراسة طبيعته الحيوانية وحدها .

والفروع العامة للدراسات الانثربولوجية هى :

الانثربولوجيا الفيزيقية وتهتم بدراسة الشواهد الاحيائية البيولوجية للانسان ، وقد بدأ هذا الاتجاه بدراسة وضع الانسان بين أنواع الحيوان . وحاول أن يتقصى أصله ، وتطوره من خلال الدراسات المقارنة للحفريات والرئيسيات الحديثة والتى لم تندثر بعد . كما اهتم بفحص طبيعة التباين بين السلالات ، ودرس تأثير عوامل البيئات الطبيعية المختلفة على قدرة الإنسان على التكيف وقابليته للتغير ، وعلى ازدياد وانخفاض عدد السكان .. الخ . ويستعمل عالم الانثربولوجيا الفيزيقية اساليبه الفنية الخاصة ، لكنه يعتمد على علوم أخرى ، وخاصة التشريح ، وعلم الاثار ، والكيمياء الحيوية ، وعلم النبات ، وعلم السلالات ، وعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) ، وعلم الحفريات .

علم الاثار : ويهتم بتصنيف البقايا المادية للمجتمعات الانسانية على أساس وظيفتها وتتابعها الزمنى ومحتواها الثقافى تمهيدا لصياغة تعميمات تفسيرية لتطور المجتمعات .

الانثربولوجيا الاجتماعية : وهى دراسة اجتماعية للقيم والقواعد الانسانية وسلوك الانسان فى انماط مختلفة من المجتمع . ونظريا يشمل الاهتمام الانثربولوجى كل المجتمعات الانسانية لكنه اقتصر عمليا على دراسة تلك المجتمعات أو جوانب من المجتمع يمكن أن تدرس كوحدات صغيرة بالملاحظة المباشرة .

وقد اتهم ميردوك الانثربولوجيا الاجتماعية بأنها لاتعد من الدراسة الانثربولوجية اطلاقا .

وقد اتخذ علماء الانثربولوجيا الامريكيون هذا الموقف المتطرف من الانثربولوجيا بانصرافهم إلى دراسة الانثربولوجيا الثقافية (وقد سموها علم الثقافة والاثنولوجيا) ويرون ان الثقافة هى المحور الصحيح للدراسة وليس السلوك الإنسانى . فالثقافة لا المجتمع هو السمة المميزة للانسان .

وقد صحح نادل هذا التضارب وبين فى بحث مفيد أن الانثربولوجيا لها بعدان دائما . بعد ثقافى وبعد اجتماعى .

الانثربولوجيا الفلسفية ، او فلسفة الانثربولوجيا ، هى فرع ثانوى من نظرية المعرفة يهتم بمناهج البحث العلمى . وهى لاتهتم بالوسائل وانما تهتم بمنطق بناء النظرية أو التحقيق . وقد لاحظ ليتش بجدارة ان لعبة بناء نظريات جديدة على حطام نظريات قديمة مرض متفش بين علماء الانثربولوجيا الاجتماعية ، وثمة مراجع كثيرة فى هذا المجال ، يمكن للقارىء أن يرجع اليها .

دراسة الثقافة المادية : التى تسمى عادة التكنولوجيا ، وهى تخدم كلا من علم الآثار والانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية ، وتدرس الثقافة المادية عناصر أعمال الانسان اليدوية ، وعمليات الأنتاج ، وارتباط كل ذلك ببيئات الانسان المختلفة ، لمعرفة تاريخ هذه العناصر ، وتصميمها وكفائتها وتأثيرها الاجتماعى وتوزيعها .

البنـاء الاجتماعـى : Social Structure

يقصد بالبناء الاجتماعى انماط النظم والروابط فى مجتمع معين فى جماعة خاصة فى زمن معين :

أ ــ وهذه النظم والروابط معقدة التركيب عادة ، وخاصة فى المجتمع الحديث ، لذلك نجد أننا ندرس فى مصر مثلا التنظيم الاجتماعى للمصنع ، كما تدرس نقابات العمال والاحزاب السياسية فى بلدان اخرى ، ويحاول الدارسون معرفة أثر هذه التنظيمات الاجتماعية فى حياة المجتمع بدلا من محاولة فهمها هي فى علاقاتها المتبادلة معا .

ب ــ ان انماط التنظيمات أو انماط النظم ليست جامدة أو ثابتة اطلاقا ، فالبناء الاجتماعى متغير فى حركة دائمة ، يخضع لتغيرات وتعديلات أساسية تساعد على الاستجابة مع الظروف المتغيرة ، لتعيد استقرار المجتمع ، او يتفكك البناء رد فعل لهذه الظروف الجديدة لتكوين نظام اجتماعى جديد .

المقصود بمفهوم اجتماعى : Social

يعنى مفهوم « اجتماعى » ان يشارك الفرد فى المجتمع اى يؤدى دورا فى حياة المجتمع ، ويراعى قواعده العامة وقوانينه ، وتبدأ هذه المشاركة من مراعاة قواعد اللياقة والاداب العامة إلى التوافق مع قوانين الزواج وغير ذلك من القوانين :

أ ـ يجب ان نميز بين اجتماعى وحسن العلاقات ومودة ، فزعيم العصابة عضو فى جماعة ، ولكنه ليست اجتماعيا . وليس بحسن المعشر .

ب ـ وتعنى كلمة اجتماعى احيانا التقدم إلى اقصى حد ، ولاتعنى فقط المحافظة على رفاهية المجتمع ، فالباحث فى امراض السرطان أو الملاريا يقوم بنشاط اجتماعى على مستوى عال .

بربرى Barbarian

بربرى Barbarisn

مصطلح يستخدم عادة ليصف الشخص الفظ أو غيرالمتمدين ، ولكنه استخدم اصلا ليصف غير اليونانى أو غير الرومانى . وقد شاع المعنى الاجتماعى لهذا المصلطح بعد استعمال لويس مرجان له ومن ثم استعملت كلمة البربرية لتدل على مرحلة متوسطة فى التطور الاجتماعى للجنس البشرى . وقد اكد مورجان ان ثمة دليلا يقينيا على أن مرحلة التوحش قد سبقت مرحلة البربرية فى كل قبائل الجنس البشرى ، كما عرف أن البربرية قد سبقت الحضارة . .

وقد اضاف مورجان « ان تاريخ الجنس البشرى متماثل فى مصدره ، متماثل فى التجربة ، متماثل فى التقدم » . وقليل من علماء الاجتماع المعاصرين يوافقونه على هذا القول . وعلاوة على ذلك ، كانت مراحل التطور الاجتماعى واضحة عنده وضوحا كاملا ، ولكن العلماء المعاصرين لايرونها بمثل هذا الوضوح وتصف مرحلة التوحش الفترة التكوينية الطويلة للوجود الانسانى ابتداء من العصور الاولى إلى اكتشاف الاختراعات التى مهدت السبيل لظهور البربرية ، وتتميز مرحلة البربرية بالسمات الاربع التالية :

استئناس الحيوان ، والتعرف على زراعة الحبوب واستعمال الاحجار فى البناء ،

واختراع طريقة لصهر الحديد . ولكن نشأة الزراعة وماصاحبها من استقرار فى طريقة الحياة هما سمتا المرحلة البربرية . ولكن مورجان قسم المرحلة البربرية إلى ثلاثة مراحل فرعية . فالمرحلة الأولى من هذه المراحل التى تميز نهاية المرحلة الاخيرة من التوحش ، تتميز باختراع الفخار . وكانت المرحلة المتوسطة هى فترة استئناس الحيوانات فى نصف الكرة الشرقى وزراعة الأرض باستعمال الرى فى نصف الكرة الغربى . ويميز صهر الحديد واستعماله ظهور المرحلة البربرية المتأخرة . و التى اختتمت بظهور احرف الكتابة الابجدية . وهكذا فصهر الحديد ، واستعمال الكتابة وصنع الآلات المعدنية هى مظاهر تميز بدء الحضارة .

ولقد استفاد كتاب كثيرون من منهج مورجان ، وعدلوا فيه أو أضافوا اليه . ومن أشهر هؤلاء جوردون تشايلد الذى أكد ، ان استخدام الاساليب الفنية فى انتاج الطعام علامة مميزة للتغير من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية . وقد شك تشايلد فى ان اسلوب الكتابة الذى رآه مورجان انه الاختراع الذى يميز البربرية عن الحضارة ، واثبت ان هذا يعنى اعتبار قبائل المايا الهنود الحمر من القبائل المتحضرة رغم أنهم لم يخترعوا العجلة واعتمدوا فى الزراعة على وسيلة حرق الاشجار أو النباتات المنبثقة من الأرض وزرع النباتات الجديدة بدلا من فلاحة الأرض .

والحقيقة ان تقسيم تاريخ المجتمع الانسانى إلى هذه المراحل الثلاث ليس أمرا سهلا اطلاقا كما اعتقد مورجان . لكن الانثربولوجيين يستعملون مصطلحاته . ومع ذلك ، فأحيانا . مايشار إلى مرحلة التوحش ، لكن المصطلح استعمل استعمالا سيئا لتعريف أعضاء المجتمع المتخلف الذين يملكون وسائل عمل بدائية ، واستخدم مقابل الشعب المتحضر . أما المصطلح « البربرى » ، مثله مثل البربرية ، فلا يستعمل اليوم إلا قليلا .

بورجوازية : Bourgeoisie

برجوازى وبرجوازية (كلمتان اشتقتا من الكلمة اللاتينية Burgensis) وهما مصطلحان اصلا من اللغة الفرنسية ظهرا فى العصور الوسطى ويدلان على الطبقة الوسطى عند المواطن الفرنسى ، لاسيما الرجال الاحرار سكان المدينة . ويتميز هؤلاء الناس عن الفلاحين من جانب والنبلاء من جانب آخر .

وقد استخدم كارل ماركس المصطلحين ، ووضع البرجوازية مقابل البروليتاريا . وبين ان ثمة علاقة عداوة متزايدة بين هاتين الطبقتين . وكان يرى أن هذه العداوة ستؤدى فى النهاية إلى تحطيم البرجوازية واقامة ديكتاتورية البروليتاريا . وقد طبع استعمال ماركس لهذا المصطلح استعمالاته اللاحقة بطابعه ، على أن ثمة اختلافات طبيعية بين مايقصده ماركس بدقة من هذا المصطلح وبين استعمال اتباعه الذين يدينون بالولاء لأفكاره . وهكذا فقد يشير المصطلح بأسلوب عام إلى الطبقات الوسطى لكن عادة مايدل على غير طبقات البروليتاريا من جميع الانواع . واحيانا يدل على الاحزاب السياسية غير الاشتراكية . وعادة مايوصف المجتمع الرأسمالى بأنه مجتمع بورجوازى .

البيروقراطيــة : Bureaucracy

يستخدم هذا المصطلح ليعرف مهام واجراءات الادارة كلفظ شامل يطلق على هيئة الموظفين الاداريين . وعادة مايشير إلى عدم كفاءة وعدم صلاحية ممارسة القدرة من جانب الموظفين ، وهكذا أصبح المصطلح يدل على أساءة استعمال السلطة .

ولقد نسب الاستعمال الاول للمصطلح (Bureacratie) إلى الاقتصادى فنسنت دى جورناى . وبتأثير زيادة تدخل الدولة ، شاع استخدام هذا المصطلح بين الكتاب الأوربيين فى القرن التاسع عشر ، واستعمل فى المانيا المصطلح بيروقراطى ليدل على موظفى الحكومة وفى انجلترا شاع استعمال المصطلح منذ ١٨٣٠ أثناء مقاومة مركزية الاجراءات التى تتخذ لاغاثة الفقراء ولرعاية الصحة العامة . ويرى توماس كارليل أن البيروقراطية هى الأزعاج الوارد من أوربا . وكتب جون ستيوارت ميل عام ١٨٦٠ ، لقد أصبح عمل الحكومة فى أيدى أناس مهنتهم الحكم ، وهذا هو جوهر ومعنى البيروقراطية .

وكانت الدراسة المؤيدة لهذا المفهوم . هى دراسة جاتنوموسكا والتى ترجمت إلى الأنجليزية عام ١٩٣٩ بأسم The Ruling Class وقد أوضح الكاتب ان البيروقراطية عنصر اساسى فى حكم الامبراطوريات الكبيرة حيث ينبغى أن تصنف النظم السياسية كلها اما إلى نظم اقطاعية او بيروقراطية . ولقد وسع

روبرت ميشل من مفهوم البيروقراطية ، فلم يعد يقتصر على الدولة بل شمل الاحزاب السياسية وبين أن البيروقراطية تنشأ من الضروريات الادارية التى يقتضيها تسيير دقة تنظيم كبير وتدعيم قدرة الطبقة المسيطرة فى الحزب .

ومع احتفاظ المصطلح بمعنى هيئة الحكام فى الأمبراطورية السابقة على الدولة الصناعية وضع ماكس فيبر دراسة اجتماعية معاصرة لمعنى البيروقراطية جرد فيه هذا المصطلح مما يشوبه من نقائص . وأكد ان البيروقراطية امر لامفر منه لبلوغ أهداف اى تنظيم فى المجتمع الصناعى عن طريق العقل . وقد ضمن فيبر هذا النمط المثالى او التعريف الواسع للبيروقراطية الخصائص التالية : مجالات محددة للتشريع الرسمى تحكمها القوانين والنظم ، وتنظيم الوظائف على اساس التدرج الواضح للسلطة ، وتحتاج الادارة التى تقوم على وثائق مكتوبة والتى توجه حسب الاجراءات الادارية إلى تدريب خاص ، وموظفين رسميين لايدينون بالولاء لأحد والذين يعينون حسب المؤهلات الفنية . وعدم تخصيص الموظف الرسمى الذى يستخدم فترة عمل كاملة ويخضع لنظام صارم على وظيفة واحدة او وسيلة ادارة معينة . وفتح المجال للترقى أمام الموظفين الرسميين بالاقدمية المطلقة او الاختيار ، واعطاء مرتب ثابت ومعاش لكل درجة .

ولقد اخذ علماء الاجتماع فيما بعد مفهوم ماكس فيبر وجعلوه نقطة بداية ولكنهم لم يتقبلوا تحديد تعريفه لمفهوم البيروقراطية . وثمة اتجاه من علماء الاجتماع ، أكد أن النمط المثالى لكفاءة الأدارة عند فيبر يستلزم سمات تحمل فى طياتها معانى عدم الكفاءة التى يعبر عنها دائما مصطلح البيروقراطية وهكذا بين ميرتون فى مقال له "Bureaucratic structure and personality "1941 ، ان مطالبة الموظفين الرسميين بتطبيق النظم البيروقراطية ادى إلى نشأة الروتين الحكومى ، والوقوف موقف الدفاع ، والجمود . وظهور مشكلات فى التعامل مع الجمهور . ولقد بلغ هذا الاتجاه قمته عند كروزير حيث ركز المؤلف على مظاهر استبعدها فيبر من نمطه المثالى واستخدم البيروقراطية لتدل على « تنظيم لايستطيع ان يصحح سلوكه بالتعلم من أخطائه » .

ولقد تزايد توحد البيروقراطية مع نمط التنظيم بدلا من أساليب الأدارة فى أعمال

علماء مثل موسكا Mosca ، الذين اكتشفوا فى دراستهم للامبراطوريات (الحكومات الاستبدادية) ان البيروقراطية والنظام السياسي يرتبطان ارتباطا وثيقا حتى أن هؤلاء العلماء غالبا مايستعملون مصطلح البيروقراطية ليدل على نسق الدولة كله .

وثمة استعمال شائع متزايد ساوى بين البيروقراطية والتنظيمات الكبرى ، وهو يعكس بلا ريب الحقيقة القائلة بأن السلطة النيابية ونظم المكتوبة ، والتدرج فى الوظائف كل هذا يسود التنظيمات كلها ولايقتصر على الادارة . ولقد ساير تالكوت بارسونز استخدام هذا المصطلح ، وبين أن الخصائص البنائية الاكثر بروزا فى المجتمع الغربى الحديث هى ظهور تنظيمات كبيرة نسبيا لها وظائف تخصصية ، تميل إلى أن نطلق عليها بيروقراطية بمعناها الواسع . بيد أن ب . م . بلو وسكوت حاولا أن يحتفظا بمعنى اكثر تحديدا للبيروقراطية ، واستعملا المصطلح استعمالا محايدا ليدل على « المظاهر الادارية للتنظيمات » .

ولقد ادت التغيرات السريعة فى التنظيمات فى القرن الماضى إلى هذه التعديلات فى معنى البيروقراطية ، وقد احتفظ المصطلح بفائدته فى الدلالة على مجموعة كبيرة من المشكلات المترابطة إلا أنه لايجوز أن يستخدم استخداما دقيقا الا إذا عرف تعريفا دقيقا للغاية .

التثقيف Acculturation

عملية بها يكتسب الفرد او الجماعة الخصائص الثقافية من الآخرين أثناء الاتصال المباشر والتفاعل . ومن وجهة النظر الفردية فتلك عملية تعلم اجتماعى تماثل التنشئة الاجتماعية للبالغ حيث يلعب الاتصال اللغوى دورا اساسيا . ومن وجهة النظر الاجتماعية يتضمن التثقيف انتشار قيم وأساليب ونظم خاصة وتحويرها عند اختلاف الظروف . وقد يؤدى التثقيف إلى صراع ثقافى .

تجريد : Abstraction

من العسير اعطاء تعريف مقبول للتجريد لان استعماله يفترض غالبا تصورا مفرطا فى البساطة عن كيف يرتقى التفكير وكيف يسير بناء النظرية . ولنا ان

نقول ان التجريد يحدث عندما نختار سمات من بين الظواهر التى ندرسها ، والتى نرغب فى وصف طبيعتها ، لتكون أساسا لتصنيف هذه الظواهر . وللمصطلح (تجريد) معنيان رئيسيان :

١ ـ يشير إلى حقيقة أن الانتخاب ضرورى عند وصف او تفسير أى شئ . فكل نظرية ، سواء أكانت فى العلوم الاجتماعية أم فى العلوم الطبيعية ، تغفل بعض المتغيرات لضآلة أهميتها ، لو يبدو أنها كذلك بالنسبة للظواهر التى تفسرها النظرية أو تتنبأ بها . وتزداد النظرية قوة بقدر معرفتها بالظروف التى تعد فيها المتغيرات المهملة مهمه أم لا .

٢ ـ ويشير التجريد فى العلوم الطبيعية إلى تصورات مثل الغاز الكامل ، والسرعة الفيزيقية ، أما فى العلوم الاجتماعية فيدل على تصورات مثل الفعل العقلى الكامل أو الجماعة المتكاملة تكاملا تاما . وتستخدم هذه التصورات باعتبارها دلائل منطقية أو ابنية لتحليل وايضاح حوادث متراكبة ، واجراء التنبؤات .

تجنب : Avoidance

نلاحظ ـ فى مجتمعات كثيرة ـ ان الاشخاص او الجماعات الذين يتفاوتون فى مراتبهم يتجنب بعضهم بعضا . وهذا التجنب انما هو طريقة للسلوك ، تعبر دائما عن الاحترام . ورغم ان التجنب يتضمن طرفين ، وان تحريماته تلزم الطرفين ، فعادة مايكون واجب احد الطرفين تجنب الطرف الاخر ، فمثلا قد يكون واجب الرجل ان يتجنب حماته ، ويختلف مدى التجنب من مجتمع لاخر وقد يتضمن تحريمات مثل عدم تناول الطعام من نفس الطبق ، أو عدم زيارة قرية الطرف الآخر .

التسلط : Authoritarian

النزعة التسلطية : Authoritarianism

كلمتان شائعتان الاستعمال ، وسلطت عليهما الاضواء عندما نشر كتاب The authoritarian Personality 1950 ويدل هذا المفهوم على متغيرات تسعة ،

متداخلة فيما بينها ، لكن الترابط بينها واه : التمسك بالتقاليد (التشدد فى التمسك المتصلب بقيم الطبقة الوسطى التقليدية) ؛ والخضوع للسلطة (اتجاه خضوع لايتفق مع السلطة الاخلاقية المثالية للجماعة الداخلية) ؛ وعدوان السلطة (النزعة إلى الترقب بحذر ؛ وإلى اتهام ونبذ وعقاب اناس الذين يعتدون على القيم المتفق عليها) ؛ ورفض الذاتية (معارضة ماهو ذاتى وخيالى وشاعرى) ، والإيمان بالخرافات وعبادة الأصنام (الإيمان بالقوى الغيبية التى تسيطر على مصير الفرد ؛ والتعود على التفكير فى مقولات جامدة ، بالقوة والعنف (الاهتمام بالتسلط والخضوع) ؛ القوة ـــ والضعف ؛ والقائد ـــ والتابع ، والتوحد بآشكال القوة . والتأكيد على صفات الأنا التقليدية ؛ (والمبالغة فى أهمية القوة والضعف) ؛ والتخريب والسخرية (عداوة شاملة ؛ وحط من قدر الإنسان) ، والاسقاطية (التعود على الإيمان بدوام الأشياء المتوحشة والخطرة فى العالم ؛ واسقاط الدوافع والحوافز اللاشعورية العاطفية على الخارج) ؛ وجنس (المبالغة فى الاهتمام بممارسة العملية الجنسية) .

ولاينبغى أن نفترض ان هذا التصور له معنى واحد عند مختلف الكتاب ، وعلينا أن نفحص بدقة مدى جدارة كل اختيار لنزعة التسلطية .

التغير الاجتماعى : Social change

يتضمن التغير الحركة والتعديل والتحوير والصيرورة ولايعنى مجرد الاختلاف خلال الزمان ، ويتحقق التغير عندما يأخذ العضو أو الموضوع وضعا جديدا يغاير الاتفاقات البنائية الراسخة داخل النسق .

فالتغير يدل على أى تعديل أو تحوير يطرأ على التنظيم الاجتماعى للمجتمع . سواء طرأ هذا التحوير على أحد النظم الاجتماعية أو انماط الادوار الاجتماعية ، ويشير التغير عادة إلى التغيرات الجذرية فى السلوك الاجتماعى أو التى تطرأ على أحد الانساق الاجتماعية الاساسية . ولايشير التغير إلى التغيرات الطفيفة داخل الجماعات الصغيرة ويدل التغير الاجتماعى على التغيرات التى تحدث فى انماط العلاقات الاجتماعية المستقرة فى محيط الاسرة والنظم الاقتصادية والسياسية والتعليم والترفيه .

التمركز : Centrality

معامل التمركز : Centrality Index

وعندما ندرس اى جماعة اجتماعية ، بوصفها بناء للاتصالات بين الناس ، فبالامكان ان نميز بين اعضاء الجماعة تبعا لقربهم أو بعدهم من المركز ، أى ان كل عضو ذكر أو انثى حسب وضعه فى بناء الاتصال ، يحوز ميزة أو نقيصة معينة بالنسبة لعدد تكرار الاتصالات التى يقوم بها ويستقبلها فى الجماعة . وفى الأمكان احصاء عدد روابط الاتصالات بين العضو وباقى الاعضاء فى جماعة معينة لها بناء اتصال معين . ويمكن ان يعبر عن هذا فى صورة نسبة العدد الكلى لروابط الاتصال بين كل عضو وباقى الاعضاء مجتمعين ، وبذلك نحصل على معامل المركزية لهذا العضو . وهكذا فمعامل المركزية للعضو (س) هو العدد الكلى لروابط الاتصال بين أعضاء الجماعة مقسوما على عدد من روابط الاتصال يربط بين (س) وباقى أعضاء الجماعة . ويتبع ذلك أن العامل المركزى المرتفع يدل على وجود وضع مميز للعضو فى بناء الاتصال ، وفى حالة ثبوت العناصر والعوامل الأخرى فلنا ان نقول : ان الشخص الذى له معامل مركزى مرتفع يحتل وضعا قياديا لانه من الممكن ان نحسب كمية ودرجة مايملكه اعضاء الجماعة من تأثير بفضل وضعهم فى الجماعة .

التنشئة الاجتماعية : Socialization

عملية التنشئة الاجتماعية هى عملية توجيه للسلوك حسب القواعد الاخلاقية ، وهى فى رأى دوركيم عملية تعتمد على الايحاء لتعويد الطفل على الحياة الجماعية والتدريب على النظام واحترامه .

وتبدأ عملية التنشئة داخل الاسرة لتكوين الانسان الاجتماعى ، أثناء عملية التأثير المتبادل بين الشخص والبناء ، فعملية التنشئة هى عملية تعلم بالمعنى العام ، وتهدف إلى اعداد الطفل ثم الصبى ثم الراشد للاندماج فى انساق البناء والتوافق مع المعايير الاجتماعية المقبولة ومطالب الادوار المختلفة واكتساب قيم المجتمع .

التنميــة : Developement

يتعين على الدارس عند تناوله مصطلح التنمية ان يتناوله بحذر لأنه مصطلح دقيق وغامض ، لاننا إذا فهمنا النمو بمعنى النمو الاقتصادى يصبح المفهوم مضللا ، إذ يثار دائما السؤال حول طبيعية هذا النمو وهل هو نمو تركيبى او نمو فى السرعة أو فى مقدار الثروة . ولذا يقصد بالتنمية الاجتماعية تلك العملية التى يقصد بها تغيير انماط السلوك واشكال التفكير والدعوة إلى قيم جديدة ترسخ بمرور الوقت وتوفير الخدمات الاجتماعية كما تتضمن تحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين . ان هدف عملية التنمية الاجتماعية فى مظاهرها المختلفة تحقيق تماسك المجتمع وتقوية الروابط الاجتماعية وازالة التناقضات الاجتماعية والقضاء على أسباب التوترات والصراعات والخلافات الظاهرة فى المجتمع ، الا أن ذلك لايتحقق الا بتحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين وعدالة توزيع الخدمات فى الريف والمدينة وادماج قيم الانتماء عند كل افراد المجتمع . والجواب المختصر فى تعريف التنمية الاقتصادية أنها عملية يرتفع بموجبها الدخل القومى خلال فترة زمانية محددة مع تحقيق عدالة توزيع الدخل . وهناك متغيرات اساسية تعمل على زيادة الدخل تشمل : ١ ــ اكتشاف موارد جديدة يمكن استغلالها ، ٢ ــ تجميع رؤوس الأموال ، ٣ ــ تزايد السكان ، ٤ ــ ادخال اساليب جديدة لتحسين الانتاج ، ٥ ــ تحسين المهارات والقدرات ، ٦ ــ اعداد كوادر فنية وادارية ابتداء من العمال المهرة مرورا بالاداريين وانتهاء بالفنيين .

التوائـم : Accommodation

حالة أو عملية التوافق والتكيف مع موقف صراع حيث تتجانب أو تتفادى الاقلية أو الجماعة المضطهدة التعبير الصريح عن العداوة لتحقيق مزايا معينة اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو نفسية تعوضها عن الدخول فى صراع لانهاية له .

التنظيم الاجتماعى : Social organization

يتكون المجتمع كجماعة من الافراد من مجموعات من الادوار والمراكز المعترف

بها قانونا ، ولما كان المجتمع يكون نمطا لجماعة معينة فانه من المفيد ان نميز بين المجتمع وبعض المفهومات الاخرى التى ترتكز على بناء الادوار والمراكز . ومن هذه المفهومات مفهوم التنظيم الاجتماعى او البناء الاجتماعى ، والذى يدل على نسق الادوار والمراكز المترابطة. ويشير مفهوم البناء الاجتماعى عادة إلى انتظام السلوك فى صورة نمطية. وهذا الاستعمال الاخير يعنى تأكيد عنصر النمط فى مفهوم البناء . ولكننا نؤكد عنصر العلاقة بين الاجزاء المتضمنة فى البناء . ويتطلب تحديد البناء الاجتماعى او التنظيم الاجتماعى تحديد الادوار والمراكز ، التى يتكون منها كل منهما . ودراسة العلاقات بين هذه المراكز والادوار .

ومن وجهة نظر علم الاجتماع فان دراسة الجماعات الانسانية هى دراسة للتنظيم الاجتماعى ، ومن ثم فان مفهوم الجماعة والذى استعمل بكثرة فى تحليلنا يختلف عن المفهوم الشائع عن بعض التجمعات ، أى مجموعة من الناس ، يمكن أن يصنفوا معا وعلينا ان ندرس هذا المفهوم دراسة منهجية ، وقد بينت التوضيحات التى استخدمت تباين وتعدد الجماعات الانسانية ، تميز بين الاشكال المختلفة التنظيمات الموجودة بينها ، ولنوضح كيف تؤدى وظائفها ، وكيف تعمل ، لكى نفسر السلوك الانسانى .

الثقافة والمجتمع : Culture and Society

وعندما حاول علماء الاجتماع تفسير وتحليل الانتظامات الظاهرة فى السلوك الانسانى وظاهرة الحياة الجمعية ابتدعوا مفهومين اساسيين هما (١) الثقافة (٢) المجتمع . وهما مفهومان اساسيان فى كل العلوم السلوكية الاخرى . ويعرف هذان المفهومان بطريقة عامة . ورغم اننا نستطيع ان نميز بينهما تمييزا تصوريا فان الظواهر التى يشيران اليها لايمكن ان توجد وجود مستقلا . فالمجتمع لايوجد بدون ثقافة . كما ان الثقافة لاتوجد خارج المجتمع .

ونحن لانستطيع ان نفسر انماط السلوك الإنسانى فى اطار الغرائز الفطرية أو النزعات البيولوجية . فالسلوك الانسانى إلى حد كبير جدا محصلة التعلم والتجربة . ولما كان الانسان لديه قدرة كبيرة على التفكير والابتكار ولديه القدرة

على التعبير اللغوى ولديه القدرة على التكيف مع البيئة اكثر من الحيوانات الاخرى ، فهو يستطيع أن يفعل الكثير ليسيطر على العالم وهو وحده القادر على اكتساب المعرفة ونقل ماتعلمه إلى الأخرين الذين يضيفون عادة إلى ماورثوه من معرفة . فالإنسان وحده هو الحيوان الوحيد الذى له ثقافة .

ومفهوم الثقافة كما يستخدمه علماء الاجتماع له معنى أكثر من المعنى المألوف الشائع فمن الاستخدامات الشائعة ان الثقافة تدل على الأشياء ذات المنزلة الرفيعة فى المجتمع مثل الرسم والموسيقى والشعر والنحت والفلسفة وإذا وصف بعض الناس شخص ما بأنه مثقف فيقصد بذلك فى اللغة العادية الانسان المتعلم . أما مفهوم الثقافة فى علم الاجتماع فله معنى آخر فالثقافة تشير إلى ذلك الكل المركب الذى يتعلمه الافراد اعضاء المجتمع فالثقافة طريقة حياة وسلوب للتفكير والفعل وطريقة للتعبير عن المشاعر .

وقد عرف تايلور الثقافة بأنها ذلك الكل المركب الذى يشمل على المعرفة والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعادات وأى قدرات اخرى أو عادات يكتسبها الانسان بصفته عضوا فى المجتمع . ورغم قدم هذا التعريف الذى قدمه تايلور فى عام ١٨٧١ فانه يمثل القاعدة التى قامت عليها جميع تعريفات الثقافة فيما بعد . وينبغى أن نعرف أن انتظام السلوك الانسانى فى ذاته لايكون الثقافة . ولكن الانتظام يتم لان الانسان له ثقافة اى لأن الناس لديهم معايير عامة عن الخير والشر والصواب والخطأ والفعل المناسب وغير المناسب ويضطرد السلوك ايضا لان الناس يشتركون فى معتقدات متماثلة ازاء طبيعة العالم و الانسان وعلاقة الانسان بهذا العالم ، ولان الناس لديهم اتجاهات متماثلة نحو البيئة التى يعيشون فيها سواء البيئة الاجتماعية أو البيئة الفيزيقية . وبايجاز فكما بين ميردوك فالثقافة إلى حد كبير فكرة أو تصور فهى تشير إلى المعايير والمعتقدات والاتجاهات التى تحدد أفعال الناس وسلوكهم .

وقد بين رالف لنتون ان معرفة وجود الثقافة فى كل زمان ومكان وادراك اهميتها هى أحد النتائج الاكثر اهمية للتطور العلمى فى العصر الحديث . فالقدرة على رؤية الثقافة ككل وتقييم نمطها وتقدير عناصرها يتطلب درجة من الموضوعية نادرا

مايتحقق ولما كانت الثقافة جزءا منا فنحن نسلم بها ونفترض عادة انها طبيعية ولها طبيعة راسخة فى الجنس البشرى .

والحقيقة الهامة عن الثقافة أنها تُعلم كما انها مشتركة فالناس لاترث الاساليب المألوفة للسلوك ولكنها تكتسبها أثناء دورة الحياة.فالاشياء التى يتعلمونه تظهر أساسا فى الجماعة التى يولدون فيها والتى يعيشون فيها . فالملابس التى يلبسها الطفل تأخذ شكلا نمطيا عند افراد اسرته وقبيلته او مجتمعه واثناء فترة تربية الطفل يتولى الوالدان وكل من يوكل اليه مسئولية تربية الأولاد نقل الجديد من المعرفة والمهارات والقيم والمعتقدات واتجاهات الكبار . وهناك طرق لاحصر لها تدفع الاطفال للتعلم من البيئة . تلك الخصائص ادت إلى تعريف الثقافة بأنها الميراث الاجتماعى للانسان . اما السلوك العام وغير المتعلم والذى هو خاص بفرد معين فلا يعد جزءا من الثقافة .

التباين والتماثل الثقافى : Cultural Similarity and Diversity

هناك تماثل بين بعض انماط الثقافة فى الجماعات المتباينة وفى الوقت نفسه ينعدم التباين النهائى لانماط الثقافة . فمثلا هناك مجموعة من الصور الثقافية موجودة فى كل الثقافات مثل الالعاب الرياضية واساليب التزين والتقويم وتنظيم المجتمع والتدريب على النظافة والعمل التعاونى وطرق اعداد الطعام وعلم الكون والغزل والرقص والفن وتقسيم العمل وتفسير الاحلام والتعلم والاخلاق والايمان والولائم الأسرية والادب الشعبى والشعائر الجنائزية وتحريم بعض الاطعمة وتبادل النقوط وطرق التحية والضيافة والمسكن وتحريم مضاجعة المحارم وقواعد الارث والمرح والهزار . ولكن كل نمط من هذه الانماط العامة يأخذ صورا متباينة فى كل ثقافة . وتكشف لنا الدراسات الانثربولوجية مدى الفروق الثقافية ومدى التباين الحادث فى السلوك الإنسانى . فمثلا يرفض الهنود اكل لحم البقر بينما يعتبره الامريكيون والمسلمون عنصرا اساسيا فى غذائهم ، ولكن بينما يحرم المسلمون اكل لحم الخنزير وشرب الخمر نجد الاوربيون يتهافتون على لحم الخنزير ولاتخلو موائد الطعام عندهم من زجاجات النبيذ والخمر . وبينما يهتم المثقفون الغربيون بسماع الموسيقى

الكلاسيكية يحب الشباب هناك سماع موسيقى الجاز . وبينما تؤكد تقاليد وعادات الريف ان وجبة العشاء هى الوجبة الاساسية نجد الحال يختلف فى المدينة إذ أن الوجبة الاساسية هى وجبة الظهيرو كذلك تظهر طريقة اعداد الطعام الفروق الثقافية النمطية وايضا طريقة قضاء وقت الفراغ وعادات الاكل بل حتى ترتيب قطع الاثاث فى البيت وتفضيل بعض القطع عن البعض الاخر كلها مظاهر تكشف عن الفروق الثقافية .

ولاريب أن عمومية بعض للانماط الثقافية وتباين بعض الانماط الاخرى كلها أمور تدعو إلى التفسير وكما أوضحنا فان أغلب اشكال السلوك الانسانى تعلم ، ولاتورث . ولكن إلى أى حد وبأى طريقة تحدد وتؤثر الخصائص العضوية للانسان فى طبيعة الثقافة . يقدم لنا بناء الانسان ووظائفه باعتباره كائنا حيا بيولوجيا نقاط المرجع أو البؤر التى حولها تنمو الانماط الثقافية . وتكون هذه البؤر الفروق البنائية والوظيفية بين الجنسين . وتفسر اسباب اعتماد الاطفال لمدة طويلة نسبيا على الآخرين من أجل البقاء والدوافع العضوية التى يحركها الجوع والعطش والجنس وعمليات النضج والرشد وحقيقة الموت . وتكون هذه الحقائق البيولوجية الاسس التى تقوم عليها كثير من عناصر الثقافة مثل المعايير التى تحكم العلاقات بين الجنسين وأساليب تربية الاولاد والعناية بهم وطرق الحصول على الطعام والشراب . ولكن علينا أن نلاحظ مرة ثانية انه لايوجد اضطراد فى طريقة تعامل الناس .

بيد أن العموميات البيولوجية لاتقدم لنا كل نقاط المرجع والتى يطور الناس ثقافاتهم مستندين عليها ، فعندما ندرس مجموعة الانماط التى اشرنا اليها منذ قليل والسائدة فى كل المجتمعات نجد أن انماطا كثيرة منها لايمكن ربطها بسهولة إلى العوامل البيولوجية فالتزين والبحث فى أصل الكون والغزل والادب الشعبى والفن والزخرفة والرقص وكلها انماط تبدو بعيدة كل البعد عن الحوافز الفطرية او الحاجات الاساسية وبدلا من ذلك فعلينا أن نبحث عن تفسير حقيقة الحياة الجمعية ، وتلك حقيقة مؤكدة كأساس لكل تحليلنا للحياة الجمعية ويكون اكتشاف المحور الاجتماعى للانماط الثقافية احد المشكلات النظرية الكبرى فى علم الاجتماع ونحن لن ندرس هذه المشكلة فى هذه الدروس التمهيدية .

الثقافة والثقافة الجزئية : Culture and Sub Culture

وقد أدى التباين بين الانماط النوعية للثقافات بين الجماعات الانسانية إلى التمييز بين الثقافة كمفهوم عام وبين الثقافة كمجموعة من انماط مميزة لجماعة ما . ويستطيع الباحث أن يميز بسهولة بين الثقافة المصرية والثقافة اليونانية وبين ثقافات سكان حوض البحر الابيض وبين ثقافات اواسط افريقيا . كما يستطيع الباحث ان يميز بين ثقافات جماعات كثيرة مميزة سواء أكانت كبيرة أو صغيرة فى كل انماط العالم . وهناك فرق بين ثقافة العاملين فى الصناعة وثقافة القرويين كذلك فهناك فرق بين ثقافة سكان الحضر وسكان الريف . بل هناك من يفرق بين ثقافة الشباب وثقافة الكبار ويؤدى تحليل الثقافات ككل إلى مشكلات هامة أهمها على أى أساس يمكن أن تحدد انماط الثقافة لجماعة معينة كوحدة مميزة أى كثقافة مميزة .

واحيانا مايستخدم مفهوم الثقافة الجزئية اشارة إلى جزء منفصل نسبيا وان لم يتباين كلية عن الكل . ولكن كيف تترابط الاجزاء المختلفة داخل الثقافة الكلية أو الثقافة الجزئية أى كيف تنظم او تبنى او تتكامل الثقافات . وهل ثمة علاقة بين معتقداتنا الدينية والنظام الاقتصادى السائد وهل هناك صلة بين التخلف والتواكل . وهل ثمة علاقة بين الايمان بالغيبيات وانخفاض مستوى المعيشة . ولكى نجيب على تلك الاسئلة علينا أن نوضح أن مفهوم الثقافة نفسه يتضمن عددا كبيرا من الظواهر التى ينبغى أن تحدد اى ان تحلل إلى الأجزاء التى تتكون منها .

الجماعات الانسانية : Human Groups

يعرف جونسون علم الاجتماع بأنه العلم الذى يهتم بالجماعات الانسانية واشكالها الداخلية واساليب تنظيمها والعمليات التى تعمل على تنظيم الجماعات أو تغييرها . والعلاقات بين الجماعات . ومفهوم الجماعات بالذات ، رغم ان له معنى واضح فى الأستعمال اليومى ليخدم مطالبنا الحالية ، فله معنى خاص فى التراث السوسيولوجى .

إما ايلى شنوى فيرى ان الحياة الانسانية لاتتحقق الا داخل الجماعة . فالانسان المنعزل كما تصوره جان جاك روسو أو هوبز ، هو محصلة خيال الفلاسفة . وسواء أكان الانسان متوحشا أو متحضرا ، صيادا للوحوش أو الاسماك أو حتى مزارعا ، سواء أكان يسكن الصحراء أو الجبال أو الوديان ، فإن الناس تعيش معا ، ومن ثم فان فهم الجماعات التى يعيشون فيها يعد مسألة حاسمة لفهم سلوكهم .

وتضم الجماعة الانسانية عددا من الاشخاص يرتبطون سويا فى شبكة أو نسق من العلاقات الانسانية ، ويتفاعل الاعضاء سويا بطرق منظمة أى وفقا للمعايير التى تتقبلها الجماعة ، وتقوم العلاقات بين أعضاء الجماعة كما يتم التفاعل بينهم استنادا على مجموعة من الادوار والمراكز المترابطة المحددة . فهم يرتبطون سويا ، كما تتفاوت شدة هذه الرابطة بين القوة والضعف ، نتيجة الشعور بالذات والتشابه فى المصالح مما يساعدهم على التمايز عن الآخرين .

وأننا فى تعريفنا للجماعة الاجتماعية على هذا النحو ، نكون قد ضيقنا من المعنى المنسوب إلى مصطلح الجماعة ، والحقيقة نحن فى وضع ينبغى علينا ان نفرق بين الجماعة الاجتماعية واى عدد من الناس يجتمعون سويا تماثل الخصائص أو السمات بينهم ، رغم أنهم لايرتبطون سويا فى نسيج من العلاقات ولايرتبطون فى تفاعل نمطى ، ولايعون بالذات المشتركة ، فنقابة العمل تعد جماعة اجتماعية وكذلك الاسرة والنادى الاجتماعى وشلة الاصدقاء الذين يجتمعون سويا بأستمرار ، كذلك يعرف تنظيم العمل ، بل والدولة ، باعتبارهما جماعتين اجتماعيتين

أما مالكى أجهزة التليفزيون أو المترددين على دور السينما ، أو مشاهدى مباريات كرة القدم ، أو هواة سماع موسيقى الجاز ، وهواة قراءة الكتب البوليسية فانهم لايكونون جماعات اجتماعية وان كانوا من الناحية السوسيولوجية يؤلفون فئات اجتماعية وهذه الفئات مثل فئات اخرى تخضع لاهتمامات علم الاجتماع ، فاننا قد ندرس لماذا يمتلك بعض الناس أجهزة معينة او يؤدون أنشطة معينة ، وماالعوامل التى تميز قراء القصص البوليسية عن قراء الشعر أو قراء كتب التاريخ او التراث الدينى ، كما ندرس الخصائص التى تميز من يملكون اجهزة التليفزيون ومن

لايملكون ، وأثر هذه الأجهزة على سلوكهم وقيمهم ، أن الاجابة على هذه الاسئلة تتطلب بالضرورة ان ندرس طبيعة الجماعات التى ينتمي الافراد اليها . كما ان الاجابة على هذه الاسئلة قد تتضمن إلى حد ما موائمة هذه الخصائص مع بناء ووظائف الجماعة الاجتماعية المختلفة .

وثمة رأى يرى ان تفسير هذه الخصائص الذى يقدم للفئات الاحصائية يعتمد على وظائف هذه الخصائص داخل حياة الجماعة . فالاهتمام المشترك بقراءة القصص البوليسية أو الكتب الدينية أو المواظبة على مشاهدة برامج التليفزيون او سماع الموسيقى قد يكون احد الروابط التى تربط جماعة من الاصدقاء سويا ، وقد يولد الناس وينشئون ويتعلمون ويعملون ويتزوجون وينجبون اولادا ، ويمتهنون اعمالا يرزقون منها ، ويروحون عن أنفسهم ويشاركون فى الأنشطة الدينية والسياسية ويموتون ويدفنون ، كل ذلك داخل منطقة محددة لايغادرونها أبدا . وقد تعتمد الحياة داخل مجتمع ما على العالم المحيط بها أو تتأثر به ، ولكن هذا لن يغير من حقيقة أن الكثير من أوجه الوجود الانسانى يمكن ان توجد كلها فى نطاق حدود اجتماعية واقليمية .

تباين الجماعات الانسانية :

The Diversity of Human groups

تبين لنا الدراسة التحليلية ان الجماعات الانسانية تنقسم إلى مجتمعات محلية وروابط وجماعات اولية وجماعات ثانوية وتنظيمات رسمية وغير رسمية .

وهناك المجتمعات الزراعية والمجتمعات الصناعية ، وايضا هناك المجتمعات الديمقراطية والمجتمعات الديكتاتورية . وتنقسم المجتمعات إلى طبقات او فئات اجتماعية او تجمعات اجتماعية او جماعات اجتماعية . وهناك جماعات وقتية مثل الحشود ومشاهدى المباريات ، وكل هذه المجتمعات لها اشكالها المميزة وخصائصها المحددة ، ويمكن ان ندرس الجماعات فى اطار اهتماماتها الكبرى ، كما تصنف بطرق مختلفة ، فهناك جماعات دينية ، والتى تصنف إلى جمعية السنة المحمدية وجماعات الطرق الصوفية وأهل السلف وجماعة التكفير والهجرة . وهناك

الجماعات السياسية العديدة فهناك عدد كبير من الأحزاب السياسية تكونت فى مصر ابتداء من مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ثم حزب الوفد وحزب السعديين وحزب مصر الفتاه قبل ثورة ١٩٥٢ .

وليس من اليسير علينا ان نقدم عرضا لطبيعة كل جماعة هنا ، ولكن يمكننا بسهولة ان ندرس الجماعات الاولية فى المصنع والجيش والمدرسة وايضا المجتمع الحضرى ، والدور والمركز والعلاقة الاجتماعية هم المفهومات الثلاثة الاساسية فى أى تحليل لأى جماعة اجتماعية فى أى بيئة ندرسها .

الجنس والمناخ والبيئة الجغرافية والثقافة :ـــ Race, Climate, Geography and culture

وينبغى ان نتقصى تفسير أسباب تباين الثقافة فى صفات وتاريخ الحياة الاجتماعية نفسها ، ولكن النظريات البديلة التى تؤكد الفروق البيولوجية الفطرية او التباين الجغرافى او المناخى كأساس للفروق الثقافية تتطلب منا وقفة. فى هذا المجال . ان فكرة الفروق الفطرية بين الجماعات ، فكرة قديمة لها تاريخ طويل ، مثل تاريخ فكرة التأثير الحتمى للبيئة الجغرافية أو التأثير الحتمى للمناخ . وقد رأى أرسطو ان الفروق بين اليونانيين وأهل البربر من المواطنين والعبيد ترجع إلى الفروق فى السمات والقدرات الفطرية ، كما أكد أرسطو أيضا أن ثمة علاقات محددة بين المناخ والطباع . وقد قادت الارتباطات الظاهرة بين الخصائص الفيزيقية والسلوك السائد المألوف والاتجاهات والمهارات ـــ سواء عند اليونانيين القدماء أو فى القرون الحديثة ـــ إلى الاعتقاد ببساطة بأن هناك ارتباطا وثيقا بينهما . وقد استخدم نفس الدليل بالنسبة للمناخ والبيئة الجغرافية .

وتتركز النظريات البيولوجية عن الفروق الثقافية على مفهوم الجنس والذى يعرف من الناحية العلمية بأنه جماعة من الناس لها نفس الخصائص البيولوجية المتوارثة ، وتحدد اساسا على أساس الخصائص الفيزيقية الخارجية مثل شكل الرأس ولون الشعر والعينين ولون البشرة وشكل الانف والفك . كما أفترض أن ثمة علاقة محددة بين وزن وبناء الجسم ونوع السلوك الذى يؤديه الناس . ونوع الثقافة السائدة ،

ومن ثم يتوقع ان تكون هناك ثقافات خاصة بالزنوج وثقافات خاصة بالبيض وثقافات خاصة بالاسيويين ، نتيجة تباين الاشكال البيولوجية للشعوب .

ولكن البرهان المخالف لهذه الدعوى قوى للغاية ، ونحن لانحتاج إلى دراسة المشكلات الفنية لاقامة تصنيف بين السلالات . وان نصف الناس وفق هذا التصنيف . اى على اساس عرقى ، لأن أغلب الشعوب خليط من سلالات متعددة ، ولكن ينبغى أن نلاحظ ان هذه المشكلات تتضمن صعوبات خطيرة تجعل مفهوم الجنس ، مفهوما ضئيل القيمة فى العلوم الاجتماعية .

وتقدم لنا المعلومات الانثربولوجية والتاريخية براهين وفيرة بأن الثقافات المتماثلة يمكن ان تسود بين شعوب ذات خصائص فيزيقية متباينة . كما أن الشعوب ذات الخصائص الفيزيقية المتماثلة يمكن ان توجد فيها ثقافات متمايزة ، حتى ان الثقافة يمكن ان تتغير بسرعة دون ان يصاحب ذلك تغير فى الخصائص السلالية الاساسية ، وإذا ماوضعنا المشكلة فى مصطلحات ملموسة لافى مصطلحات مجردة ، فاننا نجد أن طريقة اعداد الطعام الفرنسية تتمايز كلية عن الطريقة الامريكية والمصرية والهندية والصينية ، وهذا التمايز ليس محصلة تذوق أو مهارة وراثية متميزة ، ولكنه نتيجة ظروف اجتماعية وثقافية متباينة .

ورغم ان الفروق الفيزيقية بين الافراد والجماعات لايمكن تُظهر أو تحدد الفروق الثقافية ، فأنها قد تكون أحد الأسباب البيولوجية التى قد تتجاهلها الثقافات أو تعدل فيها . وهكذا يمكن ان يستجيب الناس بطريقة تحددها الثقافة إلى لون البشرة او إلى خطوط الانف ، او إلى شكل جفون العينين ، ومن ثم يمكن ان ينظر إلى الجنس كفكرة يؤكدها أعضاء الجماعة ، أى فكرة تخضع للبحث السوسيولوجى ، ولايعتبر مفهوما علميا يستخدم لتفسير الفروق الثقافية .

ويتبع البرهان الذى يرفض الحتمية المناخية أو الجغرافية للثقافة نفس الخط الذى يفند النظرية السلالية ، فرغم التباين الشاسع فى الأوضاع الجغرافية والمناخية ، فقد تبين أن ثمة تماثلا كبيرا فى انماط الثقافة — كما ظهر أن الشعوب المتماثلة فى ظروفها المناخية او الجغرافية تكشف دائما عن تباين اساليب المعيشة .

بيد أننا لانستطيع ان نرفض الحقائق الجغرافية والمناخية من الاعتبار عند التحليل . إذا اننا عند تحليل المسرح السياسى المعاصر لانستطيع ان نغفل اثر البترول والقصدير والمطاط ، ومساحة الأرض المزروعة فى كل دولة فى صنع القرارات السياسية . وكلها حقائق ذات أهمية اجتماعية ولكنها لم تصبح ذات أهمية إلا لأن الناس انفسهم أضفوا عليها تلك القيمة . ولم تكن لبعض دول الخليج والشرق الاوسط اية قيمة فى مسائل العالم قبل اكتشاف البترول ، وهنا يتعين أن نأخذ المناخ والبيئة الجغرافية كشروط يجب ان تأخذ فى الأعتبار .

دراسة الحالة : Case study

تطبيق عملى مستمد من الدراسات القانونية ، حيث تكون الحالة حدثا أو مجموعة من الاحداث تتضمن أحكاما قانونية من دراستها يستمد الطالب مبادىء القانون الخاصة لهذه الحالة ، وكيفية تطبيقها .

وتعتبر دراسة الحالة فى الخدمة الاجتماعية والادارة الاجتماعية موضوعا للدراسة بمعنى أنها تتطلب وصفا كاملا للعميل ، أو الاسرة او الموقف الادارى ، حيث قد تجمع كافة الموضوعات المناسبة التى تؤثر فى نتيجة أو نتائج موضوع الدراسة .

وفى مجال علم الاجتماع يعتبر منهج دراسة الحالة معالجة كلية للموضوع من خلال دراسة تفصيلية لمجموعة معينة من البيانات المتعلقة بطائفة من الوحدات ومنها يتسنى عزل هذه الحالة . وقد انتقد الاخصائيون الاجتماعيون هذا المنهج لعجزه عن تقديم نتائج منهجية واضحة ذات صبغة عامة ، ولكن من جانب آخر قد يكون هذا المنهج له قيمته كمدخل تمهيدى لاكتشاف المتغيرات الهامة ولايجاد مقولات جديدة تؤدى إلى صياغة فروض يجوز أن تختبر بالرجوع إلى عدد من الحالات هى موضوعات دراسة الحالات . وهى عادة الأسر ، والتنظيمات والجماعات الاجتماعية ، والجماعات المحلية الصغيرة . وطريقة دراسة الحالة طريقة مشهورة فى البحث الاجتماعى .

حضـــارة : Civilization

اشتق هذا المصطلح اشتقاقا صريحا من الفعل « يحضر » والذى اشتق بدوره

من حضرى وحاضره ليصف اكتساب صفات الادب واللطف من جانب الصفوة او عامة الناس . بيد أن الموسوعيين يعنون الحضارة فى مقابل الاقطاع والبربرية ومن ثم نال هذا المصطلح شهرة عصر التنوير ، لأنه يتضمن معنى التقدم . وقد اتسع استخدامه فى نهاية القرن الثامن عشر ، فى المؤلفات المبكرة فى علم الاجتماع ليعبر عن نظرية التطور الاجتماعى .

وثمة استعمال حديث جدا يرى التاريخ الانسانى قابلا للتحليل فى اطار وحدات كبيرة . وقد أشار ارنولد توينبى فى كتابة A Study of History إلى احدى وعشرين حضارة فى التاريخ المعروف للعالم ، لكل حضارة منها خصائصها المميزة ، ولكنها تشترك جميعا فى خواص او سمات معينة تمكننا من اعتبارها كلها افرادا فى مقولة واحدة ، وعلماء الاجتماع مثلهم مثل أشخاص كثيرين آخرين ، يستعملون المصطلح بطريقة عامة وغامضة ، عند الحديث عن الحضارة الحديثة ، والتى يقصد بها عادة المجتمعات الحضرية والصناعية المعاصرة . وفى هذا الصدد ، فثمة علاقة بين الحضارة والثقافة . وفى المثال الذى اعطيناه الآن تميل الحضارة لان تضارع الثقافة . بيد أنه احيانا لاتتوحد الثقافة بل وتتناقض معها بمعنى ان الحضارة ظاهرة اجتماعية اكثر تعقيدا ، تتضمن تنظيم الصفات المادية والتكنولوجية كما تستوعب المعتقدات والاشكال الفنية ، والادب ، ومجموعة افكار وقيم الشعب ، وهو مانطلق عليه ثقافة حسب المصطلح الدقيق ، وقد قدم الفريد فيبر مساهمة هامة فى هذا الموضوع عندما قام باجراء دراسة مقارنة بين الحضارات ، حلل فيها الحضارة باعتبارها عملية .

الحراك الاجتماعى : Social Mobility

وقد ادت التنظيمات الاجتماعية فى المجتمع الحضرى ، وازدياد التخصص المهنى ، وانتشار وسائل الاتصال إلى زيادة فرص الحراك الرأسى والأفقى امام الافراد ، وتغييرهم المراكز الاجتماعية والاقتصادية التى اكتسبوها بالميلاد .. ولكن ماهو المقصود بالحراك الاجتماعى ؟

يعرف سوروكين الحراك بأنه انتقال الفرد أو الموضوع الاجتماعى او القيمة أو أى

شيء آخر ــ اى شيء مخلوق أو محور بواسطة النشاط الانسانى ــ من وضع اجتماعى معين إلى وضع آخر ، ويرى سوروكين أن هناك نوعين من الحراك ، هما الحراك الافقى والحراك الراسى . ويقصد بالحراك الاجتماعى الأفقى انتقال الفرد أو الموضوع الاجتماعى من طبقة اجتماعية إلى طبقة اخرى فى نفس المستوى . وتحرك الفرد هنا لايستتبعه تغير لاحق ملحوظ فى المكانة الاجتماعية ، كما يقصد بالحراك الرأسى تحرك الفرد إلى وضع اجتماعى جديد يخالف الوضع الاول ، وتغير فى العلاقات التى يؤدى اليها انتقال الفرد من طبقة إلى أخرى . ويتجه الحراك الاجتماعى الرأسى فى مسارين ، مسار يعلو من قيمة الفرد ، ومسار يخفض من وضع الفرد ، ويرتبط هذا الحراك الرأسى بالمكانة الاقتصادية والسياسية والعمل .

والحراك الاجتماعى ظاهرة جديدة فى المجتمع الحديث ، بل هو أحد المقومات الرئيسية فى المجتمع الحضرى الديمقراطى ، وتميزه فى هذا عن التجمعات اللاديمقراطيه . وكان المجتمع التقليدى فى الحضر الاقطاعى مجتمعا مغلقا ، يتكون من مجموعات متجانسة متشابهة ، تعيش فى معزل عن بعضها بعض . ولايتحرك الفرد فى هذا المجتمع خارج الجماعة التى ينشأ بها ، لوجود حواجز اجتماعية تربط الفرد بجماعته ، وتعوق ارتقاء الفرد عن الجماعة التى ينتمى اليها ، او تخفض من مستواه الاجتماعى . ومن ثم يحدد ميلاد الفرد من مكانته الإقتصادية والاجتماعية داخل الجماعة . ويمتاز التماسك الاجتماعى لاعضاء المجتمع الجامد بتمركزه فى النطاق الاجتماعى الذى ينتمى اليه ، كما يضعف اتصالات الافراد مع أعضاء النطاقات الاخرى .

وتتميز العلاقات بين أعضاء النطاقات المختلفة بأنها علاقات بين الغرباء ، أما داخل النطاق الاجتماعى ، فتمتاز العلاقات بين الافراد ، بأنها علاقات قوية ، ومن ثم التماسك بين الاسر تماسكا متينا ، وأصبح التفاهم بينهم عاما . ويمتاز اعضاء المجتمع التقليدى ، فى ارتباطات المواجهة فى نسيج الحياة بالتفاهم الكامل بينهما ، وأنهم يكونون مجتمعا كاملا من المصالح ، والتشابه الفكرى الكامل .

ويتميز المجتمع الحضرى الحديث ، بأنه مجتمع مكون من جماعات متجانسة اذيبت بينها الحواجز الطبقية التى تمنع انتقال الفرد من جماعة إلى أخرى ، ولم يعد

ميلاد الفرد يؤثر فى تحديد مكانته الاجتماعية لو الاقتصادية ، ويرجع ذلك لانصهار الروابط القانونية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التى تربط الفرد بجماعته . وأصبحت الصفات الفردية والقدرات الشخصية هى السلم الذى يحدد المكانة الاجتماعية والاقتصادية للافراد .

ويصنف علماء الاجتماع الحراك الاجتماعى فى الصور الاربع الاتية :ـــ
(أ) الحراك المهنى ، (ب) الحراك المكانى ، (ج) الحراك الاقتصادى ، (د) الحرك الفكرى .

٨ أ) الحــراك المهنــى :

يعرف الحراك المهنى بأنه تغيير الفرد لمهنة اسرته ، وتبديل الابناء لمهن آبائهم ، لازدياد التخصص المهنى ، وافساح مجالات العمل أمام الفرد حسب ميوله الفردية ، واستعداده للانتاج . ويرى مور أن الحراك المهنى يتعلق بالاقتصاد الصناعى على الأخص بالمظاهر الكيفية والمكانية لاحتياجات العمل ، وقد عالج رجال الاجتماع هذه المسألة فى صلتها بمعنى العمل وأثره فى التدرج الطبقى ، وبينوا أن تحليل الوضع المهنى والمركز الاجتماعى أنما هو فى حقيقته دراسة لها دلالتها مثل أية دراسة اجتماعية فى مجال العلاقة بين الاقتصاد والمجتمع .

ويساعد الحراك المهنى على تحرك الافراد مكانيا واجتماعيا واقتصاديا عن مكانة اسرهم الاجتماعية والاقتصادية ، ويؤدى ارتقاء الفرد فى التركيب المهنى ، وتغييره لوضعه المهنى عن وضع اسرته الاصلية وصعوده أو هبوطه فى السلم المهنى إلى تغييره لمكان اقامته ، وأيضا لمعارفة واصدقائه الذين تربى معهم فى نشأته الأولى ، واختلاطه بأفراد جدد ذوى ميول واتجاهات مغايرة عن الوسط الذى نشأ فيه ، وأيضا تغييره لأسلوب حياته ومركزه الاجتماعى ، مما يؤثر فى علاقته القرابية بأعضاء اسرته .

وأصبحت ظاهرة وراثة الابناء لمهن آبائهم فى المجتمع الحضرى ظاهرة نادرة ، ولم يعد للمهنة الاسرية الدور الذى تلعبه فى المجتمع التقليدى ، وأصبح طبيعيا أن نرى أعضاء الاسرة يعملون فى مهن متباينة لاترابط بينها ولا أتصال ، وصارت

ظاهرة اجتماعية سوية أن نرى أحد اعضاء الاسرة ، يعمل فى التجارة ، وعضو ثان يعمل فى التدريس وثالثا فى الطب ، وآخر اخفق فى الدراسة واحترف مهنة صناعية ، وقريبا لهم يعمل فى حرفة يدوية كالتجارة أو الحياكة ، ونسيبا للاسرة يعمل فى الزراعة فى الريف او صيد الاسماك فى المدن الساحلية . وأصبحت القطاعات المهنية المتعددة تضم ابناء من مجموعة من الاسر المتباينة اقتصاديا واجتماعيا ، وأزيلت الفروق الطبيعية الجامدة فى المجتمع التقليدى ، ولم تعد الجماعات المهنية وحدات مستقلة ومنفصلة ، بل ساعد الحراك المهنى على ازدياد التقارب بين العاملين فيها ، وأصبحت أكثر ترابطاً ، وتماسكا عن الوضع فى المجتمع التقليدى

(ب) الحراك المكانى :

يرى سوروكين أن أهم صورة من صور الحراك الاجتماعى فى المجتمع الحضرى هى انتقال الفرد من اقليم إلى اقليم ، أو من حى لآخر . وظاهرة الحراك المكانى ظاهرة ينفرد بها المجتمع الحضرى الصناعى عن المجتمع التقليدى . فالحراك المكانى كان محدودا فى المجتمع القديم وكان الفرد يدين بالولاء للأرض التى يولد فيها ، ويمارس نشاطه الاجتماعى والاقتصادى فوقها . وكانت البيئة المحلية تتكون من مجموعة من الاسر ، تنشأ بعضها بجوار البعض الآخر ، ويعمل افرادها فى مهن متشابهة ، ويرتبطون برباط المصاهرة فى أغلب الاحيان ، ويندر أن يقيم بينهم عدد من الغرباء ، كما يندر كذلك أن يهجر الفرد موطن اسرته ومحل ميلاده . وساعد على انعزال هذه المجتمعات القديمة اقامة الاسوار حول المدن ، وبين الاحياء السكنية المختلفة ، وكذلك ضعف وسائل الاتصال بين الافراد .

وساعد تقدم المواصلات ، وازدياد استعمال السكك الحديدية والسيارات ووسائل النقل المائى ، وتعبيد الطرق ورصفها ، ونشأة مهن جديدة ذات أجور مرتفعة فى اماكن متفرقة ، تجذب عددا من الافراد للعمل بها ، على ازدياد الحراك المكانى الأفراد ، وهجرتهم من الاقاليم التى يقيمون بها مع اسرهم ، إلى موطن العمل الجديد ، ولاحظ علماء الاجتماع ان الافراد فى المجتمع الحضرى صاروا اقل

أرتباطا بالأرض التى ينشئون فوقها وزاد تحرك الافراد من بلد لاخر ، وزاد تغيير الافراد للوحدات السكنية ، وتبديلهم لجيرانهم وزادت المسافات التى يقطعها الفرد فى انتقالاته من مجتمع لآخر فى المجتمع الحديث ، مما يؤثر فى ولاء الفرد لاسرته ، وارتباطه بأقاربه.. ويرى نلسن ان المجتمعات التى لم تعرف الصناعة بعد ، وتقل فيها فرص العمل بالنسبة لعدد الافراد ، تدفع بأفرادها إلى التحرك إلى مواطن العمل الجديدة ، مما يؤثر فى قوة العمل فى هذه البيئة فيما بعد ، لقلة العاملين بها ، ويضعف من ارتباط الفرد بأقاربه واسرته فى المجتمع الاول ، لندرة اتصاله بهم ، وقلة علاقات المواجهة والعلاقات الاجتماعية المتبادلة معهم .

(ج) الحراك الاقتصادى :

أدى تغير نظام الملكية ، ونمو الملكية الفردية ، ونشأة نظام الأجور وتقييم العمل على أساس انتاج الفرد ، ومقدار مايبذله من مجهود ونشاط ، إلى تغير المراكز الاقتصادية للافراد . وازدياد الحراك الاقتصادى للافراد فى المجتمع الحضرى ، وصار طبيعيا فى المجتمع الحضرى أن تتغاير المراتب الاقتصادية للابن عن مرتبة أبيه لتغاير المهن التى يقوم بها كل منهما ، ويرى سوروكين أن تغير المراتب الاقتصادية يعنى أن التكوين الطبقى أصبح مرنا ، ومتغيرا ، وغير مستقر فى بعض أجزائه ، وأصبح سهلا أمام الفرد ان ينتقل إلى مرتبة اقتصادية أعلى من مرتبة أسرته ، بمقدار مايبذل من جهد ، ومايقوم به من نشاط فى مهنته ، وصار طبيعيا كذلك ان تنخفض مكانة الفرد الاقتصادية عن مكانة اسرته ، إذا مافشل الفرد فى مهنته .

(د) الحراك الفكرى :

يؤدى ازدياد استعمال وسائل الاتصال ، مثل الراديو ، والسينما ، والتليفزيون والصحف والكتب والمجلات ، وازدياد الاختراعات الحديثة فى العلوم والفنون ، إلى ازدياد فرص الحراك الفكرى ، ونعنى بالحراك الفكرى مقدار ودرجة وقوة ارتباط الفرد او الاسرة ، بالقيم والافكار التقليدية المختلفة .

وقد ساعدت الصحف والسينما والاذاعة ، على عرض نماذج فكرية واجتماعية فى أساليب جديدة من السلوك ، تغاير التقاليد المتوارثة عن الآباء والاجداد وعرف الجيل الجديد قيما جديدة ، وأفكار مستحدثة فى الأغنية المذاعة ، واتجاهات جديدة عن السلوك فى القصة والرواية والمسلسل التليفزيونى والفيلم السينمائى والمسرحية ، وأخرجت الصحف والأذاعة الفرد من البيئة المحلية التى يولد فيها ، ويقيم بين جدرانها ، إلى العالم الخارجى ، وأمدته بصور من الافكار والقيم والعادات لافراد يختلفون عنه فى العادات والتقاليد ، كما أدى ازدياد حركة الكشف العلمى ، والميل إلى التجديد ، والاضافات المستمرة فى العلوم التكنولوجية والانسانية ، إلى ضعف ارتباط الأفراد بالقيم القديمة ، واتجاههم نحو تقبل الافكار والمبادىء المستحدثة .

ويعنى ازدياد الحراك الاجتماعى فى المجتمع ، ازدياد تبادل الافكار فى المجتمع وتصارع وتعارض القيم بين الطبقات المختلفة ذات الثقافات المتباينة وازدياد فرص التلاقح المختلط للعقول فى الجماعات المختلفة . ويؤدى انتقال الفرد من وضع اجتماعى إلى وضع آخر ، إلى تغير مصالح الفرد وسلوكه نحو الجماعة الاصلية ، لكى يتلائم مع الجو الاجتماعى الجديد من حيث مستويات المعيشة ، والاخلاق ، والعادات ، والقيم ، بل يجب عليه ان يتخلى عن الافكار القديمة التى تربطه بالواقع القديم ، لكى يندمج مع الحياة الجديدة . ويؤثر الحراك فى صورة الاربعة فى عدم استقرار الاسرة ، وتغيير نظام الزواج ، ونجد فى المجتمع التقليدى الذى يستقر فيه النظام الاسرى ، أن نظام الزواج نظام مقدس ، ودائم ، ويندر التزاوج بين الطبقات والجماعات المختلفة ، ويأخذ الابناء حظهم من التعليم داخل الاسرة ويقل عدد الهيئات التى تقوم بتدريب وتأهيل أعضاء الاسرة فى سن متأخرة من حياتهم . وفى ظل هذا المجتمع تلعب الاسرة كهيئة تقوم بتدريب اعضائها دورا هاما فى حياة هؤلاء الاعضاء وتوجيههم ، وكان طبيعيا وعاديا أن يرث الابن وضع أبيه فى المجتمع . إلا أن الوضع تغير فى المجتمع المتحرك ، الذى لايستقر فيه نظام الاسرة ، ويشاع فيها الزواج بين الجماعات المختلفة ، وينال الابناء حظهم من التعليم خارج الاسرة ، فى المدرسة ودور الحضانة فى نظم متعددة .

ويقل دور الاسرة كهيئة تقوم باختيار أعضائها وتدريبهم ، ويندر أن يرث الابن وضع أبيه فى المجتمع ويقل التفاخر بالانتساب إلى الاسرة ، ويقيم الفرد فى المجتمع حسب قدراته ونشاطه .

المجتمع الحضرى : Urban community

المدنية ـ التحضر اسم ـ الحضرية صفة

يتميز المجتمع الحضرى بالكثافة العالية للسكان وتضاؤل فرص العمل الزراعي ، وتزايد التخصص المهنى الناجم عن تعقد نظام تقسيم العمل ، وتزايد قوة النظام التشريعى وسلطة الحكومة ، وتسود المجتمعات الحضرية ظاهرة اللاتجانس والتباين بين افراد هذه المجتمعات ، وسيادة العلاقات الثانوية اللاشخصية والاعتماد على اساليب الضبط الاجتماعى الرسمية .

ويعنى التحضر الزيادة الكبيرة فى نسب السكان المقيمين فى الحضر ومن الصعب تحديد المرحلة التى تتحول بها القرية إلى مدينة . والحقيقة ان الحضرية هى طريقة حياة وتسمى المدينة التى بها مقر حكومة الدولة ـ العاصمة وتقسم المدينة عادة إلى عدة اقسام والاقسام إلى شياخات والشياخة هى اصغر وحدة ادارية فى الحضر .

نمو المراكز الحضرية : Conurbation

وقد صاغ باتريك جيد هذا المصطلح ليصف البلدان التى اتسعت وتداخلت فيما بينها فى جنوب لانكشير . والان يعد هذا المصطلح مصطلحا فنيا مشهورا يستعمل لوصف المناطق الحضرية التى يكونها التحام البلدان لانتشار الصناعة والعمران . ورغم أن الضواحى تشمل الاماكن المفتوحة مثل الحدائق ، والملاعب ، فانها بالضرورة مناطق مكتظة بالمبانى . ولاتوجد الاراضى الزراعية إلا فى الأطراف المحيطة بها . وثمة تقرير خاص عن ست خواص كبيرة فى انجلترا وويلز تضمنه احصاء عام ١٩٥١ حلل فيها لندن الكبرى وتانسيد ، ومرسيسايد ، ومانشستر ، وغرب يوركشير ، وغرب ميدلاند ، هذه المراكز الحضارية التى تكون معا ٤٠٪

تقريبا من مجموع السكان الكلى فى انجلترا وويلز . وفى نشرات الامم المتحدة يستخدم مصطلح التكتل الحضرى دائما ، أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فيستخدم مصطلح المتروبوليتان .

المذهب الحيوى : Animism

ماقبل الحيوى / الحياتى : Animatism

- ترجع صياغة نظرية المذهب الحيوى إلى دراسة سير ادوارد تايلور ونجدها فى كتابه Primitive culture, 1871 . وهذه الفكرة جزء من نظريته عن الدين البدائى حاول فيها أن يفسر إيمان بعض الناس بوجود روح فى الحيونات والنباتات بل والاشياء الجامدة . وقد بين تايلور أن ثمة حاجة لدى الانسان البدائى لتفسير الاحلام ، والهلوسة ، والنوم والموت ، وقادته الحاجة إلى فهم هذه الظواهر إلى الايمان بوجود الروح او الشخصية الكامنة . وعندما يحلم الانسان ويرى فى حلمه شخصا ميتا ، فهذا يعنى أن روح الانسان أو نفسه تزوره . وبالمثل ، فعندما يحلم الشخص بوجوده فى مكان آخر ، فهذا يعنى أن روحه هو ذاته قد انفصلت عن الجسد أثناء النوم .

وقد حور بعض الانثربولوجيين هذه الفكرة ، وخاصة روبرت ماريت ، الذى صاغ فى كتابه The threshold of Religion 1914 فكرة وضعها من قبل فى عام ١٨٩٩ ، تلك هى نظرية المذهب الحياتى Animatism ، وهى مرحلة حيوية أولية من مراحل التطور الدينى . وقد افترض ماريت ان الانسان البدائى يشعر بالدهشة ، خاصة ازاء الموضوعات غير العادية او ازاء السلوك الشاذ للموضوعات الطبيعية ، مثل البراكين والانهار وهلم جرا . وزعم ان الانسان البدائى يعزو إلى هذه الموضوعات الطبيعية قوة روحية مساوية لقوة المانا Mana عند شعوب المحيط الهادى ، والتى وصفها الاسقف كودر ينجتون . فالمانا قوة تتميز كلية عن القدرة الفيزيقية ، وتفعل الخير والشر مستخدمة كافة الاساليب ، كما أنه من المزايا الكبرى تملك هذه المانا والسيطرة عليها . وتحسن المانا من صفات المحاصيل ، والاطفال ، كما تؤثر فى عملية نموهما .

وقد دعم هربرت سبنسر فكرة المذهب الحيوى تدعيما قويا ، وأكد أنها ظاهرة عامة ، وقد انتقدت فكرة المذهب الحيوى وماقبل الحيوى باعتبارها نظريات تتجاوز القدرة العقلانية . وأهم نقاد هذه النظرية هم أميل دوركيم ولوسيان ليفى بريل اللذان قدم كل منهما نظرية مختلفة عن الديانة البدائية .

الخؤولـة : Avunculate

تعبر الخؤولة عن علاقة خاصة مستمرة بين الإنسان وإخوة أمه فى بعض المجتمعات . ويستخدم المصطلح أحيانا ليصف سلطة الخال على أبناء أخته فى المجتمع الاموى ، وأحيانا ليصف علاقة الرفق والحنو الموجودة بين الخال وأبناء الاخت فى مجتمعات كثيرة ، والتى تتضمن مثلاً ، اتمتع بامتياز المزاح . ولكن هذا الاصطلاح يستعمل بالتحديد ليشير إلى أى علاقة مميزة محددة بين هؤلاء الاقارب .

الـدور والمركـز : Role & Status

يحقق لنا مفهوما الدور والمركز التقارب الوثيق بين الرأيين المختلفين فى تفسير المجتمع ، الأول الذى يرى المجتمع مجموعة من الجماعات والعلاقات . والآخر الذى يدرس المجتمع باعتباره مجموعة من النظم ويقدم لنا هذان المفهومان واللذان اكتسابا أهمية نظرية فى السنوات الحديثة نقاطا اساسية عند تحليل النظم ، ويكونان وحدات اساسية عند دراسة الجماعات .

وقد انبثق مفهوما الدور والمركز من ملاحظات اساسية معينة عن طبيعة النظم ، فعندما يدرس الشخص تباين المعايير الاجتماعية ومستويات السلوك فانه يبدو واضحا ان فئة قليلة نسبيا من هذه المعايير يستعملها الناس كلهم. فبعض هذه المعايير يستعملها عدد محدود من الجماعات ، كما يؤمن عدد ضئيل جدا من الاشخاص بعدد قليل جدا من هذه المعايير ــ فمثلا نجد أن احد المعايير العامة والذى يجد قبولا عاما ينص على « لاتقتل النفس التى حرم الله قتلها » . ويوضح لنا هذا المعيار أن القاتل مذنب مهما كان الذنب الذى دفعه إلى ارتكاب الجريمة ، وإذا ماأمسك به خضع لاقسى أنواع العقاب ، بيد أن هذا المعيار لايطبق

على أناس معينين مثل الجندى فى المعركة ، أو الشرطى أثناء أدائه لواجبه ، أو الزوج الذى يدافع عن شرفه ، يبين لنا الغرض الاساسى من كل هذه الامثلة ان المعايير الاجتماعية لاتطبق على الناس كلها الذين يشغلون اوضاعا اجتماعية معينة . وتدل المصطلحات التى استخدمناها ــ وهى الشرطى والجندى والزوج ــ على تلك الأوضاع الاجتماعية ..او بالمعنى السوسيولوجى المحدد إلى المراكز الاجتماعية فكل مركز من هذه المراكز ، سواء المركز الذى شغله الجندى أو الذى يحتله الزوج يشترط مجموعة من القواعد والمعايير التى تحدد كيف ان الشخص الذى يشغل مركزا معينا ، ينبغى عليه ان يؤدى سلوكا معينا ، ولايسلك سلوكا آخر ، ونحن نطلق على هذه المجموعة من المعايير التى تحدد السلوك مصطلح الدور . فالدور والمركز وجهان لعملة واحدة فالمركز هو الوضع الذى يشغله الشخص بالنسبة للاوضاع الاخرى ، أما الدور فهو نمط السلوك المتوقع من الاشخاص الذين يشغلون مركزا خاصا .

وترجع أهمية دراسة الادوار والمراكز انهما مفاهيم تمكننا من فهم السلوك الاجتماعى فى الموقف وليتسنى لنا فهم البناء الاجتماعى والشخصية معا ، كما يرتبط مفاهيم الادوار والمراكز بالقيم ، إذ تحدد مجموعة القيم السائدة مجموعة الادوار والمراكز والسلوك المرتبط بالدور أو المركز . ويشير الدور عادة إلى سلوك الشخص وإلى الاسلوب المنتظم إلى المشاركة فى الحياة الاجتماعية وطريقة اشباع الحاجات والرغبات حسب مجموعة المعايير والقيم . وإلى كل سلوك للشخص فى المركز الذى يشغله . إما المركز فيدل على المكانة أو الوضع الاجتماعى كما يبناه والذى يحتله الشخص فى النسق الاجتماعى . ويتضمن المركز مجموعة من الوظائف التى يؤديها الشخص ، وتفرض عليه مسئوليات محددة تجاه المراكز الاخرى .

ويرى لنتون ان كل دور اجتماعى يؤديه الشخص يرتبط بمركز اجتماعى محدد . وقد اختلف النفسيون والاجتماعيون حول تعريف الدور . فالنفسيون يرون الدور تصوراً يرتبط بالشخص ويعبر عن احتياجاته ــ أو هو اسلوب حياة الشخص . والاتجاه الثانى يرى أن الدور يدل على المطالب البنائية للسلوك اى المعايير والتوقعات التى ترتبط بمركز معين وهى شىء خارج الفرد ، وتقود الفرد إلى أداء

منظم . والدورهو أسلوب الفعل فى البناء ، وتحدده معايير المجتمع التى تضمن ثبات السلوك الانسانى ، وهو مرتبط بالبيئة الأجتماعية مادام يعبر عن الصورة المستقرة للسلوك .

ويرى ادوار تولمان ان الدور هو اسلوب السلوك المناسب والمتوقع بالنسبة لموضوعات معينة لمن يشغلون مراكز معينة فى النسق الاجتماعى ، وتحدد معايير المجتمع ، كما أوضحنا هذا التوقع وتضمن ثبات السلوك واضطراده .

وهناك من يقصر كل مركز اجتماعى على دور واحد ، وآخرون يرون ان كل مركز اجتماعى يستلزم مجموعة من الادوار ، ويرى ميرتون ان البناء يتكون من مجموعة من المراكز ومجموعة من الادوار ، وان شاغل المركز الواحد يؤدى مجموعة ادوار ولايؤدى دورا واحد .

والسلوك المرتبط بالدور يتماثل فى المواقف المتماثلة ، ويتباين فى المواقف المتباينة كما يختلف السلوك المرتبط بالدور وتتباين التوقعات المنتظرة من الاخرين باختلاف السن والجنس فى كل مجتمع . وكذلك من بناء لآخر ، ومن نسق لنسق فى البناء الواحد ، وهذا يعنى أن العناصر الاجتماعية التى تحدد السلوك متغيرة ، فهذه العناصر تختلف من دور لآخر كما تتباين هذه العناصر المكونة للدور الواحد من بناء لآخر . وهذا يعنى أن مكونات الدور أى العناصر التى تحدد السلوك تتأثر بالظروف البنائية والاجتماعية والنفسية ، فالسلوك المرتبط بالدور يتغير بتغير المراكز الاجتماعية للشخص ، وتغير علاقات الشخص فى اطوار النمو ، وتغير الحاجات الشخصية والقدرات .

وقد أكد بارسونز ان مكونات الدور تختلف باختلاف السن والجنس والمركز الاجتماعى ، وأوضح ان مكونات دور الام يتأثر بعدد الاولاد وأعمارهم كذلك يتغير محتوى الدور المهنى بتغير مكانة المرء فى النسق المهنى . فمكونات الدور المهنى الذى يقع فى قمة السلم المهنى والذى يرتبط بالمسئولية تختلف عن مكونات الدور الذى يقع فى ادنى مراتب السلم المهنى .

وكما يتغير مضمون الدور الواحد ، كذلك تتباين العناصر المكونة لكل دور ،

فمكونات الادوار التى ترتبط بصلة الدم والتى تعتمد على الصفات الشخصية المستقلة عن الاداء النفعى تختلف عن مكونات الادوار التى تؤكد الانجاز والاداء اكثر من تأكيدها الصفات الوجدانية والشخصية . ومن ثم تختلف مكونات الادوار المهنية عن مكونات الادوار الاسرية ، كما تختلف مكونات دور الزارع عن دور العامل الصناعي عن دور الجندى عن دور الطبيب عن دور المدرس عن دور الابن .

ولكن هل الادوار كلها من نوع واحد ، أم متباينة فى خصائصها ، اختلف العلماء فى تحديد معيار التصنيف . فهناك اتجاه يقسم الادوار إلى ادوار فطرية وادوار مكتسبه ، واتجاه يصنفها إلى ادوار نفعية ادائية وادوار وجدانية ، ولكل مجموعة من هذه الادوار صفات مميزة لها ، فالادوار المكتسبة تتسم بالانتشار والعمومية وتتطلب قدرات خاصة ، كما تهتم بالاداء والمشاركة فى مواقف التفاعل ويستطيع أن يقوم بها كل من الجنسين ، أما الادوار الفطرية الوراثية فتحددها العوامل البيولوجية ، وترتبط هذه الادوار بالصفات الشخصية مثل دور الام او الاب وتلعب الصفات البيولوجية دورا حاسما فى تحديد السلوك المرتبط بالادوار الفطرية، وتتضاءل اهمية هذه العوامل البيولوجية فى تحديد سلوك الادوار — المكتسبة — فالمجتمع الحديث لايميز بين الرجل والمرأة فى التخصصات المهنية المختلفة ولايفصل بين الجنسين فى مجالات التعليم . وقد أوضح بارسونز تباين سلوك الرجل والمرأة داخل البناء الاجتماعى ، ويضفى الجنس على سلوك الرجل والمرأة صفات معينة وتؤثر هذه الصفات على اداء كل منهما وقدرته على الانجاز ، كما تحدد توجيهات القيم مجالات انشطة الرجل والمرأة .

ومن هذا العرض نرى أهمية مفهومات المركز والدور بأعتبارهما ادوات يمكن بهما أن تتكامل رؤية المجتمع كجماعات وعلاقات مع رؤية المجمع كنظام . وكما أوضحنا من قبل ، فأن وجود انماط تنظيمية للسلوك تساعد الافراد ان يتوقعوا افعال الآخرين ، وأن يشكلوا سلوكهم وفقا لذلك .

وتحدد النظم تحديدا واضحا فى بعض الحالات طبيعة العلاقات التى يمكن ان توجد بين الذين يشغلون مراكز مختلفة ، كما تعرف تعريفا محددا كيف ينبغى أن

يسلكوا معا ، فمثلا السلطة الابوية جزء من نظام الأسرة كذلك تدمج العادات فى القوانين. ولذا يتعين على الرجل أن يحترم المرأة ، كما يتعين على القاضى الا يعطى أية ميزات إلى الخصم على اساس الدين او الجنس او الثروة ، وعليه ان يحكم بين الناس بالعدل ، كما يتوقع من الابناء ان يعتقدوا بوالديهما وأن يطيعوهما .

ولذا تحدد النظم والمراكز والعلاقات بينهما تحديدا واضحا ، كما تحدد أنواع الادوار المرتبطة بالسلوك الملائم لهذه المراكز .

الدولة أو القومية : Nation

وعندما يقوى الشعور بالانتماء على مجتمع محلى ، له تاريخ مشترك طويل يمتد عبر مئات السنين ، ويفتخر افراده بانجازات الجماعة وتتكون الرغبة المشتركة فى استمرار الجماعة وأن تؤكد مكانتها وان تستغل ثرواتها وتدعم قوتها ، ويتحدد شكل عام مقبول للحكم ، فعندئذ يطلق على هذا المجتمع المحلى اسم الأمة أو الدولة . وثمة مظاهر اساسية لوجود الدولة أو الأمة أهمها : الأرض واللغة المشتركة : سواء أكانت لغة عامية أو فصحى ، والتاريخ المشترك والتراث الثقافى والحضارى المشترك .

رأسمالية : Capitalism

ان هذا المصطلح يدل على شكل من أشكال المجتمع الصناعى تتميز فيه النسبة الكبرى من الحياة الاقتصادية بالخصائص التالية : تركيز وسائل الانتاج الاقتصادى (رأس المال) والسيطرة على رأس المال فى أيدى افراد من الملاك ، (أى ملكية غير حكومية) ، والموارد الاقتصادية والثروة يسيطر عليهما تقلبات السوق الحرة ، والعمل يؤديه عمال أحرار أسما يبيعون خدماتهم فى السوق ، والحد الاقصى للربح هو هدف النشاط الاقتصادى وحافزه .

وفى الرأسمالية الكلاسيكية كانت الوظائف الاقتصادية للمجتمع يقوم بها منتجون كثيرون صغار نسبيا ، ومختلفون اختلافا كبيرا . فكل منتج يملك مشروعه التجارى ويسيطر عليه سيطرة كلية أو جزئية ، ويتحمل كافة المخاطر وأرباح نشاطه . وكانت تقلبات السوق الحر التى تحدد كمية ونوعية السلع

المعروضة ، والتى يحدد فيها السعر على أساس الطلب من جانب المستهلكين والمنافسة من جانب المنتجين ، تحقق السيطرة والتنافس على أنشطة وقرارات كل من المنتجين والمستهلكين إلى حد كبير . والأمر الضرورى فى هذا النظام هو الوحدة المالية التى تعمل كمصدر للثروة ووسيط حسابى لقياس ربح المشروع وخسارة الشركة .

ودور الحكومة فى مثل هذا الاقتصاد ، إذا ماقورن مع النمط الاقتصادى الاشتراكى دور ثانوى ، يقتصر عادة على ازالة العقبات التى تحول دون تطبيق العملية الاقتصادية تطبيقا كاملا بلا عائق . ان اليد الخفية للسوق الحر هى التى تكفل تكيف الانتاج ليلبى الرغبات الإنسانية .

وقد شاهد القرن التاسع عشر مجتمعات اقتربت اقترابا وثيقا من النمط المثالى للرأسمالية الكلاسيكية ، ولاسيما فى أجزاء من أوربا الغربية ، وخاصة فى انجلترا والولايات المتحدة . وقد استعمل المصطلح فى تلك الفترة ايضا ، استعمالا عاما فى كتابات الاشتراكيين الاوائل . بيد أن ، عدداً من الكتاب ، قد رأوا ان عناصر الراسمالية قد وجدت قبل القرن التاسع عشر . وقد رأى هنرى بيرن مثلا ، ان كل السمات الاساسية للرأسمالية — والمشاريع الفردية ، وتقديم الائتمان ، والارباح التجارية ، والمضاربة .... الخ .قد ظهرت ابتداء من القرن الثانى عشر ويرى هنرى بيرن وماكس فيبر وورنر سومبارت ، وآخرون ان العناصر الرأسمالية يتعين أن توجد فى معظم المجتمعات التاريخية . بيد أنهم يسلمون بأن التركيب الكلى المعقد للسمات المعروفة بأسم الرأسمالية لم توجد على نطاق المجتمع إلا فى أوربا الغربية أبان الثورة الصناعية وبعدها .

وقد شاهدت الخمسون سنة الاخيرة مشاركة متزايدة من الحكومات فى توظيف اقتصاديات المجتمعات الرأسمالية ، وشجع على ذلك ، إلى حد ما — الرغبة فى تجنب النتائج السيئة للكساد الدورى الذى تعانى منه الرأسمالية . وإلى جانب هذه المسئولية الحكومية المتزايدة ظهرت نزعة المشاريع الرأسمالية نحو التوسع فى مجالها حتى صار المشروع الصغير ، والذى يملكه ويسيطر عليه فرد واحد ، مشروعا ثانويا إلى جانب الشركات المساهمة الكبرى أو الشركات متعددة

الجنسيات التى تسيطر عليها جماعة من المديرين يمارسون سيطرتهم لصالح الملاك الشرعيين ، أى حملة الاسهم .

ولقد انصبت الدراسة الاجتماعية للرأسمالية على نشأة الرأسمالية وتطورها . ورأى فيبر فى كتابه الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية The Spirit of Capitalism ، والذى ترجم إلى الانجليزية عام ١٩٣٠ ، أن أصل الرأسمالية ، على الأقل وإلى حد ما ، يرجع إلى نشأة التقشف البروتستانتى فى أوربا ، وخاصة فى انجلترا ، وبين ان الاخلاق الكالفانية فى التقشف ، وزيادة النشاط فى العالم تمجيد الله ، أتاحا الفرصة لتغيز دنيوى شكل روح الرأسمالية الذى يتمثل فى فكرة ان العمل الشاق الذى لايعرف الكلل يحمل فى طياته مكافاته الذاتية . وكانت هذه الروح مقترنة بفكرة العقلانية ، وهى السمة المميزة لرأسمالية القرن التاسع عشر . وقد ينجح فرض فيبر إلى حد ما فى تفسير عملية تكوين رأس المال إذا ماتخلى بعض أعضاء المجتمع عن الاستهلاك الحاضر فى مقابل مواصلة زيادة الاستثمار الرأسمالى ، وقد اعتبرت هذه العملية عند كثيرين عملية ضرورية لبدايات الرأسمالية . وكان العمل عند البروتستانت الزاهدين وخلفائهم من الدنيويين موضوع دراسة فيبر ، نشاطا يحمل فى طياته مكافأته الذاتية دون النظر إلى مايحمله من منافع مادية . ونتيجة لذلك ، فالزيادة فى الثروة تميل إلى أن تنساب فى قدرة انتاجية اكبر بدلا من الزيادة فى الاستهلاك .

وقد عزز سومبارت أيضا الاهتمام بالروح التى ألهمت عصر الرأسمالية كله تلك الروح التى تربط الجسارة والمخاطرة بالعقلانية والروية .

ومن المرجح ان أفضل كاتب معروف كتب عن الرأسمالية وتطورها هو كارل ماركس الذى بين أن السمة الرئيسية للرأسمالية ، بل ولكل مجتمع من نمط أخر هى فى الواقع العلاقات الاجتماعية للانتاج ، أى أساليب تملك وسائل الانتاج والسيطرة عليها . وتلك العلاقات هى التى تكون أساس نشوء الطبقات الاجتماعية ، وهى فى النظام الرأسمالى علاقات اجتماعية بين من يملكون رأس المال ومن لايملكون ، أى علاقات اجتماعية بين البرجوازيين والبروليتاريا . وفى ظل القوانين الاقتصادية الراسخة فى الاقتصاد الرأسمالى ، يتعين على البرجوازى ،

ليحقق الربح ، أن يدفع للعمال أجورا أقل من القيمة الحقيقية لانتاجهم. وبتأثير الظروف التى أدت إلى ظهور التنافس وهبوط حدود الربح ، والتى تميز المراحل الاخيرة من الرأسمالية ، قل عائد العمل شيئا فشيئا ، ونتيجة لذلك ، فان طبقة البروليتاريا ، تحت وطأة تزايد فقرها ، قد تثور ، لتحطم النظام .

وتمييز المجتمعات التى تحتوى على عناصر رأسمالية ولكنها لاترتقى إلى مستوى نمط الرأسمالية الحديثة ، أو التى تظهر فيها سمات مختلفة أخرى ، غالبا مالجأ الكتاب إلى مصطلحات تصاغ فيها كلمة الرأسمالية صياغة ملائمة تتمشى مع المعنى فمثلا ميز فيبر بين الانماط الاخرى للرأسمالية ، ففرق بين الرأسمالية التى تقوم على السلب والنهب ، وهى نسق فيه تكتسب الثروة بتمويل الحروب توقعا للغنيمة ، والرأسمالية الاستعمارية ، وهى نسق فيه تستغل المستعمرات استغلالا اقتصاديا ، ويستفاد من النظام الزراعى . وقد ميز كتاب أخرون بين انماط مثل رأسمالية الرفاهية ، وهى نظام اقتصادى فيه تتحمل الدولة مسئولية زائدة فى الرفاهية الاقتصادية ، عادة على شكل سياسات تخطيطية تعد لتخفيف النتائج السيئة لسوء توظيف الاقتصاد ، والرأسمالية الادارية ، والتى فيها يتركز الانتاج فى أيدى شركات مساهمة كبرى يديرها المديرون ، ورأسمالية الدولة ، وهى نسق تتولى الدولة فيه أمر وسائل الانتاج تستغلها لصالح الطبقة التى تسيطر على الدولة . وقد رأى سملسر فى كتابه Sociology of Economic Life أن النزعة السائدة لخلق نعوت تعترف بالرأسمالية وربط الرأسمالية بالافكار السياسية ، تجعل هذا المصطلح غير ملائم للتحليل الاجتماعى الدقيق .

واحيانا ماتستخدم الرأسمالية ، مرادفة لمصطلحات مثل سياسة عدم التدخل ، والسوق الحرة ، ودافع الربح ، والمشروع الخاص ، .... الخ بيد أن هذه الاستعمالات ترتكز على خاصية واحدة من خصائص الرأسمالية وتستبعد الخصائص الاخرى ، ومن الممكن ان نجد أيا منها فى أنواع أخرى من الأطر الاقتصادية والتنظيمة مختلفة اختلافا كليا .. فمثلا ، من الممكن ان نجد « سوق حر » خارج نطاق نظام الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ويشير « دافع الربح » إلى خاصية الدوافع وراء الأنشطة الاقتصادية ، وكما اشار فيبر ، فان الربح ليس

متصورا على الرأسمالية ، أما مصطلح عدم « التدخل » فيدل على فلسفة اقتصادية تدعو إلى ازالة كل العقبات ، وخاصة العقبات الحكومية ، من أمام نشاط الممولين .

وثمة نقطة خلاف حول مدى تداخل المظاهر السياسية وغير الاقتصادية الأخرى للمجتمع فى فكرة الرأسمالية . وقد أوضح فريدمان فى كتابه Capitalism and Freedom 1963 » ان الحرية الاقتصادية هى وسيلة حتمية لتحقيق الحرية السياسية وقد صدق على هذه النظرية فون هايك فى كتابه The road to serfdom ، كما يرى غير أن الديمقراطية فى أوضح اشكالها يمكن ان توجد فى ظل الرأسمالية ، والأمر هام يستند على أساس من الواقع ان الطابع الخاص بالخصائص الاجتماعية فى اوربا الغربية والولايات المتحدة ، والذى يتضمن النمط الاقتصادى الرأسمالى ، يوجد متلازما مع انساق سياسية ديمقراطية بدرجات متفاوتة . بيد أن هذا لايثبت اطلاقا أن الشكل الرأسمالى للتنظيم الاقتصادى ضمان كاف وضرورى للحرية السياسية .

الروابط والجماعات الأولية : Association and Primary groups

تعرف الروابط بأنها جماعات منظمة تسعى إلى تحقيق مصلحة معينة او تبغى الوصول إلى عدد من المصالح ، ويمكن ان تتعارض الرابطة مع المجتمعات المحلية أو مع المجتمع بالمعنى الواسع . ونقابات العمال والحزب السياسى وجماعات المثقفين ، ومنتديات رجال الأعمال والاندية السياسية وجماعات رعاية الطفولة ، كلها نماذج واضحة للروابط .

وتتباين الروابط فى الحجم ، كما تختلف معا فى اهتماماتها والانشطة التى تقوم بها وفى شكل التنظيم . ولكن يمكن وصف أغلب الروابط بأنها جماعات ثانوية لها تنظيم رسمى . ولما كانت هذه الروابط تتكون لتحقيق مصالح معينة ، فان الافراد يلتقون معا فى بيئة محددة ولأغراض محددة وتوصف العلاقات بأنها علاقات رسمية لا شخصية ، بينما تتشعب الادوار ، كما إن هناك قواعد واضحة تحكم سلوك الاعضاء ، ويمكن ان نشاهد المثال الشائع للتنظيم الرسمى للرابطة فى البناء

الاجتماعى للشركة الحديثة حيث التخصص فى واجبات السكرتيرات والعاملات على الالة الكاتبة والاداريين ، وهيئة الاستقبال والكتبة ، فكل منهم نظام محدد من السلطة والمسئولية ومجموعة محددة وواضحة من القواعد والتنظيمات .

وثمة تباين قوى يصل إلى حد التناقض بين الجماعة الثانوية والجماعة الاولية ، والتى تتميز بالصغر وعلاقات المواجهة والود ، ولايلتزم افرادها بالتزامات تعاقدية ولكن يربط بينهم شعور عام بالولاء المشترك ، والعلاقات هى علاقات شخصية تلقائية . والاسرة وجماعات الاصدقاء نموذجان واضحان للجماعة الاولية . وتشترك الجماعة الاولية عادة فى بعض الصفات مع المجتمعات المحلية ، والتى تعد فى الحقيقة نوعا من الجماعة الاولية ، أو هى مجتمع تبرز فيه الجماعات الاولية . وتتصف العلاقات بأنها أولية ، لأنها توجد فى كل المجتمعات ، كما أنها توفر البيئات الاجتماعية والنفسية الاكثر أهمية لتجارب الافراد .

وتتميز أغلب الجماعات الاولية بأنها جماعات غير رسمية ، وهى تظهر دائما التفاعل المستمر الذى يتيح الفرصة لظهر انماط منتظمة من السلوك والشعور بالذات . وتكمن أهمية الجماعات الاولية فى طبيعتها التلقائية ، ووجودها فى كل الاماكن وفى جميع الاوقات ، فهى توجد حيثما واينما يتفاعل الناس معا .

ويعبر هذا المصطلح عن عملية أو وحدة . فالعملية يتفاعل فيها الافراد لتحقيق غاية محددة أو مجموعة من الاغراض . إما الوحدة فأنها تنظيم من الأفراد قد التزموا سويا بمجموعة من القواعد التى قبلوها لتحكم سلوكهم فيما بينهم لتحقيق غاية محددة أو مجموعة من الأغراض .

ورغم ان بعض الروابط كبيرة وشاملة لكنها قد لاتعبر عن مجموعة العلاقات التى تكون الحياة الكلية للمجتمع المحلى ، ومن ثم فعلينا أن نفرق بين الرابطة والمجتمع المحلى . وقد آثر تونيز استخدام المصطلح الالمانى Gesellschaft مرادفا للمصطلح الانجليزى Society ليعبر عن المجتمع ، والذى يتناقض مع المصطلح Gemeinschaft الذى يدل على المجتمع المحلى وغالبا ماتصنف الروابط حسب الوظيفة ، مثل الروابط المهنية ، والروابط الدينية ، والروابط الترفيهية والروابط الثقافية ... الخ .

الروح الملهمة : Charisma

روتينية الالهام : Routinization Ç charisma

(Charisma) كلمة مشتقاة من اللغة اليونانية القديمة وتعنى الفضل الالهى وقد استعملها لاول مرة فى الأنجليزية ارنست ترولتش وأخذ بها ماكس فيبر ليدل على القدرة على القيادة بتأثير قوة الشخصية المحضة والايمان دون حاجة إلى حوافز مادية او الالتجاء الى القسر . ومن ثم فالقائد الملهم هو القائد الذى لايوجد لديه اى جهاز منظم تحت تصرفه ، والذى لاينال قوته من قوة الاجراءات التنظيمية ، وهو الذى يقنع الناس بالايمان برسالته ، وينال طاعتهم بالاقناع . وقد تتوافر هذه المعايير فى كل مؤسس للمجتمعات العقائدية طالما أنهم لم يؤسسوا جهاز قمع أو ينالوا ثروة . فالمسيح مثلا يعتبر قائدا ملهما بكل معنى الكلمة ، وايضا كان محمد ﷺ ، وكذلك كان غاندى قبل أن ينال تدعيم الحزب له ، ولينين قبل أن يعود إلى روسيا ، ومع ذلك ظلت قوة الثلاثة الاخرين قوة ملهمة ، وعكس القائد الملهم هو الطاغية الذى يحكم بالعنف الواضح والخوف الذى يثيره ، أو الحاكم الذى يطاع لمجرد المركز الذى يشغله بصرف النظر عن قدرات الحاكم الشخصية .

وكما أشار فيبر ، تظل القيادة ملهمة نقية إلى حد كبير طالما ان عدد الاتباع صغير ، أى فى البداية الاولى للحركات الناجحة ، إذ أن خلق جهاز ادارى ، وحيازة الاموال يفتح امكانيات ممارسة القهر مثلما يتيح تقديم الأغراءات المادية . وفضلا عن ذلك فان مجرد استمرار التدرج الهرمى للسلطة يولد عادات الطاعة للمركز الذى سرعان مايكتسب قوة القصور الذاتى مستقلا عن الصفات الشخصية لمن يشغله . ويطلق عادة على تحول القيادة من الالهام إلى قيادة تنظيمية روتينية القيادة ، رغم ان التزييف أو التخفيف من أثرها قد يكونا مصطلحين اكثر دقة .

ويعتبر مصطلح الروح الملهمة مبهما ومضللا إذا استعمل بلا تفرقة ، كما يحدث عادة ، ليدل على الظواهر المتباينة ، مثل اى نوع من الطنطنة التى تحيط بمركز معين ، والقدرات الخارقة التى تنسب للملوك والكهنة ، أو مجرد المركز أو

الوضع القانونى ، ومن ثم يصير تعبير روتينية الالهام لامعنى له .

وباستثناء مؤسسى الطوائف الصغيرة فان القادة لن يكونوا ملهمين إلا فى حدود ضيقة . ويرى كثيرون من مؤيدى ديجول وعبد الناصر انهما يتمتعان بقدر كبير من الالهام ، ولكن يوجد تحت تصرفهما ايضا قوة الشرطة وجهاز الدولة الداخلى لفرض اوامرهما. كما أظهر التطهير الدامى فى المانيا فى عام ١٩٣٤ أن هتلر لايعتمد على إلهامه فقط ، حتى فى علاقاته مع رجال الاحزاب الاقوياء . ومع ذلك فقوته التى يمارسها على أغلب الالمان تتميز بقدر كبير جدا من الإلهام، ولو أن قوته التى يمارسها على الدول المهزومة والاحزاب المعارضة تقوم على العنف الصريح .

الزواج الأحادى: Monogamy

الزواج او النكاح كما يسمى فى الشرع الاسلامى عقد مدنى لفظى او خطى بين رجل وأمراة بالغين راشدين يحفظان به على عفافهما وصلاحهما ونسلهما ، ويترتب على هذا العقد تكوين الاسرة ، وشروط صحة العقد اربعة :

١ ــ أمراة خالية من الموانع ، أى ليست متزوجة ، ولم تنقض عليها المدة الشرعية بعد طلاقها أو وفاة زوجها . وليست محرمة من نسب او رضاعة أو مصاهرة (الاتيان ٢٢ ــ ٢٣ من سورة النساء) .
٢ ــ الايجاب من المرأة والقبول من الرجل ــ فالزواج لايتم بالاكراه .
٣ ــ شاهدان على العقد عند أهل السنة .
٤ ــ المهــر .

تعدد الزوجات :

اجاز الاسلام تعدد الزوجات للضرورة ثم قيده بشروط ، ويؤخذ الحكم فى تعدد الزوجات من الاية الثالثة من سورة النساء، «وإن خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .... » على أن تتمة الاية نفسها تنفير من تعدد الزوجات ، « فإن خفتم الا تعدلوا فواحدة ... » وإذا لم

تستيقنوا من انفسكم فى تحقيق العدالة فى المعاملة والنفقة والمسكن إذا تزوجتم بأكثر من واحدة ، فاقتصروا على زوجة واحدة « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » سورة النساء أية ١٢٩ .

على أن هناك احوال استثنائية تدعو إلى تعدد الزوجات : أولها إذا كثرت النساء بعد الحرب ، كان الاولى أن يجمع الرجل فى عصمته اكثر من امرأة ، لئلا تكون من النساء الزائدات عن عدد الرجال عالة على عواطف المتزوجين أو فريسة لكبت نفسى . ثانيا إذا نزل بالزوجة مرض او عاهة حالت بينها وبين الحياة الزوجية ، ولم يجد الزوج من الوفاء ان يطلقها . ثالثا إذا كانت الزوجة عاقرا ويحرص الزوج على الذرية . فتعدد الزوجات شرع للضرورة لا للمتعة .

زواج التكافؤ : **Connubium**

المرادف الانجليزى لهذه الكلمة من اللاتينية وتعنى الزواج ، وتشير فى الانثربولوجيا إلى حق والتزام اعضاء طبقة من الرجال فى اختيار زوجاتهم من طبقة معينة من النساء . ويقال حينئذ ان الطبقتين بينهما رباط زواج . وقد ينشأ ولاء المصاهرة المحدد من الروابط التى تقوم بين جماعات سلالات النسب المكونة من مثل هذا الزواج . ولنا أن نقابل بين انساق الزواج المغلقة من هذا القبيل وانساق الزواج المفتوحة.. أو أنساق الزواج التى تقوم على حرية التفضيل حيث يمكن ان يتم اختيار الزوجة من مجال أوسع .

وفى القانون الرومانى المدنى كان الزواج المتكافىء بين الطرفين شرطا لصحة الزواج . فالقانون يحدد الطبقات التى يجوز ان يتم بينها التزاوج .

وتعد قصة زواج الشيخ على يوسف اوضح مثال على زواج التكافؤ فى مجتمعنا . وخلاصة القصة ان الشيخ على يوسف وهو رجل كهل ، تزوج فى بداية هذا القرن بالسيدة صفية بنت الشيخ السادات . وهي بنت بلغت سن الرشد . وبرضاها دون رضا أبيها . واعترض أبوها على هذا الزواج وطلب فسخ الزواج لعدم تساوى الزوجين فى الكفاءة ، إذ هى شريفة من نسل النبى وهو ليس شريفا .

سلطة : Authority

شرعية السلطة : Legitimation of Authority

من الاشكال العظمى للقوة لاداء افعال السلطة ، أى ممارسة السلطة وبها تتخذ افعال الكثيرين من الاشخاص الفاعلين صفة الامر أو تكريس الجهد الجماعى لتحقيق هدف خاص أو أهداف عامة .

والاساليب الكبرى للامر بالافعال او تكريسها هى :

١ ـــ التبادل ، ٢ ـــ المصالح المشتركة ، ٣ ـــ التماسك أو الاتفاق الذى ينبع من : (أ) التعاطف . (ب) المجتمع المحلى الاصيل . (ج) جماعة العقيدة . (د) الجماعة المدنية . ٤ ـــ القوة وبظهورها : (أ) التأثير . (ب) السلطة . (ج) الضبط القسرى .

ويتواجد التبادل عندما يؤدى كل فاعل فعلا لخدمة الآخر أو لصالحه أثناء تبادل العلاقات . وتؤدى المصالح العامة دورها عندما يدفع كل فاعل إلى أداء الفعل المتوقع أملا فى اكتساب ميزة من طرف ثالث أو مصدر آخر خارجى . ويؤدى التماسك دوره بأعتباره حافزا لاداء فعل مطلوب أو مفروض . ومتفق عليه ، عندما يعتقد ان نفعا سيحل على الجماعة أو الرفاق والآخرين بأعتبارهم أعضاء جماعة ، كما يتعين أن تتكون الجماعة من روابط التعاطف ، أو الروابط الاساسية (مثل القرابة والسلالة والاقليم) ، أو من الايمان المشترك برموز مقدسه ، أو العضوية المشتركة فى جماعة مدنية .

ولايحدث الأمر بالافعال أو سنها إلا من القوة التى يتمتع بها فاعل أو مجموعة من الفاعلين غير أولئك الذى ينبغى أن يؤدونها وممارسة السلطة هو شكل القوة الذى يستلزم :

١ ـــ تقديم انماط او نماذج أو اوامر من خلال عرض أفعال نموذجية محسوسة أو مثل مجرده أو أسوات حسنه يقتدى بها كذلك قد. يعمل التأثير السطوى من خلال تأثير السلطة

٢ ـــ توافر الذكاء والخطط العامة مثل (الخطط المعروضه للمناقشة العامة

والبرامج التكتيكيه والاستراتيجيه) والتى قد تدمج فى الاساليب المقررة السابقة . والضبط القسرى قد يعمل خلال اوامر يعتقد انها تفرض بقوة الجزاءات مثل حجب المكافآت والحرمان من الدخل أو الظروف المرغوبة (مثال ذلك الحراك الفيزيقى او الرفاهية الفيزيقية) أو من خلال السيطرة على الظروف التى ينبغى أن يتكيف معها الفاعلون أنفسهم على نفقتهم الخاصة .

فالسلطة هى ذلك النوع من القوة الذى يصدر اوامر أو يلزم الآخرين بأفعال مؤثرة لأن هؤلاء الذين أمروا بها يرون هذه الاوامر شرعية قانونا . وتختلف السلطة عن الضبط القسرى لان الضبط القسرى يتضمن الانصياع لاوامر الطالب ووصاياه نظرا لقدرته على الثواب والعقاب . وهذا التميز تمييز تحليلى ، لأن السلطة والضبط القسرى بمقتضى فحواهما يوجدان جنبا إلى جنب فى ارتباطات كثيرة .

ومن ثم فالسلطة من تعريفها سلطة شرعية . وتطبيق الاساليب الاخرى فى آن واحد مع استخدام السلطة يؤثر على فاعلية السلطة فى ضبط أفعال أولئك الذين توجه اليهم السلطة . وهكذا فالسلطة (الشرعية) قد يدعمها تطبيق اساليب التبادل المقبولة السارية بين من يمارس السلطة والشخص (أو الأشخاص) الخاضعين ، فمثلا قد يتلقى الخاضعون مرتبا معينا أو اجوراً أو مهايا فى مقابل اداء أفعال معينة . وقد يكون لممارس السلطة أو الشخص الذى يخضع لها مصالح مشتركة (رغم اختلاف نصيب كل منهما) فى ادراك هدف جماعى مثل كسب المعركة او تحقيق برنامج اقتصادى . وقد يرتبط ممارسة السلطة والخاضع لها ارتباطا متماسكا يحققه مجهودهم المشترك فى كسب مباراة او تحسين نوعية التعليم بالجامعة ، وقد توجد بينهم روابط تعاطف شخصى أو وحدة سلالية ... الخ

وفى كل هذه الحالات ، فالتطبيق السارى لهذه الاساليب المقبولة ، من ممارسة السلطة الشرعية قد يُقوى أو يضعف الدافع للتوافق مع الاوامر الصادرة من ممارس السلطة . ومن ثم سيتدعم او يضعف الدافع إلى أداء فعل خاص ، وعلينا أن ندرك أن الاساليب المختلفة لاتطبق تطبيقا متجانسا . وهكذا ، فقد لاتوجد

مصالح مشتركة بين ممارس السلطة والشخص الخاضع للسلطة ، بل قد يكره كل منهما الأخر ، كما إن كلا منهما قد يختلف فى سلالته عن الآخر . وقد يشتركان معا فى علاقات متبادلة لايرضى عنها الشخص الخاضع بمعنى أن المكافأة التى يتلقاها غير مجزية فى اعتقاده مقابل الفعل الذى يطلب منه أن يؤديه .

وعلينا ان ندرك كذلك ان ممارسة الضبط القسرى قد تكون فى تناسق او تنافر مع ممارسة السلطة الشرعية . كم يمكن أن تؤدى ممارسة سلطة الضبط القسرى بصورة غير منتظمة إلى الارتياب فى شرعية سلطة ممارسة الضبط القسرى ، مما يؤدى إلى مقاومتها ، ولكن فى الوقت ذاته ، فالضبط القسرى يحتفظ بجزء كبير ومؤثر من شرعيته .

وتعد شرعية السلطة فى نهاية أمرها مسألة إيمان بمدى عدالة النسق التنظيمى الذى من خلاله تمارس السلطة وبمدى واحقية الممارس لاداء الدور التسلطى داخل النسق التنظيمى وأخيرا بمدى شرعية وعدالة الامر ذاته او طريقة اصداره .

ولقد صنف ماكس فيبر أنماط شرعية السلطة إلى سلطة تقليدية وسلطة قانونية عقلية ، وسلطة ملهمة . وينشأ النمط التقليدى للشرعية من الاعتقاد بأن نظم السلطة مستمرة مع نظم تكونت منذ وقت طويل أو ان الأوامر التى يعلنها صاحب السلطة متطابقة بصفة جوهرية مع أوامر يعتقد أنها سارية منذ وقت طويل ، أو أنه يمارس هذه الأوامر طبقا لقدرة مميزة يمتلكها رؤسائه او اسلافه منذ وقت طويل جدا ممن يرتبط بهم ارتباطا شرعيا .

اما النمط القانونى العقلى للشرعية فيستند إلى الايمان بأن النسق التنظيمى لممارس السلطة ، وحيازة رئيسه لسلطاته ، وتشريع الامر او القاعدة — كل هذا — يتوافق مع قواعد او احكام عامة .

ويعتمد النمط الالهامى للشرعية على الايمان بأن ممارس السلطة يتصف بخواص مقدسة ، واللائحة او الامر الذى يعلنه له قدسيته .

وفى كل الحالات الثلاث ترتكز شرعية نسق نظم السلطة ، على تولية الرؤساء

لمكانتهم وتحقيق وتشريع اللائحة او الامر على أساس من عقائد تدور حول رباط مباشر أو غير مباشر مع قدرة شرعية مطلقة . وقد تكون هذه القدرة الشرعية المطلقة هى ارادة الله ، أو مؤسس الاسرة الحاكمة أو المجتمع ، أو القانون الطبيعى او ارادة الشعب ... الخ . وبعبارة اخرى فالنمطان التقليدى ، والقانونى العقلى لشرعية السلطة يرتكزان على عقائد تدور حول ارتباط يعزو إلى مصدر مقدس اى يرجع إلى مصدر روحى . وهما يختلفان عن النمط الروحى للشرعية-من حيث ان ارتباطهما بالمصدر المقدس ارتباط غير مباشر أو معتدل ، أى بالروح الملهمة ، فى مقابل ارتباط السلطة الملهمة الشرعية بالمصدر المقدس ارتباطاً مباشرا وقويا .

ويجرى كل الحكام والرعايا ، أى ممارسوا السلطة والخاضعون لها تجربة الحاجة إلى الاعتقاد بشرعية السلطة التى يمارسونها او التى يخضعون لها .

فالحكام يجربون تلك الحاجة لانهم يرون فيها تدعيما لقدرتهم ، وأيضا لان لديهم حاجة ذاتية للاعتقاد بأن مايفعلونه حقا ، أى حسب قانون أعلى معين . فهم محتاجون لان يبرروا لانفسهم تصرفاتهم . أما رعاياهم فلديهم حجة مماثلة ليروا نظاما فى العالم الذى يعيشون فيه ، يضفى على وضعهم معنى ، ويجعله مقبولا لديهم ، ويبرر حرمانهم الذى يعانون منه فى وضعهم كاتباع بأندماجهم فى نمط واسع . وعليهم أن يؤمنوا بنمط سائد فى شئون الدنيا . ويرجع ذلك إلى حاجاتهم الواعية للنظام من ناحية ، وإلى حاجتهم أن يروا معنى لوضعهم الخاص فى العالم وإلى نصيبهم الذاتى فيما يقدمونه للحياة من خير وشر من ناحية أخرى . ولذلك فأنهم يرغبون فى رؤية القدرة بحيث تطبق عليهم تطبيقا شرعيا ولايرغبون فيها إذا كانت تطبق عليهم تطبيقا غير شرعى :

على أنه غالبا مايرى أولئك الذين تمارس عليهم القدرة أنها غير شرعية ومن ثم ينظرون اليها باعتبارها ضبطا قهريا قسريا بدلا من كونها سلطة شرعية . وينبغى ان تصنف القدرة فى نمط عام أكبر أو نظام ذو معنى لتصير شرعية ، وإذا فشلت القدرة فشلا ذريعا فى التوافق مع هذا النظام ، تصبح دعوتها للشرعية مرفوضة .

وتعتبر القدرة ضبطا قسريا لاسلطة شرعية عندما يصدر عنها عمل مجحف أى

عندما تتناقض مع القواعد العامة العظمى فيما يتعلق بتوزيع الادوار ، والمكافآت وتقديم التسهيلات . وكذلك تفقد شرعيتها عندما يفشل أو يضعف تأثيرها فى المحافظة على النظام أو فى توزيع الادوار والمكافآت . وثمة نزعة لاعطاء الضبط القسرى الفعال طابع الشرعية ، أى أن يضفى عليه الخاضعون له طابع الشرعية ، عندما ينجح فى حفظ النظام ، حتى ولو كان هذا النظام ضارا لكثيرين ممن يعيشون فى ظله .

ولايوجد مجتمع تلقى فيه شرعية القدرة قبولا عاما من جميع أفراده ، فالثغرات التى تطرأ على التماسك تخلخله وتضعفه ، سواء أكان هذا التماسك بين افراد السلالة او بين أنصار العقيدة ، بالتالى تضعف من صفة الشرعية ، وبالمثل فالاعتقاد بوجود مصالح متضاربة بين القادرين وبين من تطبق عليهم قدرتهم قد يحول دون اضفاء الشرعية عليها . ويؤدى فشل حكام نظام معين فى اقامة أو بقاء شرعية النظام الذى ابتدعوه ، إو الذى يرون أنفسهم مسئولين عن ابداعه والحفاظ عليه ، إلى جعل هذا النظام أقل استقرارا ، كما يساعد فشل تأكيد شرعية النظام على احتمال استبدال نظام جديد وحكام جدد بالنظام القديم والحكام القدامى .

الشخصية: Personality

يعرف هوترل هارت الشخصية بأنها تنظيم ديناميكى للافكار والاتجاهات والعادات وتتكون الشخصية من جزئين . الجزء الأول ويتكون من الميكانيزمات البيولوجية والنفسية والفيزيقية الفطرية عند الفرد والجزء الآخر ويتكون من الانماط الثقافية المتوارثه اجتماعيا ، ويجسم هذا التنظيم كل توافقات ودوافع ورغبات وأغراض الفرد مع مطالب وامكانيات البيئات الاجتماعية والثقافية ، وتتضمن الشخصية :

أ ــ منطقة الشعور .
ب ــ منطقة ماقبل الشعور .
ج ــ منطقة اللاشعور وتحتوى على الذكريات والافكار والرغبات المكبوتة .
د ــ انماط السلوك التى تلاحظ فى الظاهر .

وقد رفض فرويد التصور الفلسفى عن الذات بأعتباره العنصر المكون للشخصية وقدم تفسيرا جديدا كل الجده فى بناء الشخصية . ورأى أن الشخصية تنظيم نفسي ينقسم إلى ثلاثة اجزاء : الهو والانا والانا الاعلى وهذا التنظيم النفسى للشخصية تنظيم حقيقي . وليس مجرد تجسيم أو تعبير عن أشياء مجرده ، وكل جزء من اجزاء الشخصية له وظائفه وصفاته ومكوناته ومبادئه العامة وديناميكيته واساليبه الخاصة به ، وتتفاعل هذه الاجزاء فيما بينها . وماسلوك الشخص إلا نتيجة العلاقة بين هذه التنظيمات .

وقد عرف هارى ستاك سيلفيان الشخصية بأنها تنظيم ديناميكى يتغير أثناء الزمن بتأثير عملية التلقين الثقافى وبتأثير العلاقات فى الموقف . فالشخصية الانسانية مرنه قابله للتغير والتشكيل بتأثير التجارب التى تواجهها فى الموقف .

اما بارسونز فقد عرف الشخصية بأنها نسق ذو نزعة ثابتة يهدف إلى تحقيق مستو عال من الاشباع ، كما قدم تعريفا ثانيا بأنها نسق من العلاقات المتبادلة المتفاعلة للكائن الحى داخل الموقف . ومركز التفاعل هو وحده الكائن الحى باعتباره ذاتا امبريقية ، ويكشف هذا التعريف بأنه علينا ان نفهم اساليب سلوك الشخصية من خلال مشكلاتها الوظيفية التى تهدف إلى تحقيق الاشباع ، وان ندرك أن نسق العلاقات الاجتماعية الذى يتداخل مع الفرد لاأهمية له إلا فى الموقف . كما قدم تعريفا ثالثا مؤداه ان الشخصية نسق منظم يوجه دوافع الفعل عند الفرد الفاعل .

الصـــراع : Conflict

يؤكد الماركسيون ان الصراع ظاهرة اجتماعية طبيعية فى المجتمع الانسانى ، وان تاريخ الانسان هو تاريخ صراع جماهير الكادحين ضد ظروف الاستغلال من أجل أرساء علاقات جديدة أفضل عن سابقتها تتلائم مع ظروف الانتاج وتحاول تغيير أساليب الانتاج إلى آساليب أفضل . وقد بينت الماركسية أن صراع الطبقات الكادحة من أجل تحقيق مستوى من الحياة الانسانية افضل قد يأخذ شكلا دمويا فى مراحل متعددة من تاريخ الانسان . لكن الصراعات التى تظهر بين

طبقات الشعب من أجل تحقيق سيطرة أفراد الشعب الكادحة على وسائل الثروة وادوات الانتاج أو الثورة ضد استغلال اصحاب رؤوس الاموال للقوى العاملة هى ثمرة التناقض بين المصالح الطبقية التى تنتج عن تعارض استغلال اصحاب رؤوس الاموال للقوى العاملة ، هذه الصراعات — هى ثمرة تناقض المصالح الطبقية التى تنتج عن تعارض اشكال السلوك داخل مواقف معينة نتيجة للعقبات التى تعترض تحقيق الاهداف ، ومن ثم فليس الصراع حالة مرضية ، أو حالة تفكك للبناء الاجتماعى ، بل هو مغزى الحياة وسرها . تلك هى الرؤية الماركسية للصراع . أما علماء النفس فى أوربا وامريكا فيرون ان الصراع ينشأ بين الشخص وذاته عندما يصطدم الفرد برفض ارائه فى عالم الواقع وتضارب اهدافه ومصالحه مع معتقدات ومصالح الاخرين . فالصراع النفسى هو فى حقيقة الامر صراع بين المثل والقيم التى ربى عليها الفرد ، والواقع الذى يعيش فيه . اما ميرتون عالم الاجتماع الامريكى فيرى ان منبع الصراع لايوجد عند الافراد بل تخلق الاحوال والظروف التى يوجد فيها البناء الاجتماعى وأفراده ، تلك الظروف التى تؤدى إلى تعارض القيم والتوقعات الاخلاقية بين مجموعة الادوار . فالصراع بين افراد الجماعات يعنى التناقض والتباين بين الاتجاهات والمعايير والمصالح سواء داخل الجماعة التى ينتمى اليها الفرد أو بين الجماعات بعضها وبعضها .

الصفوة : النخبة : Elite

التعريف الاجتماعى للصفوه أنها جماعة أو فئة صغيرة من الافراد تحتل منزلة عالية ، وتسيطر فى الوقت نفسه على بعض او كل قطاعات المجتمع ، وهم يكونون شريحة فى المجتمع لاتساير ولاتواكب الانماط الاجتماعية السائدة . وكان موسكا وباريتو وبيتلز من أوائل من كتب فى هذا الموضوع . ويرى بوزمور أن الصفوة طبقة من الناس لديها أعلى المؤشرات المتعلقة بنشاطها وهى طبقة قيادية ، وهم الاقل عددا والاكثر نفوذا ونفعا فى الحياة . ويرى بويد أن الصفوه ليست شريحه وليست طبقة بل اقرب ماتكون إلى الفئة ويجمع افرادها وحدة فكرية ويعنى افرادها بالتماسك الاجتماعى والوعى الذاتى بالوضع القائم .

وثمة خصائص للصفوه أهمها : أنها أقلية ، وأنها تحتل وضعا مهنيا أو قياديا وأنها تشغل مركزا اجتماعيا مرموقا ، وأنها قادرة على أعباء القيادة والمسئولية . وفى الآزمنة القديمة كان مولد الشخص هو الذى يحدد وضعه كعضو فى الصفوه أم لا ، ومن ثم يحدد قدرته على النجاح والتفوق فى المجتمع أما فى المجتمع المفتوح. فالصفوة تضم إليها بأستمرار اعضاء جدد ، وتلفظ دوما من يفتقد مؤهلات الصفوه التى تتغير بتغير المجتمع .

عشيـــرة : Clan

يطلق اسم العشيرة ، فى الاستعمال الانثربولوجى البريطانى المعاصر ، على جماعة تنسب إلى أصل واحد ، أى مجموعة من الافراد يدعون انهم ينحدرون من سلف واحد (وغالبا مايكون اسطوريا) ، وتضم اليها ابناء الاعضاء الذكور او الإناث من أبناء الاعضاء ولكنها لاتضم ابناء الجنسين معا . وقد استعملت هذه الكلمة الانجليزية Clan من الكلمة Clan من الكلمة الفيْلية Clanne التى تدل على أبناء أو سلالة ، وهى تشير أصلا إلى جماعة ذات أصل قرابى ، بيد أن الانثربولوجين قد أستخدموا المصطلح ليدل على الجماعات التى تنسب إلى أصل واحد . وكان الاستعمال السابق يفضل الكلمة اللاتينية جنس لتدل على الجماعات التى تنتسب إلى أصل قرابى واحد .

ولكن نظرا لان هذا المصطلح يشير لغويا إلى الجماعة الابوية ، فقد فضل المؤلفون الامريكيون ان يستخدموا العشيرة لتدل على الجماعة الاموية فقط ، واقتصروا فى استعمال جنس ليدل على جماعة الاب . واستخدمت الكلمة Sib كمصطلح شامل يدل على كل من الجماعة الأموية والجماعة الابوية .

وقد رأى ميردوك ، فى وقت معاصر جدا ، أن العشرة Sib تستخدم لتشمل كل الجماعات ذات الاصل الواحد ، بينما قصر استعمال العشيرة Clan لتدل على جماعة محلية من أصل واحد بما فى ذلك ازواج الاعضاء على أن الاستعمال البريطانى المعاصر يوحد فى استعماله للعشيرة بين العشيرة الابوية والعشيرة الاموية

وهما الفرعان المتباينان للمصطلح العام . كما يطلق على مجموعة العشائر العميرة[1] .

العصـــب : Agnate

مبدأ العصبـة : Agnation

يدل العصب فى القانون الرومانى على أقارب من الذكور والإناث تناسلوا من ذكر واحد . ويخضعون لسلطة فرد فى العائلة . وقد اقتصر الأستعمال الحديث للمصطلح على الأقارب الذين تناسلوا من ذكر واحد فقط دون حاجة إلى خضوعهم إلى سلطة عائلية عامة . لان العصبة هم أقارب المرء من الاب فقط . وعادة ، مايدل المصطلح على العائلة الابوية .

العلــة : Cause

العلة الاجتماعية : Social Causation

إذا قلنا ان حدثا ما (أ) هو علة حدث الثانى (ب) فاننا نعنى أن سَبْق حدوث حدث من النمط (أ) شرط ضرورى لحدوث حدث من النمط (ب) ، أو انه شرط كاف لحدوث مثل هذا الحدث ، أو أنه ضرورى وكاف .. وهكذا فللصياغة قانون علىّ فأننا نصيغ رابطة بين فئتين من الاحداث ، ومن ثم نقدم صيغة لانتاج احداث من النوع الثانى بانتاج احداث من النوع الاول . ولاريب أن علينا أن نعطى بالقدر نفسه صيغة لمنع حدوث احداث من النوع الثانى . فإذا كان بامكاننا الانتفاع بمثل هذه الصيغة ام لا فهذا يعتمد على صدق صياغتنا للقوانين العلية وعلى المستوى التكنولوجى الذى بلغناه .

ويعتمد كل تفسيرعلىّ على قدرتنا على صياغة تعميمات صادقة عن الارتباطات بين الاحداث التى تكون العلل والاحداث التى تؤلف النتائج ، كما

---

(١) ترجمنا Phratry . واستندنا فى ذلك إلى مصطفى الشهابى إذ يقول كل مجموعة من هذه المجموعات اعلى واكبر من جنس الانسان ، ومايتطوى تحته من أمم وشعوب وقبائل وعمائر وعشائر وبطون وافخاذ وغيرها . راجع مقدمة معجم الالفاظ الزراعية الفرنسية والعربية . القاهرة جامعة الدول العربية ١٩٥٧ . ص . س

يعتمد على قدرتنا على صياغة تعميمات صادقة عما كان سيحدث لو لم تعمل العلية الخاصة . ونحن لن نفهم النتائج العلية لوسيلة معينة إلا إذا عرفنا حقيقة ظروف معينة لم يتحقق فيها هذه الوسيلة .

وقد قيل احيانا ان التفسير العليّ فى العلوم الاجتماعية له دور مختلف تماما عن دوره فى العلوم الطبيعية . وفى هذا الصدد يتعين التمييز بين رأيين أحدهما معتدل والاخر متطرف . فالرأى المعتدل يزعم ان العلوم الاجتماعية لم تبرهن فى الحقيقة على صحة قوانين علية . ولكن إذا ماقصدنا بالقانون العليّ ماقصد به حتى الان فى هذه المقالة ، فمن الواضح أن هذا الرأى باطل . وربما يكون مايعنيه النقاد الذين شايعوا الرأى ، هو أن جميع التعميمات تقريبا التى برهن على صحتها فى العلوم الاجتماعية ينقصها البرهان النظرى المقنع ، أى ، أنهم يميزون بين مجرد التعميمات (أن كل أ ينتج ب فى الواقع) وبين القوانين العلية (كل أ ينبغى أن تنتج ب) حيث تكمن الضرورة المتجسدة فى صحة القانون فى قابلية القانون للاستقراء من نظرية ثبت برهانها . على أنه من الواضح ان علم الاقتصاد حافل بهذا النوع من البراهين لتعميماتنا ، ويبدو على الأقل ، أنه لايوجد مانع منطقى من ظهوره فى علم آخر .

أما الرأى المتطرف ، فهو لايقتصر على مجرد أن القوانين العليه لم يبرهن عليها بعد فى العلوم الاجتماعية ، بل تجاوز ذلك إلى القول بأن مثل هذه القوانين لايمكن اثباتها اطلاقا ، إذ أن الفعل الانسانى له طبيعة وهى من نوع خاص حتى أن اضطرادات السلوك الانسانى التى نلاحظها لها طابع منطقى مختلف عن اضطرادات العلة والنتيجة . ومن هذه النظرة ، فجوهر السلوك الانسانى غرضى ، وموجه حسب قاعدة ، وأن مهمة العالم الاجتماعى أن يحدد ويلاحظ القواعد والتصورات التى تفصح عن الأغراض التى تعبر عن هذه القواعد ، والتى تحدد أسلوب الحياة فى مجتمع معين . وتدعم هذه النظرة ، قضية مؤداها انه لما كان الفعل الانسانى غرضى وتحكمه القواعد ، فليس بالامكان تفسيره تفسيرا عليا ، ولكن هذه القضية باطلة ، وربما ترتكز على خطأ صياغة فرض مؤداه أنه إذا كان شيئان من نوع خاص بحيث كانت اوصافهما غرضية ، ويرتبطان ارتباطا عقليا ،

مثلما يكون الفعل ومايسبقه ، فلا يمكن أن يوجد هذان الشيئان فى علاقة متلازمة خارجية . لو صدق هذا مثل هذا الزعم ، لما أمكننا ان نبحث عن مدى ماتسببه الاصابات والاهانات من أفعال الانتقام فى مجتمعات تنتشر فيها عادات الثأر ، ولما أمكننا صياغة تعميمات عليه على أساس الارتباطات التى تخضع للملاحظة ، وهذا مناف للعقل بجلاء .

وقد يساعد الوهم القائل بأن العلية لاأهمية لها فى العلوم الاجتماعية على أخفاء حقيقة أن التصورات الاساسية التى ليست علية بذاتها تفترض قدرة على اثبات حقائق عليه . ومن ثم يتمشى هذا الوهم مع رأى المدرسة الوظيفية . وعندما نقول ان وظيفة س هى احداث ص ، فان صحة هذا الحكم تعتمد على ماإذا كان من الصحيح دائما او فى معظم الحالات ان حدوث (س) علة فى حدوث (ص) رغم أننا تفادينا فى صياغة هذا الحكم العلاقة العلية .

وأخيرا فالامر الجدير بالملاحظة هو أن كل التعميمات العلية يمكن ان يعبر عنها كأحكام احتمالية ، ففى مقابل صيغة القانون العلى فأننا عندما نصدر حكما بأنه إذا حدث (أ) فثمة احتمالات بقدر معين لحدوث (ب) مستقبلا . ولكن ، بلا ريب إذا كان حدوث (أ) شرطا كافيا لحدوث (ب) ، فعندئذ إذا حدث (أ) فأن حتمية حدوث (ب) مستقبلا هى حجة مقنعة تحد من هذا الاحتمال .

مراتب العمر : Age grades

جماعات العمر : Age sets

ولقد استعمل هيرنتش شرتش ، تعبير « مجتمع العمر » بمفهوم « مرتبة العمر » فى كتابه Alterklarsen und Mannerbunde 1902 عندما اقترح ان ثمة تقسيما ثلاثيا فى المجتمع يعكس الصراع بين الجماعات او الاجيال ذات الاعمار المتقاربة ، وقد لاحظ فى دراسته طبقات الصغار والشباب والشيوخ باعتبارها طبقات كامنة وعامة فى المجتمع الانسانى . -

وعلى العموم ، يستعمل مصطلح « مرتبة العمر » ليدل على تقسيم المجتمع إلى عدد من الطبقات تقوم على أساس العمر الاجتماعى . وتكون مراتب العمر الاطار البنائى الذى تجتازه جماعات الاعمار الخاصة ، وترتبط المراكز المختلفة فى تقسيمات مراتب الاعمار فى المجتمع بمجموعات متباينة من الحقوق والواجبات والالتزامات والامتيازات وتؤدى طبقات العمر وظائف شعائرية وعسكرية خاصة فى المراتب المختلفة .

ويعد نسق مراتب العمر نمطا فى التدرج الطبقى يتداخل مع تقسيم المجتمعات إلى قبائل وأبدان ويسمح بدرجة عالية من السيطرة الرئيسية داخل المجتمع .

وجماعة العمر هذه عبارة عن جماعة من الرجال والنساء منظمة تنظيما رسميا يرتكز على أساس العمر الاجتماعى . وفى العادة تقام شعائر عامة عند تكوين جماعات العمر ، وعندما تتقدم الجماعات داخل بناء مراتب العمر . ومن المحتمل ان تكون أهم هذه المراحل مرحلة شعائر التكريس التى يكتسب فيها الفتيان والفتيات مركز الرشد ، حتى أن مجتمعات كثيرة ، يرتبط فيها ختان الذكور والاناث بطقوس اجتياز مرحلة الطفولة .

عيانـى : Concrete

The Fallacy of misplaced concreteness

أغلوطة وضع العيانى فى غير موضعه : ان خير تعريف لهذا المصطلح انه يدل على أى شىء محدد فردى ، مقابل المصطلحين العام أو المجرد ، اللذين يؤكدان الخصائص او الصفات المشتركة التى تدرس منفصلة عن بنائها المحدد . فالحرب العالمية الثانية شىء عيانى بينما الحرب مصطلح مجرد . وقد اطلق هوايتهد فى كتابه Science and the modern world 1925 على أغلوطة التباس الوحدات فى الواقع بانماط وحدات أخرى اغلوطة وضع العيانى فى غير موضعه . ورأى ان هذه الاغلوطة ضارة ، لأنها المسئولة عن الخطأ الجسيم فى التنظير الفلسفى . وهذه

* ترجم عزمى اسلام Concrete بالمتعين . انظر عزمى اسلام . الفرد نورث هوايتهد . عالم الفكر الكويت. المجلد الثانى العدد الثانى يوليو ١٩٧١ ص ٢٧١ ــ ٢٨٨

الاغلوطة متأصلة فى اللغة . لأن اى كلمة يمكن ان تعرب فاعلا فى أى جملة . ومن ثم يسهل ان تدرس باعتبارها ضمنا ان لم يكن صراحة على أنها وحدة توجد فى الواقع .

وقد استعمل تالكوت بارسونز اغلوطة وضع العيانى فى غير موضعه فى كتابه The structure of social action ليعرف الخطأ نفسه ، كما فعل هوايتهد . وكانت دراسة بارسونز تتعلق بمظاهر معينة فى الأقتصاد الكلاسيكى والنظرة العقلانية . والمشكلة هى أنه لا اعتراض على استعمال القضايا إلى حد ما ، بشرط أن يدرك انها قضايا ونسلم بذلك ، ومن ثم فهى لاتخرج عن كونها صياغات مجردة لمظاهر معينة للموقف العينى ، ويتجنب الخطأ إذا مااستعملت هذه القضايا بأى معنى باعتبارها تمثلات حقيقية للموقف موضوع البحث . واقترح باسونز ان المنهج العقلانى هو المنقذ من هذا الوهم لانه يقلل من دور المظاهر العاطفية فى السلوك الانسانى .

فعل ــ فعل اجتماعى : Action, Social Action

الفعل او السلوك مفهوم نفسى ، ويرى الكثير من علماء النفس أن الفعل وحدة اساسية ، وفى هذا الصدد فمن المألوف ان يتحدث عنه السلوكيون ، أى هؤلاء الذين يؤيدون قضايا داتسون الاساسية . ويسير بارسونز فى هذا الاتجاه ويرى أن الفعل هو السلوك ، ولكن المصطلح الاصلح والاكثر فائدة هو الفعل الاجتماعى الذى استعمله كل من علماء الاجتماع والمتخصصين فى علم النفس الاجتماعى . ويرى الكثيرون انه وحدة موضوع الملاحظة فى العلوم الاجتماعية ، فعندما يسلك الفاعل سلوكا خاصا قاصدا التأثير على أفعال شخص آخر ، فالفعل عندئذ فعل اجتماعى ، وهكذا فالتفاعل هو البيئة التى تنمو فيها الشخصية .

وكان ماكس فيبر أول من استخدم هذا المصطلح استخداما صريحا فى علم الإجتماع ، وجعل الفعل الإجتماعى اساس نظريته ، كما أكد أنه أمر جوهرى فى بحثه ، ولكنه يعتبره المقولة الثانية للفعل اى الفعل الغرضى العقلى ، الذى اهتم به اهتماما

رئيسيا عند تحليله للانساق الاجتماعية والاقتصادية . وقد قال ان هذا النوع من الفعل موجه إلى نسق من غايات الافراد المميزة إذ علينا ان نحسب ونزن ان الغاية والوسائل والنتائج الثانوية كلها عقلانية . وهذا هو نمط الفعل الاجتماعى المرتبط بالرأسمالية .

وقد راى مارتندال أن عدداً من علماء الاجتماع ابتداء من فيبر يشكلون مدرسة السلوكيين الاجتماعية ، ويرى أن السلوكيين مجموعة من الناس المؤثرين وتضم هذه المدرسة ثور شتلين فيبلن وروبرت ماكيفر وكارل مانهايم وزنانيكى وتالكوت بارسونز وروبرت ميرتون . وقد انضم هو نفسه إلى هذه المدرسة . والامر الذى هو موضوع السؤال هو مدى انطباق هذا التصنيف على هؤلاء المفكرين وخاصة ازاء مشكلة هامة ، هى موضع الخلاف بينهم إلا وهى مدى الثقة التى يمكن ان توضع على مجرد ملاحظة السلوك الخارجى دون الرجوع إلى معنى الفعل لدى الفاعلين فى الموقف .

ولقد ارجع بارسونز تحليل العلاقة بين البناء الاجتماعى والشخصية إلى اطار نظرية الفعل ، وتدرس هذه النظرية سلوك الفرد الفاعل فى موقف اجتماعى ، ويشير بارسونز إلى نظرية الفعل باعتبارها نظرية فى السلوك تدرس العلاقات المتفاعلة بين المرء والاخرين فى موقف محدد ، ولاتهتم نظرية الفعل بالعمليات النفسية بل تهتم بتنظيم توجيهات الفاعل إلى الموقف ، اى سلوك الفاعل فى الموقف مستقلا عن اهدافه الشخصية . وقد بين بارسونز ان بناء الفعل ليس هو الكائن الحى بل بناء علاقات الكائن الحى مع الموضوع الاجتماعى والموضوع الثقافى فى الموقف . وينشأ بناء الفعل نتيجة تفاعل انساق الشخصية والنسق الاجتماعى والثقافه وماالشخصية أو البناء الاجتماعى أو الثقافة الا مظاهر مختلفة لنسق الفعل الاساسى .

مبحث دراسة الفعل : Action Research

تنبثق علوم اجتماعية كثيرة من الرغبة فى تغيير الموقف الاجتماعى وتحسينه ، أو مساعدة الناس عند الحاجة . ومبحث الافعال هو استقصاء من نوع موجه إلى

هذه الغايات ، حيث ان الهدف من ذلك لايقتصر علي مجرد جمع المعلومات والوصول إلى فهم أفضل بل يشمل كذلك اداء عمل نافع . واحيانا مايرتاب شارحوا مبحث الفعل فى امكانية اجراء دراسات منفصلة وعلمية عن الشئون الإنسانية . فمثلا ، قد ناقشوا ، أن الباحث لايستطيع التأثير إلا فى سلوك الناس الذين يدرسهم ، فالتجريب صعب للغاية إن لَم يكن مستحيلا ، فى العلوم الاجتماعية ، إذ ثمة تداخل للارادة الإنسانية فى القياس ، وكل ذلك يضعف من المركز العلمى للبحث الاجتماعى .

وعادة ، مايهتم مبحث الافعال بالتغير الاجتماعى ، ودراسة الافراد او جماعة اجتماعية صغيرة ، او قد يهدف إلى تحسين كفاءة التنظيم . وقد وضع آدم كيرول فى مقالة نشرها فى المجلد الثانى العدد ٣ لسنة ١٩٤٩ المجلة Human Relations ، الاساس النظرى لهذا المنهج العلمى . ولقد نقد ميتشيل أرجيل مبحث الأفعال فى كتابه The scientific study of social Behavior 1957 حيث حاول اثبات ان اكتشاف النتائج امر ثانوى دائما فى مبحث الافعال . كما حاول اثبات ان مبحث الافعال ينبغى ان ينشد الحصول على نتائج موضوعية من نوعين :

١ ــ ينبغى أن يثبت ان النشاط يؤثر تأثيرا حقيقيا فى زيادة الانتاج او فى خفض الكراهية داخل الجماعة او فى تحقيق العلاج .

٢ ــ وينبغى أن يظهر الظروف الدقيقة التى يتسنى فيها الوصول إلى نتائج مجدية ليستطيع الاخرون ان يعملوا عملا مماثلا .

قرابة دموية : Consanguinity

توصف العلاقة الاجتماعية التى تقوم على الانحدار من سلف مشترك بأنها علاقة دموية . ومن الواضح من نص هذا المصطلح انه يوصى بقرابة صلات الدم ، ولكن فى الحقيقة قد يطلق هذا المصطلح على علاقات لاتقوم على روابط الدم الفعلية . فهذا المصطلح يدل فى معناه العادى على علاقات اقارب الشخص المباشرين المجانبين من اصلاب وأرحام ، على أنه من الجائز ان يتسع معنى هذا المصطلح ليشمل اولئك الذين يرتبطون بروابط التبنى او الروابط الدموية الوهمية .

فاذا ماعتبرت بعض العلاقات علاقات روابط دم فأنها قد لاتدل بدقة على روابط الدم الحقيقية . وقد قادت هذه الصعوبة راد كليف براون إلى أن يقول : أنه من الافضل استعمال مصطلح القرابة ، وأن نفرق بين علاقات القرابة (أى تلك التى تقوم على الانحدار من سلف واحد بما فى ذلك الأسلاف الاسطوريين) وعلاقات المصاهرة مثل العلاقات الزواجية ، مثل تلك التى تترتب على الزواج . بيد أنه من المفيد ان نشير إلى أن مصطلح القرابة أحيانا يشمل الاصهار .

قريب : Cognate

يكون الشخصان قريبين عندما يستطيعان تتبع انحدارهما من سلف مشترك ذكر أم أنثى ، بصرف النظر عما إذا كانت أواصر القرابة من أصلاب او أرحام . ومن ثم فنسق القرابة نسق ثنائى ، ولايطبق مبدأ النسب الواحد .

قطيع / جماعة من الناس تربطها رابطة مشتركة : Agelècism

وقد صاغ هذا المصطلح بنويت سميليان من الكلمة اليونانية « الجماعة » لتعريف « تركيب منهج البحث الوضعى بمجموعة خاصة من النظريات الاساسية » . وأهمها نظريات أميل دوركيم الاجتماعية . ونجد أصول هذه الكلمة « اجليزيم Agelecism » فى كتابات لويس دى بونالد وجوزيف دى مايستر اللذين قدما الفكرة القائلة ان الجماعة الاجتماعية تسبق الفرد ، بل وفى الحقيقة تشكله ، حيث أن الجماعة هى منبع القيم والثقافة ، وان الاحداث الاجتماعية والتغيرات ليست نتائج الارادات والرغبات الفردية المجردة ، ولايمكن ان تكون كذلك .

قيود اللون : Colour bar

مصطلح عامى ليس له معنى محدد فى علم الاجتماع . وعادة مايتضمن تحريما تفرضه التنظيمات الاجتماعية لمنع دخول اماكن معينة ، والحرمان من الحصول على اوضاع او امتيازات أو فرص معينة وفقا لمعيار اجتماعى محدد للاصل العرقى .

المجتمع المحلى : Community

يعرف المجتمع المحلى بأنه مجموعة من الناس يعيشون سويا حياة مشتركة ويؤمنون بعادات مشتركة عامة ويسلكون سلوكا مقننا ، ولاعضاء المجتمع المحلى جذور من التقاليد العامة يخضعون لها وأصول تاريخية اكثر تعقيدا ، فهم يخضعون لتنظيم سياسى مقبول من الجميع ، وقد يتحدث المرء عن المجتمع المحلى المصرى بالمعنى الواسع لكلمة مجتمع محلى ، وقد يتحدث عن قرية شبرا النملة بأعتبارها مجتمعا محليا بالمعنى الضيق لكلمة مجتمع محلى . ويقيم المجتمع المحلى عادة فوق قطعة من الأرض يتحدث المقيمون فوقها بأعتبارها بلدهم . ويقوى الشعور بالانتماء إلى المجتمع المحلى فى أوقات الازمات . أما إذا ساءت السلبية وزادت مظاهر عدم المشاركة والعمل المشترك ، فلا يعد المجتمع المحلى إلا أن يكون اتفاقا او تعميما سوسيولوجيا .

فى الأصل يعرف مصطلح « مجتمع محلى » مجموعة من الناس تشغل مساحة جغرافية ، يرتبطون سويا فى الانشطة الاقتصادية والسياسية ، ويكونون بالضرورة وحدة اجتماعية تتمتع بالحكم الذاتى ، تحكمهم قيم مشتركة محددة ، يمارسون مشاعر الانتماء معا . ومثال ذلك مدينة أو بندر أو قرية أو شياخة ، ولقد اشتهرت فكرة اقامة مجتمع محلى كهدف يمكن ان يحققه الناس ، وقد نشأت هذه الفكرة نتيجة الحراك الكبير للناس فى المجتمعات الصناعية الحديثة وأيضا نتيجة انتشار وسائل الاتصال الضخمة . واليوم تنتشر المؤسسات الصناعية الضخمة فى اماكن كثيرة وتشمل اوطانا متعددة . ولم تعد السلع قاصرة على الاستهلاك فى مجالات محلية وازدادت وسائل الاتصال ازديادا كبيرا ، ويمكن ان يعتبر المجتمع المحلى مجتمع منافع محلية ، رغم ان هذا التعبير اقل شمولا لهذا المعنى ، واكثر دقة . أما فى علم الاجتماع الحديث فقد استعمل مصطلح مجتمع محلى استعمالا عاما فضفاضاً وغامضا غموضا متعمدا . وثمة محاولة مبكرة نجدها عند ماكيفر لتحليل المجتمع استفادت من استعمال المصطلح مجتمع محلى .

وقد ادى نمو البنادر والمدن واعادة تطويرها لتقديم مساكن للجماهير إلى الوعى بعدم التماسك ، وفقدان الهوية عند القطاعات الكبيرة من السكان ، وتلبية لهذه

الحاجة انشئت مراكز المجتمعات المحلية لتقديم الانشطة الترفيهية والثقافية للناس ، واتاحة الفرصة لوجود تنظيم ديمقراطي يخدم سكان المنطقة . وقد ظهرت هذه المراكز فى الولايات المتحدة الامريكية قبل الحرب العالمية الاولى ، ولكنها دعمت قوتها فى بريطانيا نتيجة لعمل جمعية مراكز المجتمع المحلى التى تابعت نشر هذا النوع من تقديم الخدمات والتى جعلت مهمتها توزيع مساكن جديدة . وفى الوقت نفسه كانت هذه الجمعية تتبع المجالس البلدية ... ورغم ماللمراكز المجتمعات المحلية من صفات التماسك بين افرادها ، إلا أننا نسلم بأن مراكز المجتمع المحلى قد تكون سببا فى ظهور نزاعات اقليمية حادة ، فهى بطبيعتها مراكز ترتبط بروابط صغيرة ، ومن ثم فأهدافها التى تنشدها محدودة .

والحقيقة ان هذه المراكز ليست مجتمعات محلية ، ولكنها تهدف إلى تدعيم روح المجتمع المحلى،وإلى هذا الحد فهما متناقضان . إذ أن مركز المجتمع المحلى هو مجرد رابطة . وبقدر ماهو رابطة لها غايات محدودة ومعينة فأنه يخدم الحاجات النوعية لسكان الحضر المترفين .

المجتمع : Society

ومن الضرورى علينا ان نفرق بين المجتمع المحلى والمجتمع . فالمجتمع هو مجموعة من العلاقات المتبادلة بين الناس الذين يعيشون فى مجتمع محلى ، مثل علاقات الزواج والعلاقات الاسرية والمشاركة فى القيم الاخلاقية التى تحدد ماالصواب وماالخطأ وماالخير وماالشر ، والعلاقات السياسية والدينية والعلاقات الاقتصادية .

أ ــ عضو المجتمع المحلى قد يكون فى الوقت نفسه أبا فى اسرة وعضوا فى حزب سياسى وجماعة دينية او نادى رياضى .

ب ــ وتكون مجموعة تلك العلاقات المجتمع ، إذ توجد المجتمعات المحلية داخل مجتمع أوسع واكبر تلعب فيه الدولة دورا اساسيا ، ان مفهوم المجتمع بالمعنى الواسع مرادف لمفهوم الدولة ، وأهم مايتميز به الاستقرار .

ونحن لانستطيع ان نشير إلى تعريف يتفق عليه كل علماء الاجتماع ، او حتى

أغلبهم ، بل نحن نجنى الكثير لو وضحنا التعريفات المختلفة التى عرفت المجتمع . ونحلل بايجاز كيفية استخدامها ، وكما بينا من قبل فان الفروق فى المفاهيم تعنى عادة أن الناس ينظرون عادة إلى نفس الظاهرة من جوانب متباينة ، ولذا فان دراسة المنظورات المختلفة التى يرى بها الناس المجتمع ، قد يوضح لنا الابعاد المتباينة للمجتمع .

وتدل كلمة مجتمع عادة إلى الحقيقة الاساسية للرابطة الانسانية ، وقد استخدمت الكلمة فى كتاب حديث فى معنى واسع لتشمل كل نوع وكل درجة من درجات العلاقات المتبادلة بين الناس ، سواء أكانت تلك العلاقات منظمة او غير منظمة ، مباشرة او لامباشرة شعورية او لاشعورية تعاونية او عدوانية ، فهى تشمل النسيج الكلى للعلاقات الانسانية وتدل الكلمة على أشكال متعددة من المجتمعات المحددة واسعة الانتشار ويستعمل هذا المفهوم عادة ليركز الانتباه على مجموعة من الظواهر التى ينبغى أن تدخل فى التحليل اى يركز الانتباه على مجموعة العلاقات المختلفة والمتعددة التى يرتبط بها الناس اثناء حياتهم .

ويستند مفهوم العلاقات الاجتماعية على حقيقة ان كل سلوك انسانى انما يضع فى اعتباره رد فعل الآخرين ، فالناس لاتعيش سويا فقط ، ولكنهم يتعاونون معا ، ويستجيب بعضهم لبعض او يتخاصمون ويتصارعون . وهم دائما يشكلون سلوكهم وفق سلوك الاخرين . فالمحب يسعى لأن يسعد محبوبته ويسعد نفسه ، ويحاول السياسى أن يكسب اصوات الناخبين ليفوز فى الانتخابات ، ويطيع الجندى اوامر قائده ليحقق النصر ولينقذ حياته ، وتقدم لنا كل هذه الأمثلة امثلة شائعة مألوفة من السلوك . كما توضح كل هذه الأمثلة ان الانسان فى سلوكه اليومى يواجه بتوقعات وبرغبات وامنيات الاخرين . ويمكن ان يشكل سلوكه وفق سلوك الاخرين او رد فعل لسلوك الاخرين . مثلا يقلد الطفل سلوك الاب ، او مثلما يسلك البائع مع المشترى أو الطبيب مع المريض او رجل الشرطة مع المذنب ، والتفاعل دائما ليس من جانب واحد ، ولكن ثمة تأثير متبادل بين طرف التفاعل ، وعملية أخذ وعطاء ، فإذا كان السياسى يسعى لكسب اصوات الناخبين ، فالناخب يستجيب بطريقة ما لسلوك السياسى . والذى قد يغير أو

يتمسك بسلوكه ، كما أن سلوك القائد فى المعركة يتأثر بكيفية اطاعة جنوده لأوامره . كذلك فالتفاعل ليس حدثا وقتيا ، وليس استجابة فريدة إلى مثير واحد ولكن التفاعل عملية مستمرة من الفعل ورد الفعل .

وتتكون العلاقات الاجتماعية عندما يضع كل طرف من طرفى العلاقة فى إعتباره سلوك الاخرين ويسترشد به ، وبعبارة أخرى تتكون العلاقات الاجتماعية من نمط من التفاعل المتبادل ، إذ يستجيب الطفل والوالد كل للآخر بطرق منتظمة ، وتستند هذه العلاقة الوالدية على التوقعات المتبادلة بين الطرفين . كذلك فالتفاعل المستمر بين الطالب والمدرس أو بين الشرطى وسائق السيارة أو بين البائع والمشترى أو العامل وصاحب العمل أو الاب والابنة ، يكون علاقات اجتماعية من أنواع مختلفة . ويتكون المجتمع من نسيج هذه العلاقات الاجتماعية .

وينبغى ان نميز بين المجتمع فى هذا المعنى العام وبين المجتمعات الخاصة التى تخضع لمواصفات معينة ، والتى يجمع فيها الناس أنفسهم ، فالمجتمع عند زيمل مثلا تجمع من الافراد بينهم علاقات اجتماعية ، أما ردفيلد فيرى أن المجتمع يتكون من عدد من الأفراد يرتبطون سويا ويتفاعلون معا . وهناك تعريف ثالث للمجتمع يقدمه توماس اليوت الذى يرى انه جماعة من الكائنات الانسانية تتعاون معا فى السعى إلى تحقيق مصالحها المشتركة ، بما فى ذلك تحقيق المحافظة على وجودهم واستمرارهم او يتضمن مفهوم المجتمع الاستمرار ، والعلاقات المترابطة المعقدة ، والاقامة على قطعة من الارض ، ويضم المجتمع جماعة وظيفية ، كذلك يعرف رومنى وماير المجتمع بأنه تجمع محدد من الافراد يتميز بالثبات ، ويرتبط أفراده بعلاقات محددة .

ورغم ان مفهوم المجتمع فى كل تعريف من هذه التعريفات ذو قيمة فى توجيه الاهتمام إلى مجموعة من العلاقات التى تربط تجمعات الناس سويا فهذه المفهومات عامة جدا حتى أنه يصعب الاستفادة منها ، فالمفهوم قد يشير إلى أن المجتمع هو عدد من اعضاء الطبقة العليا تنشر أخبارهم فى صفحات الجرائد . كما يدل المفهوم على أية نوع من التنظيمات : سواء مجتمع الاصدقاء ، أو جمعية تحسين

الادارة ، أو نقابة الاجتماعيين ، أو نقابة عمال الغزل أو رابطة ابناء الغربية ، أو جمعية الادباء او النادى الاهلى . وينتمى الأفراد عادة إلى جماعات متعددة فى وقت واحد .

وعندما نستخدم مفهوم العلاقات الاجتماعية بمفهوم التفاعل بين الجماعات فأننا نقصد شيئين مختلفين :—

أولا : يقصد بوجود علاقات بين الجماعات ان الافراد يستجيبون لبعضهم البعض استنادا على عضويتهم الشخصية فى الجماعة .

ثانيا : يعنى تبادل العلاقات بين جماعتين أن يتصل أعضاء الجماعتين سويا اتصالا منظما ، بمعنى أن يتم الاتصال أو التفاعل بين مندوب جماعة العمل وجماعة الادارة فى المصنع من أجل زيادة الاجور أو بمعنى تبادل الانشطة التعاونية ، أو بمعنى النزاع بين القادة السياسيين فى المجتمع .

وكلا النوعين من العلاقات يمكن ان يوجد فى المجتمع الواحد فى الوقت نفسه .

هل المجتمع نظام اجتماعى ؟

بجانب رؤية المجتمع كمجموعة كبيرة من العلاقات الاجتماعية ، واعتبار المجتمع جماعة كبيرة ، تتبادل داخليا العلاقات بين الأفراد والجماعات ، فاننا يمكن ان ندرك المجتمع كمجموعة من النظم تحدد اطار عمل الحياة الاجتماعية . ويتوقف تحليل المجتمع على دراسة النظم المختلفة التى يتكون منها ، مثل النظام الاقتصادى والنظام السياسى والنظام الدينى والنظام الاسرى والنظام التعليمى والنظام العسكرى والعلاقات المتبادلة بينها .

وفى الحقيقة ان العلاقة بين هذه الرؤية للمجتمع ومفهوم الثقافة علاقة وثيقة ، فالثقافة هى المصطلح الاشمل والاوسع ، مادامت تتضمن النظم داخلها . ولكن المجتمع ليس مجرد جزء من الثقافة ، لأن المجتمع ليس مجموعة من النظم فقط . ولكنه بناء مركب من النظم التى ترتبط معا ، ويعتمد كل منها على الاخر . وهذا

البناء يميز كل جماعة عن الجماعات الاخرى ، ويقدم الوسائل التى بها ينظم الناس انشطتهم العامة ، للتغلب على مشكلات العالم الذى حولهم .

ولكن لايوجد تناقض بين المفهومين الذين عرضنا لهما عن المجتمع ، فكل منهما يكمل الاخر . وكما اوضحنا فالنظم تعرف العلاقات الاجتماعية بجانب انها توطد انماطا مقبولة من السلوك ، فمن خلال النظم الموجودة نعرف ماتتوقعه من سلوك الاخرين ، ونأخذ هذا السلوك فى اعتبارنا أثناء ادائنا لسلوكنا فى الموقف . ومن ثم فهؤلاء الذين يركزون على الجماعات والعلاقات الاجتماعية يجب أن يدرسوا النظم عند تحليل المجتمع كما أن هؤلاء الذين يهتمون اساسا بالنظم يجب ان يعطوا بعض الاهتمام للعلاقات الاجتماعية .

--

انماط المجتمعات : Types of Societies

تختلف المجتمعات عن المجتمعات المحلية اختلافا واضحا فى مظاهر عديدة منها الحجم ودرجة التعقيد والمعتقدات الدينية وأنواع النشاط ، وطريقة ممارسة الانشطة المختلفة ، وفى أشكال التنظيم السياسى والاقتصادى وفى بناء ووظيفة النظام الاسرى بجانب مظاهر أخرى عديدة ، ولكن علماء الاجتماع منذ نشأة علمهم ميزوا بين نمطين من المجتمعات . وقد فرق هربرت سبنسر بين المجتمع المقاتل والمجتمع الصناعى ، كذلك ميز سير هنرى بين المجتمع الذى يقوم على المركز والمجتمع الذى يقوم على التعاقد ، أما تونيز فقد فرق بين المجتمع المحلى والمجتمع . وقد بين أميل دوركيم التناقض بين المجتمعات التى تقوم على التماسك الالى والمجتمعات التى تقوم على التماسك العضوى . وقد عرف لنا هوارد بيكر نمطين للمجتمعات : الاول مجتمع تقليدى ودينى والاخر المجتمع المدنى . كذلك أوضح لنا ردفيلد الفرق بين المجتمع التقليدى والمجتمع الحضرى .

ولايوجد مفهوم من هذه المفهومات يصف لنا وصفا كاملا ومحددا أى مجتمع ، فلا يوجد مجتمع يتصف بالصفة التقليدية المطلقة ، كما لايوجد مجتمع يتصف بالحضرية الكاملة . كذلك لايوجد مجتمع كل افراده من المحاربين او كل افراده من العاملين فى الصناعة . كذلك لاتوجد مجتمعات تتماسك تماسكا عضويا فقط ،

أو تماسكا آليا فقط . ولكن هناك مجتمعات تغلب عليها الصفة المدنية أو الصفة الدينية ، وأن كان المجتمع تغلب عليه الطابع الحضرى ، فأنه لايخلو من الطابع الجمعى والحياة التقليدية ، كذلك فان غلبت عليه قيمة المركز فهناك مجالات اخرى للتعاقد ، وكل هذه الانماط من المجتمعات انماط مثالية . وهى تصنيفات تفيد فى التحليل ، وهى لاتصف وصف كاملا مضبوطا أى موقف محسوس ملموس .

وكل زوج فى هذا التصنيف المثالى للمجتمعات يثير الانتباه بطرق مختلفة وبتأكيدات متباينة إلى الفروق الاجتماعية والثقافية . ويمكن ان نجمع التناقضات المختلفة بين المجتمعات فى مفهومين عامين الاول المجتمعات المحلية والاخر المجتمعات المترابطة ويمكن ان نقارن بين هذين النمطين من المجتمعات فى اطار المفهومات التى اوضحناها من قبل ، أى النظم والعلاقات الاجتماعية والدور والمركز والتنظيم الاجتماعى والجماعات الاجتماعية .

والسلوك فى المجتمع المحلى تنظمه إلى حد كبير العادات ، وثمة مكان ضئيل نسبى للاختيار الشخصى والقرار الفردى . وتحكم مجموعة من القواعد والتنظيمات المظاهر العديدة للحياة اليومية تلك القواعد التى تحدد متى وأين ينبغى أن ينام الفرد ، وأين يتناول طعامه وأين يتعبد وأين يتسامر ، ومتى يمارس الجنس ممارسة شرعية ، ومتى ولماذا يظل المرء عفيفا ، ومادامت السنن تمارس قهرا على السلوك ، فلا حاجة إلى القانون الوضعى الحكومى ، والقانون جزء من التقاليد ، ولكن التقاليد ليست مقننة ولاتستند على حكم العقل ، ولاتملى على الأفرادبصورة تنم عن السلطة ، ولاتشرع ، ولكنها تنبع من التجارب المتراكمة للمجتمع ، وهى تدمج فى العادات المعروفة والمقبولة من الناس . والمجتمع المحلى مجتمع تقليدى عند ايلى شنتوى ، يحدث فيه التغير ببطء شديد ، على أنه يصعب على العين فى المجتمع الحديث ان تدركه ، وينقل كل جيل إلى الجيل التالى اغلب القوانين الاجتماعية التى تحكم السلوك ، وتعرف الادوار التى يلعبها كل شخص داخل هذا المجتمع ، كما ترتبط العناصر المختلفة فى المجتمع التقليدى ارتباطا قويا ، وتتكيف معا فى مواجهة أى قدر من الصراع او الانشقاق ، وتتميز هذه المجتمعات المحلية

ببساطة مظاهر تقسيم العمل ، والتباين المحدود فى الأدوار ، فدور الشخص البالغ فى هذه المجتمعات هو تقريبا نفس الدور الذى يلعبه أى شخص من الرجال ، وثمة اختلافات بسيطة بين المتزوجين والارامل والذين لم يتزوجوا بعد . اما التباين الاقتصادى الكبير الوحيد فبين الرجال والنساء ، كذلك الأدوار الاجتماعية المحلية وحدة كلية أو وحدة شاملة ، وليست ادوار متشعبة .

ولما كان الافراد فى هذه المجتمعات المحلية يؤدون ادواراً شاملةغير متشعبة أو متعددة ، فأنهم يتفاعلون سويا بالضرورة فى بيئات متباينة جدا . كما أن العلاقات الاجتماعية فى هذا المجتمع علاقات شاملة ، وشخصية وكلها مودة وألفة ، وهى علاقات تقوم على أهمية حقيقية فعلية وليست أدوار ادائية نفعية ، وليست هذه العلاقات وسيلة لتحقيق غاية . والتوقعات المتبادلة بين الاشخاص والمتضمنة فى تلك العلاقات الاولية ، هى توقعات عامة ، وترتقى إلى مستوى الاحترام والولاء والعاطفة والمحبة بدلا من تحقيق التزامات محددة .

وتقتصر العضوية فى المجتمعات المحلية على العضوية الجمعية للعائلة والجماعات القرابية الكبيرة والزمر الصغيرة ، فثمة انواع متعددة من التنظيمات تقوم على السن والجنس والمركز الزواجى فى هذه المجتمعات .

وتغلب الحياة التقليدية على كل مظاهر الحياة فى المجتمع المحلى كما يفتح امام الافراد بالمثل مدى من الاختياريين انماط السلوك ، والعلاقات الاجتماعية علاقات شخصية كما توجد جماعات فرعية قليلة تحل محل الاسرة داخل المجتمع ، وكما اشار ردفيلد فالمجتمع التقليدى مجتمع صغير منعزل يتميز بالامية والتجانس ، يغلب عليه شعور قوى بتماسك الجماعة ، واقرب مثال ملموس للمجتمع المحلى القبيلة فى الصحراء ، أو مجتمع المزارعين المنعزل .

أما المجتمع الصناعى الحديث فمجتمع يقوم على الروابط ، تضعف فيه قوة التقاليد ، ويحل محل الاضطراد النسبى فى الأفكار والسلوك عدد لامحدود من الافكار المتباينة ، ونماذج السلوك المتعذذة ، ويسود هذه المجتمعات عدد قليل من المعتقدات والقيم ومستويات السلوك المقبولة قبولا عاما ، كما يتضاءل تأثير السنن ،

ويظهر أثر القانون الرسمى فى تنظيم السلوك وضبط التفاعل الاجتماعى ، وتتميز هذه المجتمعات بالتغير السريع . كما أن التجديد هو السمة الغالبة على أغلب مجالات الحياة ، وبدلا من التكامل القوى المحكم المميز للمجتمع المحلى ، يتضاءل الشعور بالاجماع فى مجتمع الروابط .

وتفتقد الحياة الجمعية وحدتها فى المدن الكبرى ، ويختفى التماسك وينفصل الاقتصاد عن الحياة البيئية ، ويتباعد مكان العمل عن مكان الترويح ، وتتزايد مظاهر تقسيم العمل ، وتتعدد الادوار الاجتماعية وتتكاثر ، وينبغى أن يتكيف الافراد داخل هذا البناء الاجتماعي المعقد ، الذين يشغلون فيه مراكز عديدة ، ويلعبون ادوارا عديدة ، والتى يتعذر أن تتلائم معا ، كما لايتأثر مرتب الشخص أو اجره بحالته الزواجية ، أو بعدد اولاده .

ومن ثم فالعلاقات فى هذه المجتمعات علاقات سطحية ، ووقتية وهى علاقات لاشخصية ، فالافراد يرتبطون سويا لتحقيق أغراض محددة ، كما تفيد المصالح الخاصة التفاعل الاجتماعى فى الموقف ، كما يوضح ذلك العلاقة بين البائع والمشترى فى السوق ، فلا مجال للمجاملات ، فكل شيء يحدده السعر ، وجودة السلعة ، ومثل هذه العلاقات علاقات نفعية تتضاءل أمامها أهمية العواطف ، وكلها تبغى تحقيق أهداف وغايات ومصالح خاصة .

مفهوم / تصور : Concept

التصور يعنى اساسا رأيا أو فكرة . ويمكن أن يعرف باعتباره أسما يطلق على أعضاء مقوله معينة من أى نوع ، أو يعنى أسم مقوله نفسها ، وأبسط من ذلك ، فالتصور مصطلح يدل على خاصية أو علاقة وصفية .

ويعتبر التصور فى علم الاجتماع بوجه عام أدنى مرتبة فى التجريد من النظرية ، ولكنه جزء ضرورى من النظرية ، لان النظريات تصاغ من التصورات المستخدمة . ولاريب أن التصورات تتغير بأستمرار ، وأن من المهام الدائمة لعالم الاجتماع توضيح التصور واعادة تعريفه . وقد نجد عند ميرتون شرحا مفيدا لأهمية تحليل التصورات فى علم الاجتماع فى كتابه Social Theory and social structure 1957

وفى علم الاجتماع ، فالاهتمام الاول ، هو استعمال التصورات لصياغة نظريات تتعلق بمجال مشكلة ما ، ووضع الفروض لاختبار هذه النظريات . ومن المعايير التى اقترحت لاختيار التصورات دقة التصور ورسوخه على أساس تجريبى ، وفائدته لصياغة النظريات التى تفسر المشكلة موضوع الدراسة . واختيار التصورات وتعريفها أمر حاسم فى تقدم علم الاجتماع بوصفه علما . ولكن مازال مدى الخلاف حول التصورات الاساسية فى علم الاجتماع واسعا جدا .

مقولـة : Category

وقد استخدم ارسطو هذا المصطلح لاول مرة بالمعنى المنطقى ليدل على أن الكائنات القابلة للتصنيف تصنف وفقا لما ينسب اليها من صفات . وقد أخذ كانتط عن أرسطو مصطلح (مقولة) ليعرف التصورات الاولية للفهم النظرى . وقلما يستعمل المصطلح حاليا فى المنطق . وفى العلوم غير الفلسفية قد يستخدم مصطلح « مقولة » استخداما متبادلا وبمعنى مماثل لمعنى الطبقة ، أو النمط ، أو النوع . واستعمال هذا المصطلح فى علم الاجتماع يساير استعماله فى العلوم الطبيعية حيث يفترض أن كل المقولات بوجه عام ، تستبعد المقولات الاخرى فهى فى جوهرها تصنيفية . وكل مصطلح وتصور فنى فى العلوم الاجتماعية ، هو مقولة ، لأنها تعرف طائفة من الكيانات التى منها يمكن اجراء التنبؤات .

ومن جانب آخر ، فثمة مشكلة اساسية فى علم اجتماع المعرفة ، اعطت تفسيرا للعلة الاجتماعية لمقولات فكر الإنسان . وكان دوركيم ومارسيل موس هما رائدا المحاولة الاولى للبحث عن الظروف الاجتماعية التى تؤدى إلى مقولات انسانية متباينة ، وعارضا التفسيرات التجريبية والعقلانية لمقولات الانسان . وقد استمر هذا الاتجاه الفرنسى عند الانثربولوجيين مثل ليفى بريل وكلود ليفى ستراوس . وتقوم الفكرة الاساسية لهذه المدرسة على حقيقة مؤداها أن الابنية الاجتماعية المتباينة قد تعرف باعتبارها السبب الاساسى لأبنية المقولات المختلفة .

وقد احتلت دراسة منبع مقولات الانسان دورا أساسيا فى علم النفس . وثمة مدرستان فكريتان رئيسيتان تتبادلان الجدل فيما إذا كانت مقولات الانسان

تحددها الفطرة أم تحددها البيئة . وتمثل المدرسة الأولى مدرسة الجشطلت ، التى تمجد القدرات الوراثية ، وتمثل المدرسة الثانية المدرسة السلوكية ، التى نظرت إلى مقولات الانسان باعتبارها مجرد ظواهر مكتسبة . وربما يمكن أن نستخرج رؤية اكثر فائدة من دراسة بياجيه عن اللغة خاصة والادراك عامة فوضعه أقل تطرفا من أغلب المدارس التقليدية فى علم النفس .

منهج مقارن : Comparative method

تشير هذه العبارة إلى منهج مقارنة المجتمعات أو الجماعات المختلفة فى المجتمع الواحد لتبين ماإذا كانت هذه المجتمعات أو الجماعات متماثلة أم مختلفة فى مظاهر معينة وأسباب ذلك . وقد طبق هذا المنهج فقهاء اللغة فى القرن الثامن عشر للمقارنة بين مختلف اللغات التى تنتمى إلى فصيلة لغوية واحدة لتبين مميزاتها اللغوية المشتركة والتى تفرق بينها ايضا وبين فصائل لغوية أخرى . وقد استعملت العبارة فيما بعد فى القرن التاسع عشر لوصف منهج يميز بين اتماثلات فى النظم الاجتماعية لتتبع أصولها العامة ، بيد أن هذا المنهج فى حد ذاته ليس جديدا . فقد طبقه ارسطو فى دراسته للنظم السياسية .

وقد استعمل مونتسكيو ، وكونت اللذين يعتبران غالبا مؤسسين لعلم الإجتماع منهج المقارنة وأوصيا باستعماله لاثبات وتفسير التباين والتماثل بين المجتمعات . وقد رأى كونت اجراء المقارنة بين الخصائص الانسانية ، ليبين مايميز الخصائص الانسانية ، ورأى ايضا اجراء المقارنة بين المجتمعات فى مراحل معينة من مراحل التطور ، أو فى مراحل مختلفة للبرهنة على صحة قوانين التواجد ، وقوانين التتابع للظواهر الاجتماعية والنفسية .

وثمة رابطة قوية بين استعمال المنهج المقارن والمدخل التطورى سادت خلال القرن التاسع عشر . بتأثير الداروينية المتزايد . بيد أن بعض المدرسيين لم يقتنعوا بالكشف عن أصول مشتركة واستقصاء التاريخ الطبيعى للظواهر الاجتماعية ، مثل الدين والاسرة ، أو باثبات نظرية معينة تحدد مراحل التطور الاجتماعى والنفسى ، فمثلا ، يرى تايلور مثله مثل كونت ، إن احد الاهداف الرئيسية للمقارنة هو

اكتشاف ماأسماه بالالتحامات الثقافية ، او الارتباطات الضرورية بين ظاهرتين ثقافيتين أو اكثر . مثل قاعدة سلوك القرابة وقانون مصطلحات القرابة .

ولكن توجد امثلة توضح الاساليب التى يعوزها التماسك والتنظيم التى سادت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، نجدها فى كتابات سير جيمس فريزر ، الذى جمع أمثلة لاحصر لها من الاساطير الكلاسيكية كالانجيل والاثنوجرافيا المعاصرة لتدعيم نظرياته عن خصائص العقل البشرى لاثبات فروضة الخاصة بأصول العادات والمعتقدات وتطورها (The Golden Bough 1930-1936)"(١)" .

وكان جون ستيوارت ميل هو الذى أثار نقاشا حادا عندما بين أن المنهج المقارن هو مجرد تطبيق منطق العلم على حالات مأخوذة من الواقع ، فى مقابل التى نركبها من التجارب ، لان المنهج العلمى كما أثبت لنا يتكون بالضرورة من المقارنة بين الحالات المتماثلة فى بعض مظاهرها والمختلفة فى مظاهر أخرى ، وليبين ماإذا كانت هى مظاهر معينة مترابطة ترابطا عليا . بيد أن جون ستيوارت ميل قرر أخيرا أن المنهج المقارن لايتفق حقيقة مع القواعد الاستقرائية للعلم والتى صاغها هو بنفسه .

وقد اعترض اميل دوركيم على هذه النظرة السلبية . وفى دراسة مبكرة لدوركيم اجرى مقارنة بين النظم القانونية فى مجتمعات مختلفة عند مستوى تطور واحد ، وعند مستويات تطور مختلفة ، مستعملا القانون دليلا على الطبيعة الاخلاقية للمجتمع ليختبر فرض وضعه مؤداه أن الزيادة فى تقسيم العمل يصاحبها تغير فى طبيعة التكامل الاجتماعى ، وعاد دوركيم فى دراسته للانتحار ، إلى مقارنة معدلات الانتحار فى مجتمعات مختلفة وفى جماعات متباينة داخل المجتمع الواحد ، ليظهر ان هذه المعدلات تتناسب تناسبا عكسيا مع درجة التماسك الاجتماعى ، ومع درجة استقرار المعايير الاجتماعية ، ولاثبات ذلك كان عليه أن يقارن أيضا بين الدلائل التى اختارها وعوامل التماسك الاجتماعى والاستقرار المعيارى ، وأن يختار

(١) ترجم الجزء الاول من هذا الكتاب إلى اللغة العربية الاستاذ الدكتور احمد أبوزيد راجع : الغصن الذهبى ــ الجزء الاول ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .

انماطا من التنظيمات الدينية ، وشكل حياة المجتمع المحلى ، وحالة الاقتصاد والسياسة . وهكذا انتهى دوركيم فى نقده لجون ستيوارت ميل إلى أنه إذا اجريت المقارنة بالدقة اللازمة مع وجود مجموعات ضابطة ، انتجت ارتباطات متبادلة (بدلا من روابط علية جامدة) ، فلنا أن نقول أن منهج المقارنة يضارع المنهج التجريبى . وفى الحقيقة ، فقد ثبت ان دوركيم ، وخاصة فى دراسته للانتحار ، كان رائدا لمنهج تحليل المتغيرات العديدة فى علم الاجتماع ، فمثلا لم يكتف دوركيم بمقارنة معدلات الانتحار بين بلدان البروتستانت ، والكاثوليك وجماعات البروتستانت والكاثوليك فى البلد الواحد . بل قام دوركيم باجراء المقارنة بين مجموعتين من الفروق ليبين مدى فاعلية التماسك ، كما ينعكس فى التنظيم الدينى باعتباره مستقلا حاسما مؤديا للانتحار .

وفى اعمال ماكس فيبر ، نجد منهجا للمقارنة مخالفا للمنهج الذى طبقه دوركيم ، فمنهجه لايهتم بعزل العوامل او المتغيرات التى قد تلاحظ تأثيراتها فى عدد كبير من الحالات ، بقدر مايهتم بتحليل سمات كثيرة محسوسة فى مجتمعات مختلفة . وقد فعل ذلك ليبين كيف تتأثر خصائص ، مثل خصائص البيروقراطية ، والتى تتماثل من حالة لاخرى فى بعض مظاهرها ، لكنها تختلف اختلافا شديدا فى مظاهر هامة أخرى ـــ كيف تتأثر هذه الخصائص بالقدر الذى تتأثر به الخصائص الأخرى للتشكيل التاريخى الفريد الذى تكون جزءا منه . وقد تضمن توجيه فيبر استخدام الانماط المثالية ، وتصف هذه الانماط الخصائص العامة لنظام اجتماعى او نسق المعتقدات كما توجد فى شكلها المجرد ، غير متأثرة بتلك العناصر الاخرى التى تكون بناء تاريخيا متراكبا فريدا ، فقد يتكون احد انماط المقارنة من وصف وتفسير الانحراف عن نمط مثالى خاص ، مثل وصف انحرافات اشكال البيروقراطية الالمانية والبريطانية عن البيروقراطية المثالية ، وقد يعتمد مدخل اخر على مقارنة انماط مثالية مختلفة ، مثل انماط البروتستانت والقدرية الهندوكية ، ليبين كيف أن كلا منهما يناظر نسقا مغايرا من القيم الدنيوية ، وقد اثبت فيبر هذه الارتباطات بالدعوى إلى ادراك معنى العلاقات لابإثبات الارتباطات الاحصائية المتبادلة .

وثمة محاولات كثيرة للجمع بين المنهج المقارن والمسح الشامل للمجتمعات فى محاولة لاثبات الارتباطات المتبادلة ، وقد حاول كل من هوبهوز وهويلر وجينزبرج السير فى هذا الطريق لاقامة منهج تجريبى حقيقى يدرس التطور الاجتماعى ، ووضعوا مقياسا مدرجا للتطور التكنولوجى ثم حاولوا ايجاد الترابط المتبادل بين كل مستوى على هذا المقياس المدرج والاشكال الخاصة للحياة الاجتماعية ، مثل النظم السياسية والقواعد الاخلاقية .

وفى الستينيات بذل جولدنر محاولة مماثلة لربط التطور التكنولوجى بالتطور الاخلاقى فى دراسته المنشورة Notes on technology and the moral order 1962 .

وعيوب مثل هذه المناهج ، وخاصة المنهج الاول ، لاتكمن فى المنهج المقارن نفسه ، بل تكمن فى الافتراضات النظرية التى تقوم عليها ، أى ، فى فكرة أن المجتمعات تتطور بالضرورة فى اتجاه واضح المعالم من جميع الوجوه .

وقد مال علماء الانثربولوجيا الاجتماعية حينا من الزمن ، فى اندفاعهم ضد فريزر ومن شاكله إلى المساومة بين المنهج المقارن وأسوأ الافكار المتطرفة فى المنهج التطورى ، متهمين المدرسيين الاوائل بتجريد العناصر الثقافية من مضمونها ، وبذلك شوهوا معناها . وقد أوصوا بالمنهج الكلى ، لكنهم عندما قاموا بالمقارنة بين المجتمعات ، فانهم لم يقوموا بذلك إلا لتصنيف هذه المجتمعات ولاثبات التماثلات الخاصة والفروق بين عدد صغير من الحالات .

وكانت نزعة صياغة تعميمات شاملة حول الكثير من المجتمعات واختبار هذه التعميمات اختبارا احصائيا باستعمال منهج المقارنة بين الثقافات المختلفة ، وإلى حد ما ، بالطريقة التى أوصى بها تايلور ، اكثر سيطرة على الفكر فى امريكا منها فى بريطانيا . وكثيرا مايرجع إلى دراسات قسم العلاقات الانسانية فى جامعة يال لتحقيق هذا الهدف . فمثلا اكد ميردوك فى كتابه Social structure 1949 الارتباط الضرورى بين قواعد الملكية ، وقواعد الاقامة ، وقواعد سلوك القرابة ومصطلحاتها بينما حاول هومانز وشنايدر فى كتابهما Marriage, Authority and Final causes 1955 اختيار تفسيرهما لاسباب شيوع احد اشكال الزواج اكثر من الشكل الاخر .

ويبدو أن نادل كان هو الوحيد بين الانثربولوجيين البريطانيين الذى تعاطف مع هذه الاهداف وتلك المناهج ، رغم انه كان واعيا وعيا تاما بالصعوبات المتأصلة فى هذه الاهداف والمناهج وقد لجأ شابرا إلى استخدام منهج المقارنة بين المجتمعات فى الانثربولوجيا الاجتماعية ومتبنيا وضعا وسطا لايجاد خصائص الانماط الاجتماعية .

وثمة افتراض يحد من هذا البرهان مؤداه أن المجتمعات المتجاورة قد تشترك فى بعض الخصائص مثل الخصائص الجغرافية ، والثقافة المادية واللغة ، حتى أن تفسير الفروق بين هذه الخصائص قد يتضائل إلى عدد صغير من العوامل . وهذا البرهان ، رغم وجاهته يمكن ان يقابله برهان معارض ، إذا كانت المجتمعات متباعدة فيما بينها بعدا كافيا ، فان اى تماثلات بين هذه المجتمعات قد تعزى إلى سبب مشترك بدلا من التأثير المتبادل ، فاوجه الشبه مثلا بين النظم الاقطاعية اليابانية والاوربية من المحتمل ان ترجع إلى الظروف السياسية والاقتصادية المتماثلة ، اكثر مما ترجع إلى أوجه الشبه بين مناطق الاقطاع المختلفة فى أوربا .

ومنذ عهد قريب ، يشير بعض علماء الاجتماع إلى أن المناهج المختلفة للمقارنة ملائمة لدراسة المشكلات المختلفة . فمثلا قارن ليبست وبيندكث بين معدلات الحراك الاجتماعى فى مجتمعات صناعية مختلفة ليبينا أن هذه المعدلات تحكمها إلى حد كبير مرحلة أو درجة التصنيع ، وفى هذه الدراسة استعملا مناهج مماثلة لمناهج دوركيم ، وجردا المتغيرات المناسبة وأقاما مقاييس ودلائل موضوعية لهذه المتغيرات ، مع السيطرة على التأثيرات الاخرى ، وقدما لنا ارتباطات احصائية ، وهكذا وفى دراسة حديثة عن المجتمع الامريكى ، قارن ليبست بين قيم هذا المجتمع وبنائه الإجتماعى وبين مجتمعات اخرى فى أوربا ، واماكن أخرى . وفى محاولة لبيان أن هذه القيم قد تكون عوامل مستقلة فى العملية الاجتماعية . وكان هذا المنهج مماثل للمنهج الذى استعمله توكفيل فى القرن التاسع عشر . وهو يتلخص فى اجراء تقدير تقييمى عن البرهان التاريخى الملائم وتفسيره فى اطار مغزاه ومعناه .

وهكذا اصبح علماء الاجتماع ، الذين يميلون إلى اجراء المقارنة لاثبات

تعميمات ، يتزايد أقبالهم على أن المنهج الاكثر ملائمة لبعض الاغراض هو منهج التاريخ المقارن ، مستعملين افكاراً عامة معينة عن البناء الاجتماعى لاجراء تحليل لحالات قليلة ، واختيار فروض محدودة المدى للغاية . وفى الجانب الاخر ، ناشد الانثربولوجى البريطانى ليتش ، تلاميذه البحث عن التعميمات بتجريد عدد صغير من المتغيرات من مضمونها الواسع ، ولكنه فى الوقت نفسه حذرهم من فهم الظواهر قبل ان تتجرد من مضمونها . على أن منهج دوركيم اقرب لتفسير مجتمعات متراكبة على نحو ما ، من حيث ان عناصرها المكونة أقل تكاملا من عناصر المجتمعات البدائية ، ومن ثم ففى الوسع تجريدها دون خوف من خرق مضمونها ، ومن جهة اخرى ، فالمجتمعات المعقدة اقل استقرارا ، خلال الزمن ، من المجتمعات البدائية ، ومن ثم تصبح عملية تجريد عناصر دائمة معينة ، لاجراء المقارنة بينها عملية أكثر صعوبة ، ومن ثم يلجأ المرء إلى المناهج التى أوصى بها فيبر .

ومن الواضح ان اختيار المنهج تحكمه المشكلة موضوع البحث ، فضلا عن ذلك ، فالمقارنة فى حد ذاتها ، لاتعطى اى نمط خاص للنظرية او فرض ، ورغم انها يمكن أن توصى باتجاه للبحث النظرى ، فانها منهج لاختبار الفروض . ومهما كان التصور فى هذا المنهج ، فالمقارنة ، كما قال دوركيم هى المنهج المتيسر والممكن فى العلوم الاجتماعية .

المهر / ثمن العروس / الصداق : Bride price

المهر هو مقابل الزواج الذى يدفعه أقارب العريس إلى اقارب العروس . وهو رمز التزام مقدس رغم اختلاف المعانى القانونية لهذا الرمز من مجتمع لآخر . وقد اعتقد الاوربيون فى العصور الأولى أن الزوجة تشترى . ولقد انتقدت هذه العملية بقسوة ، غير أنه فى العصر الحاضر ، استبدل بالمصطلح القديم مصطلح جديد يطلق عليه الآن صداق المرأة (المهر) . وقد جاء ذلك نتيجة للفهم السليم للطبيعة الطقوسية ولتعقيدات مهور الزواج . وجدير بالذكر أنه عندما تعطى المرأة

صداقها كجزء من شعائر الزواج يقدم أقارب الزوجة إلى الزوج هدية مقابلة ، رغم انها قد تكون أقل قيمة . وعادة مايرتبط هذا الاجراء بنسق القرابة الابوية .

والمهر ركن من أركان صحة عقد الزواج فى الاسلام ، وهو مبلغ من المال او سلعة أو بضاعة رائجة لها قيمة مالية ، والمهر واجب « واتوا النساء صدقاتهن نحله » (سورة النساء آية ٤٠) والمهر النحله يعنى أنه فريضة او واجب عن طيب نفس . وليس للمهر حد أدنى ، أو حد أعلى . والمهر واجب فى جميع الاحوال سواء أكانت المرأة فقيرة أو غنية أو لاجئة أو مهاجرة ، وإذا كان الرجل فقيراً فلينتظر حتى يصبح له مال ثم يتزوج . وإذا كان الاسلام قد حث على الزواج ، وحض عليه بكل الوسائل ونهى عن العزوبه والتبتل ، وتسهيلا لذلك لم يجعل المهر عقبة تحول دون زواج المعسرين ، كما هو الحال فى المجتمع المعاصر ، ولذلك نرى رسول الله ﷺ ينصح المسلمين ان ييسروا الزواج ، ويتساهلوا بالمهر ، وقبض المهر حق للمرأة لانه ملك لها وحدها[1] .

اختيارية الانتماء : Ambilateral

ثنائية النسب :

مصطلح يستخدل ليدل على انساق قرابة معينة حيث يستطيع الشخص ذكراً كان أم انثى ان يختار اى جماعة قرابية لوالديه لينتمى اليها .

النسق الاجتماعى : Social System

يعرف النسق الاجتماعى بأنه جماعة اجتماعية أو مجموعة من الاشخاص او الجماعات الذين يتفاعلون سويا ، ويدرك النسق كشىء متميز عن الاشخاص الذين يكونونه ، ويتضمن النسق الاجتماعى بناء الادوار والمراكز المترابطة معا ، واداء هذا البناء لوظائفه فى اطار انماط الفعل . وهكذا يشمل النسق الاجتماعى العملية والتغير والنتائج الايجابية ومايحدث من تغير فى التفاعل ، مثلما يتضمن

---

(١) بشير العوا : الأسرة بين الجاهلية والإسلام .ـــ دمشق ، دار الفكر الاسلامى ، عمر فروخ : الاسرة فى الشرع الاسلامى بيروت المكتبة العربية ١٩٥١ .

البناء والاشكال المستقرة ، وتكون إلتزامات المراكز والادوار التى يقوم بها الاشخاص فى مواقف التفاعل ، سواء فى الاسرة او المجتمع المحلى ، أو المجتمع الكبير ، مكونات النسق ، لانها تكون معا وحدة كلية تعكس القيم العامة ، والمعايير الاجتماعية. وقد تبدأ دراسة الأسرة كنسق اجتماعى بتحليل ادوار الزوجة والزوج أو الأخ والاخت او ادوار الطفل والوالدين فى بيئة ثقافية معينة ويمكن ان نحلل وندرس المستشفى او السجن او الجامعة او الدولة كأنساق اجتماعية .

إلا أن فلوجل بيلز يرى أن النسق الاجتماعى فى الدولة الحديثة لايعد نسقا بالمرة ، بمعنى أنه بناء تكون نتيجة وعى بعض المثقفين والمفكرين ، لأن الانشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنسق تحددها مجموعة من القوانين والتنظيمات التى يفرضها الحكام . فالنسق الاجتماعى فى الدولة الحديثة مركب تكون نتيجة مجموعة من التغيرات والتوافقات ، ويضم الخصائص الاتية :ـــ

١ ـــ درجة عالية من التقدم الصناعى .
٢ ـــ أهمية تزايد رأس المال فى تحقيق التطور الاقتصادى
٣ ـــ الضغوط السكانية المتزايدة .
٤ ـــ التغيرات فى بناء الطبقة .
٥ ـــ التنظيمات الاقتصادية والسياسية .
٦ ـــ وسائل الاتصال
٧ ـــ تنظيم العمل .

نسق تصنيفى : Classificatory system

يختلف نسق القرابة التصنيفية عن نسق القرابة الوصفية فى أنه يدل على قرابات متوازية معينة تخاطب او يتحدث عنها بمصطلحات تنطبق ايضا على أصول المرء . فمثلا قد يخاطب المرء عمه بأبى ، وابن عمه بأخى ، وقد يستخدم عدد قليل من مصطلحات القرابة لتدل على عدد كبير من الأقارب . وقد قدم لويس مورجان مصطلحى القرابة الوصفية والقرابة التصنيفية عند تحليله للقرابة . ونجد مقالا مشهورا عن القرابة التصنيفية كتبه راد كليف براون فى كتابة :

Structure and Function in Primitive Society 1952

وقد قدم لنا راد كليف براون كذلك نظرية بنائية ليفسر لنا مظاهر الاختلاف والتماثل بين أنساق القرابة .

النظم والعادات الشعبية والسنن : Institutions, Folkways and Mores

علينا ان نركز اهتمامنا فى البداية على تحديد معنى النظم ، وهى تلك الانماط الثقافية التى تنص على قواعد محددة للسلوك والتى تختلف مع عناصر ثقافية اخرى مثل المعرفة والمعتقدات التى تحدد علاقة الإنسان بالعالم وبالقيم والمشاعر والاتجاهات النمطية . ومن ثم ينظر إلى النظم باعتبارها الانماط المعيارية التى تحدد ماينبغى ان يراه الجميع صحيحا وشرعيا إذ تحدد الانماط المتوقعة للفعل أو العلاقات الاجتماعية ، وتشمل تلك العبارة صفة محددة للنظم والانماط السلوكية ووظائفها فى اقامة علاقات الناس ، بعضهم ببعض أو تحديد هذه العلاقات .

ومفهوم النظام مثل مفهوم الثقافة ، وكل المفهومات السوسيولوجية الأخرى عرف تعريفات مختلفة ، ولما كان مصطلح النظام يلعب دورا هاما فى التحليل الاجتماعى ، ويستخدم استعمالات مختلفة ، فمن الضرورى ان نلتفت اليه ولو لفتة سريعة لكى نلاحظ المعانى المختلفة التى تنسب اليه . وتتضمن التعريفات القديمة لمفهوم النظام وماطرأ عليها من تحديد وايضاح « الانماط المعيارية والجماعات والتنظيمات الاجتماعية » . ونحن لازلنا عادة نجد فى التراث السوسيولوجى تنظيما للافراد يشار اليه كنظام ، رغم أن هناك درجة متزايدة من الاتفاق فى علم الاجتماع على أن النظام يعرف عادة بأنماط السلوك المتفق عليها أو التى تخضع للجزاءات .

وبدلا من قصر معنى النظام لتعريف معايير اجتماعية معينة أو مقننة ، عرف بعض الباحثين النظام بأعتباره مجموعة من المعايير المترابطة والتى تتركز حول نمط من النشاط الانسانى او حول مشكلة كبرى ، مثل توفير المأوى أو الطعام أو العناية بالاطفال أو المحافظة على النظام والتجانس فى الجماعة . ولايوجد اى

خلاف حول هذه التعريفات المختلفة ، ويعرف الطلاب المختلفون في علم الاجتماع صفات وأسلوب الحياة فى الظواهر التى يدرسونها ولكنهم احيانا مايصفونها أوصافا مختلفة .

ويمكن ان نقسم المعايير والمقاييس التى تحكم السلوك والتى اتفقنا على تسميتها بالنظم إلى السنن والعادات الشعبية ، وتلك مفهومات استخدمها لاول مرة عالم الاجتماع الامريكى وليم سمنر (١٨٤٠ ـــ ١٩١٠) والذى يعد من رواد علم الاجتماع الامريكى واشهر مؤلفاته كتاب العادات الشعبية الصادر عام ١٩٠٦ .

ونقصد بالسنن Mores تلك النظم التى تفرض جزاءاً صارماً كما تفرض التوافق بأساليب مختلفة ، ويؤدى الفشل فى تحقيق التوافق إلى الرفض الاخلاقى أو الى انزال العقاب غالبا . ويعنى الناس عادة بهذه الجزاءات الاخلاقية ، مما يضفى عليها قوة القانون ولكنها ليست قانونا . والامثلة على ذلك كثيرة ومتاحة ، مثل لاتسرق ، ولاتقتل ولاتزنى ـــ أما العادات الشعبية فهى اساليب الشعب وعاداته بمعنى القواعد المستترة للسلوك التى يؤدى خرقها إلى الصدام مع مايتوقعه رأى الجماعة . وهذه العادات الشعبية قوى اساسية فى داخل المجتمع ، فتنمو نموا لاشعوريا وتتقبلها الجماعة لاشعوريا ايضا ـــ وهى مثل السنن تفرض جزاءات اخلاقية ـــ ويرى البعض ان العادات الشعبية هى سمة الاميين من سكان الريف فى معيشتهم قبل ان تنفذ اليهم مؤثرات المدينة .

وليس سهل علينا ان نميز بين السنن والعادات الشعبية . وبوضوح اكثر فثمة علاقة وثيقة بينهما تمتد من تلك العادات او المعتقدات الاقل أهمية إلى تلك العادات والمعتقدات الاكثر اهمية .

ويركز مفهومات السنن والادب الشعبية على البعد الاخلاقى للنظام أى يصدق عليها المجتمع ككائن اجتماعى ضرورى .

الوعى الطبقى **Class consciousness**

استخدم هذا المصطلح فى الأصل فى الكتابات الماركسية ليدل على نمو النسق

الاجتماعى للرأسمالية حتى يصل إلى مرحلة يزداد فيها وعى البروليتاريا وعيا كبيرا بوضعها الطبقى ازاء البرجوازية . ومن ثم يتحقق لها التماسك فى مواجهة استغلالهم . وهذا الوعى مقدمة للتنظيم والتوجيه نحو الصراع الثورى والذى يؤدى بدوره إلى ظهور ديكتاتورية البروليتاريا .

واستخدم المصطلح عادة بطريقة عامة وغير دقيقة ليشير إلى وعى الجماعة بذاتها ، وقد يعنى وعى الجماعة التى تشغل مركزا معينا بذاتها ، من خلال اشتراك الافراد فى نمط الاستهلاك العام ، بقدر مايعى ، ان استهلاكهم يرتبط بعضوية جماعتهم .

الفصل الثانى

العلم والعلوم الاجتماعية×

نقصد بالعلوم الاجتماعية هنا مجموعة العلوم التى تشمل علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى والاقتصاد والانثربولوجيا والعلوم السياسية . وتضم هذه المجموعة احيانا الجغرافيا والتاريخ وعلوم الاتصال . والمسألة الاساسية هى عما إذا كان بالامكان اخضاع السلوك الانسانى للدراسة العلمية . وإذا كان هناك خلط يحيط بمصطلح « العلم نفسه » عامة فليس من المستغرب إذن الا يتفق ا. كاديميون حول تحديد المقصود بالعلم الاجتماعى .

وقد انبثقت معارضة فكرة العلوم الاجتماعية من داخل العلوم الاجتماعية نفسها ومن خارجها . أما داخل العلوم الاجتماعية نفسها ، فتمثل الحركة فى العلم الاجتماعى توجيها جديدا . وسمات جديدة لاتجاهات اكاديمية راسخة ، وانكمشت بأستمرار أقسام الدراسات الاجتماعية فى الجامعات ، بينما تعددت اقسام علم الاجتماع .

وفى حالات كثيرة ، تمثل الحركة فى العلوم الاجتماعية تأكيدا على التفسير المنهجى ، وعلى حين قامت التأكيدات السابقة على الوصف فقد كان هناك تأكيد كبير فى العلوم الاجتماعية على تفسير السلوك السياسى بدلا من وصف الأنظمة السياسية . أما فى الانثربولوجيا فان الاتجاه الجديد يميل إلى تقليل شأن الاثنوجرافيا أى يميل إلى عدم الاهتمام بالدراسات الوصفية التى تهتم بملاحظة وتسجيل العناصر الثقافية . وقد أثر ظهور دراسات جديدة مثل القياس الاقتصادى على علم الاقتصاد كما أثرت الجغرافيا التاريخية على التاريخ . وقد تحرك بعض الجغرافيين من احصاء السلع المستوردة والمصدره إلى دراسة النماذج الرياضية

× اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على كتاب

Earl. R. Babbie: Survey Research Method Belmont Califrnia. Wads Worth Pablishing Com 1973

للهجرة . ولقد عارض المتخصصون فى المناهج التقليدية المتطرفة تلك التوجهات الجديدة . وقد قامت معارضة مماثله من خارج اقسام العلوم الاجتماعية . وقد أتت هذه المعارضة من العلوم الفيزيقية ، من علماء الفيزياء وعلماء الاحياء والكيميائيين . واحيانا مايعترض علماء الفيزياء على أن المنهج العلمى لايمكن أن يطبق فى مجال السلوك الاجتماعى الانسانى . وقد دعم المدافعون عن العلوم الاجتماعية الحوار من خلال المحاكاة العمياء لطقوس ونتائج العلوم الراسخة . وقد اتخذت هذه المحاكاة اشكالاً جديدة وعديدة أهمها الانبهار بالادوات والاجهزة العلمية أو الاستخدام غير السليم للاحصاء والرياضيات ، وابداع وصياغة مفهومات غامضة ، والتبنى الكامل لنظريات ومصطلحات مستعاره من العلوم الطبيعية .

وقد ظهرت هذه الاخطاء نتيجة قبول الصورة التقليدية للعلم وعدم فهم المنطق العلمى عند التطبيق . ويدعى العلماء الاجتماعيون عادة انهم يحاولون الوصول إلى فهم الظواهر استنادا إلى مناهج خاصة بهم لاتجربها العلوم الطبيعية إلا أن السخرية الصادرة من علماء الطبيعة وأساتذة الجامعات بل من الرجل العادى كانت هى النتيجة المتكررة .

وتقوم هذه الدروس على افتراض راسخ مؤداه أن السلوك الإنسانى الاجتماعى يمكن أن يخضع للدراسة العلمية ، كما تخضع الخلايا والذرات . وينبغى أن يفهم هذا الافتراض من خلال مضمون الحوار السابق عن العلم التطبيقى . ومن خلال هذا المنظور لايبدو أن ثمة فرقا ذا دلالة بين العلوم الاجتماعية والطبيعية .

وعلماء الاجتماع مثلهم فى ذلك مثل علماء الطبيعة ، يحاولون اكتشاف الاضطراد والنظام والتغير . والعالم الاجتماعى يبحث عن هذا الاطراد فى السلوك الانسانى . وهو يتحقق من ذلك من خلال الملاحظة المتأنية والقياس واكتشاف العلاقات وصياغة النتائج والنظريات ..

البحث عن الاضطرادات الاجتماعية

قياس الظواهر الاجتماعية :

أن الاساس الأول لبناء العلم هو القياس ، أو الملاحظة المنهجية . ولايوجد سبب هام يبرر عدم قدرة العلماء الاجتماعيين على قياس الظواهر المناسبة لابحاثهم ، إذ يمكن قياس اعمار الناس . كما يمكن قياس محل الميلاد والحالة الزواجية بطرق مختلفة تتباين فى دقتها وقيمتها ، كما يمكن قياس السلوك الاجتماعى المتراكم وفق منهج محدد ، ويمكن أن يحدد عالم السياسة سلوك الناخبين يوم الانتخاب ، أو سلوك الناس فى الدوائر الانتخابية ، كذلك يمكن قياس مدى الحركة فى قطاع معين من المدينة فى اوقات معينة متباينة .

ويمكن أن تقاس الاتجاهات ، رغم أن تلك النقطة محل خلاف واسع . فمثلا يمكن أن يقاس التعصب ضد السامية بتحديد المعتقدات التى تعبر عن هذا التعصب . كذلك يمكن أن يقاس التدين والتحرر السياسى والسلوك المحافظ والسلوك المتسلط بنفس الطريقة .

ويهاجم قياس الاتجاهات دائما باعتباره قياسا غير علمى ، ولكن ينبغى أن نعرف هنا حقيقة مؤداها أن كل المقاييس اجتهاديه فى أساسها . فالعالم الاجتماعى لايستطيع أن يصف وصفا واضحا شخصا ما بأنه متدين وشخصا آخر بأنه ملحد ولكنه قد يصف الناس بأنهم تقريبا متدينون فهذا تدينه قوى والآخر تدينه ضعيف . وعلينا أن نعرف بأنه ينبغى أن نحكم على كل المقاييس العلمية استنادا على مدى فائدتها فى البحث بدلا من الاستناد على الحقيقة المطلقة . فالعالم الاجتماعى لايستطيع ابدا وصف الشخص بأنه متدين بالمعنى المطلق للدين اكثر مما يصف الكيميائى عنصرا معينا بأنه صلب . فتدين الشخص لامعنى له إلا بالنسبة لاشخاص آخرين . كذلك فصلابة العنصر لامعنى لها إلا بالنسبة لعلاقة هذا العنصر بالعناصر الأخرى .

ويمكن أن يوجه إلى العلماء الاجتماعيين اتهام بأنهم يعدلون مقاييسهم باستمرار . كما يختلف عالمان اجتماعيان فى وقت معين فى طريقة البحث . ولكن ذلك لايقتصر على العالم الاجتماعى وحده ، إذ يتطلب تقدم العلوم التغير المستمر فى مقاييسها .

اكتشاف الاضطرادات الاجتماعية :

وثمة نزعة تنظر إلى موضوعات العلوم الفيزيقية بأنها اكثر انتظاما من موضوعات العلوم الاجتماعية . فأى جسم ثقيل يسقط على الأرض فى أى وقت اذا ماقذف به . وعلى حين ينتخب الشخص مرشحا معينا فى انتخابات هذا العام فاننا نجد الشخص نفسه قد صوت ضد هذا المرشح فى الانتخابات الماضية . وبالمثل يذوب الثلج إذا ماارتفعت درجة الحرارة ، وفيما يبدو لايذهب الاشخاص المتدينون دائما إلى اماكن العاده ، ورغم أن هذه الخاصية دائما صادقة فثمة خطر فى الاستمرار فى تفسير وجود الاضطرادات الاجتماعية ، إذ ينكر وجود المعايير الاجتماعية المشاهده تلك النتيجة . وتفرض الانظمة الرسمية فى المجتمع المعايير الاجتماعية . فمثلا لايسمح للتصويت فى الانتخابات إلا لمن تجاوز الثامنة عشر من عمره . كما لايجوز عقد الزواج إلا لمن بلغت السادسة عشر من عمرها . وكذلك لاتلتحق الفتيات بالخدمة العسكرية رغم حتمية تجنيد الشبان ؛ مثل هذه التحديدات الاجتماعية الرسمية تنظم السلوك الاجتماعى . وبعيدا عن التحديدات الرسمية للسلوك يمكن ملاحظة اثر بعض المعايير الاجتماعية على السلوك ، فالنساء اكثر تدينا من الرجال كما أن الطالبات اكثر اقبالا على الالتحاق بالكليات النظرية واقسام اللغات من الطلبة .

إلا أن ابحاث الاجتماعيين عن الاطرادات فى السلوك . تواجه انتقادات ثلاثة ، اولا يمكن أن يهاجم تعميم المراد باضطراد بالسلوك بأنه تعميم تافه لم يأت بجديد فكل شخص يعى هذا الاضطراد . ثانيا يمكن لنا أن نكتشف حالات متناقضة ، إذ يتبين لنا أن كل ملاحظة ليست بالضرورة صادقة تماما ، ثالثا يمكن أن يدعى

بأن الاشخاص المشتركين يمكن أن يفسدوا الانتظام والاطراد المشاهد فى السلوك إذا ارادوا .

وقد ادى اتهام اكتشافات العلماء الاجتماعيين بأنها تافهة ، أو معروفة معرفة مسبقة إلى سعى بعض العلماء الاجتماعيين إلى البحث عن نتائج غامضة خفية ، لاثبات ان العلم الاجتماعى أرق مما يعبر عنه الحس المشترك الظاهر . ولكن هذا الاتجاه مرفوض وغير مقبول من أكثر الاجتماعيين لاسباب عديدة ، اهمها أن ثمة تناقضات عديده بين الاشياء التى يدركها الحس المشترك ، وهذا ضرورى للتخلص من المفهومات الغامضة الموجودة ، حتى ولو كانت هناك قضايا لايقبلها الرجل العادى ، فمن الضرورى أن نختبرها أمبريقيا .

ويبدأ كثير من المحاضرين فى مناهج العلوم الاجتماعية دروسهم بالكشف عن مجموعة من الاكتشافات الهامة التى توصلت اليها العلوم الاجتماعية مثل الدراسات التى قام بها صمويل ستوفر عن الجندى الامريكى اثناء الحرب العالمية الثانية وتتضمن هذه الاكتشافات نتائج عن :

١ — ان الجندى الأسود يسعد بالتدريب فى معسكرات الشمال اكثر من سعادته بالتدريب فى معسكرات الجنوب .

٢ — ان الجنود فى القوات الجوية يشعرون بان نظام الاجازات اكثر عدلا من نظام الاجازات فى القوات البرية ، حيث التباطؤ فى التصريح بها .

وعندما يبدأ الطلاب فى رفض هذه الاكتشافات الهامة باعتبارها واضحة يوضح المحاضر أن كل منها قد دحضتها الابحاث ، ويفسر لماذا تخضع العلاقات المشاهده للفهم المنطقى ، رغم أنها تتطلب جدلا أكبر . وبايجاز فان البرهنة على الشيء الواضح له وظيفة قيمة فى كل علم من العلوم سواء العلم الاجتماعى أو الفيزيقى ، وليس هذا بالنقد الشرعى لاى تقدم علمى .

وليس كافيا لتحدى الطبيعة العلمية للبحث ، ان نوجه نقدا مؤداه ان استخلاص تعميمات معينة فى العلوم الاجتماعية فى مجالات معينة قد تكذب فى مجالات أخرى . وهكذا فليس كافيا ان نلاحظ ان رجلا معينا اكثر تدريبا من امرأة معينة ، إذا تمثل الاضطرادات الاجتماعية انماطا محتملة . وان العلاقة العامة

بين متغيرين لاتحتاج لان تكون صادقة ١٠٠٪ فى كل الاحوال التى نلاحظ فيها . والعلم الطبيعى غير مستثنى من هذا التحدى . كذلك لانستطيع أن ندرس كل العالم . ومن ثم يمكن للعالم الاجتماعى أن يتنبأ بالاحتمالات الممكنه وأن يستعمل كل أساليب القياس الممكنة الدائمة . ويستطيع ان يتنبأ بأن عدد النساء المتدينات اكثر من عدد الرجال .

وأخيرا فان الاتهام القائل بأن الاضطرادات الاجتماعية التى تخضع للملاحظة يمكن الا تستمر من خلال الارادة الواعية للفاعلين ، ليس تحديا كافيا للعلم الاجتماعى حتى ولو لم يكن هناك موقف مشابه فى العلم الفيزيقى . إذ لايوجد موضوع يستطيع أن يتحدى ويقاوم سقوط الاجسام . ونحن لاننكر أن المتدين المتعصب قد يذهب إلى صناديق الانتخابات ويصوت لصالح مرشح اليسار ، أو يختار أحدى المرشحات بدلا من أحد الرجال المرشحين ، كذلك فالعمال يستطيعون الذهاب إلى العمل مبكرا أو يبقون فى منازلهم ليتجنبوا وقت أزمة المواصلات . ولكن لاتحدث كل تلك الاشياء باستمرار حتى يمكن القول بأنها تهدد تهديدا خطيرا مانلاحظه من اضطرادات السلوك .

وتبقى الحقيقة ثابتة بأن المعايير الاجتماعية موجوده ، وان العلماء الاجتماعيين يستطيعون ملاحظة تلك المعايير ، وعندما تتغير المعايير اثناء الزمن فان العالم الاجتماعى يستطيع أن يلاحظ ويفسر تلك التغيرات ، وتستمر الانتظامات الاجتماعية لانها تميل لان تكون مفهومة عند الفاعلين المرتبطين بها ، وبينما يوحى العالم الاجتماعى بأنه من المنطقى ان نتوقع من جماعة معينة من الناس ان تسلك بطريقة معينة ، فإن هؤلاء الاشخاص يتفقون تماما على الاساس المنطقى لكل توقع . وهكذا فعلى حين يستطيع المتدين ان ينتخب مرشح اليسار إلا انه يعتبر انتخاب مرشح اليسار ، نوعا من الغباء .

ابداع النظريات الاجتماعية :

وحتى الآن لم يكتشف العلماء الاجتماعيون نظريات فى السلوك الاجتماعى تقارن بنظريات علماء الفيزياء، وبطبيعة الحال فهناك عدد لاحصر له من نظريات

السلوك الاجتماعى صاغها اصحابها منذ سنوات بعيدة . ولكن لاتوجد نظريه منها يدافع عنها باعتبارها نظرية ملائمة . ويرجع عدم وجود نظريات ملائمة فى العلوم الاجتماعية تصل إلى المستوى الذى وصلت اليه العلوم الطبيعية إلى حقيقة ان المناهج العلمية لم تطبق فى مجال دراسة السلوك الاجتماعى منذ فترة طويلة مثلما حدث فى مجال الظواهر الطبيعية . وفى الوقت نفسه فان معارضة فكرة خضوع السلوك الاجتماعى للدراسة العلمية يعد قيدا على المصادر المتاحة لنمو العلوم الاجتماعية .

خصائص العلم الاجتماعى :

العلم الاجتماعى علم منطقى :

تبغى العلوم الاجتماعية فهم السلوك الاجتماعى فهما معقولا . بيد أن ذلك لايعنى أن نقول أن كل سلوك اجتماعى عقلانى ، فبعض أشكال السلوك الاجتماعى غير عقلانى ، ولكن العالم الاجتماعى ينبغى أن يكون عقلانيا ليفهم كل اشكال السلوك الانسانى . والعالم الاجتماعى مقيد بنفس القيود المنطقية التى يخضع لها العالم الطبيعى . فلن يحدث حدث معين قبل حدث آخر سبقه فى الزمن ، كما أن الشىء الاجتماعى لايتصف بخاصتين ، ولاتحدث منه نتائج متنافرة ، فالمنطق الاستقرائى والمنطق الاستدلالى ملائمان فى العلم الاجتماعى .

العلم الاجتماعى حتمى :

يفترض علماء الاجتماع ، مثل علماء الفيزياء ان ثمة اسباب تسبب وقوع الاحداث ، وأن الاشياء لاتوجد صدفه . فلكل حدث أو موقف محددات سابقة .

وتبدو تلك الخاصية التى تميز العلم الاجتماعى على نقيض الحس المشترك . وقد يتوصل العالم الاجتماعى إلى أن ثمة جماعة معينة من الناس تسلك وتتصرف بطريقة معينة امام عدد من الاحداث ، أو فى مواقف معينة ، مثل تصرف الشخص المتدين فى الانتخابات . وبهذا المعنى فالتدين والتعصب والاتجاه السياسى المتخلف

كلها أسباب تحدد السلوك الانتخابى . ولكن كل ذلك لايدعنا ننكر أن الرجل صاحب المشكلة قد ينتخب اليسارى ، على الرغم من أنه لايؤيده . ان تقبل حالة الحتمية فى العلوم الاجتماعية اكثر الاحكام خطورة فى الدراسات التقليدية المهتمة بدراسة السلوك الاجتماعى . فعلى حين يدرس الباحث المهتم بالسلوك الانسانى الصراعات العنيفة التى يعانى منها افراد المجتمع ليفهم مدى احساس الناس بالثقة والخيانة . وليصل إلى قرار معقول ، فان العالم الاجتماعى يبحث عن الأبعاد الهامة لمثل هذا القرار بين مجموعات مختلفة من الاشخاص . وبينما يدعى العالم النفسى المهتم بالانسان انه يصل إلى القرار الذى يصل إليه كل شخص ، وهو محصلة عملية ترتبط بالمزاج ، فان العالم الاجتماعى يقول ان القرار يتلاءم مع نمط عام اكثر بساطة .

العلم الاجتماعى يتميز بالعمومية :

وكما اوضحنا ، فان العلم الاجتماعى يهدف إلى ملاحظة وفهم الانماط الكلية للاحداث والارتباطات ، ويدعم عمومية النظرية او فائدتها ، فكلما اتسع مجال الظواهر التى تفسرها النظرية ، كلما ازدادت فائدتها . وهكذا فكل نظرية عن السلوك الانتخابى ، لاتطبق إلا على المتعلمين أو سكان المدن فانها تكون أقل فائدة من تلك النظرية التى تطبق على كل المواطنين . كذلك فالنظرية التى تتحدث عن المسيحيين أو اليهود أو المسلمين فقط لاقل فائدة عن النظرية الشاملة التى تدرس التدين عند كل الناس فى كل الاديان .

وعلى حين يبدأ العالم الاجتماعى بمحاولة تفسير مجال محدد جدا من السلوك الاجتماعى أو سلوك عدد محدد من الناس ، فان هدفه الاول أن يعمق من قوة تأثير تفسيره للنتائج التى يتوصل اليها عن اشكال السلوك الانسانى .

العلم الاجتماعى لايقلل من قيمة شيء على حساب شيء اخر :

يحاول العالم الاجتماعى مثل العالم الطبيعى أن يحقق اعظم قوة تفسيرية استنادا على أقل عدد من المتغيرات . وفى أحوال كثيرة ، فان الدراسات التى تضيف

متغيرات جديدة ، تضيف قوة تفسيرية تنبؤية ، وتظهر تلك القوة ايضا فى نموذج اكثر تعقيدا . ومن الناحية العملية فان اضافة متغيرات اكثر يقلل من عمومية التفسير . حيث أنه من الممكن ان يكون لمتغيرات معينة تأثير محددا على عدد من اعضاء قطاع معين من السكان . وتأثير متباين على عدد آخر . وينبغى أن نلاحظ أن طبيعة الشيوع للعلم الاجتماعى مثل طبيعة الحتمية تفتح الباب للنقد عند هؤلاء الذين يتمسكون بوجهة نظر اكثر انسانية . وبينما يميل انصار الاتجاه المهتم بالصفات البشرية إلى توضيح اعماق العوامل المزاجية التى تكمن وراء قرار أو فعل معين يصدر من جانب فاعل اجتماعى معروف ، فان العالم الاجتماعى يحاول محاولة واعية أن يحد من مثل هذا البحث . إذ قد يحاول الباحث الاجتماعى أن يفسر سلوك الناخبين ككل ، من خلال ملاحظة ثلاثة أو اربعة متغيرات . ان المهتم بالصفات الانسانية يعترض على أن كل ناخب من الناخبين لديه اسباب اخرى كثيرة فردية للتصويت حتى أن العدد المحدود من المتغيرات لاتفسر لنا تفسيرا ملائما عمق اتخاذ القرار عند أى شخص من الاشخاص موضوع الدراسة . والمشكلة هنا هى هل العالم الاجتماعى يهتم بهدف يختلف اختلافا كبيرا عن هدف العالم المهتم بالانسانيات وهو يحاول محاولة واعية ان يحقق اكبر قدر من الفهم من اقل عدد من المتغيرات . والحقيقة انه لا العالم الاجتماعى ولا الشخص المهتم بالانسان اكثر دقة من الآخر . فكلاهما يتقصى اهداف معينة ومختلفة . ويجب أن نفهم فهما كاملا أهداف العالم ، لكى نعرف ان هذا النقد ليس نقدا صادقا .

العلم الاجتماعى محدد :

ويتعين على العالم الاجتماعى مثله فى ذلك عالم الفيزياء أن يحدد طرق القياس . ولهذا التحديد أهمية خاصة فى العلوم الاجتماعية ، لانه يهتم بمفاهيم غامضة جدا تتداول فى الحوار العادى . وعلى الرغم من أن الفيزيائى يحدد المقصود « بتغير سرعة معجلة » تحديدا اكثر دقة من الرجل العادى ، فان التعريف العلمى لايختلف اختلافا كبيرا مع الفهم الشائع للمصطلح ، إلا أنه يتعين علينا ان نحدد فى مجال العلوم الاجتماعية مفهومات مثل التدين والتعصب والوظيفة لما تحمله هذه

المفهومات من معان مختلفة متضاربة فى اللغة الدارجة حتى أن تعريفاتها الدقيقة لاتبدو ظاهرة تماما ، وعلى حين يستطيع العالم الاجتماعى اخضاع تلك المفهومات للدراسة العلمية الدقيقة فانه يتعين عليه ان يحدد طبيعة المقاييس المستخدمة فى كل حالة ، كما أن تعريفاته سوف تخضع للتقييم استنادا على مدى نفعها ، اى فى مدى مساهمتها فى تعميم التفسير ، لا على اساس الحقيقة المطلقة .

العلم الاجتماعى يخضع للتحقيق التجريبى :

ولكى تصبح النظريات والقضايا الاجتماعية العلمية مفيدة ، ينبغى أن تقبل الاختبار فى العالم الواقعى . وهكذا فمن العبث أن نؤكد ان التدين يرتبط ارتباطا ايجابيا بالتعصب ، دون أن نوضح الطرق التى تمكن من قياس المتغيرين واختبار القضية فى الواقع ، وكما يحدث فى العلوم الفيزيقية ، فانه يتعين على العالم الاجتماعى أن يكون قادرا على وصف الظروف الامبريقية التى يحكم فى ضوئها على قضية معينة بأنها خطأ . ولكن هناك ظواهر لاتخضع للتحقق التجريبى مثل الايمان بالله . كما أن التأكيد على اتهام اعضاء جماعة معينة بالكفر بالرغم من انهم يتصرفون بطريقة ملؤها الايمان اتهام لايمكن ان يخضع للتجريب .

العلم الاجتماعى يتأثر بذاتية الباحث :

يستطيع أى باحث اجتماعى ان يقوم باجراء اى دراسة اجتماعية سبق ان قام بها غيره ، وان يتبع نفس خطوات البحث ، وقد يصل إلى نتائج اجتماعية متباينة عن التى وصل اليها بعض العلماء ، وتباين هذه النتائج محصلة عدم الاتفاق اصلا على الفروض النظرية ، وتصميم خطوات البحث وليست نتيجة عدم الاتفاق على النتائج التى يتوصل اليها الباحث .

وهذا يصدق كثيرا على الابحاث التى تتعلق بموضوعات ترتبط بالعاطفة مثل الموضوعات الدينية والسياسية والتعصب . فمثلا من الصعب أن يفهم الباحث الاجتماعى المحافظ ظاهرة مقاومة التجديد بطريقة يبدو فيها السلوك المحافظ شيئا مكروها .

العلم الاجتماعى يتقبل التعديل :

لاتوجد نظرية اجتماعية يمكن ان تبقي غير محددة ، ولايتوقع ان تبقى نتائج العلم الاجتماعى صامدة امام الاختبارات المتلاحقة . وبطبيعة الحال فالعالم الاجتماعى يدرس ظواهر تتأثر بالايديولوجيات السائدة ، مثل التدين والسياسة والفلسفة . كما ان الايديولوجيات اقل انفتاحا وتغيرا من العلم . وعندما ينتهى العالم السياسى إلى نتيجة مؤداها أن الطبقة العاملة فى أمريكا اكثر تسلطا من الطبقة الوسطى ، فإنه يتحدى الجناح اليسارى فى الفكر السياسى . كذلك فعندما يفسر العالم الاجتماعى التدين فى اطار متغيرات اجتماعية راسخة ثابتة ، فانه يتحدى المعتقدات الدينية فيما يتعلق بالسلوك الخلقى والعقاب والثواب الدينى .

والخطورة التى تواجهنا هى ان كل عالم من العلماء الاجتماعيين يمكن ان يخضع شخصيا إلى ايديولوجيات خاصة حتى ان خضوعهم لها يمكن ان يمنعهم من التسليم بالنتائج العلمية وتأكيد انفتاح علمهم ، فعالم السياسة اليسارى سيمتنع عن دراسة أو تقبل البحوث التى تؤدى إلى نتيجة مؤداها أن الطبقة العاملة اكثر تسلطا من الطبقة المتوسطة . ويبدو ان هذا الموقف ليس مميزا وخاصا بالعلم الاجتماعى وحده فالبحوث الفيزيقية تتحدى باستمرار المعتقدات المقبولة عادة .

طرق البحث الاجتماعى :

من الاهمية ان نوضح ضرورة استخدام طرق عديدة فى البحث ، عندما يبدأ عالم الاجتماع فى دراسة ظاهرة معينة ، فان الاكتفاء بطريقة واحدة ليس نافعا وغير مجد وليس مفيدا ، فالعالم يحدد لنفسه قدراته ليفهم العالم الذى يحيط به .

ومن الضرورى توضيح أن كل طرق البحث الاجتماعى تسترشد بالخصائص العامة للعلم . كذلك لابد ان نوضح امكانية تطبيق مناهج البحث العلمى عند دراسة السلوك الاجتماعى فليس هناك مايمنع من الاستفاده من المنهج العلمى عند دراسة السلوك ، ومن الممكن ان نضع فى الأعتبار خصائص العلم عند دراسة المجتمع .

البحث الاجتماعى والنظريه :

يتبين لنا من تحليل البحوث الاجتماعية المشهورة سواء البحوث المتعلقة بالفقر مثل بحوث بوث ورونترى ، أو بحوث الحراك الاجتماعى أو جناح الاحداث ان هذه البحوث تصل إلى نتائج محدودة ، وتعبر عن قصور الرؤية والحاجة إلى معرفة منظمة تقوم على أسس واضحة ، وبدون هذه المعرفة المنظمة الواضحة ستكون رؤية العلم الاجتماعى بالضرورة محدودة بالبناء أو بالمشكلات التى أجرى عليها البحث .

ويؤكد هذا المدخل ان القوانين العلمية والنظرية العلمية ذات قيمة عملية ونقصد بالقانون العلمى تلخيص المعرفة المتاحة عن العلاقة بين خصائص معينة وتحديد هذه العلاقة فى مصطلحات عامة تتجاوز الاساس التجريبى الذى استندت عليه . والقوانين هى فروض ثبت صدقها .

وقد عرف براثوايت النظرية على النحو التالى : هى مجموعة الفروض التى تكون نسقا استنباطيا أى هى مجموعة من الفروض التى تنظم بطريقة ما ، وتؤدى إلى استدلال قضايا عامة من المقدمة يمكن أن تنظم القضايا المكونة للنسق الاستدلالى بترتيب منظم . وتوضع الفروض فى أعلى ترتيب ، أما القضايا التى توضع فى النهاية فهى النتائج .

ويتعين علينا أن نميز بين الاستعمال العلمى الحديث لكلمة نظرية عن المعانى الاخرى للكلمة ، ففى اللغة العادية ، ترتبط النظرية عادة بالتأمل والتفكير المجرد ومايعد نظرى ، انما هو شيء حقيقى وخيالى . وبالرغم من أنه أمر حقيقى أن تكون تلك النظريات فى البدايات الأولى للعلم كانت محصلة التأمل المكتبى ، كما انها قدمت عونا هزيلا وضئيلا عن الحقائق الامبريقية فان النظرية والملاحظة أصبحتا الآن ترتبطان ارتباطا وثيقا كلما تطور العلم .

وإذا ماألقينا نظرة فاحصة على الوضع الحالى للعلوم الاجتماعية تبين لنا أن النظرية والبحث لايرتبطان دائما ارتباطا وثيقا ، إذ من المحتمل أن تتضمن بعض النظريات عددا من المبادىء التأملية التى نعجز عن البرهان عليها من خلال المعلومات المتاحة .

وهكذا فاننا نجد فى نظرية التحليل النفسى عند فرويد أفكار نعجز عن البرهان عليها تجريبيا . وكذلك الحال بالنسبة لافكار بارسونز وماركس ولكن ثبت ان بعض اراء فرويد ذات فائدة بالغة فى العلاج الاكلنيكى ، وتعبر عن رؤية جديدة لدراسة السلوك الانسانى ، وعلى العموم فان غرض النظرية العلمية الحديثة ان تلخص المعرفة الموجودة ، وتقدم لنا تفسيرا للاحداث والعلاقات التى تخضع للملاحظة كما تستطيع ان تتنبأ بسير الاحداث والعلاقات غير الملحوظة استنادا على المبادىء التفسيرية التى تتضمنها النظرية .

وثمة خاصية اساسية اخرى للنظريات العلمية ينبغى أن نوضحها وهى كونها مؤقتة ، ففى العصور الاولى كانت النظرية تعد تفسيرا نهائيا . ولكن النظرة اليوم تختلف ، فالنظرية تقبل اليوم باعتبارها تفسيرا غير نهائى بغض النظر عن الحجم الكبير للنتائج التى تتضمنها إذ انها تعبر عن الاحتمال الاكبر والأكثر قيمة لتفسير تلك النتائج فى ضوء المعرفة والامكانيات المتاحة ، ولكنها تقبل دائما المراجعة اى انها ليست جامدة وليست حكما نهائيا .

نماذج من التفسير النظرى :

هناك رأى يقول أن الكوارث تقود إلى الاضطهاد ، إذ تتضمن مثل هذه النظرية مفهومات عن الاحباط والعدوان والاحلال ، ويمكن ان تقدم تفسيرا عن السلوك الذى يخضع للملاحظة ، سواء سلوك الطغاة أو سلوك المضطهدين كما يمكن ان نقدم لنا تفسيرات لاحداث كثيرة اخرى مثل السلوك العدوانى للطفل نحو اخوته الصغار .

وهكذا يتحقق لنا مطلب واحد للتفسير النظرى ، إذ يختزل اكبر عدد من الظواهر المختلفة فى أقل عدد من المبادىء النظرية الاساسية ، وكلما زاد عدد الظواهر التى تفسرها النظرية كلما زادت الثقة فى كيفية استخدام المبادىء العامة التى تتضمنها النظرية عند التنبوء .

العلاقة بين النظرية والملاحظة :

شبه همبل النظرية بالشبكة وتمثل المفهومات العقد التى تضمها الشبكة اما التعريفات والفروض فهى تشبه بالخيوط التى تربط العقد سويا .

ويرى همبل ان النظرية تنبع من المشاهده ، كما أن النظرية تساعد على تفسير الواقع المشاهد وربط الاحداث سويا ، كما اننا نستطيع بعد اجراء عدة ملاحظات ان نرتفع استنادا على التفسير إلى بعض القضايا النظرية ثم نتقدم استنادا على التعريفات والفروض إلى نقاط اخرى يسمح لنا تفسيرها أن نخطط لاجراء ملاحظات اخرى .

ان الارتباط المتبادل بين الظواهر المشاهدة وتصميم النظرية امر واضح كما أن الوعى بالصياغة النظرية بين الاحباط والعدوان سوف يوحى باتجاهات لدراسة مواقف تتضمن الاحباط ، كما تفسر مواقف اخرى تثير الحيره ، كما أن دراسة السبب الحقيقى للاحباط قد يكون سببا هاما لمنع الاضهاد .

وإذا كان الهدف الاساسى من اهداف النظرية التفسير ثم التنبوء فان اجراء مسح شاملا للنظريات السائدة فى العلوم الاجتماعية يكشف لنا ان هناك عددا قليلا جدا من النظريات يمكن ان تستخدم فى التفسير والتنبوء . وينبغى أن تسير النظرية والبحث التجريبى معا من اجل اثراء المعرفة وكل منهما يقدم مساعداته للاخر ، وأى عالم اجتماعى قد يبدأ من احداهما كنقطة بداية فى بحثه ولكنه ملتزم بالتركيز فى بعض المواضع على أهمية العلاقة المتبادلة بين النظرية والمشاهدة . وإذا ماركز على الدراسة التجريبية ، فعليه أن يدرس مدى ملائمتها مع نظرية اجتماعية معينة إذا ماإراد ان يتحقق من مدى مساهمتها الممكنة فى اثراء العلم الاجتماعى . أما إذا كان اهتمامه الاكبر بتطوير النظرية الاجتماعية فعليه أن يضع فى اعتباره طرق اختبار ودراسة نظريته باللجوءإلى البحث التجريبى ، إذا ماإراد ان تتجاوز النظرية مجرد التأمل .

النظرية اساس البحث :

تقدم لنا النظرية دليلا ومرشدا اساسيا لتوجيه البحث إلى الموضوعات الاكثر

جديدة والاكثر نفعا والتى تظهر فيها العلاقات الهامة بين المتغيرات . ويقول ميرتون إذا لم نوضح العلاقات بين المفهومات ، فان البحث سيصبح عقيما مهما كانت دقة المشاهدات والاستدلالات ، ولكن اهمية تلك القضية فى عدم جدوى اجراء المحاولة والخطأ فى البحث الامبيقى ، حيث أن اعداد المتغيرات التى لاترتبط ارتباطا وثيقا ذات فائدة كبيرة جدا .

وتوضح لنا محاولة كوهين لصياغة نظرية تفسر ظهور الثقافة الخاصة للاحداث المنحرفين فى اجزاء معينة من المجتمعات الامريكية ، أهمية ووظيفة النظرية فى البحث الذى توجهه متطلبات اجتماعية معينة . وكانت الخطوة الأولى نحو بناء هذه النظرية ، اعجاب كوهين بنتائج الابحاث السابقة عن انحراف الاحداث وتجربته الخاصة مع عصابات الاحداث والقضايا النظرية الاخرى فى علم الاجتماع وعلم النفس وبايجاز فقد اتبع كوهين الخطوات العلمية الآتية عند اقامة نظريته :

١ ــ ان كل انسان يهدف حل المشكلات .

٢ ــ رغم ان كل الناس يعانون من حل المشكلات ، فثمة انواع من المشكلات لاتوزع توزيعا عشوائيا فى المجتمع ، فهناك مشكلات معينة تخص فئات معينة دون غيرها ، وهناك مشكلات تخص سكان المناطق المتخلفة وحدها ، وهناك مشكلات ينفرد بها العمال دون غيرهم ، وهناك مشكلات تخص الصبية دون الفتيات وهناك مشكلات المرأة العاملة .

٣ ــ هناك شرط حاسم لظهور نمط ثقافى معين جديد هو وجود عدد من الناس لديهم مشكلات خاصة تتعلق بالتكيف .

٤ ــ ثمة شرط هام لتوافق الفرد ، هو اعتقاده ، انه مهم عند الآخرين الذين يقدرهم ، كما انه مهم لدى هؤلاء الأفراد .

٥ ــ يصعب تحقيق هذا الشرط عند ابناء الحرفيين والمناطق المتخلفة سواء فى المدرسة أو اماكن الترفيه وفى كل مجالات الانشطة فى المجتمع المحلى كما يحكم عليهم من خلال معايير الطبقة الوسطى والتى لم يتوحدوا بها ولم يدربوا على مواجهتها .

٦ ــ وتهتم ثقافات الأحداث المنحرفين عند مواجهتها تلك المشكلة بتوفير معيار لشغل المركز الذى يرحب به هؤلاء الصبية المنحرفين .

٧ ــ ثمة صراع اساسى بين معايير هؤلاء الصبية ومعايير الطبقة الوسطى .

٨ ــ ورغبة فى التخلص من هذا الصراع ، ترفض ثقافة الأحداث رفضا صريحا معايير الطبقة الوسطى وخاصة تلك التى تشير إلى الرموز والمركز ويتعارض معيار شغل المركز فى مجتمع العصابات كلية مع معيار شغل المركز الذى يؤكده المجتمع السوى الجدير بالاحترام .

وقد اشار كوهن إلى أن نظريته تحتاج إلى معلومات من نوع مخالف عن تلك المعلومات التى نجمعها عادة من بحوث الاجرام والانحراف ، وقد أشار فى البداية إلى الحاجة إلى بيانات اكثر ملائمة عن ظهور السلوك الانحرافى ، واهمية اجراء الدراسة المقارنة بين الصبية المنحرفين والاسوياء ، باختيار عينة عشوائية من الصبية فى منطقة معينة ثم تحدد من خلال المقابلة الدقيقة مدى ظهور السلوك الانحرافى بين افراد العينة بدلا من اللجوء إلى الاحصاءات الرسمية غير الدقيقة الموجودة فى أقسام الشرطة ودور القضاء ، إذ أن هذه الاحصاءات لاتعكس حقيقة السلوك الانحرافى .

وبايجاز فالنظرية تزيد من اثراء البحث لانها تقدم المفاتيح الاساسية للبحث وتربط بين النتائج الظاهرة بواسطة عمليات محدده ، كما تقدم تفسيرا للعلاقات التى تخضع للملاحظة وكلما ازداد توجيه النظرية للبحث التجريبى ، كلما ازداد احتمال اسهام النتائج اسهاما مباشرا فى تنظيم ونمو المعرفة .

مساهمة البحث التجريبى فى تطوير واثراء النظرية :

لاتسير الارتباطات بين النظرية والبحث كلها فى اتجاه واحد ، فالنظرية تثير البحث وتؤكد نتائجه ومن جهة أخرى يستخدم البحث التجريبى لاختبار النظريات الموجودة ويقدم لنا الاساس لظهور نظريات جديدة .

ويمكن ان نستدل من النظرية المصاغة صياغة دقيقة مايمكن ان يحدث فى

مواقف مختلفة تحت ظروف معينة . وتقدم لنا هذه الاستدلالات فروض البحث التجريبى . وإذا ماأثبتت الدراسات فروضا معينة فان هذه الدراسات تسهم فى تحقيق البناء النظرى الكلى الذى يعتمد عليه الاستدلال ، ومن جهة أخرى فاذا لم يثبت الفرض تجريبيا ، فان الامر يتطلب اعادة دراسة النظرية لتحديد ماإذا كان من الممكن اهمال النظرية باعتبارها غير صادقة أو إذا كانت تتطلب بعض التحوير والتعديل لتصبح صادقة مع نتائج البحث . وفى الحالة الأخيرة ، فان الأمر يتطلب دراسات اخرى لاختبار ماإذا كانت الاستدلالات من النظرية المعدلة ستدعمها الملاحظات الامبريقية .

ويوجد فى الوقت الحاضر عدد قليل من النظريات فى العلوم الاجتماعية تقبل الاختبار التجريبى ، وهكذا فان البحث التجريبى عادة مايسهم فى تطوير النظرية اكثر مما يسهم فى اختبارها .

ويمكن ان يخطط بوعى من أجل تطوير النظرية الاجتماعية . كما يمكن ان يكون هذا التطوير عرضيا ودون قصد ، والباحث الاجتماعى الذى يتعمد تطوير بعض جوانب النظرية قد يتبع احد المدخلين ، أو كليهما ، وقد يعيد اختبار دراسات اجريت فعلا ، أو قد يخطط لبرامج عن دراسات يقوم بها فريق من الباحثين لدراسة مشكلة يهتم بها دراسة مركزة ، وفى كل حالة من هذه الحالات ، فليس من المحتمل ان يبدأ الباحث من فراغ ، إذ لدى الباحث عادة مجموعة من التصورات والافكار عن بعض الاحتمالات عن القضايا المتغيرة ، أو يبدأ منطلقا من ابحاث سابقة أو من قضايا نظرية سابقة ، أو من مشاهداته الخاصة . وقد يتم اختبار الدراسات الموجودة أو التخطيط لهذه الدراسات فى ضوء تلك المفهومات والقضايا التجريبية .

وقد اثبت ميرتون امكانية هدم النظرية ، استنادا على النظريات الموجودة فى مقالة عن « اضافات إلى نظرية سلوك جماعات المرجع » وقد درس ميرتون مدى تقدير الناس لمركزها بالنسبة لمراكز الاخرين وتفسير اتجاهات الجنود فى اطار الحرمان النسبى الذى يعانونه بالنسبة لجماعة المرجع . ويقيم الجنود مواقفهم بالرجوع إلى اعضاء جماعتهم واحيانا بالرجوع إلى جماعات اخرى ، وقد

يستخدمون كأساس للمقارنة بين جماعات لها نفس المركز ، او المقارنة بين مراكز اعلى أو ادنى .

وإذا ماأجبنا على هذه المشكلات نحصل على نظرية جديدة عن جماعات المرجع تختلف عن النظريات السابقة وقد تكون تلك النظرية اداة هامة فى التنبوء وفهم الاخلاق فى مواقف كثيرة .

وتسهم الابحاث فى تطوير النظرية ، باساليب متعددة غير مقصودة كما ان توضيح المفهومات يمكن ان يؤدى إلى اعادة صياغة النظرية . إذ تضيف إلى النظرية عناصر جديدة وتعدل من محور اهتمام النظرية .

ان احد الاسهامات التى تتكرر باستمرار فى البحث التجريبى هو توضيح المفهومات المستخدمة فى الصياغة النظرية ، وهذا الاسهام لابد من حدوثه لان البحث لايتقدم اعتمادا على مفهومات عامة غير محدده ، إذن فمن الضرورى ان يحدد معنى ومدلول المفهوم ، أى يوضح ماالمقصود بالمفهوم .

وأى بحث سواء كان يستند على قضايا نظرية أو يقوم على مبدأ المحاولة والخطأ قد يتوصل إلى نتائج غير متوقعة تبدو لنا غريبة لانها لاتتطابق مع النظريات الموجودة أو مع الحقائق الاخرى . والباحث فى سعيه لتقصى الحقيقة وتفسير العلاقات قد يصيغ فروضا جديدة ، والتى قد تعد اساس أى بحث لاحق .

وقد يؤدى البحث إلى اعادة صياغة النظرية أو اثرائها ، عندما يوضح بعض الحقائق المجهولة . والحاجة ليست فى اكتشاف تفسير لحقائق جديدة ، بل فى اعادة صياغة نظرية موجودة وقادره على تفسير هذه الحقائق . وتعديل النظرية لايعنى انها غير صادقة ، أو انها غير صحيحة ، بل يعنى أنها تقدم اضافات جديدة .

وقد يعيد البحث التجريبى محور اهتمام النظرية ، او تعديل اهتمام النظرية إلى موضوع جديد ، وقد يحدث هذا نتيجة ظهور اجراءات بحث جديدة ، وبتطور استخدام اساليب القياس ، تُقدم لنا طرقا جديدة منظمة لجمع الحقائق وبما

يفرض علينا من مشكلات جديدة تدعو إلى تجريب عوامل تخضع للقياس ، وهكذا نصل إلى صياغة نظرية مستثمرة .

العلاقة المتبادلة بين النظرية والبحث :

ان العلاقة بين النظرية والبحث التجريبي علاقة متبادلة ، فالنظرية تهدينا إلى موضوعات تثرى البحث التجريبي ، وقد تلخص عددا من البحوث ، وقد تقدم لنا اساساً للتفسير والتنبوء ، كما ان نتائج البحث من جهة اخرى قد تختبر نظريات استنتجت من قبل ، وتوضح مفهومات نظرية ، وقد توصى بقضايا نظرية جديدة أو تلقى الضوء على مفهومات قديمة وتوسع من مجالات استخدامها . ان عملية الاسهام المتبادل عملية مستمرة . فالبحث الذى توحى به الاعتبارات النظرية قد يثير قضايا نظرية جديدة ، والتى بدورها تقود إلى ابحاث جديدة إلى مالانهاية .

ان اجراء البحوث دون مساعدة التفسيرات النظرية ، أو القيام بالتنظير دون الاستعانة بالبحث التجريبي معناه ان نتجاهل الوظيفة الاساسية للنظرية كأداة للانجاز العملي للفكر .

الفصل الثالث

التعريف بعلم الاجتماع

اولا : المشكلة

عندما يبدأ الطلاب تعلم الفيزياء ، أو أى علم من العلوم الطبيعية ، فانهم يبدأون تعلم نفس الموضوعات . فالطلاب فى اليابان والولايات المتحدة وروسيا والصين والسعودية يدرسون داخل قاعات المحاضرات نفس القضايا الاساسية فى العلم الطبيعى . ولكن هذا الأمر يصبح مستحيلا بالنسبة لعلم الاجتماع . فالطالب المبتدىء فى دروس علم الاجتماع فى مصر لن يبدأ بتعلم نفس القضايا والموضوعات التى يدرسها الطالب المبتدىء فى الولايات المتحدة أو دول العالم الثالث . فالقضايا الاساسية الخاصة بنشاط الناس فى المجتمع الرأسمالى تختلف عن القضايا الاساسية فى المجتمع الاشتراكى ، مثلما تختلف القوانين التى تنظم علاقات الناس فى مصر عن القوانين التى تنظم علاقات الناس فى الصين . كذلك تختلف اركان الزواج فى المجتمعات الاسلامية عن اركان الزواج فى المجتمعات المسيحية واليهودية والمجتمعات التى يؤمن افرادها بغير الاديان السماوية . بل الاكثر من ذلك نجد الاختلاف بين أنشطة الناس داخل المجتمع الواحد ، وتباين المداخل التى يدرسها الطلاب من استاذ لاستاذ تبعا لرؤية الاستاذ لقضايا المجتمع وتقييمه لها .

ويكشف تحليل موضوعات علم الاجتماع فى كندا ، أن ثمة اتجاهين اساسيين يحددان تدريس علم الاجتماع فى كندا ، ويتواجدان جنبا إلى جنب ، الاتجاه الاول هو اتجاه كتب علم الاجتماع المكتوبة بالفرنسية ، ويتبع المدرسة الأوربية . والاتجاه الآخر هو اتجاه كتب علم الاجتماع المكتوبة بالانجليزية ويقتفى هذا الاتجاه آثار مدارس علم الاجتماع الامريكية . وتؤكد بعض البلدان على تباين الاتجاهات . ونحن فى مصر نجد أن أغلب الاجتماعيين قوم وسط ، فهم ليسوا من المحافظين ،

فهم دائما يشغلون مكانا مابين الليبراليين والاشتراكيين. وعلى العموم فلا ريب أن هناك قدرا من العناصر المشتركة بين أغلب الدروس التى يتلقاها الطلاب فى بلدان العالم المختلفة ، وقد يختلف مضمون بعض الموضوعات ، ولكن الموضوع واحد ، فقد يختلف نظام الاسرة الاوربى عن نظام الاسرة الاسلامى ، ولكن الطالب المبتدىء فى علم الاجتماع عليه أن يدرس الأسرة . كذلك ينبغى ان يدرس طالب علم الاجتماع فى امريكا وبلدان العالم الثالث والدول الاشتراكية الاوربية النظام الاقتصادى ، ولكن هذا النظام يختلف من دولة لدولة . هذا القدر من الاتفاق يرتبط ارتباطا وثيقا بالطرق الفنية لدراسة موضوعات معينة ، مثل كيفية اجراء استطلاع للرأى العام أو دراسة الاتجاهات نحو مشكلة معينة .. بالرغم من وجود اتفاق حول طرق البحث ، فان علماء الاجتماع مختلفون حول ردود الأفعال ازاء مشكلات تباين المداخل والاتجاهات وهذا الاختلاف قد يلقى بعض الضوء على موضوع علم الاجتماع . واختلاف علماء الاجتماع فى تحديد موضوع علمهم .

ويجد بعض علماء الاجتماع أن المشكلة بسيطة نسبيا . ولما كان مدخلهم صائبا . فانه يمكن أن تتجاهل مداخل المدارس الاخرى دون مخاطرة ، مادامت خاطئة أو غير سليمة . ويمكن أن نلاحظ ذلك بسهولة إذا ماقارنا الكتب المدرسية فى علم الاجتماع فى بلدان مختلفة ، ولاحظنا محتويات هذه الكتب أو نوع الاتجاهات التى يتبناها المؤلفون فمثلا يهتم علماء الاجتماع الامريكان بالثقافة بينما يهتم علماء الاجتماع فى أوربا اهتماما أقل بموضوع الثقافة ويعطون اهتماما أكبر للبناء . كما نجد أن أغلب كتب علم الاجتماع الأوربية والامريكية تعطى موضوع التغيير الاجتماعى مكانة ثانوية . وأحيانا مايحتل هذا الموضوع فصلا فى كتاب من كتب علم الاجتماع فى بلدان العالم الراسمالى ، على حين يحتل موضوع التغير مكانة اساسية عند علماء الاجتماع فى أوربا الشرقية . وإذا كان جورج جرفيتش يطلق على كارل ماركس أمير علماء الاجتماع . ويعد اعمال ماركس أساسية عند علماء الاجتماع فى دول العالم الثالث والعالم الاشتراكى ، فان كتب علم الاجتماع فى العالم الراسمالى لم تفرد له جزءا يتناول أفكاره الاجتماعية بالتحليل ، بل أحيانا مايتجاهل فى كتب المقدمات التى يكتبها اساتذة علم الاجتماع فى امريكا . وعلى

حين تهتم أغلب كتب علم الاجتماع الامريكية بالاتجاه الوظيفى . نجد ان بوتومور عالم الاجتماع الانجليزى قد تجاهل هذا الاتجاه فى كتابه المدرسى عن علم الاجتماع . ويمتد هذا الخلاف إلى مايشغل اهتمام علماء الاجتماع فى يوجوسلافيا والولايات المتحدة ... فبينما يؤكد علماء الاجتماع فى الولايات المتحدة على فكرة الثبات ، يؤكد علماء الاجتماع فى يوجوسلافيا على فكرة الدينامية والبنائية . بيد أننا إذا مافحصنا كتب علم الاجتماع الامريكية من وجهة نظر مقارنة ، فاننا نجد انه على الرغم من تخلف علم الاجتماع تخلفاً واضحا عن العلوم الطبيعية . سواء من حيث الجهد أو الوقت أو الاموال التى تنفق على البحوث الاجتماعية فان ماأنجزه هذا العلم لايؤدى إلى مجموعة من الاراء والاحكام المتفق عليها ، مما يجعلنا نتأكد من أن كل فرد من المشتغلين بالعلم الاجتماعى يتقبلها .

وهذا الخلاف بين الاجتماعيين يؤدى بنا إلى وضع القضايا الآتية :ـــ

١ ـــ يمكن ان نؤكد ان تفسير أى موضوع اجتماعى أو قضية اجتماعية أمر يثير الجدل بين المدارس المختلفة فى علم الاجتماع لاختلاف منظور كل مدرسة .

٢ ـــ نظرا لافتقاد قاعدة متفق عليها بين علماء الاجتماع ، فمن البداية لايستطيع طالب علم الاجتماع المبتدىء اصدار احكام وتفسيرات تتعلق بالقضايا المختلفة التى تقدم له .

٣ ـــ من الصعب أن تصدر هذه الأحكام التى لاتستند على اساس . إذ من الضرورى ان يتكون عند الطالب منظور نظرى اوسع يحقق التكامل بين المعلومات ويقدم المعيار لتقييم المشكلات ... ومن وجهة نظر كولسون فان اختيار هذا المنظور ليس شيئا تعسفيا ، ولكنه يتكون عندما يربط الطالب بين المداخل المختلفة ازاء مشكلات مختلفة ، ويقارن بينها مقارنة ضمنية . ومن هنا يتعين علينا أن نوضح نقطة هامة هى عدم وجود مدخل أو منظور اجتماعى مقبول قبولا مطلقا ، وإلا كان علينا أن ندرس علم اللاهوت لاعلم الاجتماع . وهناك كتب كثيرة من كتب المقدمات فى علم الاجتماع تتجاهل ضرورة تعرف الطالب على المنظورات المختلفة ليختار

من بينها المنظور الملائم ... وبدلا من ذلك تقدم للطالب موضوعات مختارة من مجالات اجتماعية درسها علماء الاجتماع . كأن تعرض عليه موضوعات فى علم الاجتماع الحضرى أو علم الاجتماع الصناعى او علم الاجتماع الاسرى أو تقدم له موضوعات عن الانحراف والجريمة والتعليم . واختيار هذه الموضوعات يعتمد على وجهة نظر مؤلف الكتاب ، والذى لايتيح للطالب المبتدىء الفرصة ان يتعرف على الآراء والنظريات ، وأن يقارن بينها . ويرى سكوتين ان موضوع علم الاجتماع هو الدراسة الموضوعية للسلوك الاجتماعى للجماعات الانسانية . ويسعى علم الاجتماع لتوضيح ولتفسير القوى التى تؤثر على جماعات الناس . ونحن نصدر يوميا احكاما على جيراننا ، وزملائنا ، والباعة فى السوق ، واعضاء الفرق الرياضية ، بل وعلى ثورات الشعوب . هذه الاحكام قد تكون احكاما شخصية تعبر عن ردود افعال انفعالية ازاء سلوك الآخرين ، واحيانا ماتعبر عن احكام تكونت نتيجة التجربة الطويلة والفكر المتأنى . بيد أن علم الاجتماع يعتمد على بعض المبادىء العلمية الاساسية عندما يلاحظ السلوك الانسانى .

وبالرغم من أن علم الاجتماع علم حديثا نسبيا ، بل وأحدث العلوم الاجتماعية ، فان القصد من تدريس هذا العلم ، هو تعويد الطلاب الذين يدرسونه على أن يكونوا طريقه وأسلوبا للنظر إلى سلوك الجماعات الانسانية المختلفة وتعتمد هذه الطريقة على مناهج العلوم الاخرى . والعناصر الاساسية التى تعتمد عليها هذه الطريقة العلمية هى :ـــ

١ ــ يلاحظ ويسجل الباحث الاجتماعى دون تمييز كيف يؤدى الناس سلوكهم ، وردود أفعال هذه الجماعات نحو الآخرين .

٢ ــ بناء نظرية عن السلوك تعتمد على الملاحظات والأبحاث السابقة التى تحاول أن تفسر السلوك .

٣ ــ ان تختبر مدى ملائمة النظرية ازاء السلوك الذى يخضع للملاحظة ، وأن نغير من النظرية عند الضرورة فى ضوء الابحاث الاخرى .

وإذا كان موضوع بحث علم الاجتماع هو جماعة من الناس ، فان هناك حدودا اخلاقية وطبيعية يعجز عالم الاجتماع ان يتجاوزها ، وقد يختبر المهندس اختراعا ليدمره . وقد يستطيع عالم الاحياء أن يفصل خلية فى المعمل . ولكن عالم الاجتماع ينبغى أن يكون قادرا على العمل مع الناس ، وعليه ان يعى تماما ان لهم حقوقا فى الحياة والحرية ، والحصول على السعادة ، ومع ذلك ينبغى ألا يتدخل فى ابحاثه تدخلا خطيرا ، بيد انه بالرغم من ان موضوع علم الاجتماع هو دراسة الناس ودراسة المجتمعات فان علم الاجتماع يدعى انه علم ، لانه يكتشف انماط سلوك الجماعة ويضع نظريات عن سلوك الجماعة ، تقبل الاختبار كما يقترح بعض الاجراءات للتغلب على المشكلات .

فمثلا إذا ماتصفحنا صحيفة يومية وقرأنا تقريرا صحفيا عن الجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، ثم قرأنا مقالا كتبه أحد علماء الاجتماع عن الجمعيات التعاونية ، نجد أن هناك فرقا بين المقالين . ويمكن أن نوضح بايجاز أن المبادىء والطرق التى يستخدمها عالم الاجتماع هى :ـــ

١ ـــ يلاحظ عالم الاجتماع سلوك الناس أمام الجمعيات ليرى عما إذا كان هذا السلوك جزءا من نمط طبيعى لسلوك الناس أم أنه سلوك وقتى يعبر عن خصائص الناس وطباعهم .

٢ ـــ يقوم عالم الاجتماع باجراء مجموعة من المقابلات المحددة مع المترددين على الجمعيات والعاملين بها ، والقادة المحليين وربات البيوت ، وينبغى أن تتضمن هذه المقابلات افرادا من الجنسين ، ومن اعمار مختلفة ، ومن مهن متباينة .

٣ ـــ يلاحظ عالم الاجتماع ردود افعال الناس والعاملين إذا ماوصلت إلى الجمعية التعاونية الاستهلاكية سلعة نادرة أو سلعة متوفرة .

وقد يلجأ الباحث إلى تصوير الناس أمام الجمعية ، وتسجيل تعليقاتهم ويقارن بين المستويات الاقتصادية والتعليمية والمهنية للمترددين على الجمعيات وهؤلاء

الذين لايلجأون اليها ، وأسباب تعاملهم أو عدم تعاملهم معها .

وهذا البحث الذى يجريه عالم الاجتماع هام ومفيد للقادة المحليين والذين يهتمون بتوزيع السلع . وعالم الاجتماع مثله مثل اى باحث فى اى عالم آخر يعتمد على المنهج العلمى فى دراسته بقصد تحقيق الموضوعية ، مخالفا فى ذلك الصحفى الذى يكتب مقاله معبرا عن انطباعه الشخصى ، ويملأ مقاله بما يعبر عن ارائه ومصالحه ويتحاشى مايغضب السلطة .

مثال آخر يوضح لنا اكثر طبيعة المنظور السوسيولوجى . فالصحفى عندما يكتب تقريرا صحفيا عن المظاهرات ، يهتم بآخر الاحداث ويكتب قصصا مثيرة تثير مجموعة من القراء وهو كبشر له مصلحة انسانية فيما يشاهده ويكتبه . فالصحفى الذى يكتب عن المظاهرات فى ايران قبل سقوط الشاه . يختار عنوانا مثيرا عما يقع من احداث ويقدر عدد المتظاهرين ، ويؤكد على احداث العنف والحرائق وصيحات الاستنكار والهتافات . أما إذا أقدم عالم من علماء الاجتماع على دراسة هذه المظاهرات فانه يحدد بحثه من خلال أعين المشاركين فى هذه المظاهرات ، وترجمة ذلك إلى لغة علم الاجتماع . ويعنى بصياغة البحث فى اطار نظرية محددة عن السلوك الانسانى ، كما يستدعى ذلك بالضرورة سماع الاراء المختلفة لكل المشاركين فيها وعلينا أن نفهم لماذا تباشر كل جماعة أفعال معينة ؟ لنستطيع أن نفسر النمط الكلى الذى تطورت اليه المظاهرات ، إذ ترى كل جماعة المظاهرات من وجهة نظرها وتفسرها فى ضوء مبادئها . ولكن ماقد يكون صالحا بالنسبة لحزب معين قد يكون مرفوضا بالنسبة لاحزاب أخرى . فما يراه انصار الخمينى يرفضه أنصار الحزب الشيوعى وانصار التحديث بالرغم من أنهم جميعهم اتحدوا ضد الشاه . ثم يلى تلك الخطوة تحديد المعلومات المطلوبه ويتضمن ذلك دراسة اتجاهات وآراء فئات معينة من الناس وزعماء المظاهرات . وسؤال من قبض عليهم ، وتحليل محاضر البوليس ، وملاحظة تصرفاتهم اثناء المظاهرات ، ومافعلوا من اعمال تخريبية ، وماذا خربوا ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ وتحليل الهتافات ،

وضد من ؟ وتأييد لمن ؟ ..

وعلى الرغم من أن البحث فى علم الاجتماع ، يعد دراسة فى التاريخ المعاصر فاننا لانصل إلى احدث الأخبار التى تهم الصحفى ، إذ أن الملاحظة المنظمة ، والمقابلة المحددة مع أشخاص يشاركون فى الموقف من كل الاتجاهات والاهتمامات تمكننا من تقديم صورة اكثر موضوعية لما يحدث .

وهناك مدارس اجتماعية عديدة تؤكد انه لكى يحقق علم الاجتماع الموضوعية المطلوبه فى العلم . يتعين عليه أن يكون علما موضوعيا وعقلانيا ويعتمد على التحليل الكمى بقدر الامكان . ولن نستطيع صياغة قوانين فى علم الاجتماع تسيطر وتضبط سلوك الناس والجماعات فى المجتمع إلا بعد المثابرة على الملاحظة والتجريب وتطبيق كل الطرق العلمية أو البحث . ويتعين على عالم الاجتماع أن يعى أنه لامكان فى العلم للاتجاهات المعادية لحكم العقل ، أو التى تنتج عن العاطفة وحدها . فالعلم اولا وأخيرا نشاط عقلانى . ولذا فعلم الاجتماع لكى يصير علما ينبغى أن يقترب بقدر الامكان من العلوم الاخرى بمعنى ان يقوم ويقترب من الموضوعية .

وإذا كان علم الاجتماع علما حقا ، فانه ليس العلم الذى يقتصر على قاعات المحاضرات . أو أنه العلم الذى يلقن إلى الطلاب فهذا العلم لاينبغى أن يبقى منعزلا فى برج عاجى عن السياسة الاجتماعية . فالربط بين الظواهر الاجتماعية التاريخية من مهامه الاساسية . فيهدف علم الاجتماع الحقيقى ان يساعدنا على تقدير وفهم العمليات الاجتماعية السائدة . ومعرفة مظاهر التفكك واسبابها وكيف نضبط التغير الاجتماعى ونوجهه . ومن المهم ان يسهم عالم الاجتماع فى تحليل الظواهر الاجتماعية فى مجتمعه وان يعتمد فى ذلك على التحليل الكمى والكيفى ، والا فلن يصبح علم الاجتماع علما . وهو ككل العلوم له ادواته لجمع معلوماته . كما أن له طرقه الخاصة فى البحث . ويهتم علم الاجتماع بالنظر إلى مجموعة من الحقائق من أجل الوصول إلى نتائج اجتماعية تتكون وتتبلور نتيجة التبصر وتحليل العلاقات الاجتماعية وعالم الاجتماع لايسعى إلى الحقيقة المطلقة الكاملة ولكن

الحقيقة الجزئية التى يصل اليها قد تكون مفيده لتوضيح المشكلة من زاوية جديدة .

ولما كانت النظم الاجتماعية مثل الاسرة والاقتصاد والتعليم تعد نظما أساسية ومقبولة قبولا عاما لاشباع الحاجات الاساسية لافراد المجتمع ، فان دراستها تعد موضوعا اساسيا فى علم الاجتماع ، وعالم الاجتماع يدرس هذه النظم مثلما يدرس كل نشاط يحدث فى المجتمع . وهو فى حالة الثبات والتغير. فهو يدرس كيف يتغير نظام الاسرة ... وهل ستستمر الاسرة فى مواجهة واشباع احتياجات الناس والمجتمع ككل ... وهل ستزداد انماط الحياة البديلة انتشارا . وماذا عن التعليم ، ولماذا يعانى من القصور .. وماذا عن وظائف المدرسة .. وهل تحققها لانجاز مطالب المجتمع . وماذا عن المدرس ابن الطبقة الوسطى وعلاقاته بابناء الطبقات الاخرى ؟ وماذا عن النظام الاقتصادى السائد ؟ وماهى اسباب البطالة ؟ ومامعوقات التنمية الاقتصادية فى دول العالم الثالث ؟ حقيقة أن النظام الاقتصادى فى مصر تغير من اقتصاد زراعى تقليدى إلى اقتصاد تجارى صناعى . ولكن ماأثر ذلك على العلاقات الاجتماعية ؟ تلك مهمة عالم الاجتماع ، عليه ان يعرف ماالاثار الاجتماعية التى تترتب على انشاء مصانع ضخمة مثل مصانع الالومنيوم فى نجع حمادى أو مصانع الحديد والصلب ومصانع كيما فى أسوان أو مصانع الغزل بالمحلة . كذلك يتعين على عالم الاجتماع أن يسال ويعرف طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين . وهل تستجيب الحكومة لارادة الجماهير ؟ وماذا عن طبيعة النظام البيروقراطى وهل يحقق مطالب الناس ؟ كما أنه قد يتقصى معرفة هل النسق الاجتماعى قادر على مواجهة التغير التكنولوجى والتكيف معه ؟

ومن المعلوم أن هذه الاسئلة لاتخص عالم الاجتماع وحده ولكنها ذات أهمية عند الكثيرين ، ولكنها ذات أهمية خاصة عند عالم الاجتماع ، وكلما تزايد تعقد المجتمع ، فان دراسة الحاضر بأسلوب علمى هو الموضوع المهم لعالم الاجتماع . ويرى البعض أنه لاجدوى من معرفة عالم الاجتماع لتاريخ الظاهرة . ولكننا نرى أن الحاضر هو ثمرة الماضى ، كما أن هذا الحاضر يحمل بين احشائه أحداث المستقبل .

كذلك فالاهتمام بالمجتمعات الانسانية ليس جديدا ، ولقد نشأ الاهتمام بالمجتمعات الانسانية قبل ظهور تيار الدراسة العلمية للمجتمع ، فالامثال والحكم مملوءة بالمعايير الاجتماعية . ولقد اهتم المفكرون والفلاسفة بقضايا مجتمعاتهم ابتداء من سقراط فى المجتمع الاثينى حتى ماركس الذى وجه الانتباه إلى ظواهر كانت تتجاهل قبله فى العالم الاكاديمى . ولقد رأى ماركس ان الاقتصاد هو القوة المحركة للتاريخ . وأن الصراع الطبقى هو تاريخ المجتمعات الانسانية ، وأن المجتمعات تقوم على الثورة . أما أوجست كونت فيرى ان المجتمعات تقوم على العلم بينما يرى سبنسر ان المجتمعات تقوم على التطور . والحقيقة أن الأخذ بالتفكير العلمى عند دراسة المجتمع والاهتمام بقضية التغير انما يعبر عن مرحلة متأخرة تعبر عما وصل اليه علم الاجتماع من نضج .

وحرية البحث امر ضرورى ، وهى ضرورية لعالم الاجتماع مادام المجتمع الذى يدرسه يسمح له بحرية البحث ، ودراسة أى موقف اجتماعى يمكن أن يخدم أى غرض علمى حقيقى . وإذا كان علم الاجتماع علم حقيقى فانه يثمر ويجدى فى المجتمعات التى تضع فيها الحكومات حد أدنى من القيود على البحث ويحقق الكثير فى المجتمع الذى يسمح فيه بالحرية .

وهذا هو السبب فى أن علم الاجتماع الأصيل والمثمر فى خدمة قضايا المجتمع يختفى ويتوارى فى الظل فى المجتمعات السلطوية والديكتاتورية كما كان الحال فى المانيا النازية (فعالم الاجتماع عليه أن يوجه سؤالا نحو المجتمع الذى يعيش فيه . وبفضل ابحاثه يصبح واعيا بالاتجاهات والنزعات السائدة فى هذا المجتمع والتى قد تهدد استقرار وبقاء بعض الجماعات) . ومن ثم لايستطيع عالم الاجتماع ان يبقى محايدا أو متفرجا على الأحداث . مثله فى ذلك مثل علماء الذرة . فعندما يصل علماء الذرة إلى المراحل الاخيرة فى صنع القنبلة الذرية . فانهم يدركون أن هذا السلاح قادر على التدمير ويمكن أن يحدث مضاعفات أخرى من جراء تطويره . فالعالم المشارك والملتزم لايستطيع أن يقف موقفا محايدا امام الاعمال التى تحدث فى المعمل ، لان نتائج الابحاث تخص مستقبل الجنس البشرى كله .

ولقد ظهر علم الاجتماع تعبيرا عن الاهتمام بأحوال المجتمع ، وبقصد معرفة أحوال المجتمع استنادا على المعرفة العلمية ، ونحن نهتم بالمعرفة الاجتماعية بقصد تحسين ظروف الحياة فى المجتمع ، والاهتمام بالانسان الذى يعيش فى هذا المجتمع .

وهناك اسباب عديدة ادت إلى زيادة الوعى باهمية المعرفة الاجتماعية اهمها : تزايد اعداد الناس ، والهجرة من الريف والاقامة فى المدن ، وتفكك أساليب الحياة التقليدية ، والاثار الاجتماعية التى ترتبت على التغير التكنولوجى واستخدام الآله وترك العمل فى الزراعة والعمل فى حرف ومهن أخرى تحتاج إلى مهارات فنية .

ويهتم عالم الاجتماع عادة بفهم المجتمع ، كما يبحث عما هو ملائم وغير ملائم فى الإنساق الاجتماعية ويحاول أن يزيد من فهم الانسان للانسان، وقد اهتم علماء الاجتماع فى الدول الأوربية الصناعية بمشكلة التغير المادى السريع الذى عجز أفراد هذه المجتمعات عن التوافق معه ، كما اهتم علماء الاجتماع الاوربيين بالبحث عن المبادىء العامة الاساسية للتنظيم الاجتماعى . ولذا فعلم الاجتماع نظام ينشد تعريف الناس بمجتمعاتهم التى يعيشون فيها ، وكيفية توافق الناس سويا ، كما يدرس عادات الناس والعوامل التى تؤدى إلى الاستقرار والتغير والتى تظهر باستمرار .

وقد قال برجر « ليس كل مايقوله عالم الاجتماع جديدا ، ولكنه يلقى الضوء الجديد على اشياء سبق ملاحظتها ، فالجيولوجى والجغرافى يكتشفان اشياء جديدة فوق هذا الكوكب ، لم تشاهد من قبل لانهم دربوا على ذلك .

ثانيا : موضوع العلم :

وعلى العموم يعد علم الاجتماع احدث العلوم السلوكية ، اذ يهتم علم الاجتماع بدراسة العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الكائنات الانسانية سواء أتم تبادل العلاقات داخل الجماعات الأسرية أو داخل الجماعات السياسية أم من اجل تحقيق منافع اقتصادية أو بين جماعة وجماعة . ودراسة العلاقات الاجتماعية تؤدى بعلم الاجتماع إلى دراسة عمليات التفاعل الاجتماعى فى المواقف المختلفة ، من أجل

معرفة مظاهر التماثل والتعاون والتنافس بين الجماعات ، سواء أكانت هذه الجماعات جماعات ترفيهية أم سياسية أم دينية أم تعليمية أم اسرية .

كما يهتم علم الاجتماع العام بمحاولة فهم مكونات الأبنية الاجتماعية الكبيرة مثل الجماعات العامة ، أو معرفة العمليات الاجتماعية العامة مثل التنافس والموضوعات التى يهتم بها علماء الاجتماع والتى نالت اهتمامهم هى :

١ — دراسة نظام اجتماعى معين من اجل القاء الضوء على الكل . مثل نظام الاقتصاد أو الأسرة .
٢ — دراسة مشكلات اجتماعية معينة تكشف عن مشكلات المجتمع كله .
٣ — دراسة مشكلات الأسرة والتنشئة والهجرة والبطالة والادمان .
٤ — دراسة الصراع بين الجماعات .

والأسئلة التى يسألها عالم الاجتماع تهدف الى :

١ — فهم طبيعة الكائنات الانسانية فى كل المجتمعات الانسانية .
٢ — دراسة النظم الاجتماعية .
٣ — دراسة كيفية استمرار المجتمعات .
٤ — معرفة كيفية تغير القيم والنظم ، وكيف تنتقل الحياة من البساطة إلى التعقيد .

والاسئلة التى ينبغى أن توجه إلى الناس هى :

١ — كيف تساعد الحياة الاجتماعية الاشخاص وتحميهم .
٢ — كيف تظهر المشكلات الاجتماعية فى المجتمعات التى تحكمها وتنظمها التنظيمات الرسمية .
٣ — لماذا تختلف المجتمعات فى معتقداتها وقيمها ورؤيتها للحقيقة ؟
٤ — كيف يتعلم الاطفال أسباب الحياة الاجتماعية .
٥ — كيف يعرف الأشخاص الصواب والخطأ ؟
٦ — كيف ينحرف الناس عن المعايير المتفق عليها ؟

ومن الموضوعات التى يهتم بها علماء الاجتماع موضوع الحرية وموضوع التنمية ومعوقاتها ، والحرية كما يقول رايت ميلز ليست مجرد الفرصة لان يعمل الفرد كما يحلو له ، وليست مجرد الفرصة ان يختار بين مجموعتين ، ولكن الحريةِ هى الفرصة أن يصوغ الخيارات الممكنه ، وان يبرهن استنادا على هذه الخيارات وأن يكون لدينا الفرصه بعد ذلك لإختيار أفضلها

ولقد أصبحت الحاجة ضرورية إلى العلوم الاجتماعية فى عصرنا بعد ان تزايدت سرعة التغير الاجتماعى واتسعت المعرفة . والسمة الخاصة لعلم الاجتماع هى اهتمامه الحقيقى العميق بكل مظاهر حياة الجماعة ، واتجاهات الانساق الاجتماعية وتطورها وأسباب التغير الاجتماعى ، وتقصى أسباب المشكلات الاجتماعية وتدور بعض الاسئلة التى يوجهها علماء الاجتماع حول المجالات الآتية :

١ ــ اسباب تطور التماسك الاجتماعى .
٢ ــ اتجاهات الجماعات الاساسية .
٣ ــ تحليل الثقافات .
٤ ــ عمليات التنشئة .
٥ ــ جماعات الاقلية .
٦ ــ تزايد السكان والنمو الحضرى .
٧ ــ الانساق الكبرى فى المجتمع .

ويحاول علماء الاجتماع فى دراستهم ان يكونوا منظمين ومنطقيين ومتفتحى الذهن . ويأمل علماء الاجتماع المعاصرون أن تساعد نتائجهم على تقدم الانسانية ، وهم يرون أن مهمتهم أساسا هى السؤال العقلى من أجل المعرفة والتفسير ، وتستدعى ظروف المجتمع المتغير اجراء دراسات يقوم بها المتخصصون أو الذين يؤكدون الموضوعية فى نتائجهم والذى يتبعون قواعد المنهج العلمى فى جمع بياناتهم .

ويحاول علماء الاجتماع فى هذه المجالات المتخصصة الحصول على رؤية جديدة أوضح تكشف مجالات التفاعل فى صورة مركزه وشاملة بدلا من دراسة الجماعات الانسانية دراسة مستفيضه عامة . وتعطى هذه الدراسات المحددة لعلم الاجتماع فرصة تحقيق اضافات جديدة إلى العلم . وثمة ثلاث اضافات هامة يحققها علماء الاجتماع هى :

١ — تكشف لنا الدراسة السوسيولوجية عن ظواهر اجتماعية غير ملحوظة من قبل . فقد يبين لنا الباحث الاجتماعى الذى يدرس نظام الاسرة ، ان الاسرة عندما تتنازل عن وظائفها للمدرسة والمؤسسات الترفيهية والهيئات الحكومية تبدأ فى التفكك . فتحول العلاقات بين أفرادها من علاقات تنظيمية إلى علاقات تقوم على المودة والمحبة أو البغضاء والكراهية .

٢ — تضيف لنا الدراسات السوسيولوجية مجموعة من المعارف والمعلومات عن التفاعل فقد يتوصل بعض علماء الاجتماع من الدراسات التى قام بها علماء الاجتماع الاسرى إلى نتيجة مؤداها أنه كلما تنازلت الاسرة عن بعض وظائفها كلما ازداد التفكك الاسرى .

٣ — يسمح التخصص لعلماء الاجتماع ملاحظة التغير الحادث فى الظواهر المختلفة ، والتفاعل المستمر بين الظواهر المتباينة ، ومدى التأثير المتبادل بين ظاهرتين أو اكثر . وقد يدرس عالم الاجتماع كيف يؤثر انكماش حجم الأسرة على المستوى التعليمى والثقافى لأفرادها ، أو كيف تؤثر التغيرات الاقتصادية فى العلاقات القرابية .

ويرى كيمبال يونج أن الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية ، التى تستندعلى منهج علمى يفسر التفاعل الانسانى . توصلنا إلى صياغة مجموعة من القضايا والمبادىء التى تزيد من معارفنا عن طبيعة الحياة الانسانية . فعلم الاجتماع يهتم بالانسان داخل المجتمع أى الجماعات الانسانية ، والحياة الاجتماعية هى الموضوع الاساسى لهذا العلم .

اما الكس انكليز فيرى أن علم الاجتماع يهتم بدراسة السلوك الانسانى وتضم دراسات علم الاجتماع عنده الموضوعات الاتية :

١ ـــ التحليل الاجتماعى وتشمل :
أ ـــ دراسة مكونات المجتمع والثقافة دراسة علمية .
ب ـــ دراسة طبيعة المنهج العلمى فى علم الاجتماع العلوم الاجتماعية .

٢ ـــ دراسة الوحدات الاساسية للحياة الاجتماعية وتشمل :
أ ـــ الافعال والعلاقات الاجتماعية .
ب ـــ الشخصية الاجتماعية .
ج ـــ الجماعات .
د ـــ المجتمعات المحلية الحضرية والريفية .
ه ـــ الروابط والتنظيمات .
ز ـــ المجتمـع .

٣ ـــ دراسة النظم الاجتماعية الاساسية وتضم :
النظام الاسرى ـــ النظام الاقتصادى ـــ والنظام الدينى ـــ النظام التربوى ـــ النظام الترفيهى .

٤ ـــ دراسة العمليات الاجتماعية الاساسية وهى :ـــ
التدرج الطبقى والتعاون والتوافق والمماثلة والصراع والتنشئة الاجتماعية والاتصال والضبط الاجتماعى والانحراف الاجتماعى والتغير الاجتماعى .

ولاجدال فى أنه من الصعوبة أن يلم ويتخصص عالم الاجتماع فى كل هذه المجالات ويدلى بآرائه فيها ، ويقوم باجراء بحوث عنها ولكنه يتخصص فى مجال أو اكثر من هذه المجالات ، ويحيط به ، ليقوم بدراساته ويحقق فروضه .

أما سوركين فيعرف علم الاجتماع بأنه علم يدرس الظواهر الاجتماعية والثقافية كما تشاهد فى الارتباطات المتعددة للانشطة الاجتماعية .

أما جورج ثيودورستون فيرى أن علم الاجتماع يعنى الدراسة العلمية للسلوك الانسانى . إذ يدرس علم الاجتماع عمليات وانماط التفاعل الجماعى والفردى وأشكال تنظيم الجماعات والعلاقات بينها وتأثير الجماعة على السلوك الفردى .

وعلى الرغم من أن علم الاجتماع يشمل دراسة كل أشكال التفاعل الاجتماعى إلا أنه ركز على فهم الجماعة ، والعوامل الجمعية الاخرى المؤثرة فى السلوك الانسانى.وإذا كان الاتجاه التقليدى يؤكد ان علم الاجتماع يدرس المجتمع ، ولذا رأى بعض العلماء أن علم الاجتماع هو علم المجتمع ، وان البحث السوسيولوجى يدرس اى نسق اجتماعى ويشمل ذلك دراسة الجماعات الصغيرة أو اى مظهر من مظاهر التنظيم الاجتماعى أو السلوك الإنسانى .

ويعرف موريس جينزبرج علم الاجتماع بأنه دراسة المجتمع باعتباره شبكة من الافعال والعلاقات الانسانية ، كما أنه يدرس كل مايقع فى حياة الانسان من خلال العلاقات القائمة بين الافراد .

ويختلف علم الاجتماع فى ذلك عن بعض الدراسات الاجتماعية الخاصة كالاقتصاد والقانون فى تأكيده على التساند والترابط بين الحقائق الاجتماعية .

وهناك من يرى أن المسائل الاساسية لعلم الاجتماع هى :ـــ

أ ـــ دراسة البناء الاجتماعى .
ب ـــ دراسة أساليب الضبط الاجتماعى .
ج ـــ دراسة التغير الاجتماعى .

إلا أن جون ركس يرى فى كتابه مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية أننا لانستطيع أن نستخلص أن هناك موضوعا محددا لعلم الاجتماع يمكن الاتفاق عليه خلال تعريف ظاهر . فقد اختلف العلماء فى تحديد موضوع العلم . هل هو دراسة العلاقات الاجتماعية باعتبار أن العلاقات الاجتماعية هى الوحدة الأولية التى يقوم على أساسها مفهوم المجتمع . أم موضوع العلم دراسة السلوك الذى يعم مجتمعا معينا . أم هو العلم الذى يدرس التفاعل الانسانى فى الموقف والموضوع

الاخير هو الموضوع الاساسى لعلم الاجتماع عند جون ركس وهو يرى :

١ ــ أن علم الاجتماع هو العلم الذى يحاول الوصول إلى احكام يمكن التحقق منها عن طريق التفاعل الاجتماعى .

٢ ــ ان البيانات اللازمة لعملية التحقق هى تلك البيانات المتاحة والمتوفرة امام الباحث .

٣ ــ أن التفاعل الانسانى يقع فى موضوع مابين التعارض الكامل والصراع الكامل .

ويكشف لنا هذا التباين ازاء تعريف علم الإجتماع وتحديد موضوعه تباين رؤية كل عالم للمجتمع وهذا التباين علامة صحيحة على نضوج العلم الجديد ويعبر عن اجتهادات علماء الاجتماع لتكوين علم اجتماعى .

ثالثا : ميادين علم الاجتماع :ــ

١ ــ علم الاجتماع النظرى :ــ

يعرف ليستر وارد علم الاجتماع النظرى بأنه الدراسة الموضوعية والعلمية غير المتحيزة للمجتمع من أجل المعرفة الخاصة والتقدم النظرى . ولايهتم علم الاجتماع النظرى بالتطبيق العملى لحل مشكلات معينة أو حتى اتخاذ اجراءات التقدم الاجتماعى .

٢ ــ علم الاجتماع التطبيقى :ــ

ويقصد به تطبيق المبادىء السوسيولوجيه لتحليل وفهم المواقف الاجتماعية أو أنساق العلاقات الاجتماعية ، وعلينا ألا نخلط مابين الاصلاح الاجتماعى والخدمة الاجتماعية من جانب وعلم الاجتماع التطبيقى .

٣ ــ علم الاجتماع الحضرى :ــ

فرع من علم الاجتماع يهدف دراسة الحياة والتنظيمات الاجتماعية فى المدينة . أو الحياة الريفية المترسبة فى الحياة الحضرية .

٤ ــ علم الاجتماع الريفى :ــ

يدرس المجتمعات المحلية الريفية والحياة الريفية فى المجتمعات الزراعية والصناعية ، وتؤكد هذه الدراسات أهمية الوصول إلى مبادىء اجتماعية هامة ، وتطبيق هذه المبادىء الهامة لحل مشكلات المجتمعات الريفية .

٥ ــ علم الاجتماع السياسى :ــ

يدرس النظم السياسية وعلاقة هذه النظم بالانظمة الاجتماعية الاخرى ويهتم علم الاجتماع السياسى بالحركات السياسية والايديولوجيات المتباينة . ويدرس الظواهر السياسية باعتبارها اجزاء هامة فى بناء المجتمع والعمليات الاجتماعية ، وهذا مايميز علم الاجتماع السياسى عن العلوم السياسية التقليدية .

٦ ــ علم الاجتماع الصناعى :ــ

يدرس التنظيمات الصناعية مثل المصنع أو تنظيم العمل ، ومن أهم مجالات علم الاجتماع الصناعى دراسة جماعات العمل فى الصناعة والمهن الصناعية .

٧ ــ علم الاجتماع التاريخى :ــ

يدرس المادة التاريخية للوصول إلى تعميمات سوسيولوجية ويتضمن المدخل التاريخى محاولة الكشف عن النزعات العامة فى تطور أو تغير المجتمعات أو الحضارات . وقد يحاول هذا المدخل التاريخى اختبار فرض محدد عن السلوك الاجتماعى مستخدما معلومات استمدها من الماضى .

٨ ــ علم الاجتماع التربوى :ــ

مجال هام من مجالات علم الاجتماع يدرس النظم التربوية والتعليمية وعلاقة هذه النظم بالانظمة الاجتماعية الاخرى .

٩ ــ علم الاجتماع الطبى :

ميدان هام من ميادين علم الاجتماع يدرس المظاهر الاجتماعية للمرض ويهتم بدراسة الاتجاهات نحو المرضى وتوزيعات المرض فى مناطق معينة وعلاقة المرض

بتنظيم المجتمع . كما يدرس البناء التنظيمى للمستشفى والادوار الاجتماعية التى يؤديها الطبيب والممرضة والمريض .

١٠ ــ علم الاجتماع المهنى :

يهتم بتطبيق مبادىء علم الاجتماع عند تحليل المهن والاعمال والحرف المختلفة .
ومن أهم دراسات علم الاجتماع المهنى دراسة انماط الوظائف .

١١ ــ علم الاجتماع الفنى :

يدرس تأثير المجتمع على الفن ودور الفن وتأثيره فى المجتمع . ويتضمن تحليل الفنون باعتبارها أنظمة اجتماعية تحليل شبكة الادوار والمعايير الاجتماعية المتضمنة فى ابداع وتقييم واستخدام وانتشار الفن فى المجتمع .

١٢ ــ علم الاجتماع القانونى :

يهدف دراسة النظم التشريعية فى اطار المفهومات الاجتماعية وتعد دراسة المعايير الاجتماعية وتحليل القوانين الاجتماعية موضوعين هامين فى علم الاجتماع القانونى .

وكذلك يدرس الادوار الاجتماعية للمجرمين والمحامين والقضاة وكيفية ارتباط هذه الادوار بالبناء العام للمجتمع .

١٣ ــ علم اجتماع الادب :

ويهدف دراسة الادب دراسة سوسيولوجية سواء لمعرفة رؤية الكاتب ازاء المجتمع أو لربط العمل الادبى بالبناء الاجتماعى ـ إذ يساعدنا الادب أن نتعلم شيئا ما عن المجتمع استنادا على أسس التحليل الاجتماعى المقارن . كما تنعكس الاعمال الادبية التغييرات الاجتماعية التى طرأت على المجتمع ولكن من وجهة نظر الأديب .

١٤ ــ علم الاجتماع الدينى :ــ

ويتضمن التحليل الاجتماعى للانظمة الدينية ودراسة الدين كظاهرة اجتماعية .

ويدرس الدين فى اطار التفاعل الاجتماعى كما يعطى اهتمام لدور القيادة الدينية والعلاقة بين الدين والتنشئة الاجتماعية .

والآن علينا ان نبين أهمية تعريف الاجتماع بأنه العلم الذى يدرس المجتمع دراسة علمية .

أ ـــ يدرس علم الاجتماع فى البداية العلاقات الموجودة فى أى مجتمع محلى لكى يميز بين الظواهر والحقائق المرتبطة بهذه العلاقات . مثل دراسة العادات والقوانين المرتبطة بالزواج والاسرة والبناء الاجتماعى والافكار الاخلاقية .

ب ـــ تصنيف الظواهر الاجتماعية واختيارها لمعرفة عما إذا كان بالامكان تحقيق التعميم ـــ مثل تعميم الرأى القائل بأن مكانة الطبقة الاجتماعية ترتبط بالدخل أو المهنة .

ج ـــ يحاول علم الاجتماع بأن يبين ماإذا كانت القيم والاتجاهات والنزعات والميول تبقى واضحة حتى ولو تغير التأكيد على المفهوم العام للطبقات الاجتماعية .

د ـــ يحاول علم الاجتماع باستمرار أن يبحث عن حقائق جديدة لكى يمحص وصف النمط ولكى يعدل هذا الوصف إذا مادعت الضرورة إلى ذلك .

رابعا ـــ صعوبة الدراسة الاجتماعية :

وثمة صعوبات تواجه الدراسات العلمية فى مجال علم الاجتماع تكشف عن فروق صارخة إذا ماقابلنا تلك الصعوبات بتلك الصعوبات التى توجد فى علم الفيزياء والكيمياء . ومن أهم تلك الصعوبات :

١ ـــ تعدد مجالات الملاحظة وتشعب وتداخل موضوعات الدراسة فى مسائل مثل العادات وطرق الحياة فحتى عند دراسة الشعوب البدائية فان الباحث يواجه الظواهر المرتبطة بالحياة فى المجتمع ككل ، لكى يبحث عن تفسير لتلك الظواهر ، (مثل عادات الزواج وتتبع النسب وتنظيم طرق العدالة) . وقد ينفق الباحث فيها سنوات يبحث عنها ، ويقيم عليها

الدليل ، مثلما فعل مالينوفسكى فى دراسته للتروبياند .

٢ ــ تدخل العنصر الانسانى فى تشكيل وتحديد نتائج البحث يعد موضوعا خطيرا يهدد حياد العالم وموضوعيته .

أ ــ أن التأكيد على حقائق معينة وأهمال حقائق أخرى قد يتأثر بعدم دقة الباحث وتحيزه الشخصى .

ب ــ أن عالم الاجتماع نفسه أبن بيئته ، فهو عضو فى مجتمع يتأثر بتقاليده وقيمه . وهذا كله هام جدا فى المسائل المتعلقة بالاخلاق والدين والموضوعات المرتبطة بالفلسفة والسياسة ولذا فمن المهم أن ننمى عند دارس علم الاجتماع النظرة العلمية إلى الأشياء التى يدرسها .

خامسا : خصائص علم الاجتماع :

أ ــ علم الاجتماع علم تجريبى بمعنى أنه يقوم على الملاحظة وإعمال الفكر لا على البحث فى مسائل مابعد الطبيعة . كما أن نتائجه ليست تأملية ، وعلماء الاجتماع وإن امعنوا فى تفكيرهم ، فهم يخضعون افكارهم للاختبار التجريبى قبل اعلانها كاكتشافات علمية .

ب ــ علم الاجتماع علم تراكمى ، بمعنى أن النظريات الاجتماعية الجديدة تستند على نظريات اخرى قديمة ، فالنظريات الجديدة تصحح وتثرى وتوضح النظريات القديمة . ويعنى بالتراكم أن النتائج التى يتوصل اليها بحث امبريقى سابق تكون هى نفسها المقدمات التى يبدأ منها بحث لاحق ، فهناك امكانية اعادة اجراء بحث سابق او التحقق من صحة نتائج سبق الوصول اليها ، أو لاضافة متغيرات جديدة فالحقائق التجريبية فى العلم الاجتماعى تقبل الاندماج معا فى بناء واحد ، وهى ليست بالانتاج العقلى الذى ينتجه من أوله إلى أخره شخص واحد بمفرده ، ولعل احدث وصف للتراكم تشبيهه ببناء مكون من طوابق يكمل احداها الآخر[١] .

(١) عبد الباسط محمد حسن . تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الإجتماع . مجلة عالم الفكر . المجلد السادس . العدد الثانى ص ٥٧٧ ــ ٦٢١ .

ج ـــ علم الاجتماع علم نظرى ، بمعنى أن علم الاجتماع يحاول تفسير العلاقات العلمية لموضوع البحث .

د ـــ علم الاجتماع ليس علما اخلاقيا ، بمعنى أن عالم الاجتماع لايسأل عما إذا كانت الأفعال الاجتماعية خير أم شر ولايصدر أحكاما اخلاقية ولكنه ينشد تفسيرها فقط .

سادسا : علماء الاجتماع بشر :.

ومن ثم فهناك خلاف ضخم بين علماء الاجتماع حول موضوع العلم والاتجاه الذى ينبغى أن يكون نحو هذه الاختلافات نفسها . ولكن لماذا هذا الخلاف ؟

يرجع ذلك إلى حد ما للخلاف حول تأكيد نظريات معينة وحول كيفية اجراء الدراسات الواقعية . كما أن علماء الاجتماع مثل علماء العلوم الاجتماعية الآخرى يواجهون نوعين هامين من المشكلات :

المشكلة الأولى : أن القضايا التى يدرسونها تتعلق بالناس ، وفى الوقت نفسه فهم لايستطيعون أن ينسلخوا عن الجماعة بل هم يتأثرون بالانتماء إلى نوع معين من الجماعات كما اننا لانستطيع أن نفهم الناس فرادى منعزلين عن الجماعات . ولقد بين مانهايم اننا ننتمى إلى الجماعات لا لأننا نولد فيها ، ولا لأننا نعترف بالانتماء اليها ولا لأننا نقدم لها الولاء والاخلاص . ولكن لاننا نرى العالم والاشياء فى هذا العالم من خلالها .

فعلماء الاجتماع بشر ، واعضاء فى جماعات . وبقدر صدق القضية السابقة فان علماء الاجتماع يميلون إلى رؤية العالم وفق الطريقة التى تقدمها الجماعة التى ينتمون اليها . وهكذا فعلينا أن نتوقع أن نتعلم شيئا عندما يدرس علماء الاجتماع طبيعة الأنواع المختلفة من الجماعات التى ينتمون اليها . (ونحن نستخدم الجماعة بالمعنى الواسع ، ولانقصد به مجرد التقاء الناس سويا وجها لوجه فوق سفينة تعبر البحر ـــ او باخرة او جمهور يتجمع باستاد رياضى لتشجيع فريق كرة القدم)

وثمة اعتراض يوجه إلى مثل هذا المدخل مؤداه أنه يوصل الباحث إلى نكوص لانهائى فعالم الاجتماع الذى يقوم بتحليل كيفية تأثير المجتمع على اعضائه هو نفسه عضو فى ذلك المجتمع ومن ثم فان تحليله يمكن أن يحلل فى نفس الاطار وهكذا .

المشكلة الثانية : هى أن موضوع اهتمام علماء الاجتماع يرتبط ارتباطا قويا مع انواع معقدة من المشكلات يهتم بتحليلها كل كائن بشرى بطريقة أو باخرى . وهناك خلاف كبير حول هذه الموضوعات التى تشغل اهتمام الناس : ومن امثال هذه الموضوعات قضايا الحرب والسلام والاشتراكية والفقر ومعوقات التنمية والبطالة والمساواة الاجتماعية وموضوع الاختلاط فى بعض البلدان العربية والعلاقة بين الرجل والمرأة . وإذا ماحاولنا أن ندرس قضية من هذه القضايا ، علينا أن نتراجع إلى الوراء عبر التاريخ ونتعرف على احداث تاريخية كثيرة تراكمت وولدت الظاهرة التى ندرسها مما يجعل من الصعب أن نفصل بين ارائهم الخاصة كمواطنين واعمالهم كعلماء اجتماع . وقد حاول بعض علماء الاجتماع التخلص من المشكلة برفض دراسة اى شىء له اهمية اجتماعية . ولكن هذا التصرف يعد هروبا من علماء الاجتماع بحيث أن قرار ماذا ندرس وماذا نبحث وماذا ينبغى علينا ألا نبحثه هو قرار اجتماعى يستند الحكم فيه على حدود اخلاقية .

ولهذا فابحاث علماء الاجتماع الذين يدرسون الناس والمجتمعات تفترض وتتضمن قرارات سياسية واخلاقية . وهكذا إلى حد كبير أو قليل لايستطيع عالم الاجتماع أن يتجنب مشكلة القيم الاجتماعية فى اعماله .

واستنادا على هاتين المشكلتين المترابطتين عند علماء الاجتماع فعلينا أن نقبل حقيقة هامة وهى عدم اتفاق اساسى بين علماء الاجتماع فى المجتمعات المختلفة ذات الابنية الاجتماعية المختلفة حول موضوع هذا العلم وحول الموضوعات التى ينبغى أن يدرسها علماء الاجتماع . ولذا فعلينا أن نطرح المشكلة على النحو التالى :

ماخصائص الجماعات التى ينتمى اليها علماء الاجتماع ؟ ولما كان هذا السؤال يعبر عن مشكلة اجتماعية عامة ، فانه يطبق على جماعات أوسع من جماعات علماء الاجتماع فقط . ان هذه الجماعات التى تضغط ضغطا مؤثرا على المجتمع قد تفرض ان بعض النظريات والمداخل والمناهج هى وحدها الصحيحه عن غيرها ، كما انها قد تكون اكثر استعداداً للدعم وفرض سياستها بالقوة والتهديد. وهكذا ففى المجتمع الالمانى فى عهد الحكم النازى كان يطلب من علماء الاجتماع ان يعملوا داخل اطار من الحكم العنصرى الفاشستى الذى لايحتمل ، مما دفع بعضهم إلى ضرورة الهجرة .

وقد يفرض الذين يمسكون زمام السلطة فى المجتمعات بعض الضغوط على كيفية تدريس علم الاجتماع ، والمطالبة بتدريسه بطريقة معينة ، وقد يطالبون بتأكيد أو تدعيم مداخل معينة على حساب مداخل أخرى .. وأحيانا ماتكون هذه الضغوط مباشرة ، واحيانا ماتكون بطرق ملتوية . ويكشف تحليل كتب علم الاجتماع فى الولايات المتحدة أن علم الاجتماع هناك بعد الحرب العالمية الثانية كان موجها لمهاجمة وهدم الاشتراكية والشيوعية . وقد يكون امرا مكشوفا أن نقول ان سيطرة بعض النظريات التى تؤكد النظام والاستقرار والمحافظة على المراكز ، انما هى نتيجة الايديولوجيا السائدة هناك والتى تعد سلاحا فى المعركة ضد الاشتراكية . ومن السذاجة أن نقول أن هذه النظريات الامريكية تعبر عن التفكير الحر والارادة المستقلة لعلماء الاجتماع هناك .

وهناك ضغوط عديدة تمارس باشكال مختلفة على علماء الاجتماع . ويعد القسر والضغط الذى يعرض على علماء الاجتماع فى مجتمعات معينة فى فترات تاريخية متباينه ذات اهمية خاصة من أجل أن يتوافق علماء الاجتماع مع معايير معينة تدعمها السلطة . وقد يعترض على أن تدريس علم الاجتماع ليس بالمسألة البسيطة التى تهدف نقل المعلومات من جيل الاساتذة إلى جيل الطلاب ، فثمة تأثيرات عديدة لتدريس علم الاجتماع فى المدارس الثانوية والجامعات . ولكن علينا أن نفترض أن أغلب هذه التأثيرات الاخرى تخضع للقسر والقهر الذى تفرضه

السلطات احيانا . وإذا مااستخرجنا كل العوامل التى تتضافر سويا لتشكيل عالم الاجتماع ، ابتداء من نشأته الاولى التى تجعله رقيبا على افعاله وإذا ماقبلنا كل هذه العوامل التى تؤثر على عالم الاجتماع ، فاننا نجد ان عالم الاجتماع لن يقيم اطلاقا ميله إلى منظور معين باعتباره تحيزا ، بل يعتبره مدخلا علميا واضحا ومقبولا ومعقولا فى بلده ، وهذه الرؤية هى التى ادت إلى تطور مداخل علم الاجتماع والتفكير الاجتماعى فى بلدان كثيرة .

وعلينا أن ندرس بعض العوامل الاخرى التى تؤثر على عالم الاجتماع أولها أن عالم الاجتماع فى كل المجتمعات ابن الطبقة الوسطى وهو يعيش فى عالم مريح نسبيا وينتمى الى طبقة مستقرة ويحقق دخلا يهيأ له الطمأنينة . كما انه يعمل فى ظروف عمل حسنه نسبيا . وقد يعانى البعض من قوة الالزام الذى يفرض عليه والتزامه الاجتماعى والاخلاقى الذى يفرضه على نفسه . وهذه المعاناة منشأها اتجاهات عالم الاجتماع الشخصية التى تعبر عن مصالح الطبقة التى ينتمى اليها ، بينما هو يعرف معرفة واعية كيف يسمو إلى مكانة العالم الملتزم ، ولايتقبل ضغوط السلطة وألا يفزع اصحاب الافكار الذين يدعون إلى مايهدد طبقته وتطلعاته . والحقيقة أن هناك تيارين فكريين يؤثران على علماء الاجتماع فى العالم كله . اولهما التيار الاشتراكى والآخر التيار الرأسمالى ، هذا المناخ الفكرى الذى يحيط بعلماء الاجتماع يساعد على تكوين ايديولوجية علماء الاجتماع ، كما يساعد على تشكيل النظريات الاجتماعية ويحدد اتجاهاتها . ولذا فإذا كانت هناك ضغوط تفرض على علماء الإجتماع بالأ يدعموا نظريات معينة أو اتجاهات ايديولوجية معينة تتعارض مع النظام السياسى والاقتصادى السائد وتؤدى إلى الانحراف عن المعايير الجمعية ، فهناك ضغوط تظهر من جانب علماء الاجتماع أنفسهم ، فعالم الاجتماع بانتمائه إلى مجتمع له بناء اجتماعى خاص ، فانه يمكن أن يقهر بطريقة معينة ، ابتداء من سحر المال حتى المعاناة بالالم النفسى . وهناك بعض الضغوط التى تؤدى بهم أن يكيفوا أنفسهم بتبنى المطالب التى تفرض عليهم ، باعتبارها عناصر توحدوا بها ، فالانتماء إلى جماعة معينة يضغط على علماء الاجتماع ليقتربوا فى دراساتهم من منظور هذه الجماعات وان يتبنوا المعايير السائده التى تعطى قيمة عليا إلى التقدم

الشخصي والترقي ، فمثلا قد يضغط على علماء الاجتماع لكى لايسلكوا فى حياتهم بطريقة معينة تدين هؤلاء الذين يحتلون أوضاعا اجتماعية اعلى منهم ، لكى يطمئن علماء الاجتماع على أوضاعهم وأخيرا فان الانتماء إلى جماعة اكاديمية يؤدى إلى الضغط على علماء الاجتماع ليتكيفوا مع كل مايجلب لهم التقدير فى أعين اغلبية اعضاء هذه الجماعة .

وهذا التفسير لسلوك بعض علماء الاجتماع فى الدول الراسمالية يفسر لنا لماذا تقدم اكثر مدارس علم الاجتماع فى هذه البلدان معلومات خاطئة لطلابها رغم كثرة وتباين المداخل التى توصف بأنها مداخل اجتماعية . ويرى كولسون أن غرض علم الاجتماع ليس بناء نسق محدد من القوانين النهائية ، بل تأكيد الدراسة العلمية ، ليساعد الناس على أن يكونوا اكثر وعيا ببعض الأسباب الاجتماعية للمشكلات الاجتماعية التى يعانون منها وأن يصبحوا قادرين على توجيه اهتمامهم إلى بعض أنواع العلاج الملائمة لهم . كما يساعدهم على فهم أنفسهم فهما أفضل .

وإذا كنا ننتقد الطريقة التى يدرس بها علماء الاجتماع ، فهذا لايعنى الهجوم على القيمه التى تعود من وراء تدريس موضوع علم الاجتماع ، ولكنه فى حد ذاته يعنى حاجة الطالب المبتدىء فى دراسة علم الاجتماع إلى نظرة نقدية لما يدرس له ، لكى يستطيع أن يفهم البناء الاجتماعى الذى يعيش فيه أو الذى يدرسه .

وإذا ماأردنا أن نعلم الطالب تاريخ علم الاجتماع وكيف نشأ العلم ، بطريقة جامعية ، مبتعدين عن الايجاز والسهولة فاننا لن نفشل فى أن نعرفه بكل العلماء ، بكل حسناتهم واخطائهم ، ولكن من الصعب أن ندرس له كل ماكتب وكل ماعرض وأن نعرفه بكل مناهج علم الإجتماع فى هذا العالم .

ولكن لماذا لايشبه عالم الاجتماع العلماء الآخرين ؟

أننا نعرف ان عالم الاجتماع ابن مجتمعه وجزء من العملية التى يدرسها

ويلاحظها ويحاول أن يفهمها ، فهو يعيش الحدث الذى يدرسه ويرتبط به ، وإذا كان موضوع تخصص عالم الاجتماع هو المجتمع ، فمن مهام عالم الاجتماع أن :

١ — أن ينقد هذا المجتمع .
٢ — أن ينظر إلى المجتمع نظرة نقديه .
٣ — ان ينقد نفسه . وهذا يتطلب منه أن يغير باستمرار من نظرياته ومفهوماته ليواكب تغير المجتمع .

وفهم عالم الاجتماع لمجتمعه ، ينمو من خلال التجربة الاجتماعية والمعرفة المستمره . وهذا الفهم للواقع الاجتماعى يتطلب قدره خاصة على التخيل الاجتماعى بحيث يستطيع أن يقدر تقديرا واقعيا حقيقيا المشكلة ليمكن له تقدير الموقف الاجتماعى فى اطار العلاقات الاوسع التى تتكون من الموقف الاجتماعى والحياة الاجتماعية .

سابعا : فوائد علم الاجتماع :

يقول بعض العلماء ان الموضوعية المطلوبة فى العلم لاتستلزم من الملاحظ أن يشاهد المجتمع أو العالم بعقل خال من المعانى والافكار ، وبالتالى لاتعنى الموضوعيه ان عالم الاجتماع عالم محايد ولايهتم بما تتضمنه نتائجه من دلائل . فالبحث قد يكشف عن حقائق تستدعى طلب التغير على المستوى المحلى أو القومى ، ومن أمثال هذه الابحاث البحث الرائد المشهور الذى قام به شارل بوث عندما درس أسباب الفقر ومدى انتشاره فى لندن فى أواخر القرن ١٩ ، وقد قام بوث باجراء دراسة شاملة مسحية للشوارع التى ينتشر فيها الفقر إذ قام باجراء مقابلات مع مئات الناس فى احيائهم الفقيره . وكانت نتيجة دراساته هدم الفكرة الشائعة القائلة بأن الفقر يحدث نتيجة الكسل . وقد بين باسهاب أن الناس قد وقعوا فى الفقر لابسبب كسلهم ، أو رزيلتهم أو لعوامل وراثية . ولكن العامل الاهم لفقرهم — فى نظره — هو سوء حظهم وقد حدد بوث اسبابا عديدة للفقر :

أولها الأجور المنخفضة فى تلك الأيام البعيدة ، وغياب التشريعات الاجتماعية

التى توفر الضمان الاجتماعى ، وعدم التعويض عن الأضرار التى تحق بالعامل ، فالمرض الطويل يستنفذ مدخرات الأسرة وبالتالى يؤدى إلى الفقر ، كذلك يسقط فى هاوية الفقر المسنون والعجزة إذا طالت أعمارهم وحرموا من الأجر بعد احالتهم إلى التقاعد . وفى مثل هذه الظروف ، ومع وجود قدر كبير من البراهين لاثبات النظرية لم يستطع بوث أن يبقى محايدا ازاء الفقر ، ولقد نوقشت نتائجه فى البرلمان الانجليزى وساعدت معلوماته على إصدار قانون الرفاهية الاجتماعية .

وقد أجرى علماء الاجتماع فى بلدان عديدة فى السنوات الأخيرة دراسات اجتماعية . وقد اعطى علماء الاجتماع فى انجلترا اهتماما لدراسة وظائف الاسرة فى بريطانيا ، ودرسوا مثلا نمط الحياة فى المناطق المختلفة ، كما درسوا رعاية الطفل وتفكك العلاقات القرابية وتعد هذه الابحاث دراسات قيمة لا بالنسبة للمؤرخين ، بل إنها ذات فائدة بالنسبة لمخططى المدن وقادة الحكم المحلى والاخصائيين الاجتماعيين . وفى الفترة الحالية يعمل علماء الاجتماع مع فريق بحث يضم مهنيين آخرين فى ابحاث ومشروعات ضخمة مثل دراسة اعادة تنمية المدن وتخطيط المدن الجديدة وبناء المجتمعات المستحدثه ، والرعاية التى تقدم للمرضى بعد مغادرة المستشفى . وبناء مجتمع السلام بعد الحروب يتطلب الاستعانة برجل الاجتماع مثلما يستعان بالمهندس والاقتصادى ومخطط المدن ورجال التعليم .

ويستطيع عالم الاجتماع إذا ماتصدى لدراسة مشكلة الهجرة أن يقدم اسهاما هاماً للغاية لانه باستخدامه المنهج العلمى فى دراساته واعتماده على البحث المنظم واختبار الفروض يتمكن من تقديم معلومات وأدلة لما يحدث فى مناطق التهجير وأسباب هجرة الناس من مناطق معينة والأسباب التى تجذبهم إلى المناطق الجديدة ، كما يقدم لنا بيانات عن المشكلات التى تنجم عن الهجرة غير المنظمة . فهو يقدم لنا معلومات موثوقا فيها لمواجهة الاساطير وأنصاف الحقائق .

إن فهم سلوك الجماعات الانسانية أمر فى غاية الأهمية بالنسبة للناس الذين يحتم عليهم عملهم الاتصال بالجماعات والأفراد الذين يطلب منهم أصدار قرارات تتعلق بسلوك الناس . فمثلا مطلوب من ضابط الشرطة والقاضى والاخصائى

الاجتماعى وضابط السجن أن يفهم ويفسر سلوك جماعات الناس الذين يتعامل معهم ومن ثم أصبح ضرورى فى الفترة الأخيرة أن يدرس علم الاجتماع ضمن برامج كلية الشرطة .

ولكن أهم فوائد علم الاجتماع هى تعويد الطالب الدارس للعلم على التفكير النقدى لمشكلات المجتمع ، وان يسهم فى أكثر من مجال وأن يمتهن أكثر من مهنة . وخاصة التى ترتبط وتهتم بالعادات والنظم والجماعات الاجتماعية ، كما تساعد دراسة علم الاجتماع على تفسير ونقد النظم الاجتماعية المكونه للمجتمع الحديث وتقديم المعلومات التى يمكن أن تستخدم لتوجيه السياسة .

الفصل الرابع
تاريخ الفكر الاجتماعى

يقصد عادة من عرض تاريخ الفكر الاجتماعى ، هدفا متواضعا ، هو اعطاء فكرة عامة عن كيف أن مفكرين وكتاب معينين ، قد وعوا مشكلات المجتمع منذ القدم حتى الوقت الحالى . وبالتحديد فليس المقصود من عرض تاريخ الفكر الاجتماعى عرض تاريخ الفكر السوسيولوجى ، لأن هذا قد يتطلب منا اجزاء كثيرة ، وليس عرض تاريخ الفكر الاجتماعى كصورة كاملة لما حدث على المسرح السوسيولوجى ، ولكن المقصود بالتأكيد عرض رؤية بعض القوى والحركات التى ظهرت ثم اثرت فى تكوين وتطوير الفكر السوسيولوجى كما نعرفه اليوم ، والتعرف على بعض العلماء الذين ادلوا بآرائهم وساعدوا على ظهور العلم وتطوره .

وقد حاولت بعض السياسات عن قصد وعمد ان تستبعد أية اشارة إلى جهود العلماء فى بلدان مثل الهند والمكسيك ومصر فى اثراء علم الاجتماع فى القرن العشرين ، بل حتى الاشارة إلى الرواد من غير الأوربيين الذين المحوا إلى اهمية دراسة المجتمع والعلاقات الانسانية .

والسبب فى ذلك قد يكون بسيطا ولايعود ذلك إلى ضيق حيز النشر ، والذى هو عامل مهم دون شك ، بقدر مايعود إلى الأفكار التى تسيطر على علم الاجتماع المعاصر سواء فى قاعات الدرس ، أو فى الدراسات التطبيقية ، وهذه الأفكار مستوحاة من علماء غربيين ومن الواقع الراسمالى . وترد نقطة البداية فى تاريخ الفكر الاجتماعى الحديث إلى اربعة بلدان هى أمريكا وفرنسا وانجلترا والمانيا .

ويهدف عرض تطور الفكر الاجتماعى إلى :

١ ــ معرفة الطالب للمشكلات التى اهتم بها المفكرون .

٢ ــ ان يفهم الطالب المداخل التى درسوا من خلالها هذه المشكلات ليعرف طريقة تفكيرهم وتعبيرهم .

٣ ــ أن يتعرف على الأفكار الاساسية التى تحدد أعمالهم .

ويتضح لنا من الاطلاع على أعمال المفكرين الاجتماعيين ومؤلفاتهم تعدد اراء المفكرين منذ القدم وتشعبها . والسؤال الذى يطرح عادة لماذ تشعبت وتعددت الاراء وتباينت ؟ وماالافكار التي آثارت هؤلاء المفكرين عبر قرون عديدة . وماالمحاولات التى تتبعوها ؟

وعلينا أن نعى منذ البداية ان علم الاجتماع باعتباره علما انسانيا ويتبع قواعد العلم ، يستند فى البداية على أسس تاريخية وجذور فلسفية واضحة ، كما ان تطبيق العلم فى اى مجال انما يهدف إلى توضيح موقف العلم الاجتماعى من البناء الاجتماعى . ان المعرفة التى يقدمها لنا العلم عن كيفية تنظيم المجتمع وعن اتجاه التغيرات الاجتماعية يبرز لنا دراسة المواقف كما أن دراسة المجتمع دراسة تجريبية يجب ان تستند على نظرية محددة ، لتنمى عند الطلاب رؤية نقدية ازاء الفكر الاجتماعى ، مما يساعد على اثراء الفكر الاجتماعى نفسه .

ومن ثم فإن اى مراجعة لتطور تاريخ الفكر الاجتماعى قد تكون ناقصة دون فهم اساسى للاسئلة الاتية :

١ ــ ماهو موضوع علم الاجتماع ؟
٢ ــ ماهو السبب فى ظهور علم الاجتماع فى مرحلة متأخرة ؟
٣ ــ ماهو معنى العلم الاجتماعى ؟ وهل هو علم طبيعى أم علم انسانى ؟

١ ــ المقصود بعلم الاجتماع :

لقد سبق ان اوضحنا المقصود بمفهوم علم الاجتماع . وهنا نكرر انه ينبغى الا تضللنا التعريفات الغامضة العديدة لعلم الاجتماع وتقودنا إلى الاعتقاد بأن موضوع علم الاجتماع غير محدد . وفى الحقيقة فان التعريفات المختلفة للعلم الاجتماعى باعتباره العلم الذى يدرس المجتمع أو السلوك الانسانى أو الانظمة الاجتماعية ،

كلها تؤكد على طريقة معينة خاصة لفهم ولدراسة السلوك الاجتماعى ، والتى لايستطيع أى علم آخر أن يقوم بها . ويتفق الآن على تسمية التاريخ والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية أو العلوم السلوكية لانها جميعا تهتم بالانسان الذى يعيش فى المجتمع ، ومع ذلك يستطيع المرء أن يدرك الجوانب التى تحدد السياسة والتاريخ والاقتصاد . إذ أن لكل علم موضوعه المحدد ومنهجه الخاص فى البحث ولكن يبدو واضحا أنه بالرغم من محاولة كل هذه العلوم تفسير قدر كبير من السلوك الانسانى فإن كل منها يدرس جانبا واحد من هذا السلوك . وبعبارة أخرى فمن الممكن أن ندرس جانبا من السلوك الانسانى ونعزله عن الموقف الكلى . وهكذا فيمكن أن ندرس فى دروس التاريخ تتبع مجرى الاحداث فى الماضى كما حددها القادة أو القوى الإنسانية والمادية والذين بدونهم لن تحدث حركة التاريخ . ونحن ندرس فى الاقتصاد العوامل التى تؤثر فى الإنتاج وتوزيع مصادر الثروة فى المجتمع أما فى العلوم السياسية فنحن نهتم اساسا بتحليل كيفية توزيع السلطة أو القوة فى المجتمع .

ولكن إلى أى مدى يتباين علم الاجتماع عن تلك العلوم ؟ الاجابة على ذلك تحتمل اجابتين .

الاجابة الأولى : ان هذه العلوم تتباين تباينا كليا عن علم الاجتماع .

الاجابة الثانية : انه لامجال اطلاقا للخلاف بين علم الاجتماع وهذه العلوم وليس من الصعب أبداً ان نشرح هذا التناقض ونفسره .

فالمؤرخ او الاقتصادى او السياسى عندما يعمل ويحلل موضوع دراسته بطريقة تجعله يربط موضوع بحثه بالنظم أو القوى الموجودة فى المجتمع فانه يتحول إلى عالم اجتماع ، وهكذا فالمؤرخ الذى لايقتنع بمجرد تسجيل حركات التاريخ والاحداث الماضية ولكنه يهتم بأن يوضح كيف ؟ ولماذا ؟ أخذت هذه الحركات اتجاها معينا فى موقف معين ، هذا المؤرخ فى الحقيقة يفسر الأحداث تفسيرا سوسيولوجيا . ومثال على ذلك يعد تفسير ابن خلدون لانحدار وسقوط القوى

السياسية الاسلامية فى شمال افريقيا فى القرن الثانى عشر فى اطار تفكك اتماسك القبلى ، تحليلا سوسيولوجيا من الدرجة الاولى .

وفى الحقيقة فان الاقتصاد دون العلوم الاجتماعية الاخرى كلها ، يعد العلم الذى يمكن أن يدعى بأنه علم مغلق ، إذ أن نماذجه النظرية الجديدة واساليبه الرياضية المتقدمة يرتبطان معا ليجعلا منه علما شبيها بالعلوم الفيزيائية . وإذا مانظرنا إلى الأقتصاد من هذه الرؤية فاننا نجده علما ضيقا لايرتبط بالعناصر التى تكون بناء الحياة الاجتماعية ، بيد أنه من الثابت عدم وجود نظرية اقتصادية أو حتى معاملات اقتصادية يمكن أن تدرس منعزلة عن أية عملية من عمليات التفاعل الاجتماعى ، ومن ثم فان التفاعل بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية ضرورى لفهم تطور التنمية الاقتصادية . وقد اثبت كارل ماركس اثباتا قاطعا أن

البناء الفوق للمجتمع يعكس الاساس الاقتصادى للمجتمع ، وأن التغير فى النسق الاقتصادى يؤدى حتما وآليا إلى التغير فى البناء الاجتماعى وأننا بالتالى لن نستطيع أن نفهم القوانين الاقتصادية فى المجتمع بمعزل عن البناء الاجتماعى . كما أن صدق القوانين الاجتماعية ليس كصدق قوانين العلوم الطبيعية . وبالتالى فإن علم الاجتماع لايرتبط فقط بهذه العلوم ارتباطا وثيقا ولاتجمعه بها خصائص أو صفات مشتركه ولكنه يقتبس منها أو يستعير منها مايناسبه فى أبحاثه . كما أنه يستفيد من نتائجها ، لأنه بالضروره يدرس نفس المشكلات التى تهتم بها هذه العلوم ولكن من منظور أوسع ومن محور اهتمام خاص .

٢ ــ ظهور علم الاجتماع .

وقد يطرح السؤال الاتى : لماذا تأخر ظهور علم الاجتماع فترة طويلة كعلم مستقل له موضوعه الخاص ومنهجه المميز ؟ ليس مجرد طرح هذا السؤال فقط هو المهم ، بل حتى تدريس العلم فى الجامعات ، يعد تجديدا فى مناهج الجامعات ، وقد صاحب ذلك صعوبات عديدة ومشكلات كثيرة ، وأسباب ذلك واضحة ، فالسبب الأول وربما يكون اكثر الاسباب اهمية ، هو أن الأحداث

المعاصرة هيأت الظروف للبحث بل وفرضت علينا البحث عن اسباب مشكلات مجتمعنا وساعدت على النظر إلى قضايا المجتمع نظرة نقدية . اما فى الماضى فقد أدى عدم الرضا على الأوضاع السائدة إلى بعض انواع العنف ضد الحكام ، وكانت المجتمعات تتحرك حركات مفاجئة تترك شعورا بالطمأنينة . كما كانت تسير نحو نظم أفضل للحكم . واحيانا ماكانت المجتمعات تعانى حالة من الفوضى والتدهور والتفكك الاجتماعى . وفى مثل هذه المواقف الاخيرة لم تفهم اسباب التغيرات ونتائجه . وهذا الفهم لايتحقق إلا إذا تكون الوعى بالبحث عن الأسباب التى دفعت بالمجتمع إلى التدهور والتفكك . وأن حدوث التفكك يؤدى إلى التباين فى السلوك . بيد أنه لاسباب تاريخية يتعذر اجراء مثل هذه الدراسة .

وبالتأكيد فان هذا يصدق على المجتمع البسيط المتجانس ، الذى توجد به ابنية ثابتة غير متغيرة ، ولاتتغير . وحتى فى المجتمع الاكثر تنظيما والذى لايظهر الاهتمام بتاريخه سواء بالرجوع إلى التقاليد غير المكتوبة أو السجلات والوثائق فان فكرة النظر إلى النظم وانساق الحياة والبحث عن اسبابها قد لاتوجد . ان ماهو مألوف فى التاريخ هو القبول غير النقدى للنسق السياسى ، وحتى إذا لم يعد يتسامح مع الطغيان أو الفساد أو عدم صلاحية النظام ، فثمة محاولة للسؤال عن شرعية الحكام لاعن شرعية النسق . وثمة عامل مهم ظهر خلال التاريخ هو تجريم اى نقد يسأل عن الوضع السائد ، ومن الواضح أن احد الأسباب الاساسية لنقد المجتمع هو حرية التعبير . وأخيرا فان التفكير المنطقى والبحث الدقيق والبرهان الموثق لم يتطوروا بعد ليصبحوا ادوات واساليب للمعرفة النزيهة المجردة .

وثمة حدثان فقط وقعا فى الماضى وساعد على تغير المجتمع تغييراجذريا مما دفع الناس إلى البحث الحر عن المشكلات التى تغضبهم . الأول حدث فى أثينا فى عصر افلاطون وارسطو ، والآخر حدث فى عصر ابن خلدون . ولم تحدث احداث أخرى غير هذين الحدثين حتى القرن ١٩ ، حيث اتاحت الظروف ظهور العلم الجديد . وثمة عوامل أدت إلى ضرورة الرغبة فى توضيح وفهم

المشكلات المعقدة للمجتمع . وهذه العوامل هى القضاء على النظام الاقطاعى فى أوربا والتغيرات الواسعة الهامة فى الحياة الاجتماعية والتغيرات السريعة التى ادى اليها عصر الالة والثورة الصناعية ، والحرية الكاملة والمطلقة فى التعبير وظهور اساليب جديدة للبحث .

٣ ـ علم الاجتماع والعلم :

ربما يتعين على المرء أن ينظر إلى اسباب نشأة علم الاجتماع باعتباره علما ، إذا أن المهتمين به يعلنون تلك الدعوة دائما . ويقولون أن مصدر علم الاجتماع والعلوم الأخرى واحد ، وبقدر مانشأت علوم كثيرة باعتبارها أفكارا تأملية مجردة أو من افكار نظرية فأنه يمكن النظر إلى علم الاجتماع من هذا المنظور نفسه باعتباره علما يهتم اهتماما خاصا بالناس لزيادة معارفهم عن واقعهم الذى يعيشونه ، وتأكيد فهمهم لهذا الواقع . إن التوازن تين العلوم القديمة فى الحقيقة توازن قديم . ومثل كل تلك العلوم القديمة فان علم الاجتماع قد بدأ من مجموعة من الأفكار التأملية والنظرية والتى امكن اثبات صدقها عندما اخضعت للاختبار التجريبى . وبقدر ماازدادت سرعة تقدم العلوم التجريبية فإن التقدم نفسه ولو بنسبة اقل قد حدث فى علم الاجتماع عندما اخضعت افكاره للأختبار إما لاثباتها أو دحضها . ولكن هل يمكن ان تثبت تلك الدعوى ؟

إننا لايمكن أن نقدم إجابة شاملة لهذا السؤال مالم يتضح فى أذهاننا المقصود بالضبط من العلوم ، ولكن ذلك ليس سهلا كما يبدو لأن التجربة العلمية التى نسعى اليها لاتوجد فى التعريف اليومى الشائع للمصطلح ، فعند أغلب المتحدثين بالانجليزية على الخصوص يشير مصطلح العلم إلى مايحدث فى المعامل حيث تجرى كل أنواع التجارب من أجل اثبات النظرية أو الفكرة من اجل اكتشاف شىء جديد . وفى بعض الأحوال بطبيعة الحال ، مثلما يحدث فى علم الفلك فانه يبدأ بالملاحظة ثم يقوم بعملية الاستدلال والاستنتاج فى ضوء تلك الملاحظات . على حين أننا نطلب من هذه العلوم دائما أن تقدم شيئا ملموسا ونتائج واقعية . إن

مايفسر لنا لماذا تسمى هذه العلوم بالعلوم الطبيعية هو كونها تهتم بالظواهر الطبيعية أى تلك الأشياء الواقعية الملموسه المرئية المحسوسة التى تحيط بنا . وذلك هو المفهوم الضيق للعلم الذى أصبح دائما بل وخالدا فى معاهد التعليم والذى يقسم كل المدارس الفكرية إلى مدارس علمية وتطبيقية . هذا التقسيم يبين أن الثقافة تنقسم إلى جانبين ، الجانب الانسانى والجانب العلمى . ويعنى العلم ببساطة المعرفة . ويمكن ان نطلق على أى موضوع فى العلم انه يضيف شيئا إلى المعرفة، إذ أنه يدرس ويلقن للطلاب بقصد اثراء معرفتهم ، واستنادا على هذا المعيار يشمل العلم اللاهوت والمنطق والرياضيات والسياسة . وبهذا المعنى فإن فكرة العلم تعنى المعرفة المتخصصة التى ينظر إليها باعتبارها نسقا من الأفكار يتكون من الحقائق والافكار ، وبطبيعة الحال تختلف العلوم فى المدى الذى تخضع فيه للتجربة والملاحظة او تمحيص البرهان . وفى كل تلك العلوم تطبق نفس عمليات التفكير والفهم . وهكذا فان لكل علم موضوعه الخاص ويضم مجموعة من المعارف التى يمكن أن تعلم وإن يتحقق منها ، وفى الوقت نفسه ينبغى أن نعى أن تلك المعرفة ليست نهائية ويمكن أن توسع وأن يضاف اليها باستمرار معارف جديدة .

وبايجاز فالعلم يبدأ عندما يبدأ الناس البحث عن اجابات للمشكلات التى تحيرهم . وبقدر مايعملوا اذهانهم فى تلك المشكلات وبقدر مايقدموا اجابات تزود من معارفهم فانهم يسلكون سلوكا علميا . كما أن اغلب الناس راضون ومقتنعون بالنتائج التى يتوصلون اليها باعتبارها نتائج نهائية . إن أهم مايميز العلم ، اعمال الذهن اثناء البحث عن الحقيقة واتجاه العقل اتجاهاموضوعيا، والبعد عن التحيز والذاتية .

٤ــ نحو علم اجتماع انسانى :

عندما يطالب علماء الاجتماع باعتبار علم الاجتماع مجالا متميزا للبحث الانسانى ، فاننا فى الوقت نفسه نطالب بمكان متميز لعلم الاجتماع ليس فقط بين العلوم ولكن نطالب له ايضا بمكانة بين الانسانيات . فهذا هو الجانب الآخر

لعلم الاجتماع الذى يعطى له الأهمية والأولوية التى يستحقها من المفكرين، وقد أدى اهتمامهم بتأكيد المدخل العلمى عند دراسة مشكلات المجتمع إلى اغفال حقيقة أن علم الاجتماع كع لم متميز عن العلوم الأخرى له جانبه الإنسانى. وينشأ هذا الفرق بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى من حقيقة أن الفرد الذى يرغب فى إدراك ما يحدث فى المجتمع، وفى فهم نسيج العلاقات الاجتماعية كما عبر عنها . يجعل من المجتمع موضوعا يستحق الاهتمام ويعطيه صورة متميزة. هذا الفرد الذى يحاول فهم المجتمع، هو نفسه، ابن ذلك المجتمع، حتى انه فى محاولته فهم ذلك المجتمع، يحاول فهم نفسه، ووضعه فى مجتمع أفضل، ومن هذه الناحية يصبح علم الاجتماع جزءا من ثقافة المجتمع كما تعنى أنه لا يوجد شخص يهتم اهتماما كليا بمجتمعه يخفق فى الاستفادة عقليا واخلاقيا من مشاهداته وتبصره للناس الذين يرتبطون بعلاقات اجتماعية متواصله. وعلم الاجتماع على هذا النحو ليس مجرد تطبيقات عقلية أو مجرد مهنة لها غاية عملية معينة، ولكنه جزء متكامل من تربية الفرد. وكان إلحاح ماكس فيبر على تمييز علم الاجتماع عن العلوم الأخرى باعتبار أنه يتطلب نوعا خاصا من الفهم بمثابة تحدد مهم للعلاقة الوثيقة بين علم الاجتماع والعلوم الانسانية الاخرى. ووفقا لهذه الرؤية، فإننا لا نستطيع أن ندرس دراسة كاملة افعال وتفاعلات الناس فى المجتمع دون فهم الدوافع التى تدفعهم إلى أداء سلوك معين حسب الطريقة التى سلكوا بها. ونحن نستطيع أن نفعل ذلك لأننا نعرف أن الدوافع نفسها سوتف تحركنا فى ظروف مماثلة.

- ولكى نفهم موضوعا اجتماعيا على هذا النحو، فان الأمر يتطلب ان نعرف كل شئ عنه، ويعنى هذا أننا نشعر بشئ ما نحوه، حتى أن مثل هذا الفهم كما يتحقق هو بالمعنى الاصيل فهم تعاطفى، وعالم الاجتماع لا يستطيع أن يكون رؤية لا شخصية كاملة عن الموضوع، فعندما يحاول أن يفهم الموضوع فانه يهتم بتاريخه، ومستقبله وقدره، ومثله مثل العالم الحقيقى يصبح ملما باطراف الموضوع الذى يدرسه، ولما كان هذا الموضوع موضوعا حيا، فانه يكوّن معه علاقة وثيقة ودية، بينما قد يتخذ اتجاها مختلفا ومعارضا نحوه، وتتيح له هذه العلاقة الوثيقة أن ينظر إلى الموضوع من جميع اتجاهاته. ان الارتباط بين المنظور

الشامل والمدخل عن بعد سوف يساعده على التغلب على أى تحيز والبعد عن أية نظرة جزئية، والتى لا يتحرر منها اى انسان ازاء هذه الموضوعات. أن النظر إلى كل شئ بعين مفتوحة، يعنى ان الإنسان لا يسلم بأى شئ، ان اكثر المبادئ رسوخا فى المجتمع قد تؤسس فوق اسس متداعية. ويؤكد هذا النوع من الشك، ان الحكم الكلى دائما مظهر كاذب وشئ يثير السخرية، وعلى العكس فهذا الشك فى البحث يعنى الوعى بالاحتمية المخيفة فى التغير، وبهذا المعنى فان علم الاجتماع علم يقوم على الشك من اجل بناء معرفة يقينية ومن اجل محاولة استنباط معرفة يقينية جديدة، ويحاول آن يقدم لنا فهما جديدا وتفسيرا جديدا للحقائق والمواقف الموجودة، وعلى خلاف العلوم الأخرى والتى تحاول فى الوقت الحاضر أن توسع من مجال المعرفة باكتشاف حقائق جديدة فان علم الاجتماع يزود من معرفتنا، ويقدم لنا رؤية جديدة عن حقائق اجتماعية موجودة، ان الحقائق الاجتماعية تخلق نفسها ، وهى معروفة لدينا لانها تعيش بيننا، وينظر عالم الاجتماع إلى هذه الحقائق بطريقة توضح أهميتها بالنسبة إلى حقائق اخرى فى العالم الاجتماعى، وتبعا لذلك نرى هذه الحقائق رؤية جديدة، وبالتالى فإن دراسة الحقائق الاجتماعية منعزلة هو أكثر الاعمال عقما، وينبغى النظر إلى كل حقيقة اجتماعية من منظور أوسع لنستطيع أن نحدد مكانها فى البناء ككل تحديدا أكثر اهمية، وعندما نقول ذلك. فان كلامنا يتضمن ان الحقيقة الاجتماعية لها معنى، ونحن نجرد معنى الحقيقة عندما نربطه بالمعانى الأخرى والتى نستدل عليها من الحقائق الأخرى المترابطة.

ان تجريد المعنى الذى يرتبط بالحقائق الاجتماعية. هو ما يميز علم الاجتماع عن العلوم الطبيعية، ويكمن فى التجريد احد الاسباب التى تبرر لماذا يعتبر رد علم الاجتماع إلى العلوم الطبيعية عملا عديم الجدوى؟ وكانت الدعاوى السائدة عند علماء الاجتماع فى المائة سنة الأخيرة، هى :

اذا أردنا أن يتقدم علم الاجتماع ويحقق انجازا رائعا، فلن يتحقق ذلك الا باتباع المناهج نفسها التى طبقت بنجاح فى العلوم الطبيعية. بيد أن هذه الدعوى زائفة

وباطلة ، إن ماعتبروه مناهج ناجحة فى العلوم الطبيعية . كان اكتشاف قوانين اضطرادات الطبيعة . وبذلك يتحقق امكانية التنبوء الدقيق . وتلك القضية هى جوهر العلوم الطبيعية . إن مجرد التوقف لحظة من اجل التفكير الدقيق والعميق سوف يكشف لنا استحالة ولانقول عدم ملائمة مناهج العلوم الطبيعية فى علم الاجتماع . ان اكتشاف اضطرادات السلوك بكل تأكيد مهمة اساسية لعلم الاجتماع ، ومن الممكن ان نعرف ونفهم هذه الاضطرادات وندركها فى اطار القوانين العلمية . ولكن تلك المهمة ليست المهمة الوحيدة لعلم الاجتماع لانه من الثابت ، ان عدم الانتظام فى الحياة الاجتماعية مثله مثل الانتظام شيء هام ومتكرر .

ومن مهام علم الاجتماع أن يفسر الانتظام وعدم الانتظام فى اسلوك وهذا يتضمن أنه على الرغم من قدرتنا فى علم الاجتماع — مثل قدرتنا فى العلوم الطبيعية — على التنبوء ، فاننا ينبغى أن نعى أن تلك النبوأت ليست دقيقة ، ولكنها تطبق فقط على السلوك المضطرد الذى نشاهده . وبعبارة أخرى فان عدم امكانية الانسان على التنبؤ يعد احد الافتراضات الاساسية لاى دراسة سوسيولوجية مثمرة ، ولكن ذلك لايقلل من دعوة أن علم الاجتماع علم ، وأنه علم دقيق ولكن هذا النوع من العلم . وهذا النوع من الدقة العلمية ، ينبغى الا تخلط مع مانتوقعه من العلوم الطبيعية .

وهكذا فان التغير فى المجتمع ، قد ينبع من مصدرين : الأول : حركة تاريخية من حالة إلى حالة أخرى ، تحددها عوامل اجتماعية والآخر : عوامل ترجع إلى الأختيار الفردى ، ولايمكن التنبؤ بها . ولاريب ان الاختراعات والاكتشافات والانتاج الفنى والرسالات النبوية كلها ذات اصل اجتماعى . ولكن لايمكن التنبوء بها لانها محصلة عبقرية فردية . وهكذا فان التفسيرات الاجتماعية ينبغى ان توضع فى اطار كل من الأفراد العباقرة او حتى العاديين والكل الاجتماعى . والتنبؤ الاجتماعى على المستوى المحدود يمكن اجراؤه على مستوى الكل الاجتماعى ، لاننا عندما ندرس الكل الاجتماعى فاننا نجرده من كل الفروق الفردية التى تميز الافراد الذين يكونون ذلك الكل . وحسب تلك الطريقة فاننا يمكن أن نقيس النزعات

والحركات والآراء ولكن فى المحاولة الأخيرة ، فنى تغير يحدث لتلك النزعات أو الحركات أو الآراء قد يرجع إلى المبادرة الفردية : ويتعين على علم الاجتماع أن يعطى أهمية اولية لهذه المبادرات وينبغى أن ينظر إلى تأثير كل هذه المبادرات الفرديه من خلال سلوك الجماعات الاجتماعية أو الكل الاجتماعى الذى هو سبب قدرتنا على التعميم .

وبايجاز يمكن لنا أن نقدر الموقف على النحو الآتى :

لاتوجد حياة اجتماعية ممكنة — ومن ثم فليس فهم الحياة الاجتماعية ممكنا إلا على اساس افتراض أن اغلب أفعال الناس فى المجتمع يمكن التنبوء بها . ولكن لما كان المجتمع ديناميكيا ومتغيرا وليس جامدا ولا فى حالة من الثبات . فاننا نجد التبريرا فى رد تلك التغيرات إلى هذه الرواسب الموجودة التى تحكم افعال بعض الناس والتى لايمكن التنبوء بها ؛ وفيما يتعلق بسلوك الجماعة ، فان التنبوء اكثر تكرارا ، كما إن هذا السلوك اكثر انضباطا ، ولكن التغيرات التى تطرأ على المجتمع : وبالتالى تطرأ على سلوك الجماعات ، ترجع احيانا إلى عوامل خارجية وداخلية وفى أوقات اخرى إلى انحرافات فردية داخل الجماعة ، وهكذا يلعب الفرد دورا حاسما فى التغيرات التى تحدث فى المجتمع .

وعندما نقول ان الحقائق الاجتماعية لها معنى ، فان هذا القول يتضمن أن كل حقيقة اجتماعية تتضمن قيمة معينة . ونقصد بالقيمة هنا حكم صريح أو متضمن بأن الحقيقة خير أوشر ، مقبوله أو غير مقبوله . مهمه أو غير مهمة ، ومن هذا الجانب يمكن أن يقال ان كل الحياة الاجتماعية تتكون من انساق القيم المتوارثة والمكتسبة والتى تنقل إلى الاجيال مقبلة على شريطة أن هذه القيم ليست جامدة ويعتريها التغير دائما أو احيانا ، وتكون انساق القيم ثقافة المجتمع ، وتعنى الثقافة بالمعنى الواسع المعايير والتطلعات والافكار والاتجاهات العامة . والتى تميز معا المجتمع كوحدة ملائمه للسلوك . وهكذا فالمجتمع الانسانى مجتمع تحدده الثقافة التى تعكسها القيم السائدة ، كما أن تنظيم المجتمع يعكس ويعبر عن انساق القيم هذه .

ان مراجعة ماكتبه المفكرون عن مجتمعاتهم وعن المجتمع الانسانى عامة أمر ضرورى لوضع علم الاجتماع فى وضعه الصحيح . وقد بدأت البداية الأولى فى كتابات الفلاسفة . وكان الفلاسفة اليونانيين أول من فكروا فى المجتمع ويعد افلاطون من اوائل من قدموا افكاراً مثاليه لما يجب إن يكون عليه المجتمع فتحدث عن العدالة والفضيلة والمدينة المثالية . وكانت هذه المدينة على مثال انسان يجب لكى يصل إلى الكمال أن يعرف كيف يحقق الانسجام بين قوى مختلفة ، ومن بعده جاء أرسطو . وكان أرسطو ارستقراطيا فى تفسيره للواقع الاجتماعى . فكل المدينة ومجهوداتها يجب أن تعبأ لتكفل الراحة والطمأنينه للمفكرين . وقدم لنا أرسطو تعريفه المشهور بان الانسان حيوان اجتماعى والمجتمع عند أرسطو يتكون من عناصر مختلفة أو غير متجانسه وهذا الاختلاف هو الشرط الأساسى لتعاونها كما أنه الشرط الذى ينظم علاقات التبعية والسلطة .

وقد تطورت النظرة إلى المجتمع عند ابن خلدون المؤرخ الاسلامى تطورا كبيرا. على يديه نزلت الدراسات الاجتماعية من السماء إلى ارض الواقع . وقد اكتسب ابن خلدون خبرات كبيرة نتيجة ترحاله المستمر مما عاونه على تفسير ماشاهده من ظواهر اجتماعية وطبائع انسانية وقدم لنا الأسس العلمية لدراسة المجتمع فى علم مستقل هو علم العمران وموضوعه هو الاجتماع الانسانى او العمران البشرى .

وقد سبق ابن خلدون أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع الغربى وفى توضيح طبيعة العمران البشرى وانواعه وقد عرض ابن خلدون اراءه الاجتماعية فى مقدمته المشهورة والمعروفة باسم « مقدمة ابن خلدون » وهى مقدمة فى التاريخ واخبار الأمم والأيام . وقد بين لنا ابن خلدون فى مقدمته طبيعة العمران البشرى منذ الخليقة ومايعرض فيها فى البدو والحضر والتغلب والكسب ، وقد اكد ابن خلدون ان الاجتماع البشرى ضرورى رغم اختلاف العمران فى الخصب والجوع واثر ذلك على اخلاق الناس وسلوكهم وقد ضمت المقدمه اراء ابن خلدون فى الأقتصاد والسياسة والتربية . ومن رأيه أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة . وكل هذه الآراء تعد فى الحقيقة فروعا أساسية فى علم الاجتماع

المعاصر . فهناك علم الاجتماع البدوى وعلم الاجتماع الاقتصادى وعلم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع التربوى ولكن أهم ماجاء به ابن خلدون توضيحه للعلاقة بين علم الاجتماع وعلم التاريخ وأهمية فهم ظواهر المجتمع أو طبائع العمران من خلال الأحداث التاريخية .

ان فضل ابن خلدون المفكر الاسلامى على علم الاجتماع كبير إلا أن كتابات المفكرين الغربيين كثيرا ماتتجاهل فضله ومجهوداته فى تأكيد دراسة العمران البشرى وقد نالت كتاباته أهميتها لانها كانت نتيجة تجاربه ومشاهداته وملاحظاته ولم تكن ابدا من وحى خيال .

وقد شرح ابن خلدون فى كتابه المقدمة ودراسته بعد سبع سنوات قضاها فى العمل السياسى لانجاز مهام سياسية كلف بها ، ثم أقام فى قرية فى ولاية وهران لمدة اربع سنوات متخليا عن الشواغل . وثمة احداث هامة صنعت منه العالم الاجتماعى الذى لايعلو عليه :

أ ـــ سقوط الدولة الاسلامية فى الأندلس .

ب ـــ بدأ ظهور آسيا التركيه واتصاله بتيمور لنك .

ج ـــ عاصر نشأة دولة المماليك البرجية . إذ حضر ابن خلدون إلى مصر بعد مرور عشرة أيام على اعتلاء مؤسس أسرة المماليك البرجية عرش مصر ،

ولايمكن فهم المقدمة إلا على أساس هذه الحياة التى قضاها مابين عزلة العلماء ونشاط السياسيين .

اراد ابن خلدون ان يقدم المفاهيم والأسس الفكرية للمؤرخ . ولكى يتمكن الباحث اثناء فحص الانباء التاريخية من الحكم الصحيح على مدى صدق الخبر وقربه من الحقيقة . وعرض لنا فى المقدمه جميع مراحل تطور الحضارة ، فتناول بالبحث الحياة البدوية والريفية والحضرية . وكيفية تكوين الدولة وسقوطها . وادلى بدلوه فى المسائل الاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية والفنون والعلوم واسباب تطورها ، وحلل المهن والحرف واللغات المختلفة .

وتكمن الاصالة الحقيقية لابن خلدون فى تحليله الموضوعى والمفصل لنعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تقوم عليها التكوينات السياسية والتى بموجبها تتطور الدولة . وشكلت نتائج هذا التحليل المفصل العلم الجديد الذى يعتقد انه مؤسسة أى « علم العمران » أو ماصطلح على تسميته فى العصر الحديث بعلم الاجتماع .

والمفهوم الاساسى لنظرية ابن خلدون التاريخية هو العصبيه ، وهى كلمة مشتقة من العصب ، أى اقرباء الرجل من الذكور الذين تكون الصلات والعلاقات بينهم متينة جدا .

وتستند نظرية الدولة على مفهوم العصبية — أى أن بدأ الشعور بالانتماء يبدو على أشده وفى أقوى صوره لدى الاقوام البدوية غير المتمدينة . التى لم تعش حياة المدن والحياة البدوية هى أصل جميع الحضارات . ويعتمد الزعيم فى هذا الطور على وفاء رعاياه وعونهم لدعم سلطته وملكه . ومن الطبيعى أنه لاحاجة للمجتمع البدوى أن يتبلور فى كيان دولة . وهؤلاء البدو يستطيعون أن يعيشوا سنوات طويلة فى مراكز عصبية صغيرة ، إلى أن يأتى يوم تتبلور فيه القوى الكامنة فجأة على يد زعيم ذى شخصية قائدة .

وتجرى حياة الدولة بايقاعات مختلفة باختلاف وجهة النظر التى تقوم عليها الدولة ، والتى تعطى اهتماما خاصا . ان للدولة عمرا طبيعيا لاتتعداه . وهو ١٢٠ عاما ، أو ثلاثة اجيال . الجيل الأول جيل التأسيس ، والجيل الثانى جيل الحفاظ ، والجيل الثالث جيل الاضمحلال . وقد ينقسم كل من الجيلين الثانى والثالث إلى عدة اجيال قصيرة. ويقترب ابن خلدون من هذا الرأى عندما يتحدث عن الزعامة فى القبيلة التى تشتمل على أربعة أجيال جيل التأسيس وجيل الحفاظ وجيل الحفاظ وجيل التقليد وجيل الأضمحلال . ثم يتكلم عن الاطوار الخمسة فى حياة الدولة :

طور الغزو والفتح الذين يستندان إلى العصبية . وطور قيام ملك الانفراد بالسلطة مع كبت الاتباع الأولين وفساد العصبية ، وطور البناء السلمى والحياة

الهادئة ، وطور الجمود والتقليد ، وأخيرا طور الهرم والانقراض . وفى هذه الدورة الحياتية تجرى حياة الدولة والعروش . فمن سيادة بسيطة لزعيم واحد كشيخ القبيلة ينشأ سلطان الملك مع مراتب محددة الفوارق . ثم يهمل الانصار الاولون للبيت المالك وبذلك تفسد العصبية ويظهر بدلا منهم فئات من قبائل غريبة . حيث ان السلطان يتوقع مزيدا من الطاعة من فئات جديدة تعتمد على رعايته وعطفه كلية . ولاتكاد تستقر الدولة حتى تعتاد الاسرة المالكة والرعية على الترف . ويرى ابن خلدون — نتيجة مشاهداته — إنه كلما استسلم شعب للترف ونعومة الحياة قامت فئات غريبة ، ماتزال بعيدة عن الحضارة وقويت شوكتها واستولت بطاقتها غير الفاسدة بعد على الملك وقضت على البيت المالك .

وهكذا فابن خلدون لم يكن ابدا مؤرخا كما اراد عندما بدأ بكتابة مقدمته ، وانما تحول إلى مؤسس علم الاجتماع عندما حاول لاول مرة ادراك العوامل الاجتماعية والنفسية التى يقوم عليها التطور التاريخى .

أما فى أوربا فقد ظل التفكير الاجتماعى مشوبا بالفلسفة التأملية دون نظر إلى الواقع حتى شرق عصر النهضة الذى مهد لظهور علم الاجتماع .

٥ — مظاهر عصر النهضة

أ — انتشار التعاليم الكلاسيكية والفلسفة اليونانية .

ب — ازدهار الروح الانسانية فى الفن والادب والبحث العلمى .

ج — رفض سلطة الكنيسة فى المسائل العلمية والاقتداء بالمنهج العلمى فى حل المسائل العامة .

د — الثورة على الأسلوب الاعتقادى الدجماتيكى وعلى مفاسد الكنيسة الكاثوليكية .

ه — الكشوف الجغرافية التى فتحت لنا مجالات جديدة فى التجارة والتى ادت بدورها إلى تكوين الامبراطوريات الجديدة .

٦ — ظهور علم الاجتماع السياسى

وقد امتد الجدل المرتبط بمشكلات الدولة والحكومة والمجتمع واسهم افراد

كثيرون بآرائهم فى هذه المشكلات مثل باريتو وتوكفيل ودوركيم وفيبر ، وجراهام والاس ، وكارل ماركس .

وقد اهتم هؤلاء بابداء الرأى فى مسائل الزعامة والبيروقراطية والاقتصاد والرأى العام واتخاذ القرار والعمليات السياسية ووسائل الاتصال مما أتاح الفرصة لقيام فرع خاص من علم الاجتماع يطلق عليه علم الاجتماع السياسى .

وقد ظهر بعد الثورة الفرنسية مفكرون كثيرون مثل سان سيمون وغيره ناقشوا كيفية اعادة تنظيم المجتمع على أسس اشتراكية .

٧ ــ العلاقة بين الفلسفة وعلم الاجتماع والاصلاح الاجتماعى

وبتأثير الأفكار الاشتراكية والافكار التى تنادى بالأصلاح الاجتماعى واعادة تنظيم المجتمعات الانسانية قامت فرصة الخيار بين الدعوة إلى مناقشة العلاقة بين علم الاجتماع والفلسفة من جانب أو الدعوة إلى اصلاح المجتمع من جانب آخر ، وكانت فرصة لاثارة الجدل والحوار بين أنصار الغموض الاكاديمى والدعوة التى تطالب بتطبيق الأفكار تطبيقا علميا .

٨ ــ أوجست كونت وظهور علم الاجتماع

بدأ علم الاجتماع كعلم متميزا عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية منذ عهد أوجست كونت . فهو الذى اطلق لاول مرة على الدراسة التى تدرس المجتمع دراسة علمية علم الاجتماع ولذا يشار اليه فى أوربا بأنه مؤسس علم الاجتماع . وكان لاوجست كونت صفات كثيرة مثل تلك الصفات المثالية التى يشترط ان تكون متوافرة لدى كل عالم اجتماع كما كان مطلعا اطلاعا وافيا على اعمال الكتاب السياسيين الكلاسيكيين منذ عهد افلاطون .

ولم تكن اعمال اوجست كونت مجرد اسهام فى نشأة علم الاجتماع رغم انه اكتشف النظرية الاجتماعية الاساسية ودرس المجتمع فى حالة السكون والتغير . وكذلك ابدع اسم العلم نفسه (علم الاجتماع) مميزا موضوع العلم الجديد عن العلوم الاجتماعية الاخرى ولكنه درس الانسانية ككل.وإذا كانت افكار اوجست

كونت قد قبلت فى عصره واعتبر استاذا أو مؤسسا للعلم فإن افكاره اصبحت موضع تساؤل فى يومنا هذا .

٩ ــ آراء أوجست كونت الاساسية فى علم الاجتماع :

قانون الحالات الثلاث :ــ

اشار كونت إلى التطور العقلى فى تاريخ المجتمع الانسانى عبر مراحل ثلاث هــى :ــ

ـ **المرحلة الاولى** : (المرحلة الخرافية) : وتفسر الظواهر الطبيعية فى تلك المرحلة فى أطار القوى التى تفرضها الأرواح والالهة أو القوى نفسها ومثال ذلك فكرة المانا عند الشعوب البدائية .

المرحلة الثانية : (المرحلة الفلسفية) : أو مرحلة الفكر المجرد التى ترتبط فيها المثل عن الاشياء والمجردات التى توجد فى عقول الافراد بالواقع . وينظر إلى القوى المجردة باعتبارها قوى كامنة داخل الاشياء نفسها وإليها يرجع السبب الأول للظواهر المختلفة .

المرحلة الثالثة : (العلمية) والتى تفسر فيها الظواهر استنادا إلى مبادىء علمية . ولكن لماذا يمر تطور المعرفة بهذه المراحل الثلاث بالتحديد ــ يجيب كونت بأن هذه هى طبيعة العقل الانسانى « فالعقل الانسانى بطبيعته يمر أينما يعمل عبر ظروف نظرية ثلاث ... وهذا أمر رائع ... »

وتعبر الانسانية أو الشخص هذه المراحل أو التجارب الثلاث اثناء تطوره من الطفولة إلى الرشد ومن الممكن أن توجد هذه الحالات الثلاث فى العقل الانسانى مثلما توجد معا فى المجتمع الانسانى فى الوقت نفسه .

وقد وضع اوجست كونت علم الاجتماع على قمة بناء الفكر الانسانى وجعله آخر العلوم التى توصل اليها الانسان . فهو العلم الذى يعبر عن وصول العقل الانسانى إلى الذروة ويعبر عن بداية فهم الانسان لنفسه .

وقد اعتقد اوجست كونت أن التصنيع مرتبط بالمرحلة الوضعية فى التطور الانسانى فى مقابل المرحلة الخرافية التى ترتبط بالعبودية أو الفروسية . ويؤدى تطبيق العلم الوضعى على المسائل الانسانية بالضرورة إلى تقدم الانسانية نحو مجالات السلام والوفرة فى الأقتصاد وخصوبة الفكر الانسانى . ويهتم العلم الوضعى بالحقائق التى تخضع للمشاهدة والملاحظة فى مقابل العلم المعيارى ، أى علم الاخلاق الذى يدرس المعايير ومستويات السلوك .

كونت والوضعيه :

لقد كتب اوجست كونت تاريخ التفكير العلمى الذى احتل فيه علم الاجتماع الذروة . وقد اشار اوجبست كونت إلى ان علم الاجتماع هو الدراسة الوضعية لمجموعة القوانين الاساسية التى تفسر الظواهر الاجتماعية ، ومن ثم فهو أعقد العلوم رغم أنه احدثها . كذلك فرغم أن المنهج العلمى وسيلة فانه ايضا غاية .

الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية

وقد قسم كونت علم الاجتماع إلى فرعين الأول علم الاجتماع الاستاتيكى والفرع الآخر علم الاجتماع الديناميكى .

ويقتضى علم الاجتماع الاستاتيكى دراسة الوسائل التى ترتبط بها الظواهر الاجتماعية مثل ان يلاحظ المرء بناء الأسرة فى مراحل مختلفة من التطور . كما يلاحظ علاقة نسق الاسرة بالانساق الاخرى المكونة للبناء الاجتماعى فى هذه المراحل . بينما تهتم الديناميكا الاجتماعية بالتقدم ، ويعد قانون الاحوال الثلاث قانونا اساسيا للتطور والتقدم .

من الاهمية أن نتعرض لاهمية اعمال اوجست كونت فى الفكر السوسيولوجى . ورغم ان دراسات كونت تعد اليوم دراسات عامة فى موضوعها ومجرد تاريخ . إذ كانت تبغى تحقيق شىء مايعد اليوم غامضا . ومن الصعب ان يصاغ فى شكل منطقى محدد يتقبله ابناء هذا الجيل . ومهما كان الجدل حول

اثاره ومهما كان النكران والرفض لجهوده فالأمر المسلم به أن كونت يعد اتجاها جديداً فى التفكير الاجتماعى ، كما أنه هو الذى حدد اتجاه هذا العلم الجديد .

ان تأكيده على الحاجة إلى دراسة الظواهر الاجتماعية وعلاقتها بالظروف التى تحدث فيها موضوع له أهمية أساسية فى ابحث الاجتماعى المعاصر . وقد اعطى ذلك التأكيد للبحث الاجتماعى اتجاها جديدا ، إذ تحول الاهتمام من الفلسفة الاجتماعية إلى علم الاجتماع . كما كان تمييزه — الاستاتيكا الاجتماعية — أى الظروف البيئية للمجتمعات — عن الديناميكا الاجتماعية — أى عمليات تغير المجتمعات — أهمية مماثلة فى العلوم الاجتماعية عامة والسلوكية خاصة . وقد تفوق كونت على سابقيه عندما ميز بين علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة السياسية والتى كانت محور اهتمام الفلاسفة الاجتماعيين منذ أفلاطون . فمنذ كونت ظهر علم المجتمع وعرف اهمية استخدام المنهج العلمى فى دراسة المجتمع .

ومهما تكن أهمية الاعتراضات والمناقشات التى توجه إلى اعمال كونت فانها تدل على تأثيره فى الاتجاهات المعاصرة وأنه يحتل مكانا مميزا فى تاريخ الفكر الاجتماعى .

زيادة الشعور الذاتى بالحياة الاجتماعية

بعد كونت اصبح الأنسان الاوربى واعيا بحقيقة المجتمع ومشكلاته ككل بطريقة اكثر تحديدا وتمييزا عما كان متبعا من قبل . ويرجع ذلك إلى مجموعة من التطورات صاحبت افكار كونت :—

أ — التقدم التكنولوجى للثورة الصناعية .

ب — النتائج الاجتماعية لانتشار التصنيع التى قدمها المصلحون والاخصائيون الاجتماعيون فى مجهوداتهم لحل المشكلات المترتبة على التصنيع .

ج — التقدم الكبير فى العلوم البيولوجية وظهور نظرية التطور الداروينية وماستتبع ذلك من مناقشات وردود افعال اثرت على المعتقدات .

د — التقدم الهائل فى وسائل النقل والاتصال وازدياد استخدامها .

هـ ـ تنظيم العمل داخل النقابات .

و ـ التدهور الاقتصادى فى الثلاثينات من هذا القرن .

وقد أدت كل هذه العوامل إلى ظهور مجتمع انسانى اكثر وعيا بذلك ويهتم بغايات الجماعات ووسائل عرضها اهتماما زائدا عما كان يحدث من قبل .

١٠ ـ الدراسات السوسيولوجية :

أ ـ ولقد ظهرت خطوط عريضة متعددة داخل مجال الدراسات الاجتماعية . وقد استفاد الباحثون فى مجالات معينة بالنتائج التى توصلت اليها علوم اخرى . مثل النتائج التى توصل اليها علم النفس والانثربولوجيا عند دراسة ثقافات المجتمعات البدائية والاتجاهات الاجتماعية لهؤلاء الناس . وقد استنتج مالينوفسكى من دراسة مجتمع ميلانيزيا فى غينيا الجديدة ان التقاليد والعادات والادوات المستخدمة فى المجتمع تنظم حول وظيفة محددة مثل الدين أو الأقتصاد فى هذا المجتمع ، ويعرف هذا المدخل باسم الوظيفية .

ب ـ وقد قام بعض الباحثين بدراسة جوانب معينة فى المجتمع مثل دراسة الانتحار أو تقسيم العمل أو الرأسمالية أو الهجرة .

ج ـ درس آخرون ثقافات معينة فى بيئات محددة . وفى مصر هنا درست بلاد النوبة والوادى الجديد والبدو فى الصحراء الغربية كما أعد حامد عمارة دراسته المشهورة عن التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا بمحافظة اسوان كما درس عاطف غيث قرية قيطون وكلها دراسات اهتمت بدراسة ابنية جزئية .

د ـ لجأ بعض الباحثين إلى الرؤية العريضة الشاملة للحياة فى المجتمع ككل من اجل الوصول إلى حقائق اجتماعية عامة ويدرس هذا الاتجاه علم الاجتماع باعتباره الدراسة الوضعية للقوانين العامة الاساسية المرتبطة بالظواهر الاجتماعية .

١١ ـ المدرسة الوضعية والمدرسة الشكلية فى علم الاجتماع :ـ

وكان لاهتمام علماء الاجتماع الاوائل بعلم الحياة وبتأثير اعمال داروين والفريد والاس عن اصل الانواع ونظرية الانتخاب الطبيعى اثره فى اهتمام علماء اجتماع كثيرين باجراء المقارنة بين الكائن العضوى والمجتمع واستعملوا مفهومات مثل اعضاء المجتمع وتمايز اعضائه .

ويعد هربرت سبنسر ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ من أبرز علماء الاجتماع فى هذا المجال وتأثر بافكار هيوم وكانت وميل ، ووسع فكره التطور لتشمل كل الاشياء وكل الموجودات والظواهر إلا أنه فهمها فهما ميكانيكيا ـ وكان من انصار اصحاب العمل ، واعداء الاشتراكية . وقد كتب لنا كتاب مبادىء علم الاجتماع فى ثلاثة اجزاء اتمها فى ثلاثة وثلاثين عاما وقد استمد شواهده من علماء الاحياء والانثربولوجيا واستخدم مفهومات مثل التعقد والتمايز والتكامل لوصف المجتمع الانسانى ، كما يؤدى تمايز الوظائف فى المجتمع وازدياد الحركة الوضعية والسيطرة العلمية على البيئة الانسانية إلى انتاج اكبر وازدياد وقت الفراغ واهتمام اعظم بالمثل .

وكان لاعمال سبنسر تأثير كبير فى امريكا حيث استخدم سمنر مفهومات مثل العادات الشعبية أى العادات الاجتماعية والتقاليد والسنن لتبرير رؤية فلسفية لمجتمع يتميز بالاقدام الجرأه وهى الطابع المميز لامريكا بفضل التنافس والاقتصاد الحر والتقدم التكنولوجى للمجتمع .

١٢ ـ المدرسة الشكلية :

وثمة مدرسة أخرى قامت على فكرة اشكال العلاقات الاجتماعية وقد طبق عالم الاجتماع الالمانى جورج زيمل فلسفة الفيلسوف كانط على مشكلات المجتمع وكتب لنا عن اشكال العلاقات الاجتماعية وقد بحث عن العلاقة بين الفرد والمجتمع ودرس اشكال العلاقات الاجتماعية مثل التنافس والخضوع وتقسيم العمل وبين انها توجد فى كل المجتمعات . وقد تتبع ماكس فيبر افكار هذه المدرسة وكتب عن النموذج

المثالى للمجتمعات.وعندما نصف الانماط المثالية نستطيع أن نصل إلى إساس للمقارنة بين المجتمعات فثمة انماط مثالية مثل النمط الرأسمالى والنمط الاشتراكى والنمط الاسلامى والنمط البروتستانتى.

١٣ ـ الوظيفـة :

يعد دوركيم رائد المدرسة الوظيفية رغم انه يوصف بانه كان عميقا وشموليا حتى انه يعد واحدا من أهم المفكرين السوسيولوجيين فى القرن التاسع عشر وهو يرتبط فى كتاباته بالمدرسة العضوية وبهؤلاء الذين يرون أن علم الاجتماع تركيب من العلوم الاجتماعية كلها .

ومهما كان المنظور الذى ننظر منه إلى المجتمع فالمجتمع يتكون عادة من مجموعة من الاجزاء المترابطة والمتساندة . وهناك من يرى أن المجتمع بناء معقد مركب من الجماعات والافراد الذين يتماسكون سويا فى شبكة من العلاقات الاجتماعية . وهناك رؤية اخرى ترى المجتمع باعتباره نسقا من النظم المترابطة معا ويستند كل منها على الآخر . بيد أنه من خلال المنظورين ينبغى أن يدرك المجتمع باعتبـاره كلا وظيفيا ، وبوصفه نسقاً . وأحيانا مايمثل المجتمع بالكائن الحى كما ينبغى أن ينظر إلى العناصر المختلفة التى يتكون منها المجتمع فى علاقاتها بالكل وبعيدا عن الكل تفتقد هذه المكونات اهميتها . فهذه العناصر تعمل ويؤثر كل منها فى الآخر ، وتستجيب لتأثيرات الآخرين وتتوافق بطرق مختلفة مع التغيرات التى تحدث فى العناصر الاخرى التى يتألف منها المجتمع . ومن المهام الاساسية لعلم الاجتماع تفسير وظائف المجتمع وتوضيح العلاقات بين الاجزاء والكل والعلاقات بين الاجزاء نفسها . ولما كانت الابنية الاجتماعية والانساق الاجتماعية ايضا متغيرة فمن الضرورى أن نتتبع ونفسر تطور هذه الابنية والانساق .

وقد ظهر مفهوم الوظيفية الاجتماعية فى السنوات الحديثة ليلعب دورا هاماً ومتزايداً فى اداء تلك المهام السوسيولوجية وكما اشار روبرت ميرتون فالوظيفة مفهوم ليس جديدا وليس مقصورا على العلوم الاجتماعية فهذا المفهوم يحتل وضعا هاما

فى علم الاحياء وعلم النفس والفيزياء والعمارة . وقد تطور مفهوم الوظيفة فى العلوم الاجتماعية بطريقة غير منظمة ومثل مفهومات اخرى كثيرة فى علم الاجتماع فقد عدل مفهوم الوظيفة الاجتماعية مرات ومرات منذ أن ظهر لاول مرة فى كتاب دوركيم « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » .

ولكن الافتراض الذى يقوم عليه مفهوم الوظيفة ومؤداه ان الظواهر يجب ان ينظر اليها فى اطار التفاعل والترابط بدلا من النظر اليها كظواهر منفصلة ــ ظل باقيا ثابتا دون تغير .

ويدل مفهوم الوظيفة على التتابع الموضوعى لظواهر اجتماعية يمكن ملاحظتها والظواهر التى يهتم بها هى تلك التى ترتبط بالمفهومات التى عرضنا لها مثل الانماط الثقافية والنظم والادوار والمراكز والعلاقات الاجتماعية . ومن ثم فاى عنصر منتظم أو مقنن يمكن ان يخضع للتحليل الوظيفى . كما أن النتائج الموضوعية التى نهتم بها هى تلك التى ترتبط بالبناء الاجتماعى والانساق التنظيمية .

وعلى المستوى الأكثر عمومية تدل الوظيفة على مدى اسهام اى عنصر اجتماعى أو ثقافى فى بقاء المجتمع واستمراره وتكامله واستقراره . وعلى سبيل المثال فان وظائف الاسرة فى كل المجتمعات تشمل انجاب الاطفال وضمان بقائهم والتنشئة الاجتماعية للصغار والعمل على توحدهم بقيم المجتمع وتعويدهم على احتلال المكان المناسب فى البناء الاجتماعى . وقد اتسع استعمال مفهوم الوظيفة ليشمل اشباع حاجات الافراد مثل الحاجة إلى الطعام والمأوى والاشباع الجنسى والاشباع العاطفى . وتكمن الخطورة فى اتساع معنى الوظيفة فى حقيقة أن كل المجتمعات تركز تنظيمها الاجتماعى إلى حد ما من اجل اشباع هذه الحاجات وهكذا فالاسرة توفر عادة وسائل متفق عليها لاشباع الحاجات الجنسية وتدبر امكانية تحقيق تجارب نفسية هامة .

وقد لازم تحليل وظائف النظام والبناء الاجتماعى ككل جهود مستمرة لتعريف اللزوميات الوظيفية وتحديدها ، اى تحديد تلك العناصر التى هى ضرورية لوجود

واستمرار اى مجتمع.وقد عرف الاجتماعيون هذه اللزوميات بطرق مختلفة رغم انهم اتفقوا على ان كل مجتمع ينبغى ان ينهض بأعباء الانجاب البيولوجى . وضمان البقاءوالاستمرار وتنشئة الاعضاء الجدد وتدريبهم على اداء الادوار الاجتماعية باستمرار وتأكيد درجة ادنى من النظام الاجتماعى وبجانب هذه المطالب الاجتماعية اثار البعض موضوع اللزوميات الوظيفية والتى أثير حولها بعض الخلاف ومن ثم فان اهمية تعريف اللزوميات الوظيفية يسهم إلى حد ما فى محاولة تفسير وجود نمط ثقافى أو بناء اجتماعى مثل الاسرة والحكومة والاقتصاد وربط هذه الانماط مع الحاجات الاساسية التى تهدف اشباعها . فالاسرة تظهر فى اشكال متعددة فى كل المجتمعات بالرغم من انها تشبع حاجات ضرورية فى الحياة الاجتماعية .

ويرى ايلى شنوى انه على الرغم من اهمية محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية استنادا على اللزوميات الوظيفية التى تلبيهاوتشبعها فانه يؤكد ان هذه النظرة تتضمن اخطاراً جديرا بالملاحظة . فالمفهومات كما نعرف تركز الاهتمام على بعض الظواهر وتغفل ظواهر اخرى . أو تؤكد على جوانب معينة عند دراسة الظواهر وتستبعد مسائل اخرى من مجال الدراسة والملاحظة . وفى الوقت نفسه فرغم انها تحدد اهتمامنا فانها قد تضيق من مجال الرؤية . وتلك حقيقة تقود إلى عمل لاينتهى بالنسبة لصياغة المفهومات وتحسينها . وقد يقود الاهتمام باللزوميات الوظيفية واهميتها فى استمرار وبقاء المجتمعات وبالوظائف العامة للنظم والبناء الاجتماعى إلى اهمال الوظائف الاخرى لعناصر اجتماعية وثقافية . فالاهتمام باسهام الدين فى الاستقرار الاجتماعى مثلا دفع علماء كثيرين إلى اهمال التأثيرات المتكررة التى تثير الخلاف بسبب الدين . وبالمثل فان الاهتمام بتحليل الحكومة كنسق تنظيمى من وظائفه الاساسية تأكيد النظام الاجتماعى قد يؤدى إلى اهمال النظام وهل هو شمولى أم ديمقراطى وهل هو تقليدى ام عقلانى وهل هو مجتمع طبقة أم مجتمع يقوم على المساواة والعدل .

ان تحليل وظائف اى عنصر اجتماعى أو ثقافى ينبغى ألا يتضمن اسهام هذه العناصر فى النظام العام الكلى فقط بل انه يتضمن ايضا نتائج ذلك على جماعة

معينة أو نظام معين داخل المجتمع مثل دراسة تأثير العمل على الأسرة والمشاركة فى الحياة الاجتماعية .

الوظائف الكامنة والظاهرة :

ومن الأهمية بمكان عند دراسة وظائف النظم الاجتماعية أن نميز بين الأغراض او الاسباب المناسبة لوجودها وبين النتائج الموضوعية التى تنشأ عنها . فالسبب والنتيجة لايتطابقان تماما فإذا كنا نشترى الملابس لحمايتنا من برد الشتاء فانها تحدد ايضا مركزنا الاجتماعى فى المجتمع ومثلها فى ذلك مثل انشطة اخرى كثيرة نقوم بها لاسباب شخصية . ومن ثم فمن الضرورى ان نميز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة . فالوظائف الظاهرة هى تلك النتائج الموضوعية السائدة فى المجتمع أو فى اى قطاع منه وهى نتائج معروفة مقصورة على الأشخاص الذين يرتبطون بها اما الوظائف الكامنة فهى تلك النتائج المجهولة وغير المقصودة .

كذلك فالفصل بين الوظائف الظاهرة والكامنة ليس محددا أو متعذرا أو حتميا فالنتائج الكامنه للفعل يمكن ان تكون ظاهرة احيانا ، ومن ثم فان احد الاهداف الاساسية للتحليل السوسيولوجى ان نوسع من فهمنا ومن سيطرتنا على الحياة الاجتماعية الجمعية مما يجعلنا واعين بالنتائج المتشعبة للخطوط المتعددة للفعل .

ان التمييز بين النتائج المعروفة والمقصودة للفعل والعقيدة وبين النتائج غير المتوقعة وغير المدركة ليس جديدا فى العلوم السلوكية ولايرتبط بعلم الاجتماع وحده بالرغم من أن معناه الظاهر يرتبط بتاريخ معاصر نسبيا . وتكمن أهمية الصياغة الواضحة فى أنها تقودنا إلى اكتشاف منهجى فى كل حالة للنتائج غير الملحوظة للنظم والمعتقدات واشكال التنظيم وكما اشار ميرتون فاختبار الوظائف الكامنة للانماط الاجتماعية غير المعقولة مثل السحر والخرافات يمكننا من ان نشرح مكانتها واستمراريتها وبالمثل فاستمرار انماط الفعل غير المقبولة اجتماعيا مثل الفساد السياسى والخرافات والمضاربات الاجتماعية والدعارة يمكن أن يفسر بالرجوع إلى الوظائف الكامنة والظاهرة لهذه الظواهر السائدة فى المجتمع . وقد اشار البعض إلى ان

المساهمة الفكرية المميزة لعلماء الاجتماع تكمن اساسا فى دراسة النتائج غير المقصودة ومن بينها الوظائف الكامنة لطريقة معينة مثلما ندرس النتائج المتوقعة والتى من بينها والوظائف الظاهرة .

الاحباط الوظيفى :

ولايتقبل اعضاء المجتمع ككل او قطاعات مختلفة منه دائما النتائج الصادرة من انماط تنظيميه خاصة أو المتصلة بأبنية اجتماعية معينه . ان التحديد غير الرسمى للانتاج من العمال فى المصنع قد يؤدى إلى نتائج هامة بالنسبة للعمال ولكنه من جهة اخرى قد يحد من كفاءة الاجراءات الصناعية .

ولكى نركز اهتمامنا على النتائج السلبية للانماط الاجتماعية ، استخدم الاجتماعيون مفهوم الاحباط الوظيفى . ويدل الاحباط الوظيفى عادة على تلك النتائج التى تقلل من تكامل المجتمع واستقراره ككل أو أى قطاع منه أو تقلل من امكانية بقائه واستمراره .

ويتوقف التحديد الوظيفى على توضيح المدى الكامل لنتائج اى نمط تنظيمى أو البناء الاجتماعى أو قطاع منه سواء الكامنة والواضحة والايجابية والسلبية اى الاحباط الوظيفى . وفى هذا النمط من التحليل من الضرورى أن نأخذ فى الأعتبار البيئة التنظيمية والمحتوى البنائى الذى يحدث فيه نمط اجتماعى معين ومادامت نتائج نمط معين قد تختلف عن نتائج أخرى تحدث فى بيئات اخرى فالتأكيد على تقدم الفرد فى مجتمع يتغير بسرعة قد يسهل التنمية الاقتصادية ويشجع التجديد والخلق . وبالمثل فالتأكيد على تقدم الفرد فى مجتمع مستقر نسبيا يوفر فرصا محدودة لأفراده قد يؤدى إلى وسائل غير مشروعة واحباطات كثيرة ولكى نصيغ هذه النقطة فى اطارها التاريخى فان الانماط التنظيمية والابنية الاجتماعية قد تستمر فى شكل ثابت نسبيا بينما تتغير وظائفها المرنة استجابة للتغير المستمر والخصائص المرنة التى تميز المجتمع الانسانى .

١٤ ــ اهم افكار دوركيم

أ ــ وقد قسم دوركيم علم الاجتماع إلى ثلاثة اقسام :

١ ــ المورفولوجيا الاجتماعية وتدرس البيئة التى يعيش فيها الناس وعلاقة البيئة بانماط التنظيم الاجتماعى وتهتم بمشكلات مثل توزيع السكان .

٢ ــ الفسيولوجيا الاجتماعية : وتدرس الفروع المختلفة لعلم الاجتماع ويهتم كل فرع بمجموعة من الحقائق الاجتماعية مثل الاخلاق والقانون والاقتصاد .

٣ ــ علم الاجتماع العام وهو محصلة نتائج العلوم الاجتماعية الاخرى مثل الاقتصاد والنظم الاجتماعية بقدر مايحدد المقصود بالظواهر الاجتماعية . كما ينشد علم الاجتماع العام بحث ماإذا كان هناك اى قوانين عامة ترتبط بهذه الحقائق .

ب ــ يوجد المجتمع مستقلا عن الافراد الذين يكونونه .

ج ــ تتميز الظواهر الاجتماعية بانها عامة ولها صفة الالزام .

د ــ استخدم دوركيم البيانات الاحصائية لتدعيم دراساته عن التماسك الاجتماعى فى أهم مؤلفين له وهما الانتحار وتقسيم العمل .

ه ــ اوضح دوركيم ان سعادة الأفراد تؤكدها المعايير الاجتماعية المقبولة وإذا رفضت هذه المعايير عانت الشخصية الاجتماعية من التفكك اى من انحراف المعايير .

و ــ أوضح لنا دوركيم فى كتابه الصور الاولية للحياة الدينية العلاقة بين شخصية الفرد والنسق الاجتماعى .

ــ تأثير دوركيم :

وقد اثرت افكار دوركيم تأثيرا قويا على علم الاجتماع الفرنسى كما عم تأثيره على كل الاعضاء الرواد فى المدرسة الانجليزية والامريكية وكذلك تأثرت المدرسة الاجتماعية فى مصر منذ بداية تكوينها بآراء دوركيم . وقام بعض الاساتذة المصريين الرواد بترجمة بعض اعماله فترجموا كتابيه قواعد المنهج فى علم الاجتماع والتربية الاخلاقية إلى اللغة العربية .

وقد تبنى راد كليف براون ومالينوفسكى منهجه اثناء دراساتهم الوظيفية فى الانثربولوجيا كما اعترف بارسونز وميرتون وهما من أبرز علماء الاجتماع الامريكيين المعاصرين بفضله عليهما

١٥ ـ النزعة الوظيفية عند دوركيم :

وقد حدد دوركيم افكار سبنسر ـ اول من استعمل هذا المفهوم ـ تحديدا دقيقا جدا بتأكيده باننا إذا اردنا تفسير الظواهر الاجتماعية فانه يتعين على الباحث فى البداية ان يتكشف السبب الذى يؤدى إلى الظاهرة ثم يبحث عن الوظيفة التى تؤديها فى النشاط الاجتماعى .

وكان لتطبيق هذا التفسير الوظيفى نتائج هامة أهمها :ـ

أ ـ صعوبة تطبيق التفسير الوظيفى فى المجتمعات الصناعية رغم سهولة ذلك فى المجتمعات البدائية .

ب ـ استعمل ميرتون مفهوم الوظيفة والاحباط الوظيفى اثناء دراسة التغير .

ج ـ يمكن ان يستخدم مصطلح الوظيفة بطريقة ذاتية ومما يؤدى إلى الخلاف حول معناها الايديولوجى . فعدم المساواة الاجتماعية قد يؤدى وظيفة فى مجتمع معين رغم أن الحقيقة نفسها قد يختلف عليها عند انصار المساواة والذين يعتقدون ان الظلم الاجتماعى احباط وظيفى .

١٦ ـ الاقتصاد والمجتمع :

أولا : كارل ماركس :

أسهم كارل ماركس والفريد باريتو وماكس فيبر مساهمة جادة فى تأييد الجوانب الاقتصادية . رغم اختلاف مدخل كل منهم وعقيدته وقد يرى البعض ماركس عالم اجتماع بينما ينظر البعض الآخر باعتباره مؤرخا واقتصاديا واجتماعيا ورجل سياسة اكثر منه عالم اجتماع .

وقد فسر ماركس التاريخ تفسيرا ماديا واعتقد ان تطور المجتمعات تحدده

الحاجات الاقتصادية . وابدع لنا نظرية عن الصراع الطبقى دعمها بنظرية فائض القيمة التى يضيفها العامل إلى كل السلع التى ينتجها كما بشر بسيادة مجتمع البروليتاريا واختفاء الرأسمالية .

ورغم عدم تحقق نبوءة ماركس فان لكتابه رأس المال والمانيفستو أثرا قويا وخطيرا على الفكر السياسى العالمى وقدما اساسا فكريا للنين اثناء الثورة الروسية .

ثانيا : الفريد بارتيو :

عالم اجتماع ايطالى فرق بين ماهو عقلانى حقيقة ومايعتقد انه عقلانى ولكنه فى الحقيقة يقوم على اغلوطة منطقية .

أ ــ وقد اطلق على التبريرات اسم المشتقات كما اطلق على الحقائق التى وراءها اسم الرواسب .

ب ــ وقد تبين ان باريتو قد وقع فى شرك خطير خاص وقع فيه اغلب علماء الاجتماع المعاصرين عندما فهم مصطلحات مثل استمرار التراكمات ليصف اساليب التفكير المحافظة أو دورة الصفوه . ويقصد بالشرك الخطير صياغة كلمات وعبارات لتعرف مفهومات وتصورات إما صعبه جدا ليعبر عنها فى مصطلحات علمية محددة أو أن هذه المفهومات عاجزة عن التعبير عن المقصود منها . وهى كلمات وعبارات قد تعبر عن افكار بسيطة باسلوب صعب . ويبدو أن علماء الاجتماع عادة كما لو أنهم يحاولون بيأس أن يبرروا وجود علم الاجتماع باكتشاف معنى غامض لعلم الاجتماع .

الفصل الخامس
اسباب تطور علم الاجتماع المعاصر

١ ـ الاهتمام العلمى الزائد بالمشكلات الاجتماعية :

انبثق هذا الاهتمام نتيجة احداث عديدة اجبرت الرجال والنساء على ضرورة تفهم مشكلات المجتمعات التى يعيشون فيها ، وضرورة تمييز هذه المشكلات العامة عن المشكلات الشخصية . وأصبح معروفا أن هذه المشكلات الشخصية مثلها مثل مشكلات الجماعة ترتبط بالمشكلات القومية والمشكلات العالمية ولاتنفصل عنها بل أن المشكلات الأولى تترتب على المشكلات العالمية والقومية . وتبين المشكلات السوسيولوجية عادة تراكم العمليات والاسباب التى تؤثر فى الحياة الشخصية للرجال والنساء على مدى واسع .

٢ ـ التكامل العلمى :ـ

وقد شاهد القرن العشرون تتويج فترة التكامل العلمى والتى بدأت منذ نيوتن والتى استمرت اثناء الانجازات التكنولوجية فى العصر الحالى وتأثير ذلك على الطاقة والنقل والمواصلات وادوات الاتصال والصحافة وازدياد الفرص المتاحة لتكوين الثروات . وقد اظهرت النتائج الاجتماعية المترتبة على انتشار الصناعة عدم المساواة فى توزيع الثروات أو استعمالها فى صورة مشكلات مرتبطة بالسكان وتوزيعهم وبناء الطبقة والعلاقة بين العامل وصاحب العمل ومشكلات النسق السياسى .

٣ ـ المنهج العلمى فى البحث :ـ

وقد بدأ حديثا استخدام المنهج العلمى فى بحث ودراسة الظواهر والارتباطات بينها وصياغة الفروض واجراء التجارب لاختبار هذه الفروض عند تطبيق سياسات اجتماعية مخطط لها فى مجالات العمل التطبيقى التى يقوم بها الاداريون والمصلحون الاجتماعيون .

٤ ـ الموقف الاقتصادى والاجتماعى :ـ

لقد أعقب الحرب العالمية الأولى فترات من الكساد والبطالة بلغت ذروتها فى أزمة الثلاثينات ، كما أعقب الحرب العالمية الثانية حركات التحرير والاستقلال فى أسيا وافريقيا ودول امريكا اللاتينية وانتشرت المبادىء التى تطالب برفاهية الدولة مما دفع بعلم الاجتماع إلى قلب الحياة المعاصرة .

وقد أدت التغيرات التى حدثت فى الدولة وفى الأسرة وفى الأقتصاد وفى الأفكار الدينية والاخلاقية إلى الاهتمام بدراسة الجريمة واسبابها والحراك الاجتماعى والتنمية الاجتماعية والتنظيم السياسى للدولة وإلى طلب المزيد من اهتمام علم الاجتماع بدراسة المجتمع . هذا العلم الجديد الذى يعكس تحول التفكير فى قضايا المجتمع من مجرد تفكير فلسفى إلى الدراسة العلمية . ويتعين على العلم الجديد ان يحقق نتائج ذات أهمية عملية للرجل العادى إذا ماسعى هذا العلم إلى المزيد من الاحترام والتأييد كدراسة مناسبة لوسائل الحياة اليومية .

٥ ـ المكانة الاكاديمية لعلم الاجتماع فى مصر :

بدأ تدريس علم الاجتماع فى مصر ابتداء من عام ١٩٢٥ فى الجامعة المصرية وقد مر هذا العلم بعدة أطوار :

أ ـ . طور الاجتهادات الفردية .
ب ـ طور التنظيم .
ج ـ طور النضوج والتخصص .

ولكن هناك معوقات تعوق تقدم علم الاجتماع فى مصر سواء على مستوى التدريس فى الجامعة أو على مستوى مراكز البحوث الاجتماعية ومن هذه المعوقات .

أ ــ عدم وجود هيئات أو مؤسسات مصرية صميمة تضطلع بمهمة تمويل البحوث فى مصر وفق سياسة مصرية .

ب ــ عدم وجود فريق من المتخصصين من جامعى البيانات .

ج ــ نفور قمة الجهاز الادارى من البحوث الاجتماعية وعدم ايمانه بجدواها .

د ــ البيانات الرسمية غير دقيقة مما يعوق مهمة الباحثين .

ه ــ قلة المهارات بين الباحثين وضعف ارتباطهم بالواقع الاجتماعى .

و ــ كثرة التأليف فى المقدمات والمداخل والنظريات مع تجاهل تام لكل الدراسات التى تهتم بالمجتمعات المحلية .

ز ــ عدم التزام علماء الاجتماع فى مصر وكل بلدان العالم الثالث بقضايا مجتمعهم .

ح ــ عدم ملائمة النظرية الغربية للتطبيق فى مجتمعنا .

٦ ــ النظريات المعاصرة فى علم الاجتماع :

ان البحث عن نظرية تفسر المجتمع ابتداء من البحوث التأملية فى الطبيعة النفسية للشعوب إلى البحث فى الشعوب والناس والعادات والمعتقدات والطبقات امر ذو قيمة لفهم المجتمعات الانسانية والتأثير على عملية التغير .

٧ ــ علم الاجتماع والفروق القومية :

بدأ علم الاجتماع بدايته الحديثة فى فرنسا على يد أوجست كونت ثم دوركيم ثم عم العلم الجديد العالم كله وذاع نفوذه فى امريكا بعد ازدياد قوة الولايات المتحدة فيما بين الحربين واهتمام الامريكيين بتصنيف المجتمعات وتتبعهم ومراحل تطورها إلى مجتمعات صناعية وريفية وحضرية من جهة ومجتمعات حديثه ومجتمعات تقليدية من جهة أخرى كما درسوا معوقات التنمية .

ويرى لازرفيلد ان اجراءات البحث التجريبى تتأثر بالوسط الثقافى سواء أكان اكاديميا أو قوميا . ومن ثم تعالج الموضوعات معالجة مميزه ترجع إلى الاهتمام الاكاديمى للبحث والاتجاه القومى تجاه قضايا معينة سائدة فى المجتمع . ولهذا يرى لازرفيلد أن الاختلافات المحلية تلون البحث السوسيولوجى فى كل بلد ، مادام البحث السوسيولوجى يتصدى لقضايا قومية ملحة واضعا فى الأعتبار التغيرات التى تمر بها مجتمعاتنا والاختلافات القومية بين الحضارات الانسانية .

والاختلافات النوعية فى علم الاجتماع يحددها تباين اهداف البحوث والاختلافات فى مضمون البحث .

فالاهتمام السوسيولوجى فى الهند ينحصر فى المشكلات الطائفية على حين نجده فى اليابان يسعى إلى فهم التغيرات التى حدثت فى انساق القرابة التقليدية تحت تأثير التصنيع . كذلك يهتم عالم الاجتماع فى ايران بالتغير الاجتماعى . إما فى اندونيسيا فيدرس اهداف التنمية الاجتماعية . كذلك يهتم علماء الاجتماع فى ايطاليا بمشكلات الصراع الدائر بين سكان الشمال والجنوب ومايصاحب ذلك من مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية .

كذلك تؤثر الخصائص الثقافية على طرق البحث التى يستخدمها علماء الاجتماع ففى باكستان تقف الامية عقبة أمام فهم المبحوثين للاصطلاحات . وهذا يفسر شيوع الملاحظة بالمشاركة في الدول النامية أو المزج بين طريقة علم الاجتماع والطريقة الانثربولوجية . وكذلك يتأثر علم الاجتماع بالتراث الفكرى فى المجتمع سواء كان مصدر هذا التأثير الدين أم الفلسفة أو القانون كذلك فتعقد كلمة أدوات البحث الاجتماعى والنقص فى عدد الباحثين من معوقات البحث فى كل الدول النامية .

٨ ــ تالكوت بارسونز :ــ

يعد بارسونز عميد علم الاجتماع الامريكى المعاصر وقام بتحليل الحركات والنزعات التطورية التى أدت إلى ظهور الدولة الحديثة التى تحقق الكفاية .

واوضح مثال فى نظره لتلك الدولة الولايات المتحدة الامريكية .

وقد نشر بارسونز فى عام ١٩٦٤ مقاله المشهور « عموميات التطور فى المجتمع » ويكشف عنوان البحث عن الخطوط الرئيسية فى تفكيره واستنادا على مبادىء وتحليل الفعل الاجتماعى . وقد صنف بارسونز السلوك على أساس دوافع الفاعل الاجتماعى فى الموقف .

وقد اهتم بارسونز بالتحليل الوظيفى وقد بين انه ثمة اربع لزوميات اجتماعية تقابل البحث ليستمر النسق الاجتماعى فى أدائه لوظائفه وهى :ـــ

أ ـــ ادراك الهدف .
ب ـــ التوافق .
ج ـــ التكامل .
د ـــ نمط المحافظة .

ومن خلال هذه اللزوميات أو المطالب تتكون التنظيمات الاجتماعية وتحافظ على وجودها وتؤدى وظائف معينة مثل الوظائف السياسية .

وقد ظل بارسونز يؤكد ضرورة وضع نظرية منهجية عامة للسلوك البشرى وهو يعتبر وضع نظرية مجردة دليلا أساسيا على نضوج أى علم من العلوم سواء العلوم الطبيعية أو السلوكية . وذلك لأن مثل هذه النظرية تسهل الوصف والتحليل والبحث الامبريقى . وهو يرى أن نظرية علم الاجتماع ينبغى أن تكون وظيفيه بنائية .

وهو يرى أن الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع هو الفعل الاجتماعى ويقصد بالفعل الاجتماعى كل سلوك اجتماعى ارادى فى الموقف . ويقدم لنا بارسونز فى كتابه بناء الفعل الاجتماعى نظرية بالغة التعقيد .

وينطوى اطار الفعل على الفاعل والموقف وتوجيه الفاعل ازاء الموقف . وتنقسم هذه التوجيهات الدافعية إلى ثلاثة اقسام ايضا :ـــ

أ ــ توجيهات دافعية ادراكية .
ب ــ توجيهات دافعية انفعالية .
ج ــ توجيهات دافعية تقويمية .

اما التوجيهات القيمية فتشير إلى مراعاة بعض المعايير أو المستويات الاجتماعية على خلاف الاحتياجات التى تمثل بؤرة التوجيهات الدافعية وهناك أيضا طرق ثلاثة للتوجيهات القيمية هى الادراكية والتقديرية والاخلاقية .

ويمثل هذا المخطط خلفية تشيد ثلاثة انساق تحليلية هى النسق الاجتماعى ونسق الشخصية والنسق الثقافى . ويؤكد بارسونز انه على الرغم من أن هذه الانساق الثلاثة تمثل تجريدا من السلوك الاجتماعى الملموس إلا أن الشواهد الامبريقية على الأنواع الثلاثة من التجريد ليست على نفس المستوى .

كذلك يعطى لنا بارسونز معان مختلفة للنسق الاجتماعى فمرة يعرف النسق بانه مجموعة من الافراد العاملين الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض . ثم يعرفه فى مكان آخر بأنه شبكة من العلاقات القائمة بين الفاعلين أو شبكة من العلاقات التفاعلية كما يعرف مرة ثالثة بأنه مجموعة من الشخصيات المتفاعلة يميلون إلى الإشباع الامثل لاحتياجاتهم إما العلاقات السائدة بين أفراد هذه المجموعة فتتخذ شكلها طبقا لنسق من الانماط المركبه والمشتركة ثقافيا . وهذه التعريفات المختلفة تثير تساؤلات متباينة عن مكونات النسق وهل هى العلاقات الاجتماعية أم الافراد الفاعلين أنفسهم .

كذلك ينظر بارسونز إلى الثقافة باعتبارها نتاجا من ناحية وكعامل محدد من ناحية اخرى لانساق التفاعل الاجتماعى الانسانى . وهو يؤكد ان الثقافة تنتشر وتتعلم كما أنها مشتركة بين الناس . وهذه الانماط الثقافية متسعة ومنتظمة فيما بينها وتنسجم فى انساق الفعل .

والموضوع الآساسى الذى تدور حوله النظرية السوسيولوجية عند بارسونز هو اداء الابنية لوظيفتها . ويتطلب التحليل البنائى الوظيفى معالجة منهجية لمكانات

وادوار الفاعلين الذين يضمهم موقف اجتماعى معين وكذلك الانماط التنظيمية التى ينطوى عليها هذا الموقف .

٩ ــ الوظيفية والانثربولوجيين :ــ

يعتقد بعض علماء الاجتماع أن النظرية الوظيفية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمعات البدائية كما ظهر ذلك جليا فى دراسات دوركيم وراد كليف براون ومالينوفسكى . وتوضح لنا تلك الدراسات تأثير المنظور العضوى على الدراسات الاجتماعية . كما أن نتائج هذه الدراسات مثل تلك النتائج التى نحصل عليها من دراسة وظائف السحر فى المجتمعات البدائية يصعب تطبيقها على المجتمعات الحديثة . والنقد الأكبر الذى يوجه إلى النزعة الوظيفية هو امكانية تطبيقها على المجتمعات البدائية فقط دون المجتمعات المتقدمة .

وقد اعترض على قول راد كليف براون بأن وصف اصل اية عنصر اجتماعى واستمراره يفسر لنا النسق الاجتماعى ككل . كما بينت الدراسات الحديثة تركيز مالينوفسكى على أصل عناصر معينة واستمرارها مثل الطقوس واساليب السحر دون ان يبذل أية محاولة لحل مشكلة الاستمرار نفسها .

١٠ ــ روبرت ميرتون :

يدعى البعض ان عالم الاجتماع الامريكى روبرت ميرتون قد حرر النزعة الوظيفية من طابعها البيولوجى والانثربولوجى كما وضح ذلك فى كتابه النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى .

أولا : وصف ميرتون نتائج العناصر النمطية أو الافعال أو العادات على النحو التالى :

أ ــ تلك النتائج التى تساعد النسق الاجتماعى على مواجهة المطالب الداخلية والخارجية وتعرف تلك النتائج بالوظائف .

ب ــ تلك النتائج التى تقلل من توافق أو تكيف النسق الاجتماعى ويطلق على تلك النتائج مصطلح الاحباط الوظيفى .

ج ــ تلك النتائج التى لاترتبط سواء بالتوافق أو التكيف .

ثانيا : ميز ميرتون بين نوعين من الوظائف : الوظائف الظاهره والوظائف الكامنة . كذلك فالاحباط الوظيفى مثله مثل الوظيفة قد يكون ظاهرا أى أن نتائجه معروفة مقصوده وقد تكون الوظيفة أو الأحباط الوظيفى كامنة أى غير مقصودة أو مجهولة .

ثالثا : لاريب أن التمييز بين الوظيفة والاحباط الوظيفى ذو فائدة عند دراسة مشكلات التغير الاجتماعى بالرغم من صعوبة التقييم عمليا . فمثلا يصعب علينا أن نقيم وظائف النسق التربوى أو الاحباط الوظيفى لهذا النسق التربوى فى المدرسة الثانوية .

١١ ــ نظريات المدى المتوسط :

ولقد درس ميرتون ايضا وظائف التنظيم البيروقراطى والسلوك المتوقع من الموظفين ويهتم ذلك النوع من الدراسة بما اطلق عليه ميرتون نظريات المدى المتوسط .

وتقع تلك الدراسات فى موقع وسط بين الدراسات الكلية التى تدرس السلوك الانسانى فى عمومه والنظريات التى تهتم بمجالات محددة مثل جماعة محددة معينة كما فعل توماس عند دراسته للفلاح البولندى . وتحاول نظرية المدى المتوسط تفسير مجال محدد من مجالات النشاط الانسانى كما يشار عادة اليها باعتبارها نظرية مصغرة عن الواقع الاجتماعى .

ويرى ميرتون ان اكثر المداخل خصوبة فى السنوات الاخيرة هو البحث عن الحقائق استنادا على نظرية المدى المتوسط فهناك عدد كبير من المشكلات الاجتماعية التى تحتاج إلى الدراسة فهناك مشكلات ترتبط بالظروف الحالية والتى تشير إلى الاحباط الوظيفى للمجتمع مثل مشكلات المراهقة والامية وانحراف الاحداث والامراض المتوطنة وتعاطى المخدرات .

١٢ ـ نظريات الجماعات :ـ

قد اعطى علماء الاجتماع الامريكيون اهتماما متزايدا لدراسة الجماعات الاجتماعية سواء الجماعة الصغيرة أو الجماعة الكبيرة . ولعل أشهر هذه الدراسات دراسة هوثورن التى اجريت على عمال شركة الكهرباء عن روح الفريق وكذلك دراسة بيلز عن مشكلة التوازن فى الجماعات الصغيرة .

وكانت الدراسات التى ميزت بين جماعة المرجع وعضوية الجماعة التى يكتسب الفرد عضويتها من أهم الدراسات فى هذا المجال . ويقصد بجماعة المرجع تلك الجماعة التى يرغب الفرد فى التوحد بقيمها والانتساب اليها .

اما الجماعة التى يكتسب الفرد عضويتها فيقصد بها تلك الجماعة التى هو عضو فيها ولكنه لايرغب فى الأنتساب اليها والتوحد بقيمتها . ولاريب أن هؤلاء الذين ينتسبون إلى جماعات معينة تؤدى انماطا معينة من السلوك لايمكن ان يصدروا أفضل الأحكام على مغزى سلوكهم .

١٣ ـ السلوك الانحرافى :

السلوك المنحرف هو كل سلوك لايتوافق مع السلوك المقبول قبولا عاما فى الجماعة ومن السلوك الانحرافى اللامبالاة وعدم احترام الوقت والايمان بالسحر وسلوك المميز واستغلال الاخرين وتكفير الاخرين . وقد اهتم ميرتون بتفسير التباين فى معدلات السلوك المنحرف وحاول أن يتكشف كيف يمارس البناء الاجتماعى ضغوطا على الاشخاص فى المجتمع مما يدفعهم إلى آداء سلوك غير متوافق مع سلوك الاغلبية .

وقد استخدم مصطلح الانحراف عن المعايير ليعرف التفكك فى البناء الثقافى والذى يحدث عادة عندما يظهر انفصال خطير بين المعايير الثقافية والاهداف والقدرات المتفق عليها اجتماعيا والتى يحددها البناء الاجتماعى لكى يؤدى اعضاء الجماعة سلوكهم وفقا لها . كما أن المجتمع غير المستقر يفتقد المعايير المقبولة والمجمع عليها .

أ ــ والاهداف الثقافية هى تلك الأهداف الموضوعية والطموحة التى يشجع البناء الاجتماعى الفرد على الأقتداء بها .

ب ــ قد يقبل الفرد تلك الوسائل والغايات أو احداها وقد يحدث الانحراف عندما يرفض الهدف ويتمسك بالوسائل التنظيمية لبلوغ ذلك الهدف وهذا يؤدى إلى ظهور الانحراف فى شكل تقليدى طقوسى أما إذا رفضت الوسائل والغايات واستبدلت بها اهداف ووسائل جديدة فهذا هو التمرد .

ج ــ بين ميرتون ان المجتمع الامريكى المعاصر وصل إلى حالة من الانحراف عن المعايير بتأكيده على هدف معين مثل تجميع الثروة بينما لايصاحب ذلك تأكيد مماثل على وسيلة شرعية لانجاز هذا الهدف .

د ــ قد يرتبط الانحراف باحباط الرغبة .

١٤ ــ الصراع :

لايشبه المجتمع الكائن العضوى الذى تعمل اجزائه فى تناسق وانسجام . فثمة صراع يعانى منه كل فرد من أفراد المجتمع كما أشار فرويد . وهذا هو الصراع النفسى كذلك يحدث فى المجتمع مثلما يحدث للفرد . فقد يتكامل المجتمع ويحقق درجة من التكامل المرضى ليتقبل التغيير الاجتماعى دون أية ضغوط تهدد الاداء الوظيفى المتجانس .

أ ــ بيد أن ثمة صراعا بين العناصر التى تكون المجتمع والذى يهدد استقراره تهديدا خطيرا مثل الصراع الذى يحدث بين العمال وأصحاب العمل أو الصراع الذى يحدث بين أصحاب الأرض والفلاحين أو الصراعات بين البيض والزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية أو الصراع العربى الأسرائيلى أو صراع القيم بين الاجيال المتعددة فى المجتمع الواحد أو الصراع العراقى الايرانى .

ب ــ وبالرغم من ان الصراع الطبقى الذى تنبأ به ماركس قد لايعرفه مجتمعنا إلا أنه قد تحدث حالة من الصدام أو الاحتكاك بين اساليب التفكير أو اساليب الحياة بين الجماعات المختلفة .

ج ـ يؤدى نقص المعرفة ونقص القدرة التكنولوجية ونقص القوى التنظيمية وعدم الاتفاق بين اعضاء الجماعة على مكونات الحياة الطيبة إلى فشل جهود هؤلاء الذين يرغبون فى التطلع إلى مجتمعات جديدة .

الفصل السادس
صلة علم الاجتماع بالعلوم
الانسانية الاخرى

بعد أن عرضنا لطبيعة وموضوع علم الاجتماع باعتباره العلم الذى يدرس المجتمع دراسة علمية ، اصبحنا فى وضع يسمح لنا بأن نشير اشارة سريعة إلى العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الانسانية الاخرى . وأن نبين كيف أن موضوع علم الاجتماع يختلف عن موضوع العلوم الانسانية الأخرى . على الرغم من أنها كلها تهتم بالانسان والناس التى تعيش فى المجتمعات الانسانية . وكل هذه العلوم الانسانية تهتم بجوانب معينة من جوانب الحياة الاجتماعية ، فكل جانب فى هذه الحياة يهتم به علم محدد ، ولكل علم من هذه العلوم موضوعه المحدد ومجاله الخاص به . كذلك طرق البحث المميزة له . وهى علوم خاصة ، وهذه العلوم الخاصة التى ترتبط بعلم الاجتماع متعددة .

أولا : العلاقة بين علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد :

يهتم علم الاقتصاد بدراسة الاساليب التى تمكن الناس والحكومات من تدبير الحاجات الاساسية والضرورية لاستمرار الحياة. أما علم السياسة فيهتم بدراسة اشكال الحكومات . وقد تتباين اهتمامات الاقتصاديين فالبعض يهتم بالنظرية ويضع مسبقا احكاما عامة عن طريقة تأثير الاقتصاد على المجتمع . وقد صاغ بعض الاقتصاديين أنواعا من الافتراضات عن الطبيعة الانسانية وحاولوا أن يقيموا صورة عن العلاقات الاقتصادية ، وبينوا كيف أن العرض والطلب يرتبطان سويا وكيف تحدد الاسعار ، كما درسوا النظام النقدى ليبينوا العلاقة بين الاطراف المعنية مثل معدل الفائدة ودورة النقود . وكمية النقد المتداول ومستوى العمالة . وتماثل هذه الاعمال الدراسات التى قام بها بعض علماء الاجتماع الذين يهتمون بالقضايا

النظرية المجردة والذين يحاولون صياغة نماذج عن العلاقات الاجتماعية التى يتزايد تعقدها ويستدل على هذه النماذج من مقدمات بسيطة بقصد فهم العلاقات الداخلية لذلك المجتمع فهما واضحا .

ويرى جون ركس أن العلاقة بين علم الاقتصاد وعلم السياسة لها وضع خاص . فالاقتصاد والسياسة يهتمان بجوانب معينة من التفاعل الاجتماعى . ولهذا السبب يتعين اعتبارهما فرعين من علم الاجتماع نفسه ، كما يرى من الناحية العملية أن وجود علوم متخصصة للاقتصاد والسياسة كان امراً حيويا ، ذلك لأن نمو الدولة قد برر قيام القوة الشرعية داخل الأمة ، كما أن نشأة الانساق الاقتصادية المعقده يستهدف توزيع السلع النادرة واتاحة الفرصه لاستخدام سلع بديلة ، غير أن توزيع القوة وتوزيع الموارد الاقتصادية يمثلان مع ذلك جوانب كل مواقف التفاعل الاجتماعى ويختلفان من مجتمع لآخر . وإذا حاول علم الاجتماع أن يتجاهل هذه الجوانب لكى يحدد لنفسه ميدانا للدراسة مختلفا تمام الاختلاف فسوف يصبح عديم الجدوى .

ثانيا : علم النفس وعلم الاجتماع :

أما علاقة علم الاجتماع بعلم النفس الاجتماعى فعلاقة وثيقة ، إذ يهتم العلم الأخير بدراسة الظواهر المرتبطة بالتجارب النفسية فى حياة المجتمعات ، كما يهتم بدراسة الارادة والسلوك الجمعى وسلوك الحشود وظاهرة القيادة . ولقد أدرك العلم الاجتماعى الحديث أن علم النفس لن يستطيع القاء الضوء على سلوك الفرد المنعزل عن بيئته ، ومن ثم يتعين ان تدعم دراسات علم النفس بأبحاث علم النفس الاجتماعى ، وهو العلم الاكثر قربا لعلم الاجتماع من علم النفس ، سواء من ناحية التدريب أو من ناحية النظر إلى الظواهر الانسانية . إذ يدرس عالم النفس السلوك الإنسانى. وهو يعتقد أنه يستطيع أن يحدد قوانين السلوك الانسانى من خلال التجارب التى يجريها على الحيوان ، وتساعده هذه التجارب على استخلاص فكرة ما عن السلوك الانسانى . ولاريب أنه يمكن لعالم النفس اجراء هذه التجارب على مستوى السلوك البسيط الذى يربط بين منبه السلوك والاستجابة له ، ولكن يتعين

على عالم النفس أن يواجه بطبيعة الحال شكوك هؤلاء الذين يدعون أن الكائنات الانسانية تعكس وتكشف الخيال ، وتمارس اراداتها الحرة باساليب غير مألوفة عن الأشكال الدنيا فى الحياة الحيوانية ، وهناك فريق من علماء النفس أقل ميلا لقيمة اجراء التجارب فى هذا المجال ويعتقدون ان الملاحظة الاكلينيكية اكثر قيمة ، ويحاولون أن يقدموا البراهين عن طبيعة الشخصية وأصلها كما يصفون بناء الشخصية ، والعناصر المكونه لهذا البناء ، والعلاقة بين هذه العناصر . وكان فرويد صاحب المبادرة الأولى فى هذا المجال . وقد سايره آخرون من الذين تأثروا بافكاره فى التحليل النفسى واشكاله المختلفة ، إلا أن انصار فرويد واتباعه غيروا الكثير من اراء فرويد .

ويرى جون ركس ان العلاقة بين علم الاجتماع باعتباره علما يهتم بالتفاعل الاجتماعى والانساق الاجتماعية وبين علم النفس باعتباره دراسة أنساق الشخصية وبين الدراسة العلمية للثقافة علاقة وثيقة . فالسلوك الانسانى هو المادة الخام التى يبدأ منها علم النفس وعلم الاجتماع على حد سواء . ولكن على حين نجد أن علم النفس يهتم بالعلاقة بين الافعال المختلفة للفرد الواحد نجد علم الاجتماع يهتم بالتفاعل الاجتماعى ، اى العلاقة بين افعال فرد معين وافعال فرد آخر .

ثالثا : علم الاجتماع وعلم الانسان (الانثربولوجيا) :

تدرس الانثربولوجيا مكانة الانسان فى هذا العالم وكيف تنشأ المجتمعات وكيف تتطور ، وكيف تتغير وكيف تتطور الثقافات .

وثمة علاقة وثيقة بين علم الاجتماع والدراسة العلمية للثقافة . فكلاهما يهتم بدراسة المعايير ، ولكن على حين يركز دارس الثقافة اساسا على العلاقات بين مجموعة معينة من المعايير ومجموعة أخرى ، نجد عالم الاجتماع يهتم بالدور الذى تلعبه المعايير فى عملية التفاعل .

رابعا : علم الاجتماع والقانون :

كذلك فثمة علاقة بين علم الاجتماع والقانون . فالقانون يدرس القواعد التى

تنظم المجتمع والتى تشرعها الدولة وتفرضها لتنظيم العلاقات بين المواطنين من جانب وبينهم وبين الدولة من جانب آخر . والقانون يحدد الجزاءات على الخارجين على المجتمع أو الذين يعتدون على قواعد الضبط الاجتماعى السائدة ، ويؤدى الاعتداء على هذه القواعد إلى حالة من عدم الرضا الاجتماعى ويرى دوركيم أن هذه القوانين توجد بذاتها وجودا خارجيا مستقلا عن الافراد . كما توجد مستقلة عن مظاهر السلوك التى توجدها هذه القوانين وهذه القوانين تسود المجتمع كله لتحقق وحده السلوك بين اغلبية السكان .

خامسا : علم الاجتماع والتاريخ :

وبالرغم من أن التاريخ لايعد علما اجتماعيا خاصا فان العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ علاقة وثيقة باعتبار ان التاريخ هو دراسة تطور الناس داخل المجتمعات ، كما عرف دائما ان علم الاجتماع يتيح فرصا مفيدة للمؤرخ يمكنه من خلال احدى تلك الفرص أن يدرس مجرى الاحداث بعين فاحصة للعوامل الاجتماعية بدلا من تقصى العوامل السياسية او العسكرية او الدبلوماسية .

أ ــ أن القول بأن علم الاجتماع يدرس فقط العنصر الاجتماعى فى التاريخ قول معقول : مثل القضية القائلة بأن التاريخ يدرس فقط العنصر التاريخى فى حياة المجتمعات .

ب ــ هناك اتجاه يرى أن ثمة فروقا اساسية بين علم الاجتماع والتاريخ تقوم على التباين بين نوع المعرفة التى يبحثها كل علم ، يقابل ذلك الاتجاه اتجاه معارض ويرى أن ثمة علاقة وثيقة بين علم الاجتماع والتاريخ. فالمؤرخ يهتم بتفسير احداث معينة محسوسة ، بينما يهتم علم الاجتماع بدراسة القوانين العامة للحياة الاجتماعية .

وكما يدرس التاريخ الماضى، فان علم الاجتماع يدرس الحاضر ولذا يمكن تسمية علم التاريخ بعلم اجتماع الماضى ، بينما يمكن ان نحدد مجال علم الاجتماع بأنه تاريخ الحاضر .

ج ـــ يستند التاريخ مثله فى ذلك مثل علم الاجتماع على نتائج العلوم الاجتماعية الاخرى .

د ـــ لايستطيع عالم الاجتماع أو المؤرخ استبعاد الاشارة إلى القيم .

ه ـــ عندما يهتم البحث بدراسة ظواهر اجتماعية مثل الاسرة ومكانتها فى المجتمع ، فان الدراسة تعد دراسة سوسيولوجية لادراسة تاريخية . ويقدم لنا التاريخ الحقائق التى يفسرها علم الاجتماع فى ضوء المعلومات والبيانات الاخرى التى يحصل عليها من النتائج التى توصلت اليها العلوم الاجتماعية الاخرى .

وقد حررت الدراسات التاريخية نفسها من التصورات القديمة عن السير الشخصية للملوك والزعماء والصور البارزة فى تاريخ المجتمعات . بدأت تهتم بالاحداث الهامة التى تؤثر فى مجرى تاريخ هذه المجتمعات . وقد بدأت الدراسات التاريخية المعاصرة تهتم اهتماما كبيرا بالناس والشعوب والنزعات السائدة فى الحياة الاجتماعية . فالمدخل المعاصر فى التاريخ مدخل تاريخى اجتماعى فلم يعد التاريخ هو تاريخ الملوك أو الاسر الحاكمة ، وحروبها ، أو نشوء أو تدهور الامبراطورية كما لم يعد التاريخ هو تاريخ الحضارات أو الطبقات أو الدول ، إنما صار التاريخ هو تاريخ شىء محدد مهم فى حياة البشرية ، هو تاريخ ظاهرة معينة ونشاط معين مثل تاريخ العلم ، وتاريخ ادوات الانتاج ، وادوات القتال ، وتاريخ الاديان وتاريخ الزواج وتاريخ الأسرة وتاريخ الطب وتاريخ عصر الاستعمار وعلاقته بزراعة قصب السكر والبهارات والافيون والقطن .

ويرى جون ركس ان العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ . علاقة من نوع معين يصعب تعريفها للغاية ، ويمكن القول بوجه عاما ان المؤرخ رجل يهتم اساسا بالواقع الامبريقى اكثر من عالم الاجتماع ، فهو يهتم اهتماما فائقا بما حدث فى الواقع فعلا . على حين يهتم بدرجة أقل بسبب حدوث ماوقع . حتى وإن لجأت قلة من المؤرخين إلى التفسير فى دراساتها فان بعض هذه التفسيرات تعتمد على فروض سوسيولوجية . وبامكان علم الاجتماع أن يستفيد افادة كبرى من محاولة علماء

الاجتماع توضيح هذه الفروض واختبارها ، وبالمثل تستطيع النظرية السوسيولوجية ان تستفيد كثيرا من اخضاع فروضها لاختبارات التاريخ .

وهناك اتجاه قوى فى علم الاجتماع يؤمن ايمانا عميقا باهمية العنصر الاجتماعى فى الأحداث التاريخية مثل حركات العمال والفلاحين وجماعات الحرفيين كذلك هناك من يؤمن باهمية معرفة أثر الاحداث والابنية الاجتماعية ، ويرى هؤلاء ان علم الاجتماع هو علم تاريخى يستمد مادته من التاريخ .

ولكنه فى النهاية يرد نتائجه إلى التاريخ . ومن السخف ان نتساءل عما إذا كانت النتائج تضم بين جنباتها علم الاجتماع إذ أن علم الاجتماع هو الذى يستخدم التاريخ ويتجاوزه . فتفسير الماضى يختلف إذا مااعتبرنا علم الاجتماع علما يجهل مفتاح التاريخ عنه إذا مااعتبرناه علما يفسر التاريخ إلى حد ما بل إلى حد كبير ، ولكنه لايكفى وحده لتفسيره .

وعلم الاجتماع فى دراسته للعلاقات والابنية ووظائف الانظمة . فهو يعزل عناصر استمدها من التاريخ فى أزمنة وامكنة مختلفة لكى يقارن بينها ليصل إلى مجموعة من القوانين . فعلم الاجتماع لن يكون خصبا الا إذا استمد مادته من صميم الدراسات التاريخية .

بيد أن عالم الاجتماع ليس مؤرخا وليس مثل عالم الاقتصاد أو عالم النفس فهو يهتم بالمادة التاريخية ولكنه يؤكد على أبنية العلاقات اكثر من اهتمامه بسرد الاحداث كما يهتم بعلم الاقتصاد ، ولكنه لايهتم بالمبادىء الاقتصادية بل يهتم بالروابط بين نمط الاقتصاد ونسق الاسرة أو نسق القرابة وينظم السلوك الانسانى ليرى العلاقات بين نظام التعليم ونمط الشخصية السائدة أو بين طبيعة عضوية الجماعة ونمو الاتجاهات والتغير . فعالم الاجتماع يثير أسئلة عن البناء الاجتماعى والمعايير والقيم التى تحكم السلوك الانسانى إذ علينا أن ندرك أن الناس تختار ان تسلك سلوكا معينا وفق طرق معينة ، ويبدو أن اساليب السلوك مفروضة عليهم فى معظمها ، ونحن نحقق دائما توقعاتنا مثلما نحقق توقعات الاخرين ونفعل ذلك فى

أحيان كثيرة لتبدو ملتزمين بالعادات والمعايير ومتوافقين معها . حتى هؤلاء الذين يخفقون فى تحقيق الالتزام والتوافق مثل المجرمين الذين يوضعون فى السجون أو المعتوهين الذين يقيمون فى مستشفيات الأمراض العقلية ، يلتزمون عادة ويتوافقون مع قواعد عامة للسلوك فى مجالات الحياة قد خفيت علينا شدة وضوحها فكل الناس تأكل وتنام وتعمل وفق انماط معينة منتظمة ، فنحن نطيع قواعد عامة عديدة لعبور الطرقات . كما نخضع لقواعدعامة عند شراء السلع من المحلات أو عندما ننصت إلى التليفون أو عندما نستعير الكتاب من المكتبة أو عند الترحيب بالجيران ، إن بناء هذه الحياة الاجتماعية والمعايير التى تحكم هذه الحياة والعلاقات المتبادلة واللازمة لوجود هذه الحياة الاجتماعية ، والسلوك الذى تعبر عنه تعبيرا جماعيا ، هو موضوع علم الاجتماع . وبالتأكيد فان بعض جوانب السلوك ذات طابع اقتصادى ولها دلالات عند عالم الاقتصاد . أن هذا السلوك البشرى هو المادة الخام التى يهتم بها المؤرخ وعالم النفس ، لكن كلا منهما ينظر إلى هذا السلوك من زاوية معينة وبايجاز فان نوع التجريد الذى يستخدمه كل منهما يختلف مابين عالم الاجتماع والمؤرخ والاقتصادى على الرغم من أنهما مثل عالم الاجتماع يهتمان بالسلوك الانسانى .

وثمة رؤية ثانية ترى أن علم الاجتماع هو علم دراسة النظم الاجتماعية والعلاقات بينها . اما هذه العلوم الخاصة مثل الاقتصاد والسياسة أو القانون فتساعد علماء الاجتماع على فهم المجتمع والوصول إلى نتائج صحيحة . فثمة علاقة بين النظام الاسرى ونظام التعليم والنظام الاقتصادى كما يتأثر النظام الاسرى بالنظام السياسى والنظام الاقتصادى كما يتأثر النظام التعليمى بالخط السياسى الذى تنتهجه الدولة .

وثمة رؤية ثالثة أشمل وأرحب ترى أن علم الاجتماع ليس مجرد علم اجتماعى خاص يقدم وصفا أو تصنيفا لاشكال العلاقات الاجتماعية ، بل انه علم ينشد أن يجمع بين دفتيه نتائج العلوم الاجتماعية الخاصة . كما انه لايكتفى بجمع نتائج وحصاد العلوم الاخرى وربطها بنظام اجتماعى معين . ولكنه يعطى رؤية عقلية

جديدة للمجتمع ككل ، وينبغى أن يؤخذ فى الحسبان ان العوامل السياسية والاقتصادية والدينية تفسر اى مجتمع .

ولايجب ان يثير فينا الفصل الاكاديمى بين العلوم السلوكية اليأس والاحباط ، كما أن أى محاولة للدمج بين هذه العلوم محاولة خاطئة ، فهناك الفروق الواضحة بين هذه العلوم . فعلم الاجتماع ليس جزءا من التاريخ ، وليس جزءا من الاقتصاد ، وليس جزءا من علم النفس . ورغم العلاقة الوثيقة بين علم الاجتماع والعلوم السلوكية الاخرى ، فان علم الاجتماع له طريقة فريدة واسلوب مميز للنظر إلى السلوك الانسانى ، بل وكل علم من العلوم السلوكية له طريقته المميزة فى النظر إلى السلوك الانسانى ، وعلم الاجتماع مثل كل العلوم السلوكية له مدخل خاص مميز له ، وله لغته الخاصة به ، وفوق ذلك له اسئلته الخاصة به وفى الوقت نفسه فهو فرع من فروع المعرفة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلوم الاخرى ، ولن يكون عالم الاجتماع ناجحا فى تخصصه مالم يلم بمعرفة التاريخ والاقتصاد وعلم النفس والسياسة ، وإن لم يتسلح بأيديولوجية تعينه على فهم الواقع وتفسيره .

سادسا : علم الاجتماع بين التخصص والفلسفة :

ان التفرقة بين مفهوم علم الاجتماع العلوم والعلوم الانسانية المتخصصة فى دراسة جانب واحد من جوانب المجتمع ، موضوع أكده عالم الاجتماع الفرنسى دوركيم ، وايضا عالم الاجتماع البريطانى هوبهوز اول من شغل كرسى علم الاجتماع بانجلترا .

أ ــ لقد برهن علماء الاجتماع على أن علم الاجتماع علم متخصص مادام يبحث مثل العلوم الاجتماعية الاخرى عن الصلة بين الظواهر ليصل إلى نتائج عامة عن العلاقات الاجتماعية ، كما يستخدم مناهجه الخاصة به .

ب ــ لايهتم علم الاجتماع مطلقا بالقيم المطلقة أو القيم المجرده . وإن كان يهتم بالقيم الاجتماعية ، دارسا معناها ومضمونها كما يدرس عملية اكتساب القيم مؤكدا نسبية القيم وتأثرها بالتغير الاجتماعى .مؤكدا أن القيم عنصر

اجتماعى مشترك يدخل فى تركيب البناء الاجتماعى وتكوين بناء الشخصية الاجتماعية ، كما انه لامعنى للقيم ولا أهمية لها إلا فى المجتمع الذى توجد فيه .

وعالم الاجتماع فى دراسته للقيم لايشرع . وليس من وظيفته صنع قيم جديدة ، بل وظيفته أن يتناول القيم الموجودة بالتحليل والتفسير .

ج ــ ينشد علم الاجتماع تأكيد الحقيقة أو الافتراضات التى تضعها العلوم الاخرى مثل هل الحكومة ضرورية بالرغم من أنها تعد شرا .

د ــ يحاول علم الاجتماع أن يرى المجتمع ككل وأن يلاحظ الظواهر الاجتماعية ويقدر اهميتها بالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية والحياة الانسانية ككل .

سابعا ــ الفلسفة الاجتماعية :ــ

هل علم الاجتماع فلسفة اجتماعية . تلك قضية محيرة ، هل يتحول علم الاجتماع إلى فلسفة اجتماعية إذا ماقام علماء الاجتماع بصياغة نظريات عامة هنا يتعين أن نقف وقفة قصيرة ونحدد ماالمقصود لدينا بالفلسفة .

أ ــ يعنى بالفلسفة عند اليونان محبة الحكمة ، وحب المعرفة ، واهتمت الفلسفة اليونانية القديمة بكل المعرفة الانسانية .

ب ــ ويؤكد مفهوم الفلسفة الطبيعية والفلسفة الاخلاقية التمييز بين مجال العلوم الطبيعية والرياضيات والفيزياء وبين تلك العلوم التى ترتبط بالفكر الانسانى والقيم مثل المنطق وعلم النفس وعلم الاخلاق .

ج ــ لايتفق الفلاسفة المحدثون حول تعريف وحدود دراساتهم ولكن يكفينا أن نفهم الفلسفة باعتبارها الوصول لصورة حقيقية عن الكون ومكانة الانسان فى هذا العالم .

د ــ والفلسفة الاجتماعية تنشد تحديد العلاقة بين العلوم عامة والحياة فى المجتمع .

غرض الفلسفة الاجتماعية :

سواء أكان علم الاجتماع اكثر من بحث شامل عن الاخلاق والعادات أو مجموعة من الدراسات المستفيضة عن الجماعات ، فانه يتعين عليه أن يستند على فلسفة معينه ، تقدم للباحثين بعض النصح ، أو ترشد للقيم السائده فى المجتمع .

ويتعين علينا أن نفرق بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع :—

أ — تهتم الفلسفة الاجتماعية بالغايات بينما يهتم علم الاجتماع بالوسائل .

ب — يتعين أن تخضع هذه الغايات للضبط الاجتماعى إذا ماأريد أن يكون لدراسة الوسائل معنى ، فمثلا يجب أن يحدد ماإذا كان الحراك الطبقى غاية فى ذاته وإذا كان كذلك ، فما الوسائل اللازمة لتحقيقه .

ج — تهتم الفلسفة الاجتماعية بالقيم المجرد ، إما عالم الاجتماع فيتقيد بحدود الواقع الذى يعيش فيه .

ثامنا : علم الاجتماع وعلم الحياة :

يرى مارت أن الانثربولوجيا الاجتماعية والتى هى التاريخ الطبيعى للانسان فرع من فروع علم الحياة ، مادامت الكائنات الانسانية شكلا من اشكال الحياة

أ — ان الطبيعة الاجتماعية التى تتميز عن حياة القطيع لاتوجد إلا عند الانسان وحده . ولانه لامر خطير للغاية أن تشمل الفروع المتخصصه لعلم الاحياء دراسة النظم الإنسانية .

ب — وهناك محاولات متعددة لاستخدام فكرة المماثلة البيولوحية فى علم الاجتماع .

ج — وقد أثرت بعض افكار لامارك عن الوراثة ونظريات داروين عن التطور والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح تأثيرا كبيرا على الأفكار الدينية والاخلاقية . وقد اسهمت دراسات الوراثة والبيئة بقدر كبير فى فهم الظواهر الاجتماعية .

ومن الواضح لنا أن العلوم الاجتماعية ليست معزولة عن بعضها والعالم الاجتماعي يتأثر بالعلوم الانسانية الاخرى وتثرى هذه العلوم من نتائج ابحاثه . فمعرفة عالم الاجتماع بالتاريخ والنظام الاقتصادى والتنظيم السياسى والدوافع التى تدفع الافراد إلى إدراك سلوك معين تسهل عليه القيام بمهمته .

كما أن التداخل لايقتصر على العلوم السلوكية والانسانية وحدهما بل إن هذه العلوم تأثرت ايضا بالافكار السائدة فى علم الاحياء . ذلك العلم الذى بهر العلماء الاجتماعيين بتقدمه وماحرز من نتائج . وتأثير علم الاحياء كبير جدا على دوركيم وسبنسر والنزعة الوظيفية .

الفصل السابع
طرق البحث فى علم الاجتماع

١ ــ علم الاجتماع التطبيقى :

وإذا ماأراد علم الاجتماع أن تكون له أهمية التأثير فى الحياة الواقعية للمجتمعات ، مثله فى ذلك مثل علم النفس ، فانه يتعين عليه أن يتحول إلى علم الاجتماع التطبيقى . فعلم الاجتماع يجب ألا يكون لعبة يتسلى بها المفكرون . ولكن يتعين على عالم الاجتماع أن يهتم بدراسة الواقع الاجتماعى ليصل إلى نتائج تساعد الناس على الحياة السهلة فى مجتمعاتهم . ولفهم انفسهم ، وفهم مجتمعاتهم وعلى التخلص بقدر الامكان من الشكوك والصراعات والخلافات التى تعوق تقدم العلم .

٢ ــ موضوع علم الاجتماع التطبيقى :

ويرجع إلى افلاطون ثم ابن خلدون ثم كونت وسبنسر ، محاولة تقديم دراسات ذات قيمة مباشرة عن المجتمع . وكانت كتاباتهم تعبر عن الاعجاب والحب للمجتمع والجنس البشرى . ويجب على الجهود التى تبذل لفهم القوى التى تؤثر فى مجتمع معين وموقف معين ان تتبع القاعدة الاولى للمنهج الاجتماعى وهى :

« يجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها اشياء » .

ولايقصد بالظواهر الاجتماعية ، أنها اشياء مادية ، ولكنها كالاشياء المادية سواء بسواء تدرس بطريقة العلوم الطبيعية الاخرى وإن كانت من طبيعة اخرى . وهذا يعنى أن الظواهر الاجتماعية أشياء يمكن دراستها من الخارج ويمكن ملاحظتها ومشاهدتها . إن دراسة صراع الاجيال عند الشبان مثلا ، أو دراسة سلوك أعضاء جماعة التكفير والهجرة ، أو السلبية والايجابية عند الفلاح المصرى أو تخزين القات

فى اليمن أو اثر النظام القبلى على تحديث الدولة ، أو اللامبالاة عند عمال القطاع العـام كلها ظواهر تقدم لنا نتائج عامة ، قد تكشف لنا عن نزعات وحركات عالمية او اقليمية واسعة . ولكن من الناحية العملية المباشرة علينا ان نتكشف شيئا عن الاسباب التى شكلت سلوك اعضاء جماعة التكفير والهجرة ، والمؤثرات التى ادت إلى تعارض القيم وتباينها بين جيل الآباء وجيل الابناء ، كما يجب علينا ايضا أن نفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى ادت إلى السلبية عند الفلاح فى مصر .

وإذا كان غرض الحكومات اتخاذ اجراءات لوضع نهاية لتصرفات المراهقين والشبان والسلبية . فهذه الاجراءات ليست من مهمة عالم الاجتماع ، ولا فى قدرته ، وكل مافى قدرته ان يقرر الوقائع ويستخلص النتائج ، ويسهم فى تخطيط الاصلاح الاجتماعى .

الطرق الاساسية فى البحث الاجتماعى :

٣ ــ طرق البحث الاجتماعى :

ازداد استخدام طرق عديدة فى البحث الاجتماعى ، عند دراسة مجتمعات محدده أو مناطق معينة ، أو عند اجراء دراسات محلية اكثر تحديدا .

وطرق البحث المستخدمه فى علم الاجتماع لاتختلف اختلافا ملحوظا عن الطرق المستخدمة فى العلوم الانسانية والسلوكية الاخرى . وتهدف طرق البحث الاجتماعى المختلفة إلى جمع المعلومات والبيانات ، وتفسيرها وتقييمها وتلك مهمة أساسية لعلم الاجتماع ، فعلم الاجتماع يقوم على وصف الظواهر الاجتماعية . ثم اجراء المقارنات بينها ، وأخيرا التفسير . أما اصدار احكام قيمية على النتائج التى جمعها عالم الاجتماع ، فتلك مهمة الفيلسوف الاجتماعى .

والمنهج العلمى هو المنهج المستخدم فى الدراسات السوسيولوجية ويتمشى منهج البحث فى علم الاجتماع مع المبادىء التى تحدد نظرتنا إلى المعلومات ومانبحث عنه فيها ، وطبيعة هذه المعلومات . والمقصود بالمنهج هنا ، المنطق الذى يقوم عليه

البحث بجانب الادوات التى تمكننا من الوصول إلى المعلومات أو ملاحظتها عن قرب .

وتثار دائما مشكلة هامة مؤداها مدى امكانية تطبيق المنهج العلمى — كما تصوره علماء الفيزياء والاحياء — على دراسة السلوك الانسانى .

ويجب أن نشير فى البداية إلى ان كونت مؤسس علم الاجتماع وكوتليه مؤسس علم الاحصاء ، قد سميا العلم الجديد « الفيزياء الاجتماعية » ثم استبدل اوجست كونت بالفيزياء الاجتماعية مصطلح علم الاجتماع .

وقد ادرك بعض علماء الاجتماع صراحة أو ضمنا أن علم الاجتماع له موضوعاته المختلفة ، وعليه أن يستخدم مناهج أخرى غير تلك المستخدمة فى العلم الطبيعى .

إلا أن اغلبية علماء الاجتماع يهتمون بايجاد علم متميز عن علم التاريخ وعلم الأخلاق ؛ وثمة شروط ثلاثة أساسية لازمة لوجود علم الاجتماع :—

١ — مادام الانسان ملاحظ وملاحظ فى الوقت نفسه تثار دائما مشكلة الموضوعية عند دراسة السلوك الانسانى .
٢ — يستطيع الملاحظ أن يتصل بموضوعاته ؛ ويفتح لنا مجالات جديدة للبحث مما يعرض لنا مشكلات كثيرة ومعقدة عن مناهج البحث .
٣ — ان السلوك الانسانى سلوك معقد بدرجة انه يصعب اعادة بنائه تحت ظروف مسيطر عليها ، سواء عند اجراء الملاحظة أو المقارنة أو التجريب .

ولم يقتنع اغلب علماء الاجتماع بترك المنهج العلمى ، والعدول عن تطبيقه عند دراسة السلوك الانسانى . ولكن المشكلة الاساسية هى كيف نسترشد بالمعايير العلمية عند :

١ — صياغة فروض مثمرة فى البحث الاجتماعى .
٢ — استعمال منهج موضوعى للتحقق من صدق الفرض أو كذبه .

ولم يعد استخدام المنهج العلمى عند دراسة السلوك الانسانى موضوع جدل

الآن . ولكن المهم لكل علم اكتشاف الادوات المناسبة لدراسة ظواهره . فنجد فى علم الفلك التلسكوب ، وفى الكيمياء انبوبة الاختبار والميزان وفى البيولوجيا الميكروسكوب .

وهناك فئة من العلماء تؤمن أن التقدم الخطير فى علم الاجتماع وكل العلوم السلوكيه ينتظر اكتشاف ادوات مماثلة لملاحظة السلوك الانسانى ودراسته وتفسيره .

ويعتقد بعض علماء الاجتماع أن التلسكوب الاجتماعى قد اكتشف ويتطلب الأمر التحسين ، واكتشاف ادوات مساعدة اخرى . وهذا التلسكوب الاجتماعى هو الوثيقة الشخصية أى دراسة تاريخ حياة الاشخاص او استمارة الاستبيان أو المقابلة أو الملاحظة أو دراسة الحالة أو المسح الاجتماعى .

وإذا كان هدف التلسكوب ، هو التكبير أو التضخيم ، أى تعظيم الاشياء غير المرئية وادراكها ادراكا واضحا ، فانه يتضح لنا أهمية دراسة الوثيقة الشخصية ، أى تاريخ الحياة فى علم الاجتماع والاستعانة بادوات مساعدة مثل الاستبيان أو الملاحظة أو المقابلة .

ونحن فى علم الاجتماع أحوج مانكون إلى التعمق عما وراء السطح الظاهر فعلا عند دراسة السلوك الانسانى . ولذا فان أداة واحدة لاتكفى فى البحث الاجتماعى .

٤ ـــ الاستبيان :

أحد الوسائل المباشرة والاكثر سهولة لجمع البيانات عن تجارب الناس واتجاهاتهم ـــ أو جمع المعلومات عن جماعة معينة فى موقف معين .

وتضم استمارة الاستبيان مجموعة من الاسئلة قد توجه مباشرة إلى العميل أو ترسل بالبريد .

أ ـــ ويتعين على الباحث أن يعرف بالتحديد مايريد أن يبحث عنه . فمثلا فاذا كان يدرس أوقات الفراغ عند المراهقين ، عليه أن يعرف كل الأنشطة

المفضلة وكل الانشطة التى ينبذونها . فليس مجديا أبدا أن تسألهم « ماذا تفعلون فى أوقات الفراغ ؟

ب ــ ينبغى ألا يكون السؤال غامضا أو مبهما ، بل يتعين أن يفهمه المبحوث بسهولة ، أى يكون السؤال واضحا ليقدم لنا اجابة واضحة . فمثلا إذا سألنا الطالب هل تذهب إلى السينما (عادة ــ دائما ــ باستمرار ــ. نادراً) فاننا نجد لبسا كبيرا بين الكلمات الثلاث الاوائل . كذلك إذا ماسألنا المبحوث هل تصلى ؟ (عادة ــ دائما) فثمة غموض فى فهم الكلمتين .

. من الضرورى أن نتجنب التحيز عند صياغة الاسئلة ــ فمن الافضل أن نسأل هل تتجنب مشاهدة الأفلام التى يعلن عنها بأنها ممنوعة لاقل من ١٦ سنة بدلا من سؤاله .

هل تشاهد افلام الجنس ؟
هل تحب أفلام الجنس ؟

ينبغى أن نتجنب الاسئلة التى ترتبط بالاحكام الخلقية وأفعال الضمير فاذا ماسألنا المبحوث هل توافق على حكم الاعدام؟ فان هذا السؤال لايعرف حدا أو قيدا ويتضمن اجابات متعددة ، يصعب أن نجيب عليها بنعم ، إذ أنه يتطلب تفكيرا عميقا ، وتبرير قويا .

وإذا ماوجهنا استمارة الاستبيان إلى الأميين ، فانه يتعين على الباحث أن يعى تماما الاحكام الخاطئة وعدم فهم المقصود من الاسئلة ومحاولة المجيبين اعطاء اجابات غير دقيقة .

٥ ــ البيانات الموثقة :

مصدر هام للبيانات ، هو المواد الموثقة ، ابتداء من الخطابات الشخصية والاحكام المكتبية ، والمذكرات الشخصية وبرامج الراديو والتليفزيون والاعمدة اليومية فى الصحف .

وبتحليل هذه البيانات يمكن الكشف عن الاتجاهات الاساسية والقيم وطبيعة العلاقات السائدة .

وقد درس توماس وزنانيكى مجموعة من الفلاحين المهاجرين إلى امريكا وفى بحثهما « الفلاح البولندى » وكونا نظرية الرغبات الأربعة كأساس لتفسير العمل الاجتماعى . وقد قامت هذه النظرية على طريقة جديده لدراسة الحالات هى تحليل الوثائق الشخصية وعلى الأخص التاريخ الذاتى لحياة الافراد .

٦ ــ الملاحظة :

قد يشارك الباحث فى النظم الاجتماعية على الأقل باعتباره ملاحظاً . فهو يذهب إلى الجمعية التعاونية . ويقف فى طوابير الشراء أو يذهب إلى السوق باعتباره مشتريا كما يلتحق بالمصنع ليلاحظ سلوك العمال .

والملاحظة كطريقة من طرق جمع البيانات طريقة قديمة ، وتتميز الملاحظة عن غيرها من طرق جمع البيانات انها تسجل السلوك بما يتضمنه من مختلف العوامل وقت حدوثه .

وقد يلجأ الباحثون إلى الملاحظة كطريقة من طرق البحث نظرا لان الكثير من صور السلوك اليومى مثل طرق تربية الأولاد وأساليب تبادل التحية ومثل الاحتفال بالاعياد والمواليد كما يحدث فى مصر ، لايكاد يدرى بها الافراد موضع الملاحظة لانها من الأمور المألوفة لديهم ، ولكنها تسترعى انتباه الباحث المدرب وخاصة إذا كان غريبا عن الثقافة القائمة .

وتزداد قيمة الملاحظة كطريقة من طرق البحث وخاصة فى الحالات التى يزداد احتمال مقاومة الافراد لما يوجه اليهم من اسئلة ، أو عدم تعاونهم مع الباحث اثناء المقابلة ، كما تزداد قيمة الملاحظة فى الحالات التى يعتذر فيها استخدام غيرها من طرق القياس ، مثل ملاحظة سلوك الاطفال .

وأهم عقبه تواجه الملاحظ ، هى تحديد موضوع الملاحظة ، لانه لن يستطيع ملاحظة كل شيء . وقد لاتتطلب الدراسة ذلك ، وكيفية تسجيل الملاحظة وماالغرض من الملاحظة .

٧ ــ البيانات والاساليب الاحصائية :

وهذه البيانات الاحصائية متوفرة فى السجلات والتقارير وكتب الاحصاء التى تصدرها الجهات الرسمية .

وتهدف مرحلة التحليل الاحصائى توضيح البيانات التى يجمعها الباحث ووصفها وصفا دقيقا ، فهى تتطلب أولا أن يجمع الباحث بياناته بطريقة يعتمد عليها بحيث تكون على مستوى كبير من الدقة .

ويلجأ الباحث بعد جمع بياناته إلى تصنيفها إلى انواع متميزة يسهل له استنتاج مابينها من علاقات ــ ثم يقوم بحساب النتائج ابتداء من النسب المئوية والمتوسطات والمعلومات المختلفة واجراء المقارنات المختلفة ، وبيان ماإذا كانت هناك فروق ذات دلالة أم لا .

ثم ينتهى الباحث بتفسير النتائج ، وهى مرحلة تحتاج إلى دراية تامة بالمسائل حتى لايندفع الباحث إلى استنتاج أو تعميم لاتؤدى اليه الطرق الاحصائية التى استخدمها .

ويتطلب التحليل الاحصائى مهارة خاصة فى الرياضيات وخاصة عند تحليل الأرقام .

٨ ــ العينـات :

العينة جزء يمثل الكل . ويسهل استخدام العينات الحصول على النتائج وتحليلها تحليلا سريعا . كما ان تكاليف الحصول على البيانات من افراد العينة أقل واسرع مما لوجمعنا البيانات من المجتمع كله . ويمكن أن يحدد الخطأ المتوقع عند تحديد العينة ، كما يمكن اعادة البحث لو كان الخطأ كبيرا .

وأهم شروط العينة :

أ ــ أن تكون ممثلة للمجتمع الاصلى .

ب ــ أن تكون لوحدات المجتمع فرص متساوية فى الاختيار .

والعينات أنواع أهمها :

أ ـ العينة العشوائية :

وهى تلك العينة التى لاتتقيد بنظام خاص أو ترتيب معين مقصود فى الاختيار وبذلك تضمن لجميع افراد العينة فرصا متساوية ، وفى هذه الحالة توصف العينة بأنها غير متحيزة .

ب ـ العينة الطبقية :

ويتم اختيار العينة الطبقية على مرحلتين مرحلة تحليل المجتمع الاصلى ومرحلة الاختيار العشوائى فى حدود صفات المجتمع الاصلى .

٩ ـ تحليل النتائج :

يواجه العالم الاجتماعى عند تحليل النتائج مشكلة استخدام البراهين التى تبرر النتائج التى وصل اليها البحث ويعتمد تحليل النتائج على الاجابة على سؤال محدد ، لماذا حدثت هذه الظاهرة . وربط النتائج التى حصل عليها الباحث بالنظرية التى انبثق منها الفرض .

١٠ ـ كتابة التقرير :

ويتضمن عرض المشكلة ، واجراءات البحث وعرض النتائج ومناقشتها .

١١ ـ خطوات البحث الاجتماعى :

أ ـ تحديد المشكلة .

ب ـ تحديد طبيعة البيانات المطلوبة .

ج ـ تحديد طبيعة طرق البحث المستخدمة فى الحصول على المعلومات والبيانات المطلوبة .

د ـ اعداد طريقة جمع البيانات .

هـ ـ اجراء دراسة استطلاعية .

و ـ اعداد مجال الدراسة .

ز ـــ جمع البيانات .
ح ـــ تفريغ البيانات فى جداول .
ط ـــ تصنيف النتائج وتحليلها .
ى ـــ كتابة التقرير .

وقد قيل القليل عن أهمية تدريب الباحث الاجتماعى على اساليب البحث الاجتماعى . فعالم الاجتماع أولا : هو ذلك الشخص المدرب الخبير الذى يمتلك مهارات معينه ، ابتداء من المهارات العقلية التى تساعده على صياغة المشكلة وتحديد الفروق الضرورية بين المفهومات وادوات جمع البيانات مرورا بصياغة القضايا صياغة دقيقة تسمح بالتحليل الملائم . وانتهاء باثارة الحوار حول المشكلة والتى تسمح له أن يخطط خطة بحثه من أجل القاء الضوء على المشكلة .

ثانيا : يترتب على ذلك أن مشروعات ابحاث كثيرة تتطلب من عالم الاجتماع ان يستفيد من مهاراته وخبرته المهنية لتساعده على طرح المشكلة موضوع البحث والقاء الضوء عليها بشكل يسمح له بتطبيق الاختبارات كما ينبغى ان تحدد فروضه تحديدا اجرائيا لكى يمكن تطبيق الاختبارات التجريبية بما يسمح باستخدام الاساليب الكمية . وفى هذا الصدد تتطلب ابحاث اجتماعية كثيرة معرفة كيفية تصميم البحث الاجتماعى وكيفية قياس النتائج فى اطار الطرق الاحصائية ، بيد أن معرفة المتخصص فى علم الاجتماع للرياضيات لاتزيد عن معرفة طالب الثانوية العامة ، وليس من الضرورى أن يلم عالم الاجتماع الماما مستفيضا ومكثفا بالاحصاء ، ولكن الاحصاء جزء من ادواته التى يتعين ان يلم بها ويعرفها . مثلما يعرف كيفية صياغة السؤال أو تنظيم المقابلة أو تفريغ البيانات وترميزها واستخدام البيانات وكيفية تحليلها .

الفصل الثامن
المجتمع والثقافة والشخصية

١ ـــ علم الاجتماع والفرد :

تقوم دراسة المفهومات السوسيولوجية على حقيقية مؤداها أن الحياة الانسانية بالضرورة حياة اجتماعية . فالناس لاتعيش منعزلة ، فكل انسان ينشد الحلول الخاصة لمشكلات وجوده عند الآخرين ، فالناس تعيش سويا ويشتركون فى طريقة الحياة أى يشتركون فى ثقافة واحدة تنظم وجودهم الجماعى وتوفر اساليب التوافق مع العالم الذى حولهم والسيطرة على قوى الطبيعة . فكل المفهومات التى عرضنا لها ، تركز الاهتمام على الصور الجمعية للحياة الاجتماعية والمظاهر المشتركة للسلوك .

ولكن هل يمكن لعلم الاجتماع أن يتجاهل الفرد ؟ .. ان دراستنا للعلاقة الاجتماعية والمعايير الجمعية والمعتقدات المشتركة والقيم العامة إنما تدرس متميزة ومستقلة عن الافراد الذين يشتركون فى العلاقات ويتوافقون إلى حد ما مع المعايير ويخضعون للمعتقدات والقيم السائدة فى الجماعة . ويستند هذا التفسير الاجتماعى على حقيقة أن المجتمع والثقافة لايعتمدان على أفراد معينين يعبرون عن الاتجاهات والمشاعر من خلال الثقافة . فقد يوجد المجتمع والثقافة قبل ميلاد هؤلاء الافراد .

ولكن المجتمع والثقافة لايستجيبان للمؤثر الخارجى ولايتوافقان مع التغير أو يتكيفان ولايؤديان السلوك ، فالافراد وحدهم هم الذين يؤدون السلوك . فالمجتمع كما نعرف يتكون كمفهوم مجرد لايوجد إلا فى عقول الافراد ، أما الثقافة كشىء ندركه .. فتظهر من خلال افعال الاشخاص . ومن ثم فمن الضرورى أن ندرس طبيعة العلاقة بين المجتمع والشخص من جانب ، وطبيعة العلاقة بين الثقافة والشخصية من جانب آخر . إذ أن التفاعل بين الشخص والعالم الاجتماعى

والثقافى ، الذى يكون الشخص جزءا منه ، يكون مشكلة أساسية فى العلوم السلوكية منذ بدايتها .

٢ ـــ الفرد محصلة البيئة الاجتماعية :

يمكن لنا أن ندرس الفرد باعتباره نتاج مجتمعه وثقافته . فالطفل منذ ولادته لديه قدرات فيزيقية معينة تسهل له عملية التغذية والنمو . فهو مخلوق لديه حاجات فيزيقية ونفسية وقدرات على التعليم ، مما يميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية . بيد أن هذه السمات الكونية وتلك القدرات الفردية تصبح ذات معنى فقط أثناء التجارب ومواقف التفاعل فى البيئة الثقافية والاجتماعية . فالكائنات الانسانية مرنه ولاتورث إلا عددا ضئيلا من أنماط السلوك الوراثية الجامدة . ومن ثم فالشخصية الانسانية ليست وراثية بل مكتسبة رغم أنها تتكون من خصائص فطرية وفيزيقية وفسيولوجية ونفسية . بيد أن الكائنات الانسانية ليست مرنة بلا حدود . ولكن هناك حدودا للتطبيع والتطويع .

ويكتسب الافراد شخصياتهم الاجتماعية اثناء التفاعل الاجتماعى فيتحولون إلى اشخاص بدلا من كونهم كائنات بيولوجية باعتبارهم أعضاء فى جماعات متعددة حتى أن الشعور بالذات ـــ أى وعى الفرد بشخصيته وذاته الاجتماعية فانه ينبثق خلال التجربة الاجتماعية ، وكما أوضح عالم النفس السويسرى جان بياجيه بعد دراسته المتأنية لسلوك الاطفال أن الحياة الاجتماعية ضرورية إذا ماوعى الفرد بوظائفه العقلية .

ويستند فهمنا للطريقة التى تسهم بها العلاقات الاجتماعية فى نمو الشخصية الاجتماعية إلى حد كبير على مدى اسهام علماء كثيرين درسوا المشكلة من مداخل مختلفة ، ابتداء من بياجيه العالم النفسى وتشارلز كولى عالم الاجتماع الامريكى الذى صاغ مصطلح الجماعات الاولية والثانوية . ومؤسس مدرسة التحليل النفسى النمساوى المولد سيجموند فرويد وجورج ميد الفيلسوف وعالم النفس وعالم الاجتماع . وقد اثبت لنا بياجيه ضمن مجموعة من الدراسات الجديرة

بالاهتمام عن الاطفال أثر التطبع الاجتماعى المتوالى على أفكار الاطفال بالنسبة للاحكام الاخلاقية والبراهين واللغة وفكرة العليه وتصور العالم . وقد اكد كولى ايضا أهمية الجماعات الاولية فى تكوين الشخصية ونموها ، فالفرد اثناء اطوار الرضاعة وطور الطفولة وهما أكثر اطوار النمو مرونه . عضو فى هذه الجماعات الاولية والتى يكتسب من خلالها العواطف والخصائص الانسانية الاساسية . أما فرويد فرغم ايمانه الاساسى الفطرى للدوافع الانسانية ، فقد رأى أن العلاقات الاسرية هى العامل الحاسم فى نمو الشخصية ، بالرغم من أنه تجاهل الطبيعة التنظيمية للعلاقات الاسرية ، وبين تحليله الطريق نحو فهم أوضح للمكونات الاجتماعية وتشكيل الشخصية على نحو مافعل بارسونز وأريك فروم . وقد أثارت الاعمال الأولى لكولى جورج ميد ودرس لنا بالتفصيل العمليات التى تؤدى إلى ظهور الذات . وقد أكد جورج ميد اهمية اللغة . وطريقة تعلم الادوار الاجتماعية ومعرفتها من الاخرين ذوى التأثير على الشخص .

ولقد حاول كولى تفسير العلاقة بين الفرد والمجتمع . ورأى أن هذه العلاقة ضرورية وثابتة . فكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ويتفاعل معه ويترك هذا التاثير المتبادل بصماته على الفرد والمجتمع وهذه العلاقة اساسية وجذرية فى علم الاجتماع .

ومن الواضح من دراسة التيار الفكرى السائد بين علماء الاجتماع الامريكيين فى الفترة من ١٩٠٩ إلى ١٩١٩ ، أن نظرية كولى كانت ثمرة رد الفعل القوى لمعارضة علماء الاجتماع الامريكيين لمدرسة التحليل النفسى . وتتميز هذه الفترة برفض فرويد وافكاره . ولقد رفض كولى فى تفسيره للعلاقة بين الفرد والمجتمع رأى مدرسة فرويد التى ترى أن العوامل البيولوجيه هى العوامل الحاسمة فى تفسير دوافع الشخص . وقد رفض كذلك الاتجاه النفسى الذى يدرس الفرد منعزلا عن الجماعة والذى لايهتم بعلاقة الفرد بالجماعة وعاداتها وتقاليدها ومعاييرها والذى يغفل مدى تأثير النظم الاجتماعية والقيم على تفكير الفرد وسلوكه . وقد انكر كولى وجود الليبدو والغرائز ، ورأى أنها مجرد فروض لاحقائق ، ويرى كولى أن اهتمام فرويد بالغرائز قد ادى إلى اغفاله تأثير النظم والهيئات الاجتماعية فى تغيير سلوك الافراد .

ولقد اقام كولى نظرية معارضة لنظرية فرويد ، اذ أنه يرى أن فرويد قد أخفق فى فهم التطور الاجتماعى للفكر . فالفكر الانسانى لاينفصم عن العملية الاجتماعية . ومن جانب آخر ساير كولى رأى دوركيم بأن المجتمع كل عضوى ، وأكد أهمية النظرة العضوية إلى ظواهر المجتمع فهذه للظواهر مترابطة ترابطا عضويا . وإشار إلى أن علاقة الفرد بالمجتمع علاقة عضوية بيد أنه خالف الاتجاه الاجتماعى الدوركيمى الذى يجعل من المجتمع الوحدة الأولى للدراسة ، وأنكر التفسير الاجتماعى البحت فى السلوك الانسانى — ورأى انه يجب على عالم الاجتماع ربط سلوك الاشخاص بالانساق والنظم الاجتماعية التى يشكلونها ، ومن ثم فاختلاط سلوك الاشخاص تبعا للنظم التى يكونونها قضية لم يثبتها العلم عند كولى ، إذ فى مقابل الأنظمة الاجتماعية الموجودة فى البناء يوجد الانسان الكلى . ومن ثم لانبغى أن يقتصر مجال الدراسة على الفرد وحده أو المجتمع وحده ، بل ينبغى أن يكون مجال الدراسة الحقيقى هو الطبيعة الانسانية التى تجمع بين المظهر الفردى ، والمظهر الاجتماعى فى آن واحد . فالبيئة الاجتماعية والخواص البيولوجية الوراثية عاملان يتفاعلان سويا ويتحدان معا ويكونان الانسان الاجتماعى ويسهمان فى نموه . وينكر كولى امكانية عزل الفرد عن المجتمع . أو عزل المجتمع عن الفرد رافضا اعتبار كل منها ظاهرة مستقلة — ويرى أن كليهما مظهران لحقيقة انسانية واحدة . فليس للفرد حياة نفسية خالصة لايشاركه فيها أحد . والدعوة إلى وحدانية الشخصية وفرديتها دعوة خاطئة . فالفردية لن تتحقق للمرء إلا بقدر أنه عضو فى المجتمع كما رفض كولى اعتبار المجتمع كلا متميزا عن افراده . والانسان عنده كائن اجتماعى وهو خالق المجتمع . كما أن العلاقة بينهما عضوية ولايستطيع الانسان أن يقتطع نفسه من المجتمع الانسانى فهو عضو فيه يستمد حياته من هذا الكل العضوى اثناء عمليات التحول ، وتتداخل المعايير المنبثقة من الوراثة والتعليم فى نسج وجوده . ومن جهة أخرى فالكل الاجتماعى لايوجد إلا من مجموعة من الافراد ، وكل فرد يعتمد على الافراد الآخرين . ويرتبط الجميع سويا كأنهم وحدة . والفرد المنعزل تجريد لاوجود له فى الواقع . كما أن المجتمع الخالى من الأفراد تجريد لأمر لاوجود له . فالفرد والمجتمع وجهان لحقيقة واحدة هى الطبيعة الانسانية .

ويرى ماكيفر أن الفرد دائما محور انتماء الجماعة ، فهو ينتمى عادة إلى مجموعة من الجماعات يتفاوت عددها وحجمها من مجتمع لمجتمع ، ابتداء من جماعة الاسرة وجماعة الاصدقاء منتهيا بالدولة. ويتطلب انتماء الفرد إلى كل مجموعة من هذه الجماعات أن يؤدى دورا معينا متميزا عن الادوار المطلوبة منه فى الجماعات الاخرى. كما يتطلب منه أن يحقق مجموعة من التوقعات المطلوبه والتى تختص بالسلوك المرتبط بدوره الخاص فى كل جماعة ، تلك التوقعات التى تفرضها مجموعة من الجزاءات الاجتماعية وتؤكد كل مظاهر السلوك أن تأثير الماضى وتأثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية التى يعيش فيها الفرد تستمر فى التأثير على شخصيته وسلوكه .

ولايستطيع أى شخص أن يهرب أثناء حياته من تأثير الثقافة والمجتمع . فالفرد يتوحد مع جزء كبير من مكونات الثقافة ، كما يدمج جانب كبير من الثقافة فى الشخصية . أى ان الفرد يتوحد أو يتقمص انماط الاستجابة والقيم والاتجاهات بل حتى طرق الادراك والفهم . ويرى فرويد واتباعه أن سنوات الطفولة الأولى ومايحدث فيها من علاقات وانفعالات تعد سنوات حاسمة فى التأثير على سلوك الشخصية . أما دوركيم فيرى أن سنوات الطفولة المتأخرة ، — أى بعد العام الخامس بعد التحاق الطفل بالمدرسة — هى الطور الأكثر خطورة فى تكوين العناصر الاجتماعية المكونة للشخصية .

وقد سهلت العلاقة الوثيقة بين الثقافة والمجتمع من جانب ، وبين الفرد والشخصية من جانب آخر لعلماء الاجتماع تفسير بعض مظاهر السلوك الانسانى والتنبوء به . أن القضية الاساسية التى ستنتج من هذه العلاقة هى أن الأفراد الذين لهم جذور اجتماعية وسياسية متماثلة سوف يتصرفون بالطريقة نفسها فى مواقف متماثلة ، بيد أنه ينبغى أن يفهم أن النتائج الامبريقية الخاصة التى تنتج عن تطبيق هذه القضية هى دائما احكام ذات احتمال نسبى .

٣ — حقيقة الفرد :

ويرجع التحليل السوسيولوجى الشخصية الانسانية إلى حد ما إلى طبيعة هذه

الشخصية ــ فالاعتماد الوثيق للفرد على البيئة الاجتماعية وتأكيد أن معايير الجماعة وقيمها ومعتقداتها هي التي تطبع الشخصية بطابع اجتماعي مميز لايعني أبدا أن الفرد مجرد أداة في مجتمعه أو ان شخصيته مجرد انعكاس لثقافته ، أو للبناء الاجتماعي الذي يعيش فيه . إن العلاقة بين المجتمع والفرد ليست مثل علاقة الدمية بمحركها . وقد أوضحت روث بندكت الانثربولوجية المشهورة انه لايوجد عالم من علماء علم الاجتماع أو الانثربولوجيا أعتقد بأن الأفراد ينفذون تنفيذا آليا ماتفرزه الحضارة .

ان ادعاء بعض الاجتماعيين أن الشخصية بالضرورة هي المظهر الذاتي للثقافة ، يشجب العلاقة الاساسية بينهما . ويستند هذا الادعاء على الأهمية الظاهرة للعوامل الثقافية على السلوك . ولكن هناك تباينا كبيرا جدا بين الافراد في كل المجتمعات لتدعيم هذا الرأي ، فلا يوجد شخصان يناقشان قضايا الثقافة والفكر بالمصطلحات نفسها . كما لايوجد فرد واحد تدمج في شخصيته كل العناصر الثقافية السائدة في مجتمعه ، بل حتى كذلك لايوجد شخص واحد يتوحد مع كل العناصر الثقافية التي يتعرض لها . وقد اوضحت روث بندكت أنه لايوجد بناء ثقافي يستطيع أن يستأصل الفروق بين أمزجة الاشخاص الذين يضمهم .

وليس الفرد مجرد آلة تسجيل لثقافته ، على الرغم من أنه يلعب دورا في التسجيل إذا مااستدعت الظروف ذلك . فالشخصية ليست مجموعة من الخصائص المنبثقة من التجارب الاجتماعية . ولكنها بناء فريد من العادات والقيم والاتجاهات والدوافع والحوافز لها تنظيمها المميز والديناميكي الخاص بها ، وينبغي أن ينظر إلى الشخص ككائن بوصفه كائنا نشطا يسلك وفق طرق مقننة وله القدره على التجديد والانحراف ويستطيع أن يؤثر بافعاله تأثيرا خطيرا على الثقافة ويغيرها .

٤ ــ المنظور الاجتماعي في مقابل المنظور النفسي :

أن القول بالمجتمع مقابل الفرد او الثقافة مقابل الشخصية قول خاطىء فكل

من المجتمع والفرد أو الثقافة والشخصية ليسوا وحدات منفصله متباينة تباينا كليا . ولكن كل منها يعتمد على الآخر . فالافراد لايوجدون بمعزل عن الثقافة والمجتمع . كما أن الثقافة والمجتمع لايتحققان تحققا فعليا إلا من خلال الشخصيات وسلوك الافراد . فالفرد فى آن واحد مشارك فى حياة الجماعة وحامل للثقافة وصاحب شخصية متميزة . ومن ثم فالمجتمع والفرد والشخصية مجرد تصورات متباينة لتوضيح طبيعة السلوك الانسانى . وقد ميز ادوار سايير تمييزا وصفيا بين هذه المنظورات المتباينة . فقال « إذا مارأيت ابنى يلعب البلى ، فاننى من حيث المبدأ احاول أن القى الضوء على طريقة اللعب . فكل شيء ألاحظه يفسر باعتباره اسهاما فى فهم شخصية الطفل . فهو إما جبان أو جسور وأما يقظ أو مضطرب .

ويمكن أن نتصور نفس عناصر السلوك بعبارات أخرى وهذا يعتمد على المنظور الذى نلاحظه من خلال السلوك .

إذ يمكن أن نشاهد السلوك الانسانى من خلال البناء وديناميكية الشخصية أو يمكن أن يلاحظ السلوك من خلال البناء الثقافى واداء العناصر الثقافية لوظائفها . فشراء معطف من الفرو يمكن أن يحلل كسلوك يقدم نوعا من اشباع الانا ، أو كسلوك يسهم فى تحديد مكانة المرأة فى المجتمع . وهذان المدخلان متباينان ، فأحداهما يتصل بعلم النفس والآخر ينطلق من علم الاجتماع .

وقد ادى تباين إهتمامات علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى تشوية كل تفسيرات السلوك الانسانى عند كل منهما . فعالم النفس عندما يهتم بالفرد ، فقد افتقد رؤية تأثير العلاقات الاجتماعية على الشخصية ، كذلك فعالم الاجتماع احيانا مايجعل من مفاهيم الثقافة والمجتمع شيئا ماديا ويحولها من مفهومات مجردة إلى وحدات نشطة محسوسة لديها القدرة والسلطة على تشكيل الناس والتأثير عليهم .

وكل مدخل من هذين المدخلين يساعدنا فى تفسير جوانب مختلفة من السلوك بيد أن احدهما لايكفى اطلاقا لتفسير عمومية وكلية السلوك . فعالم المجتمع ينشد تفسير استمرار مرض نفسى معين داخل جماعة معينة ، بينما يحاول عالم النفس أن

يفسر المرض النفسى لأفراد معينين بالذات داخل هذه الجماعة . وتباين المدخلين يتطلب استخدام مفهومات مختلفة ونظريات متباينة .

ومن الصعب أن نفسر تكرار اشكال السلوك النمطية السائدة فى ثقافة معينة طبيعة النظم الاجتماعية أو العلاقات الاجتماعية أو تنظيم الادوار الاجتماعية بالاستنا على خصائص شخصيات الأفراد . وكذلك من الصعب أن نفسر طبيعة شخصيات الافراد باعتبارها محصلة المجتمع وحده أو الثقافة وحدها .

والفصل بين علم النفس وعلم الاجتماع أمر عسير إذ أن تعقد الحياة الانسانية والتداخل المتبادل بين الفرد والمجتمع يجعل الفصل بين المنظور النفسى والمنظور الاجتماعي فصلا كليا أمرا عسيرا ، ومن الضرورى أن يستفيد كل علم من نتائج العلم الآخر . ويعتمد عليه عند تفسير ظواهره . فالاستجابات الفردية التى يهتم بها علم النفس هى محصلة أنماط معينة من المواقف الاجتماعية . فالاحباط مثلا يحدث دائما لأنّ الافراد عاجزون عن تحقيق الاهداف ، كما يلعب البناء الاسرى دورا هاما فى تحديد طبيعة عقدة أوديب كما وصفها فرويد كذلك فبعض الخصائص النفسية مثل العدوان والانسحاب والتسلط والخضوع وحب القيادة وكبت العواطف أو الانفعال يمكن أن تشجع أو يكف عنها بتأثير المستويات الثقافية .

وكذلك ينبغى على علم الاجتماع أن يهتم بدراسة الظواهر النفسية وعليه أن يستفيد من المفهومات النفسية : فالتنظيم الاجتماعى وكذلك القيم الاجتماعية يحدثان استجابات نفسية تلعب دورها فى تحديد انماط السلوك المتكررة . فالاستجابات النفسية التى تحدثها الثقافة قد يكون لها نتائج اجتماعية هامة .

ويرى بارسونز أن الفرد لايقهر على قبول قيم المجتمع بل يتوحد بها كذلك يخالف بارسونز دوركيم فى موقفه من استقلال الظواهر الاجتماعية عن الظواهر الثقافية ويرى أنه لايتصور وجود علم الاجتماع مستقلا عن الثقافة ، فعلم الاجتماع يجب أن يدرس الثقافة مثلما يدرس الظواهر الاجتماعية . كذلك عارض بارسونز

دوركيم فى موقفه من علم النفس وعلم الاجتماع ورأى أن الفصل بين العلمين أدى إلى قصور دوركيم عن فهم كثير من الظواهر الاجتماعية فهما واضحا . ورأى بارسونز أن فشل المدرسة النفسية والمدرسة الاجتماعية يرجع إلى الفصل بين كل ماهو فردى وماهو اجتماعى فصلا لامبرر له . فى حين أن هذه الظواهر تتشابك ويؤثر بعضها فى بعض لتكوين السلوك الانسانى فى الموقف . فقد رأى بارسونز أنه لايوافق على دراسة الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الظواهر النفسية والثقافية فكل منها يتضمن الاخر ذلك لان مجال بحث هذه العلوم كلها هو السلوك الانسانى . فالنظرة العلمية للظواهر الانسانية يجب أن تكون شاملة وتضم وجهتى النظر النفسية والاجتماعية بجانب تأكيد أهمية الثقافة فى تشكيل السلوك الانسانى . وقد أوضح بارسونز أن بناء الفعل أى بناء السلوك الانسانى ليس هو الكائن الحى ، بل بناء علاقات هذا الكائن الحى مع الموضوع الاجتماعى والموضوع الثقافى فى الموقف . وينشأ بناء الفعل نتيجة تفاعل انساق الشخصية والنسق الاجتماعى والثقافة . وماالشخصية أو البناء الاجتماعى أو الثقافة إلا مظاهر مختلفة لنسق الفعل الاساسى .

وهناك أربع نقاط تلاحظ دائما عند تحديد أو تصور الفعل (السلوك) أولها أن الفعل يوجه إلى ادراك غايات وأهداف أو امور أو مصالح متوقعة . ثانيا : أن الفعل ينظم معياريا . ثالثا : أن الفعل يتضمن كمية من الطاقة . رابعا : أن الفعل حدث لايتم إلا فى موقف . هذا الموقف يدل على العلاقات السائدة المنظمة بين المتفاعلين فى بيئة اجتماعية .

ويتكون الموقف من تفاعل الشخص والآخرين والموضوعات الثقافية معا . ومايحدث فى الموقف ليس عملا ارتجاليا . بل هو حدث منظم نتيجة التفاعل بين انساق ثلاثة هى الشخصية والنسق الاجتماعى والثقافى . ويؤدى تكامل هذه الانساق إلى تحقيق الفعل فى الموقف وهذه الانساق الثلاثة ضرورية للسلوك الانسانى أى لوجود الفعل الانسانى ، بيد أن دراسة هذه الانساق يقتضى تجريدها من كل نشاط وعزل كل منها عن الآخر .

وهذه الانساق الثلاثة ليست متماثلة من حيث ادراكنا لكل منها . فنحن ندرك الشخصية والنسق الاجتماعى بأعتبارهما اسلوبين للفعل. إما الثقافة فندركها كنسق الانماط الرمزية لتحديد الفعل وتنظيمه . ويصف بارسونز الشخصية والثقافة والنسق الاجتماعى بأنها كلها نماذج تصوريه لأشياء توجد فى العالم الخارجى . فهى أنساق للتصورات الحرة . ولكنها تدرك عقليا مجردة من النشاط .

كما لاتشبه هذه العلاقات بين هذه الانساق علاقة العالم الكبير بالعالم الصغير . رغم انها تصنع من مادة واحدة هى القيم الاجتماعية . ولايسبق أحدها الآخر وجوديا أو منطقيا . فالتلازم بينهما أمر حتمى . والعلاقة بينها علاقة تداخل وتفاعل. فبلا ثقافة لايوجد النسق الاجتماعى والشخصية . ويستحيل وجود الثقافة والنسق الاجتماعى بدون الشخصية ولن يوجد النسق الاجتماعى دون الثقافة والشخصية ، فكل من هذه الانساق الثلاثة ضرورية لتكوين السلوك . وكلها انساق لتكوين الفعل متلازمة ومتساوية فى القيمة ووجود أى منها يقتضى وجود الآخر .

ولكن مامعنى هذه الانساق الثلاثة عند بارسونز يرى بارسونز أن النسق الاجتماعى هو اطار التفاعل بين مجموعة من الاشخاص . ويتضمن جزءا من السلوك وينظم شخصية أعضائه . أما الثقافة فهى نسق المعانى الرمزية التى تتداخل فى بناء نسق التفاعل . وتجد عناصر الثقافة لها مكونات فى الشخصيات المكونة للنسق الاجتماعى . وتتجسم هذه العناصر الثقافية فى انساق الفعل . ولكن يمكن أن ندرك الثقافة مستقلة عن تجسداتها فى النسق الاجتماعى والشخصية ودراستها كانساق نمطيه متراكمة ، كما تنتقل من احد انساق الفعل إلى نسق آخر فهى تنتقل من نسق إلى آخر بالانتشار . وتنتقل من شخصية إلى أخرى بالتنشئة الاجتماعية ويتعذر استقرار الانسان فى ادائه لافعاله دون توحد الانماط الثقافية . فالانسان مخلوق لايستطيع ان يستغنى عن الثقافة .

أما الشخصية بصفتها احد الأنساق الرئيسية للسلوك.فيعترف بارسونز ان علاقتها بالانساق الاجتماعية ليست علاقة سهلة أو بسيطة. كما أن الشخصية

داخل الموقف ليست وحدة تصورية بل نسق تجريبى محسوس . والشخصية عنده نسق ذو نزعة ثابتة يهدف إلى تحقيق مستو عال من الاشباع . والشخصية ليست نتاجا اجتماعيا بحتا ، أو تكوينا بيولوجيا خالصا . بل هى نسق نفسى ضرورى لتحقيق السلوك فى الموقف ولاترد الشخصية إلى الثقافة أو إلى الانساق الاجتماعية رغم التفاعل بينها . فالعلاقة بين هذه الانساق الثلاثة علاقة تفاعل وتلازم وتداخل .

الفصل التاسع
العمليات الاجتماعية

يقصد بالعملية مجموعة من الاحداث التى تكون نمطا معروفا أو يحدث دائما . وان الشخص يلاحظ هذا النمط مرات كثيرة ويعرف ثيودور سن العملية بأنها نمط متكرر، من السلوك . وتعبر العملية الاجتماعية عن مجموعة من المتغيرات أو التفاعلات التى تؤدى إلى ظهور نمط متكرر مثل التعاون أو الصراع أو التنافس أو التوافق ولاتوجد عملية اجتماعية يمكن أن نطلق عليها انها خيز فى ذاتها أو شر فى ذاتها ولاتقيم العملية الاجتماعية أيا كان نوعها إلا فى الموقف الذى تحدث فيه كما تقدر بالنسبة لمجموعة من القيم أو المعايير ... والعمليات الاجتماعية مثل كل العمليات هى تغيرات فى البناء الاجتماعى ويلاحظ أن الكلمات التى تدل على العمليات الاجتماعية تستخدم لوصف المواقف التى تحدث فيها العملية فى مكان معين وزمان محدد وتتخذ العمليات عادة أربعة أشكال :ـ

١ ـ يحدث التفاعل بين مجموعات من الاشخاص .
٢ ـ أو بين شخص وآخر .
٣ ـ أو بين جماعة وجماعة .
٤ ـ بين شخص وجماعة .

ويرى بعض علماء الاجتماع بأن كل موضوعات علم الاجتماع تهدف إلى دراسة التفاعل الاجتماعى أى تهدف دراسة العمليات الاجتماعية . إذ يعد مفهوم التفاعل الاجتماعى مفهوما أساسيا فى البناء الاجتماعى والاقتصادى ويعنى عملية متبادلة بين قوتين اجتماعيتين أو اكثر .

ويقصد من أن العملية الاجتماعية عملية متبادلة أنه يؤخذ فى الحسبان سلوك الآخرين فكل فاعل يأخذ فى الأعتبار سلوك الآخرين واغراضهم، وكذلك فالعملية

الاجتماعية عملية رمزية ونعنى بذلك أنها تعتمد على اللغة والرموز الاخرى .

ويتم التفاعل فى صورة التعاون أو التوافق أو التنافس أو الصراع عند اداء الادوار داخل الأسرة أو فى المدرسة أو فى دور العبادة أو فى المصنع أو أماكن العمل أو النقابات أو المباريات الرياضية أو فى السوق أو بين الحكومات .

ونحن بالرغم من اهتمامنا بالعمليات الاجتماعية لانستطيع ان نتجاهل الاوضاع البيئية للوحدات الاجتماعية التى تؤثر فى ظهور نمط معين من السلوك واختفاء نمط آخر فمثلا تتزايد عمليات التنافس والحراك فى المجتمع الحضرى من أجل تحسين المستويات الاجتماعية والثقافية لتحقيق مستوى أفضل فسكان المدن يتحركون داخل المجتمع ويتنافسون لشغل مراكز أفضل كما انهم أحيانا مايتصارعون إذا ماضاقت بهم سبل الرزق . ولكن الصراع لايذهب إلى آخر مدى إذا سرعان مايتوافقون ويتمثلون الجديد .

١ ــ التنافس :

عرف بيرجس وبارك التنافس بأنه عملية أساسية يتحدد من خلالها نظام التوزيع فى المجتمع . إذ يحدد التنافس توزيع السكان فى المجتمع وانتشارهم فى مناطق معينة وتوزيع الدخول وتوزيع المهن . كما يؤثر التنافس على نظام تقسيم العمل وكذلك تنظيمات الافراد . والجماعات التى تميز المجتمع الحديث هى محصلة عملية التنافس وتعد عملية التنافس عملية لاشخصية بمعنى أن الشخص لايعى اطلاقا أنه يتنافس مع الآخرين من أجل ارساء وتدعيم قيم معينة وقد يعى فى بعض الحالات والمجالات أنه ينافس الآخرين ويريد التفوق عليهم ورغم ذلك فانه لايرتبط معهم بأى تعاقد شخصى ، فالفلاح لايعى اطلاقا أنه ينافس ملايين الفلاحين فى بلده وخارج وطنه لتحديد سعر القطن .

ويظهر التنافس عادة نتيجة ندرة السلع المطلوبة وقلة المراكز والخدمات المرغوبة . وتدعم التقاليد والعادات والقانون النضال للحصول على هذه السلع النادرة أو شغل المراكز المحدودة وتضع هذه العادات والتقاليد القيود أمام التنافس المطلق وغير المطلق وغير المقيد ، بل نادرا مايحدث مثل هذا النوع من التنافس ،

حتى فى الأفعال الاقتصادية يحرم على أعضاء المجتمع التنافس بلا قيود ولاضوابط إذ تحدد بعض القيود الاجتماعية اطار عملية التنافس .

فمثلا تجد فى مباريات كرة القدم أو مباريات المصارعة كل فريق يرغب فى احراز النصر . ولكن كل فريق يعرف أن احراز النصر لايتحقق إلا وفق قواعد اللعبة . أما تحقيق النصر بالاعتداء على قانون اللعبة فيعنى على الأقل فقدان مذاقه وحلاوته .

ويحدث التنافس بين شخصيتين متكافئتين أو فريقين متساويين . كذلك فالقوانين التى تمنع الاحتكار هى محاولة لتأكيد التنافس بين تنظيمات اقتصادية بما يمنع من سيطرة تنظيم معين على السوق وابتلاعه لتنظيم آخر .

والتنافس عادة نضال غير شخصى بين وحدات اجتماعية من أجل الوصول إلى أهداف معينة أو تأكيد قيم معينة وفق قواعد اجتماعية وقوانين التنافس مقر بها اجتماعيا إذ يبغى التنافس عادة الحصول على المال أو السلع أو المكانة الأعلى ذات القوة والسلطة .

وتعلم أهداف التنافس عادة أثناء عملية التنشئة ويدرب الشخص منذ طفولته على التفاعل فى مواقف يتضح فيها التنافس . وتدعم ثقافة المجتمع هذه المواقف عادة . والتنافس فى الفصول الدراسية أمر ضرورى للتحصيل الدراسى والنجاح فى المدرسة .

ويدرب الاطفال على التنافس اثناء سنوات الطفولة الاولى . وقد يظهر هذا النمط من السلوك قبل العام الخامس بالرغم من أن التعاون هو سمة سلوك الاطفال وقد يتنافس الاطفال لنيل حب الوالدين أو يتعلمون التنافس أو التفوق على الآخرين داخل الفصل المدرسى. ويدرك الطفل أهمية التنافس فى الحياة حتى أنه يدرك أن ثمة أهدافا معينة هامة ومكانات يمكن ادراكها . ويعد التنافس خاصية هامة فى المجتمع الحديث فهو عامل عام نتيجة للتغير إذ تتنافس الهيئات والنقابات وتنظيمات العمل من أجل زيادة الانتاج ورفاهية المجتمع مما يؤدى إلى تغير المجتمع .

كذلك قد يدفع التنافس الافراد إلى تبنى اشكال جديدة من اشكال السلوك الانسانى لتحقيق الاهداف المرغوبه . وتتطلب هذه الاشكال الجديدة من السلوك التجديد فى أساليب الانتاج أو تحقيق انتاج اكثر كفاءة أو تبنى قيم جديدة تؤكد الانجاز والعمل بدلا من قيم تقليدية تؤكد التواكلية وعدم احترام الوقت .

والتنافس نتيجة تترتب على تغيير المجتمع . إذ يتبنى المجتمع المتغير عادة قيما جديدة وينادى بأهداف جديدة غير تلك القيم والاهداف السائدة فى المجتمع المغلق . ولذا يتنافس الافراد لبلوغ تلك الاهداف الجديدة وتأكيد القيم الجديدة ليتبوءوا مكانة جديدة فى المجتمع المتغير .

وهناك نقطة هامة يجب أن توضح وهى أن الارتباط بين التنافس والتغيير ليس ارتباطا عرضيا ولكنه ارتباط أساسى . فالمجتمع المتغير عندما يستبدل بالقيم والاهداف التقليدية قيما واهدافا جديدة يصبح التنافس أمرا لامفر منه لنيل المكانات الجديدة والسيطرة على مراكز القوة ومصادر الثروة .

٢ ـ التعـــاون :ـــ

ويقصد بالتعاون الاتحاد والتآلف والتآزر من أجل تحقيق هدف محدد كالنجاح . ويمكن لنا أن نفرق بين التعاون والتنافس فى اطار الوسيلة والغاية فكلاهما يعبر عن شكل معين من اشكال التفاعل الاجتماعى سواء بين فردين أو اكثر . ويحدث التنافس بين البعض عادة لتحقيق غاية أو اكثر . اما التعاون فيتم بين كل اعضاء الجماعة وقد يتعاون أعضاء الجماعة كلهم لمواجهة منافسة جماعة أخرى كما يحدث فى مباراة كرة القدم إذ يتعاون الاحد عشر لاعبا معا لتحقيق اهداف واحدة أمام الفريق المنافس .

فالتعاون اذن شكل من اشكال التفاعل الاجتماعى بين عدد من الاشخاص يعملون سويا لتحقيق غاية معينه . ومجالات التعاون اكثر من مجالات التنافس أو مجالات الصراع . فمنذ الماضى البعيد حتى الحاضر والناس تتعامل معا ، وماتقدم الانسانية المستمر ابتداء من عهد آدم حتى عصرنا الحاضر إلا نتيجة مستمرة

للتعاون البشرى ومامحاولة تحريك جبال الجليد من القطب الشمالى حتى صحراء الجزيرة العربية لاستغلالها واستخدام الذرة فى خدمة السلام وانتشار استخدام الادوات التكنولوجية فى كل بقاع العالم إلا مظاهر بسيطة لروح التعاون التى تسود العالم الآن .

وقد فهمت مقالة داروين المشهورة البقاء للأصلح فهما خاطئا . إذ قصد داروين من تلك العبارة أن التنافس اكثر قسوة بين أفراد الجنس الواحد وإذا ماطبقنا ذلك على الانسان نجد أن مقصد داروين تأكيد اهمية التنافس فى المعنى الظاهر للعبارة وتأكيد أهمية التعاون فى تأكيد التماسك والعمل الجماعى باعتبار أن العمل الجماعى دائما هو العمل الأصلح .

ويتضح دور التعاون أو تبادل المساعدات فى مجالات اجتماعية عديدة ابتداء من الأسرة مرورا بالمدرسة ثم وحدات الانتاج . فالاسرة تقوم على تعاون الزوجين وعلى العناية بالاولاد وتنشئتهم تنشئة اجتماعية صالحة واعداد الطعام والتعاون معا للتغلب على ظروف البيئة .

ويأخذ التعاون اشكالا مختلفة وتتباين مجالاته . وأصغر صورة للتعاون نجدها فى الأسرة الزواجية . كما أن اكبر صورة له وأوسع مجال يتحقق فيه التعاون نجده فى الهيئات الدولية التابعة لهيئة الامم المتحدة . وبين هذين الطرفين توجد أشكال أخرى للتعاون نجدها بين الاطفال عندما يلعبون سويا فى لعبة شد الحبل وفى المصنع بين العمال والادارة لزيادة الانتاج . أو بين أفراد الشعب كله على مستوى الدولة لمواجهة عدو خارجى أو بين مجموعة من الدول كما يتحقق ذلك فى مجموعة دول السوق الاوربية المشتركة أو دول حلف وارسو . وثمة فرق بين التعاون على مستوى الأفراد أو التعاون على مستوى الدولة والجماعات . فالافراد يتعاونون لتحقيق غايات فردية بينما الجماعات تتآزر من أجل أهداف عامه .

ويرى تشارلز كولى أن التعاون والصراع ليسا شيئين منفصلين وأنما هما وجهان لعملية اطراديه واحدة تشمل الاثنين معا . وتفصيل ذلك أن الناس عندما يتعاونون فيما بينهم تكون مصالحهم متوافقة إلى حد محدود . وحتى فى العلاقات

الودية جدا فهناك أوقات تتعارض فيها المصالح أو تظهر مواقف متعارضة بالنسبة للافراد المتعاونين . وكما نعرف فان اوثق انواع التعاون تتم داخل الأسرة ولكن ذلك لايمنع من حدوث المشاجرات . والاخلاص لقضية معينة لايمنع من حدوث الخلاف فى الرأى بل والأنشقاق أحيانا ...

وقد يتعاون الناس معا لتحقيق مشروع اقتصادى ضخم كتكوين شركة مساهمة مثلا أو التعاون للقضاء على خصم أو عدو خطير كما تعاونت روسيا مع امريكا ومع دول اوربا الغربية فى القضاء على النازية وكما تعاونت الدول العربية معا فى اكتوبر ١٩٧٣ م .

وقد يكون الدافع إلى التعاون شعوريا وله مبرراته العقلانية فيتعاون الافراد معا لاقامة مشروع اقتصادى ضخم وقد يكون الدافع إلى التعاون لاشعوريا ولايستند على قواعد مثلما هو الحال عندما يتعاون الناس فى اقامة الشعائر والموالد . وقد يكون التعاون لاشعوريا فقط مثلما يتعاون الفلاحون على اطفاء حريق فى القرية .

ويعكس تعاون الناس معا وتآزرهم على أداء فعل معين وتحاشى اداء فعل آخر طبيعة القيم الاجتماعية السائده ، والتعاون مثله مثل التنافس محصلة عملية تربوية وتدفع اليه عادة أسباب اقتصادية واجتماعية .

وترتبط قيم التعاون بالشعور بقوة الاتحاد والاندماج فى الجماعة والانتماء اليها . فالتعاون يتجسد فى القيمة ويعنى الايمان بتبادل الخدمات بين الافراد على قدم المساواة ، والتأكيد على مبدأ الاخذ والعطاء وتضافر الجهود لمقاومة العوائق أمام نشاط الجماعة . أما اللاتعاون فسلوك شاذ مستهجن ويعنى قسمة جائرة بين افراد المجتمع تجعل البعض محظوظا يتمتع بكل شيء فى المجتمع والبعض الآخر مستغلا لايكاد يحصل على مايقيم أوده . فالتعاون مظهر من مظاهر التماسك والقوة والوحدة ويدل على الايمان بقيم المساواة والعدل .

والتعاون شأنه شأن كل القيم التى تنظم السلوك يبدو فى مجالات النشاط اليومية وفى مجالات الاقتصاد ، وفى مجالات الخدمات الاجتماعية ، وفى مجالات

السياسة ، وعندما تتماسك الجماعات لمواجهة عدو خارجى . وتبدو أبسط صور التعاون فى مجالات لعب الاطفال . فالتعاون كعملية اجتماعية تجسيم لرسوخ القيم الجمعية والتخلى عن المصالح الشخصية فى سبيل المجتمع والبذل والعطاء من أجل الآخرين .

والتعاون قيمة هامة فى المجتمع الاشتراكى ويؤكد شكلا عاما للعمل لأن التعاون يزيد من الانتاج ، وله فوائد جمعية وهو تعبير عن تماسك الجماعة ، وتعبير عن تفوق العمل الجماعى على العمل الفردى .

والايمان بالتعاون محصله عملية تربوية ، فمن الصعب أن يمارس الطفل أو البالغ التعاون ، ويدفع إلى المشاركة الجماعية ويؤمن بالتعاون اسلوبا لتنظيم سلوكه دون ممارسته والتمرن عليه لفترة طويلة . أى ان التعاون كقيمة يكتسبها الشخص اثناء عملية التنشئة الاجتماعية ، وهى تظهر فى مرحلة متأخرة من حياة الصبى تعقب مرحلة مركزية الذات .

والتعاون له صوره واشكاله فى المجتمعات المختلفة . ففحواه فى المجتمع الرأسمالى غير فحواه فى المجتمع الاشتراكى غير فحواه فى بعض دول العالم الثالث مثل اليمن . ويؤكد التعاون فى المجتمع الاشتراكى على العمل الجماعى لأن التعاون يزيد من الانتاج وله فوائد جمعية . وهو تعبير عن تماسك الجماعة وتمييز للعمل الجماعى على المستوى الفردى . ويرى الاشتراكيون ان المجتمع الرأسمالى يستغل التعاون كعملية اجتماعية فى العمل لصالح البرجوازيين من أجل اثرائهم الذاتى وضد مصالح الكادحين ، وهو وسيلتهم فى مضاعفة الثروة .

أما التعاون فى المجتمع الاشتراكى فيهدف إلى تبادل الخدمات ويساعد على تصفية التناقض بين القرية والمدينة وازالة الفوارق بين الطبقات الاجتماعية . كما يجتاز حدود الوطن إلى العوالم الاخرى .

وتعبر الجمعيات والهيئات التعاونية عن شكل بسيط من اشكال التعاون فهى تخدم المستهلك فى الريف والحضر ، وتوفر للفلاح مايحتاجه من آلات وبذور واسمدة أو تسويق أو منحه القروض التى تساعد على بناء المسكن وكلها مظاهر

بسيطه للتعاون تهدف إلى تدعيم الحياة الجمعية .

والتعاون كعملية ضرورية لبقاء الجماعة واستمرارها تعنى تبادل الخدمات والاستفادة من تجارب الآخرين-وتضافر الجهـود وترابطها من أجل عمل مشترك ايا كان هذا العمل . سواء أكان عملا رياضيا أو اقتصاديا أو سياسيا أو عسكريا . والسلوك التعاونى من الشخص طفلا كان أم صبيا أم راشدا يعنى ادراك الطفل لذاته ولجماعته وبداية الحياة الجمعية عند الشخص وايمانه بأن التعاون فى كافة المجالات يعنى زيادة الجهد والطاقة .

الصـــراع :ـــ

كان الاتجاه الرئيسى للتفكير الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يقلل من اهمية الدور الذى يلعبه الصراع الاجتماعى . ومنذ كونت اهتم علماء الاجتماع ببيان النظم الضرورية لتحقيق التكامل الاجتماعى والتجانس . وأدى ذلك إلى ظهور نظريتين تقومان على فرضين متعارضين . وقد افترض الاتجاه المؤمن بهوبز أن ثمة حالة اجتماعية أولية يقيم فيها حرب الجميع على الجميع . وقد عزز هذا الاتجاه الفكرة الداروينيه عن الصراع من أجل البقاء . أما الماركسيون فيرون أن ثمة صراعا جذريا بين المصالح فى المجتمع ينبق عن علاقات الناس المختلفة مع وسائل الانتاج يؤدى إلى الصراع الطبقى الدائم .

ولقد اهتم كثير من علماء الاجتماع بدراسة الصراع لتفسير التغير والتقدم الاجتماعى ، وأشاروا إلى ان الصراع صفة أساسية للانساق الاجتماعية وجزء اساسى من تركيب التنظيم الاجتماعى . ورأى اصحاب هذا الاتجاه أن النظرة التى تغفل الصراع عند دراسة العلاقات فى المجتمع ، وعند تفسير التغير الاجتماعى نظرة قاصرة . فالصراع يولد الشعور باضطراد السلوك ويدعم الشعور بالذات ، ويبرز حقيقة أن السلوك قائم على دعامة عقلية ، وبهذا يحقق الصراع التكامل والسيطرة أو التبعية بين الجماعات المتصارعة .

وقد اتجه الاجتماعيون فى دراساتهم للصراع اتجاهات متباينة فالاتجاه الماركسى يرى أن الصراع منبعه اقتصادى ، وهو يدور بين الطبقات المختلفة . أما الاتجاهات

الغربية فى علم الاجتماع فقد ذهبت اتجاهات اخرى .

ويرى الماركسيون أن الصراع الطبقى هو أهم صور الصراع . وينشأ هذا الصراع بين الطبقات الكادحة والطبقات المستغلة فى ظروف تتنافس فيها ملكية وسائل الانتاج مع طبيعة نظام الانتاج وإلى تفاوت توزيع الثروات ، فتحتكر فئة الربح العائد من العمل لصالح الاقلية وتحرم الاغلبية من نتاج عملها. ويدفع نظام الملكية الخاصة المستغلة لوسائل الانتاج جماهير الكادحين إلى التمرد والنضال والعنف ضد الطبقات المستغلة . والشعور نحوهم بالكراهية والمقت . كذلك يشعر اصحاب رؤوس الأموال المستغلين بنفس الشعور تجاه طبقات الكادحين مما يؤدى إلى ايقاف التقدم الاجتماعى . ويصير نظام الملكية الرأسمالية عقبة دون التقدم الاجتماعى والتكنولوجى مما يؤدى إلى تفكك المجتمع . وقد أعطى الماركسيون أهمية خاصة للصراع ، فأظهروا وظيفته الايجابية عندما بينوا أن الطبقة تعرف نفسها من خلال الصراع . كذلك أشار الماركسيون إلى ان التناقض بين مصالح الطبقات الكادحة والفئة المستغلة تناقض جذرى يحل بالصراع الدموى . وثمة تناقضات ثانوية تكمن فى المجتمع يمكن حلها حلا سلميا .

بيد أن علماء الاجتماع الغربيين قد أنكروا وجود الصراع الطبقى الناشىء عن الظروف الاقتصادية السيئة ويرون أن الصراع كعملية تنشأ بين عناصر البناء الاجتماعى أى مجموعة العلاقات الاجتماعية المتضمنة بين اعضاء المجتمع وبين البناء الثقافى — اى مجموعة القيم المعيارية التى تحكم السلوك — وبلغة ميرتون يحدث الصراع عند الاصطدام بين الوسائل التنظيمية للبناء وبين الاهداف الثقافية . إذ أن البناء قد يقف عقبة أمام تحقيق المطالب الثقافية والقيم لبعض الأفراد الذين يشغلون مراكز اجتماعية فى البناء . فالبناء الاجتماعى يؤدى إلى اجهاض القيم الثقافية السائدة ، وبالتالى إلى انهيارها . وتسهل الظروف البنائية اداء السلوك لبعض الذين يحتلون مراكز معينة فى البناء . أو تعثر اداء أدوار معينة لبعض الذين يشغلون مراكز اخرى أو تجعل ادائها مستحيلا . ولايحدث هذا إلا فى المجتمع الذى يتسم بالتنافر وعدم التكامل بين البناء الثقافى والبناء الاجتماعى حيث يدعو البناء الثقافى إلى مجموعة من القيم والاتجاهات ، ويؤيد نماذج من السلوك يرفضها

البناء الاجتماعى .

ويكشف لنا الصراع بين الجماعات عن مجموعة من الاهداف الخاصة بكل جماعة ومجموعة خاصة من الأساليب لتحقيق هذه الاهداف . ويستمر هذا الصراع الداخلى بين الجماعات ، بلاحل مادامت الجماعاتِ المتصارعة توجه افعالها وتمتدح انماط السلوك والقيم والمصالح والاهداف الخاصة بها ، دون اهتمام بمدى توافقها وانسجامها مع قيم واهداف الجماعات الاخرى .

وقد استمر هذا الخلاف حول دور الصراع داخل الانساق الاجتماعية فى علم الاجتماع المعاصر ، سواء فى علم اجتماع الوحدات الصغيرة الذى يدرس الادوار الاجتماعية والعلاقات أم فى علم اجتماع الوحدات والمجتمعات الكبيرة الذى يتسع ليدرس الانساق الاجتماعية والثقافية .

وقد ركز الانتباه فى نظرية تالكوت بارسونز . على ما أسماه بارسونز (العلاقات الاجتماعية التنظيمية) أى العلاقات الاجتماعية التى يعرف فيها الفاعل توقعات سلوك الآخر ، ويفهمها ويحققها . لكن من الواضح أن ثمة أسبابا اجتماعية أخرى للصراع أولها امكانية عدم فهم هذه التوقعات ، والآخر امكانية تفهم التوقعات وعدم تحقيقها . والاحتمال الاخير هو حالة الصراع التى يدرسها علم اجتماع الوحدات الصغيرة الذى يدرس الادوار الاجتماعية والعلاقات .

وقد يتخذ الصراع صورا شتى ويجوز أن يكون محدودا منظما . فعندما يتنافس فردان تنافسا سلميا للسيطرة على مصادر محدودة فأننا نتحدث عن التنافس بدلا من أن نتحدث عن الصراع وعندما يتنازع فردان لهما مصالح متضاربة فى نطاق التبادل فاننا نتحدث عن المساومه. وحينما توجد المساومة والمنافسة الحره فى وقت واحد فاننا نتحدث عن موقف السوق . ولكن موقف السوق قد يتحطم إذا وضع قيد على المنافسة وشرعت اطراف المساومة فى السوق فى اجبار الغير بالقوة على الخضوع لمصلحتهم الشخصية بفرض العقوبات . وفى تلك الحالات يفسح موقف السوق مجالا لموقف الصراع ولايحل هذا الموقف الا بتوازن القوى .

وقد مال كثير من علماء الاجتماع فى تفسيرهم لنظم المجتمعات الصناعية الحديثة إلى تأكيد التكامل بين النظم الاجتماعية وإلى وضع نسق يدعم هذه النظم ويتطلب القبول المتبادل للطرفين فى كل هذه الانظمة مدركين بذلك امكانية أن بعض هذه النظم تقوم على عمليات الصراع المنظم فى السوق ، وفى مقابل ذلك ، تؤكد نظرية الصراع أن ثمة صراعا داخل النظام وبين النظم وأن عمليات الصراع المختلفة المنظمة والسلمية للسوق قد تفسح الطريق لبداية صراع مدمر .

وقد انبثقت المحاولة الرئيسية لصياغة نظرية الصراع من كتابات كارل ماركس دارندورف .ففى النظرية الماركسية يوجد أساس الصراع فى ثنايا العلاقات الاجتماعية للانتاج . وهكذا فكل النظم الاجتماعية المدعمة تدعم الجوانب المختلفة فى هذا الصراع ويختفى التصور الاحادى للنسق الثقافى الاجتماعى . وترى الماركسية أن النظم السياسية والاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى تمثل السيطرة السياسية والاقتصادية البرجوازيه ، وفى مقابل ذلك فثمة وجود لاقتصاد سياسى للطبقة العاملة . ويعمم الصراع بين الطبقات حول العلاقات الاجتماعية للانتاج ليصبح صراعا فى كل المجالات ويتحول النسق الاجتماعى إلى نسق مكون من معسكرين كبيرين متحاربين .

ويرى دارندورف من جهة أخرى . أن الصراعات التنظيمية الداخلية تحدث للاستيلاء على السلطة فى كل النظم وليس ثمة حاجة بالضرورة لانتشارها . وبصفة خاصة فقد رأى ، ان الصراع الصناعى صار صراعا منظما وانحصر فى مجال تنظيمى خاص . ولقد لفت لوكورد الانتباه إلى أهمية الصراع بين الانساق الفرعية التنظيمية وأعطى مثالا بين فيه أنه لايرى التجانس ضروريا بين النظام الصناعى والنظام التعليمى .

وقد أثبت كل من لويز كوزر وجلوكمان أن النظرية الوظيفية التقليدية لاتعطى الصراع وزنا كافيا ، ومن ثم ينبغى أن تراجع لتعطى الصراع أهميته الحقيقية . وكلاهما يرى أن الاستقرار الاجتماعى يستلزم عدم وجود أى مظهر من مظاهر

الصراع الجانبية التى تكفل أن يكون المرء حليفا لاحدى الجبهتين وعدوا للجبهة الاخرى .. ويرى كوزر أيضا أن تفكك الاتفاقيات التنظيمية التى تتيح وضع حدود لبعض العلاقات الاجتماعية بعد محاولة تجربة القوة بين الطرفين المتنازعين يؤدى إلى استقرار اكبر مما يكفله بناء اكثر جمودا .

ومن المقبول فى علم الاجتماع ان الصراعات المنظمة من هذا النوع سمة ثابتة ودائمة لكل الابنية الاجتماعية . بيد أنهم لايفسرون الصراعات الاجتماعية المدمرة تفسيرا ملائما . وفى هذا المجال لازلنا فى حاجة ماسة إلى دراسات نظرية وتجريبية واسعة فى علم اجتماع الثورة السياسية . وتظهر هذه الحاجة فى محاولات مراجعة الماركسية للتسليم بوجود عدد أكبر من الطبقات كما نجدها فى كتابات كارل مانهايم ورايت ميلز .

يتميز الصراع عن التنافس عادة بأنه يعنى محاولة بين شخص أو اكثر من اجل الوصول إلى هدف معين يتعارض مع هدف جماعة أخرى أو شخص آخر . وفى حالة التنافس يؤكد عادة على الحصول على السلع النادره أو اكبر نفع مع ترك قدر يسير للمتنافسين الاخرين الذين يسمح لهم بمزاولة نشاطهم . إما فى حالة الصراع فيؤكد على الحصول على أى كسب أو عائد حتى لو تطلب الامر ايذاءهم .

والصراع ايضا مظهر من مظاهر التفاعل . وقد يقوم الصراع بين جماعتين أو بين شخصيتين . وأحيانا مايكون الصراع شعوريا وتحكمه العواطف والامزجة وعواطف الحقد والكراهية والخيانة . وأحيانا مايكون الصراع لاشعوريا وتحكمه أسباب دفينة مترسبة عبر أجيال من السنين . وقمة الصراع نشوب الحرب والقتال .

والمجتمع المنظم الذى يقوم على انماط منظمة من التوقعات المتبادلة يرغب فى أن يقلل عادة من الصراعات سواء الصراع بين الاشخاص أو الصراع بين الجماعات . والاداء الوظيفى المنتج يتطلب الحد من الصراعات والسيطرة على مصادرها وإلا هدد الصراع الاستقرار الاجتماعى . وماحرب فيتنام ببعيدة .. فرغم

تفوق امريكا التكنولوجى فانها انهكت اقتصاديا وخرج كلاهما من الحرب مهزوم وصورة اخرى للصراع صورة الصراع العربى الآسرائيلى والذى بدأ من عام ١٩٤٨م . ويحاول أعضاء المجتمع الواحد أن يقللوا من فرص الصراع الداخلى التى تظهر العداوات وتتجلى خلالها العنف بين الجماعات المختلفة . وتعد عادة الأخذ بالثأر فى بعض قرى محافظة اسيوط صورة مبسطه للصراعات الداخلية كذلك القتال الدائر الآن فى لبنان بين القوى التقدميه والقوى الرجعية يعد صورة واضحة للصراع الداخلى بين ابناء الوطن الواحد والذين يلجئون للعنف لحل مشكلاتهم .

ويؤكد الصراع عادة الفروق بين الناس وتباين عقائدهم وقيمهم وتجاهل الاهداف العامه ونجد أوضح الأمثلة للصراع فى الهند . عندما تنشب الحروب بين الطوائف المختلفة . كذلك الصراعات المتكرره فى الفلبين بين الجماعات الدينية المختلفة . وايضا الصراع بين الزنوج والبيض فى الولايات المتحدة الامريكية وأيضا الصراع الدائر عادة فى جنوب افريقيا بين الوطنيين والمستعمرين وتحكم الصراع قيم أساسية وقد تكون هذه القيم قيم دينية مثل الصراع بين المسلمين والمسيحين فى الفلبين أو قيم سياسية واقتصادية مثل الصراع الدائر فى جنوب افريقيا أو قيم اقتصادية مثلما حدث فى بعض البلدان الاشتراكية بين من يملكون ومن لايملكون .

وإذ ماتجاهل المتصارعون القانون والقيم الانسانية قربوا اكثر فاكثر من أعمال العنف والتدمير وداسوا كل القيم التى تؤكد كرامة الانسان .

٤ ـ التكيف :

نشأ هذا المصطلح أصلا فى علم الاحياء ليدل على العمليات التى بها يتؤام الكائن الحى مع البيئة . ويستخدم التكيف فى علم الاجتماع استخداما غير دقيق ليدل على التكيف والكيفيه التى يتلاءم النسق الاجتماعى بها سواء أكان جماعة صغيرة مثل الاسرة أم كان تجمعا كبيرا مثل تنظيم ما ، أو المجتمع الكلى كالمجتمع القبلى مع البيئة الطبيعية أو الاجتماعية . وقد أكدت النظرية البنائيه الوظيفية أن النسق القادر على التكيف شرط من الشروط البنائيه

الاولية لمواجهة مشكلة وظيفية يفرضها البقاء . وفى أى نسق اجتماعى كى تفى التنظيمات الاقتصادية والتكنولوجية بحل هذه المشكلة .

ويقصد بتلك العملية تسوية الخلافات وازالة المعوقات وتتضح العملية عادة فى أعقاب الحروب أو بعد تصفية الصراعات والقضاء عليها ويعنى التكيف التوائم مع الظروف الجديدة .

٥ ــ التمثيل :

يستخدم هذا المصطلح فى علم الاجتماع ليدل على العملية التى بها تندمج الاقلية المهاجرة أو السلالية اندماجا اجتماعيا فى المجتمع الذى تقبلهم . وينبغى أن يفرق بين هذا الاستعمال واستعمال مصطلح التمثيل فى علم الاحياء فهو هنا يدل على امتصاص بيولوجى أو تهجين . فالتمثيل الاجتماعى يتضمن اختفاء عناصر البيئة الاصلية للاقلية وزيادة مشاركتهم فى الانساق الاجتماعية لجماعة الأغلبية ، ويعنى بتثقيف جماعة الاقلية تثقيفا يكفى لذوبان شخصيتها المميزة نهائيا . وفى الوقت نفسه افترض ان هذه العملية تتضمن تغيرات فى الجماعة المهاجرة فقط وأن ثمة مراحل متوسطة تتميز بعدم الاستقرار والصراع . بيد أن ايزنستاند أشار إلى أن التغيرات فى المجتمع الذى يقبلهم قد تحدث اثناء الاتصال مع المهاجرين . وأن ثمة حالة من التجمع الثقافى تنشأ نتيجة التوازن المستقر .

وقد عرف بيرجس التمثيل بأنه عملية تفاعل وتبادل فهى عملية انصهار يكتسب بها الافراد والجماعات ذكريات الجماعات الاخرى ومشاعرهم واتجاهاتهم وتجاربهم ويذوبون معهم فى حياة ثقافية عامة .

وتلك عملية تدريجية تتطلب مشاركة الجماعة الأولى للجماعة الثانية فى مظاهر الانشطة المختلفة والاحتكاك بهم أما بطريق مباشر أو غير مباشر واكتسابهم ببطء مجموعة من انماط السلوك وأكثر الجماعات تقبلا لعملية التمثيل جماعات المهاجرين والذين يتمثلون اكثر من غيرهم عادات المهجر وقيمه وتقاليده كما أنهم اسرع كثيرا فى التوحد مع طريقة الحياة فى الموطن الجديد .

ولاريب أن القدرة على الاتصال هو الطلب الأول والاكثر اهمية لتحقيق عملية التمثيل . وفى الحقيقة فان الاتصال ضرورى لكل تفاعل اجتماعى بيد أن الاتصال اللازم لحدوث التمثيل يختلف حتما عن الاتصال اللازم لحدوث التنافس .

فالاتصال ضرورى لحدوث التمثيل . ولكن قد يتنافس الناس دون أن يحدث بينهم اتصال مثلما هو الحال بين المتنافسين على النجاح فى امتحان الثانوية العامة .

واللغة المشتركة عنصر اساسى لحدوث عملية التمثيل . لان اللغة تسهل المشاركة فى حياة الآخرين . وقد يكون الاتصال شخصيا ومباشراً . وهذا هو أسرع انواع التمثيل . وقد يكون الاتصال عابرا وغير مباشر ، واحيانا مايكون الاتصال شفويا من خلال أجهزة الاتصال وأحيانا مايكون مكتوبا من خلال الكتب والمجلات واحيانا مايكون الاتصال مواجهة شخصية بين الاطراف وهو اكثر انواع التمثيل تأثيرا .

وعملية التمثيل جزء اساسى من عملية الحياة وبقدر مايتعلم المرء المشاركة فى توقعات وتجارب الجماعات الاخرى بقدر مايستطيع أن يتعلم اللغة ويسهل له الحصول على عمله وقراءة الصحف وسماع الراديو والاشتراك فى الانشطة الاجتماعية .

ولاتحدث عملية التمثيل فجأة ولكنها تتطلب وقتا وخاصة بالنسبة للمهاجر وكلما ازدادت المدة التى قضاها فى الموطن الاصلى كلما صعب عليه تمثل الحياة الجديدة والتوافق الكامل مع المجتمع الجديد ، وتصبح عملية التمثيل عملية صعبة لصعوبة التخلى عن الانماط القديمة التى تكون جزءا متكاملا من الشخصية .

وهذه العمليات الاجتماعية موجودة فى كل المجتمعات ولكن بعض المجتمعات تؤكد اشكالا معينة من اشكال التفاعل الاجتماعى وتنبذ عمليات اخرى . فكل العمليات موجودة فى كل المجتمعات وإن تباين تأكيد وتفضيل عمليات معينة ورفض عمليات أخرى . كذلك ينبغى أن نعى أنه لايوجد مجتمع يحكم التعاون

سلوك كل إعضائه . ولايوجد مجتمع يعم الصراع كل طوائفه وجماعاته . ولكن قد تغلب عمليه أو اكثر على العمليات الاخرى . فالتعاون والتنافس والصراع كلها عمليات موجوده فى المجتمع الواحد وان تفاوتت شدة أو غلبة عملية اجتماعية معينة على العمليات الاخرى .

وفى الحقيقة إذا مادرسنا العمليات الاجتماعية فان الصفات الديناميكية للمجتمع تقودنا إلى بحث مشاكل التغير الاجتماعى .

الفصل العاشر
التغير الاجتماعى

ثمة دراسة طريفة عن أثر ترام القاهرة على حياة القاهريين ، تبين ارتباط استخدام بعض مظاهر التكنولوجيا الحديثة وهى الترام بتغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية لاحقه ، يقول . أحد الباحثين[1] يعتبر يوم ١٢ اغسطس ١٨٩٦ ، وهو اليوم الذى سارت فيه قطارات الترام تشق شوارع العاصمة حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى إذ انتقل فيه من البداوة والتأخر الذى يتمثل فى استخدام الحمير والخيل وسيلة للانتقال إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام الطاقة الكهربائية فلم يكن الحراك المكانى بالامر السهل ، فالشوارع مملوءه بالحفر واكوام الفضلات .. وكان الانتقال يتم نهارا لان العربات كانت خالية من المصابيح ... لذا فقد كان سكان كل حى يعيشون بمعزل عن سكان الحى الاخر . وقد ظلت الحالة على ذلك حتى ظهر الترام ، فاحدث ثورة هائلة فى حياة المجتمع القاهرى . ويقول الباحث نفسه ان انشاء الترام ساعد على تحويل المجتمع من الحياة الجمعية إلى الحياة الفردية . فقبل انشاء الترام كان اهل الحى يجتمعون فى الدور ويتزاورون فى القصور ويحدث الحادث فيخوضون فى ذكره وتنزل النازلة فيجمعهم الالم على العمل على ازالتها ، ولقد عقدت بينهم الزيارات عرا المودات ، فتراهم أهل بيت واحد يألم الجار لجاره ويأخذ الناهض بيد ذى العثار . أما بعد الترام ، فقد بدا الناس يميلون إلى الخروج من البيوت ، وانحلت روابط الأهل ، فتناكر الاخوان . وتدابر الجاران ، واصبح المرء فى داره حاضرا كالغائب « واستطاعت المرأة ان تركب الترام ، وتذهب فى غيبه زوجها إلى حيث تشاء »[2] .

وقد استغل البعض حادث سير الترام ، فوصفها الصبية بالعفاريت واخذ

---

(١) محمد سعيد كيلانى : ترام القاهرة . القاهرة دار الفرجانى ١٩٦٨ .

(٢) محمد سعيد كيلانى ـــ المرجع السابق ص ٢٢

البعض الآخر يحذر من الترام ، وينذر اقتراب يوم القيامه ، اعتقادا منهم بأن هذه الامور المستحدثه من علامات الساعة ![1]

ولما نجحت شركة الترام ، تكونت شركة اخرى لتوصيل التيار الكهربائى إلى المنازل ، كما اضيئت الشوارع ، وكان لانشاء الترام اثر كبير فى ارتفاع اثمان الأراضى والمنازل التى يمر بها ، كما ساعد الترام على امتداد العمران فتحولت العشش إلى منازل ، وخرج الناس من الحوارى الضيقة إلى الشوارع الواسعة . وبلغ اثر الترام ذروته على الاتساع العمرانى بانشاء حى مصر الجديده ، كما لعب الترام دورا فى ازدهار الحركة التجارية ، وأنشأت حوانيت لتجارة التجزئه فى أحياء عديده أهمها الموسكى والازبكيه . وبوجود الترام استطاع الكتاب والشعراء من كل ارجاء القاهرة . ان يجتمعوا فى مقاهى الأزبكية ، فنشأت بين البعض معارك فكريه اسهمت فى تعميق الحركة الأدبية والفكريه كما ساعد الترام على تزايد اتصال اهل القاهرة ، وبدأ الرأى العام يتكون ، وبات له أثره[2] كما ظهر نشاط مسرحى كبير بعد وصول الترام[3] .

كما ساعد انتشار الترام على كثرة حوادث النشل وحوادث التصادم . تلك هى اهم الاثار التى ترتبت على استخدام الترام فى مجالات متعددة متنوعة يتبين منها ان التغير فى مجال معين يستتبعه حتما تغيرات عديدة فى مجالات متعددة .

وثمة رأى نشر ضمن بريد الاهرام[4] عن تغير حالة الفلاح المصرى نتيجة لدخول بعض مظاهر التكنولوجيا فى القرية .... « كم كانت دهشتنا عندما ذهبنا لقضاء واجب العزاء فى احدى قرى المنوفية حيث وجدنا ان كثيرا من المتغيرات الاجتماعية قد حدثت ــ فبعد انصراف المعزين جلسنا على جسور الترعة لنشرب الشاى وطلب واحد ممن كانوا معنا بعضا من الحليب الجاموسى فاذا بهم يحضرون لنا علبة البان مجففة مستوردة لنأخذ منها حاجتنا لأن انتاج القرية من الحليب يذهب كله لمعامل الالبان . وقد لاحظنا ان غالبية المعزين من متوسطى العمر

(١) المرجع نفسه ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٤٥

(٣) المرجع نفسه ص ٨٦ .

(٤) راجع جريدة الاهرام القاهرية بريد الاهرام ٤/٢٨ ــ ٨٦

وكبار السن ولما سألنا عن شباب القرية قالوا انهم يعملون فى البلاد العربية وعندما كاد الليل ينتصف كانت مقاهى القرية مازالت مضاءة وتعرض احدث الأفلام المصرية وافلام الكاراتيه على أجهزة الفيديو وفى المنازل كانت العائلات متجمعة حول التليفزيون حتى نهاية السهرة ـــ وانتهى عهد الاستيقاظ المبكر للعمل فى الحقول وعندما نظرنا إلى الضفة الاخرى للترعة والتى كانت كلها ارضا زراعية ـــ وجدنا أن المبانى قد جارت عليها وان الحقول الخضراء قد اختفت ـــ وسمعنا ان ثمن قيراط الأرض قد وصل إلى حوالى ٨٠٠٠ جنيه بسبب عمليات البناء النشيطة لأن ايجار الشقة ذات الثلاث حجرات اصبح لايقل عن ٤٥ جنيها وخلو الرجل لايقل عن ايجار سنتين اى حوالى الف جنيه واشتكى لنا شيوخ القرية من ان الأرض لاتجد من يقوم بخدمتها وان العامل الزراعى الذى يرتدى الآن البنطلون الازرق الضيق قد وصلت يوميته إلى خمسة جنيهات ومع ذلك فهو كسول وإذا اشتغل يوما فانه يتغيب فى اليوم التالى وعندما جاء ذكر الغلاء قالوا ان الأسعار فى القرية قد أصبحت اغلى من اسعار القاهرة وقد أصبح الزواج فى القرية مكلفا بدرجة غير معقولة بعد أن اصابته هو الآخر رياح التغيير حتى ان احد عرسان القرية وهو من العائدين بعد العمل بالخارج حيث كان يعمل مبلطا للقيشانى قال لنا انه عندما تقدم للزواج من عروسه الحاصلة على دبلوم تجارة دفع لها مهرا قدره ٧٥٠٠ جنيه « تسليم مفتاح خالص مخلص أى متضمنا كل شيء مثل الشبكة وتأثيث منزل الزوجية المستقل ومصاريف الفرح وأى مصروفات اخرى حتى انقضاء ليلة الزفاف . وعدنا للقاهرة وقد تغيرت صورة الريف الهادىء الجميل وسبحان الله الذى لايغير ولايتغير .

وإذا ماتقدمنا خطوة ، وتابعنا ماينشر فى اعمدة الصحف اليومية بأقلام كبار الكتاب[1] نجد معظمها يتعرض للتغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى . ابتداء من التغير الذى طرأ على سلوكيات الشارع المصرى ومكانة الفرد داخل المجتمع ومن الدعوات المتلاحقه بالمساواة بين الناس أمام القانون . « فلا تقوى الدولة على

---

(١) راجع فى هذا الشأن كتابات احمد بهاء الدين ومصطفى امين وجلال الحمامصى وانيس منصور وجريدتى الاهالى والشعب .

الضعيف ، وتضعف أمام القوى[1] والتغيرات التى صاحبت الانفتاح فى سنواته الأولى من انقلاب حظوظ الناس ، وظهور الثروات المفاجئة ، وتحولت كل القيم إلى قيمة واحدة هى قيمة ماتستهلك وماتنفق امام الناس وماتقدر على شرائه . وتحول المجتمع إلى الاستهلاك وانتشار طبقة اغنياء الانفتاح[2] وهى الفئة التى تملك المال ولاتملك المعرفة ، والتى لاتعرف إلا الانفاق المباشر على انماط الاستهلاك كالطعام والملابس وأغلى السيارات واللهو والمتع والاقبال على مسارح القطاع الخاص ومما صاحب ذلك من انسحاب الرواد الأصليين للمسرح ، وأصبح فينا من يقطن ناطحات السحاب المطله على النيل ومن يسكن حارة لاترى النور فى بولاق القاهرة أو مدينة بورسعيد أو الاسكندرية ، أو يأوى إلى سكن بالمقابر وفينا من يمتطى قدميه ومن يركب سيارة ومن يقفز إلى الترام . كما تحول الشارع المصرى من مكان يحترم فيه القانون وتقدس فيه سلوكيات معينة إلى مكان للفوضى والاستهتار وعدم احترام القواعد . وليس التغير مقصور على ذلك بل يمتد إلى مجال الاعلام ، وأصبحنا نقرأ عن الانفتاح الاعلامى[3] ، وتغيير نشرات الاخبار . فلم تعد نشرة الاخبار كما يحدث عادة تقدم الاخبار الرسمية لرجال الدولة ، بل صارت تهتم بأخبار الناس ومشاكل حياة المواطنين وانجازات الصفوة غير الحاكمه ، وأخبار الحوادث .

تلك بعض صور التغير الذى حدث فى المجتمع المصرى . ولكن التغير ظاهرة حتمية تعم المجتمع الانسانى .

ويعد تاريخ الانسان فى عملية تغير مستمر سواء أكان هذا التغير بطيئا أم سريعا ، وكانت التغيرات فى الماضى ترجع إلى حد ما إلى الحروب والمجاعات التى تدفع الناس إلى الهجرة والتوافق مع الاحداث الجديدة ولكن التوافق مع الاوضاع الجديدة كان مثيرا لبعض مصادر القلق إذ هدم كل مقاييس الهدوء التى يستطيع الانسان ان يحققها ليشغل مكانة ، ويقيم عادات وعقائد وقيم راسخة .

---

(١) احمد بهاء الدين اليوميات جريدة الأهرام القاهرة ٨٦/٢/١٧

(٢) احمد بهاء الدين جريدة الاهرام ٨٦/٢/٧

(٣) احمد بهاء الدين . جريدة الأهرام ٨٦/٢/٢٥

ثم ظهرت مرحلة الزراعة والاستقرار فى القرى. وهذه التطورات هى العلامة المميزة لثورة العصر الحجرى ، ثم استأنس الانسان الحيوان واخترع العجلات وعرف الكتابة ثم اكتشف بعد ذلك كيفية استخدام المعادن. وتكشف لنا الآثار المتبقية من الماضى قصص قيام وانهيار الحضارات .

وهناك جانب آخر لقصة تطور الانسان . فوراء كل الصراعات والتحديات وسقوط وقيام الحضارات كانت هناك الاختراعات والاكتشافات الجديدة وظهور سمات ثقافية جديدة باستمرار . ولقد انتشرت افكار جديدة من بلدان الشرق الأوسط والهند والصين . وقد تزايدت أيضا المخترعات الاجتماعية والفنية وفتحت امام الانسان امكانيات كثيرة وهائلة اكدت انه لاعودة إلى أيام العصر الحجرى .

ويعد التغير ظاهرة عامة فى الوقت الحديث ، ويعتقد بعض العلماء أن التغير هو السمة الطبيعية للمجتمع والانسان . وقد تبين أن تاريخ الانسانية كله هو تسجيل لتغيرات سريعة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تنتشر على الأطلاق . ويواجه علماء الاجتماع محاولة تفسير التغير بتقديم بعض المبادىء العامة التى تفسر استقرار وعدم استقرار النظم الاجتماعية والطبيعية والانسانية . ولكن هذه المحاولات لاتقدم لنا شيئا ، وان كانت تشجع البحث فى أسباب التغير .

ان النظرة الشاملة والعريضة للأشياء ، تجعلنا لاننكر حقيقة التغير المستمر ، ولكن بالرغم من التغير المستمر ، فهناك مظاهر عديدة للاستقرار فبجانب التغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى ، بقى بيت الفلاح كما هو دون تغير ولازالت أغلبية المزارعين فى الريف تستعمل الشادوف والمحراث والساقيه ، تلك الادوات التى لازالت تستعمل منذ قدماء المصريين .

ويتضح التغير أكثر فى أعقاب مراحل الاستقرار ، والتغير لايحدث بمعدل واحد فى المجتمع الواحد ، أو فى المجتمع الانسانى عامة . إذ تتباين معدلات التغير من مجتمع لمجتمع ، فالتغير فى المجتمعات الأوربية أسرع منه فى المجتمعات الافريقية .

كذلك تتفاوت معدلات التغير فى المجتمع الواحد من منطقة لمنطقة فالتغير فى المدن اسرع من التغير الحادث فى الريف ، فإذا كان التغير فى القاهرة والاسكندرية

ومدن القناة أسرع من التغير الحادث فى الريف المصرى فان التغير فى المجتمع المصرى عامة أبطأ من التغير الحادث فى فرنسا أو انجلترا ، حتى فى اكثر الحضارات المعاصرة تعقيدا ، والتى يحدث فيها التغير بسرعة اكبر فاننا نلاحظ أن عملية التغير لاتحدث بمعدل واحد فى كل مظاهر هذه الحضارة فالتغير الحادث فى الجانب المادى أسرع من التغير الحادث فى الجانب اللامادى .

وحتى إذا افترضنا أن الطبيعة الانسانية وطبيعة التنظيم الاجتماعى تميل إلى الاستقرار ، بقدر ماتصل إلى حلول مرضيه لمشكلات الحياة اليومية والعمل نحو تحقيق حالة من التوازن ، فاننا نجد بعض الظروف التى تؤدى إلى حدوثِ التغيرات والتوترات والاضطرابات وبالتالى تدفع إلى حدوث التغير . فثمة ظروف خارجية أو داخلية ، تكون مشكلات جديدة ، قد تدفع الناس إلى الهجرة وترك ديارهم ، بل وقد تفجر هذه الظروف الخارجية حركة تمرد أو رفض للانماط الثقافية السائدة ، مما يهدد التوازن السائد ويخلق حالة من الاضطراب ثم الثورة .

ويجب أن نعى أن افكارا مثل الحرية والعدالة والمساواة وتحرير الأرض لاتفرضها القوى الاجتماعية المسيطرة على النظام الاجتماعى ، بل ان فكرة التغير نفسها قد تعتبر عاملا لاحداث التغير . وقد اصبحت فكرة التغير فى الوقت الحالى فكرة رائجة شائعة ، حتى أن التغير صار اكثر قبولا من الاستقرار ولم يعد التغير مرفوضا يواجه بالمقاومة ، ولكن أصبح الناس يشجعون التغير ويرحبون به .

وإذا كانت الالات تؤثر فى افكار الناس وتغيرها ، فان الافكار السائدة تغير أدوات الانتاج والالات ، وقد أثرت التكنولوجيا فى خفض معدلات الوفيات وارتفاع متوسط العمر . بل أدت أيضا إلى زيادة عدد السكان . مما أدى إلى اختراع اساليب جديدة لمواجهة الانفجار السكانى وانتشار فكرة تنظيم الاسرة ، وقد أدت التغيرات المتلاحقة إلى تضخيم شأن الثقافة المادية وتعقد المجتمع ، وزيادة الاتصال بين الغرب والشرق .

ويرى جينز أن دراسة الحياة الانسانية يبين أن التحول والتباين والانتشار

والتقليد مظاهر مؤكدة فى كل جوانب الحياة الاجتماعية ، ومن مهمة علم الاجتماع أن يكشف اللثام عن الاضطرابات المتباينة فى الظواهر الاجتماعية ومايعتريها من تغير .

وهو يرى أن التغير الاجتماعى موضوع جذاب يتداخل مع موضوعات أخرى مثل التاريخ والسياسة وعلم النفس ، ويشير التغير الاجتماعى عادة إلى التحولات الجذرية الهامة فى السلوك الاجتماعى وإلى التحولات التى تحدث فى الانساق الاجتماعية ، وهذا هو موضوع اهتمام علماء الاجتماع ، أما التغيرات البسيطة فى حياة الجماعات والمجتمعات ، والتى لاتعد تغيرات هامة والتى تحدث دون أن تؤثر تأثيرا جذريا على سلوك الناس وعلاقاتهم فبالرغم انها تعد تغيرات إلا أنها تستبعد عادة من كل دراسة منهجية .

وعلى العموم فالتغير الاجتماعى يمكن أن يعتبر محصلة لثلاث فئات من الظواهر .

١ ـــ التغيرات التى تحدث على مستوى البيئة الجغرافية أو المستوى البيولوجى . وهكذا فالتغير فى المناخ قد يؤدى إلى تغيرات هامة فى المجتمع كذلك احدثت الهجرات التاريخية الكبرى تغيرات هامة فى البيئة واستثمار مصادر الثروة والطاقة . وكذلك تؤثر الهجرات على تركيب السكان فى المجتمع ومايترتب على ذلك من نتائج سياسية واقتصادية وعسكرية . كذلك تؤدى الامراض المتوطنة والاوبئة إلى تغيرات اجتماعية هامة .

٢ ـــ التغيرات التى تفرضها جماعة من الجماعات الاجتماعية . ومن امثلة هذه التغيرات القيام بانقلاب عسكرى ، أو اتخاذ قرار ببناء مصنع أو ايقاف العمل بقانون معين أو فرض قوانين جديدة مثل قانون الاصلاح الزراعى أو قوانين العمل أو الهجرة أو منع جماعة معينة من المشاركة السياسية أو قوانين التعليم الالزامى ومجانية التعليم وقوانين التجنيد الاجبارى . كما تسن القوانين التى تؤكد المساواة والتأمين الاجتماعى ضد الشيخوخة . وهذه التغيرات تعد من الموضوعات الهامة فى علم الاجتماع .

٣ — التغيرات التى تحدث نتيجة التأثيرات اللاشعورية للحياة الاجتماعية والثقافية نفسها . مثل القيم والاتجاهات وطرق الحياة التى تسود مجتمع معين فى مرحلة من مراحل التطور .

ويرى جينز سلفادور أن التحول فى النظام الاجتماعى صورة مميزة للانسان وحده ، ولهذا السبب تعد المجتمعات الانسانية انساقا اجتماعية ، لأن الانساق الاجتماعية ينبغى أن تتطابق مع مواقف جديدة تخلقها عناصر نشطة داخل الانساق نفسها ، ومن خلال تلك العملية تصل الانساق إلى مرحلة جديدة أو مستوى جديد يختلف عن المراحل الأولى ، وهذا يصدق على كل مجتمع انسانى ، حتى المجتمع البدائى يتميز بايقاع بطيء من التغير . أما فى المجتمعات الحيوانية فلا يحدث التغير بالمعنى السوسيولوجى للكلمة ، فالتغيرات التى تحدث فى هذه المجتمعات لاتحدث إلا بتأثير تغيرات بيولوجية فجائية ، كما أن التغيرات الانسانية أى التغيرات التى تخص الانسان أى تلك التغيرات التى لاترتبط بالتغيرات السلالية بل ترتبط بالتغير الحادث فى الثقافة وبناء العلاقات ، فلا تحدث فى اتجاه واحد ، ومن ثم فالتغير لايرادف التطور بالمفهوم الداروني ، إذ أن التطور بالمعنى الداروني يعنى النمو والرقى والتقدم ويعنى التقدم التطور والتحسن فى العناصر الاخلاقية والجمالية والعقلية للمجتمع أى التحسن فى طريقة الحياة .

وإذا ماأراد عالم الاجتماع أن يقيس التقدم فى مجتمع معين فعليه أن يتذكر أن النمو فى الانتاج القومى الضخم انما يعبر عن جانب واحد فقط من جوانب متعددة حدث فيها التغير .

وللتغير مظاهر عديدة ، فالتحسن فى وسائل الانتاج ، يعد تغيراً ، كما أن الارتداد عن النظم التقدميه يعد تغيرا ، ومن الصعب أن نقول — وكما أوضحنا من قبل — ان التغير يعم المجتمع بمعدل واحد وبسرعة واحدة فكما أن هناك العمارات الشاهقة والسيارات الفارهة وأحدث أدوات الانتاج ، فاننا نجد مناطق متخلفة يسكن سكانها العشش المبنيه من الصفيح يستعمل سكانها عربات الكارو وأدوات الانتاج العتيقة المتوارثة من أجيال بعيدة .

ويرى بعض علماء الاجتماع أن دراسة التغير يعد من أكثر الموضوعات تعقيدا في علم الاجتماع إذ أن دراسة التغير تعتبر من الموضوعات التي يهتم بها علم الاجتماع خاصة عند تجاوز مرحلة الوصف إلى مرحلة التفسير من أجل الوصول إلى تعميمات مما يثير الاعتراض على دعوى علم الاجتماع بالمطالبة في أن يكون علما ، إذ أن موضوع العلم كما نعرف هو القدرة على التنبوء ، إلا أن علم الاجتماع كما هو ثابت غير قادر على التنبوء . مما يدل على عدم نضجه . وعالم الاجتماع لايدعى القدرة على قراءة المستقبل . فالتنبوء يتضمن القدرة على القول باحتمال حدوث متغيرات اخرى في النسق إذا ماتغيرت أحد العناصر الاساسية المكونة للنسق .

وإذا ماتساءلنا ماالمقصود بالضبط بالتغير الاجتماعي ؟ ، نجد أن هناك خلطا بين المفهومات المتداولة التي تعبر عن التغير فهناك مصطلحات كثيرة تدل على المظاهر الكثيرة للتغير والتي تتضمن معنى التطور والتنمية والتوافق والعملية الاجتماعية أيضا ، وينبغي علينا أن نعرف هذه الوحدات من أجل التحليل ، وأيضا نوع التغيرات التي نرغب في أن نعرفها باعتبارها تغيرا اجتماعيا . فقد نعد التعديل في أعضاء مجلس الشعب أو مجلس الوزراء تغيرا اجتماعيا كما ننظر إلى تعليم البنات على أنه تغير ، وكذلك نرى في تطبيق مفهومات مثل العدالة والمساواة والانفتاح تغيرا ، كما تحدث تغيرات داخل النسق الاجتماعي نفسه ، سواء بانضمام أعضاء أو بانفصال أعضاء قدامى ، كما يحدث التغير في النسق كله ، باحلال النظام الاشتراكي بدلا من النظام الرأسمالي ، أو التخلص من النظام الديكتاتوري بارساء قواعد الديمقراطية . وقد يحدث التغير في وظيفة النسق في البناء كله . مثلما تغيرت وظيفة الاسرة من وحدة انتاجية إلى وحدة استهلاكية تقتصر وظائفها الأساسية على الانجاب والتنشئة الاجتماعية .

وهناك رؤية جديدة للتغلب على مشكلة المصطلحات المتباينة لمعنى التغير ، هي أن ندرك التغير الاجتماعي كعملية تحدث تباينا بنائيا ، وهذا هو المدخل الذى تبناه الوظيفيون. وقد أوضح سملسر في دراسته للثورة الصناعية كيف أدى

انكماش الاقتصاد المنزلى إلى حدوث انقسامات فى نسق العائلة والنسق الاقتصادى وظاهرة تقسيم العمل ، وماترتب عل ذلك ابتداء من ظهور التخصص المهنى الدقيق .

وعلينا أن نفرق بين التغير الاجتماعي والتغير الثقافى والتفاعلات بينهما ويرى ماركس أن التغير الحادث فى البناء التحتى (النظام الاقتصادى) شرط لحدوث التغير فى البناء الفوقى (بناء القيم والافكار) . فالبناء الفوقى عنده يعكس التغيرات التى تحدث فى البناء التحتى أى يعكس التغيرات التى تحدث فى اساليب وطرق الانتاج . ولكن هناك من يعارض تفسير ماركس للتغير ويرى أن ، الايديولوجيا يمكن أن تسرع أو تبطىء من عملية التغير أو تعوقها . وقد اكد ماكس فيبر هذا الاتجاه وبين أن التغيرات الايديولوجية شرط مسبق لظهور الرأسمالية . ولذا ربط روح الرأسمالية بتعاليم البروتستانتية . واذا كنا نعرض لدراسة التغير عند علماء الاجتماع فاننا نجد إن كل هذه الدراسات كانت على المستوى الكبير ، وأنها اهتمت بالاتجاهات العامة للتطور ، ونمو الانساق الاجتماعية . وتظهر دراسة المراحل الثلاث للتطور عند أوجست كونت ابتداء من المرحلة الخرافية مرورا بالمرحلة العقلية إلى المرحلة العلمية . والتى تقوم على الملاحظة والتجربة وأنه حاول أن يعرض لقوانين التغير واتجاهاته وأن يقدم لنا قوانين تفسر التقدم ، كما تحول الاهتمام إلى معرفة التحول من مجتمع ماقبل التصنيع إلى المجتمع الصناعى ، لاكتشاف العوامل التى تدفع إلى أو تعوق من التغير ولمعرفة النتائج الاجتماعية التى تصاحب عملية التصنيع .

وإذا كان التغير يعنى الانتقال من حال إلى حال آخر سواء إلى حال أفضل أو حال أسوأ، فان بعض الاجتماعيين المحدثين حولوا الاهتمام من دراسة موضوع التغير باعتباره حقيقة قائمة إلى دراسة التحديث ، ويقصد بالتحديث ، محاولة اكتساب الخصائص المميزة للمجتمعات الصناعية المتقدمة مثل ارتفاع مستوى التعليم والخدمات الطبية وانتشار الخدمات العامة الحديثة .

وإذا كان مفهوم التغير يتطابق مع مفهوم التحديث على المدى الطويل فان

الحال يختلف على المدى القصير ، إذ أن التحديث أسبق .

ويتعين علينا قبل أن نتقدم خطوه أن نميز بين بعض المفهومات التى تلتبس مع مفهوم التغير .

الفرق بين التغير والتطور :

ويقدم لنا المفهوم التقليدى للتطور الاجتماعى والذى يلعب دورا اساسيا فى التحليلات التى قدمها الاجتماعيون الرواد نقطة البداية فقط . وبتأثير نظرية داروين والانبهار بنتائجها فى العلوم البيولوجية ، أهتم علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرينات بالتطور الاجتماعى وحدد الباحثون فى الانثربولوجيا وعلم الاجتماع مهمتهم بأنها تحليل تطور المجتمع الانسانى ، وهدفوا من ذلك البحث فى اصول المجتمع الانسانى والنظم الاجتماعية وليتبعوا الخطوات المتتالية التى تطورت عنها المجتمعات والنظم الحديثة. بيد أن تلك الموضوعات لم تعد موضوعات هامة ولاتحتل أية أهمية عند العلماء المعاصرين . وبتأثير داروين قدم أوجست كونت نظريته وهى تعنى تقدم الانسانية إلى الأحسن دائما . ولكن الحال ليس كذلك دائما . وقدم دوركيم نظريته عن التحول من المجتمع الآلى إلى المجتمع العضوى، وعرض رد فيلد للتغير من المجتمع التقليدى إلى المجتمع الحضرى . والمجتمع الانسانى — كما نعلم — ماهو إلا مجموعة من الانساق أى يتكون من مجموعة من الاجزاء المترابطة والمتفاعلة ، ولايوجد نسق اجتماعى لايتأثر بالانساق الاخرى . فالتغير الحادث فى النسق الاقتصادى ومايحدث من تنمية اقتصادية يلاحظ عادة تأثيره على النسق السياسى . فالنسق التربوى والفن والاسرة والمثل والمعتقدات لاتوجد فى برج عاجى بمعزل عن تأثير السوق والسياسة ، كما أن تتبع السلطات والقوة يبين أنها توجه إلى غايات تحددها القيم الدينية والاقتصادية ، والتى يحددها إلى حد ما التنظيم الحقيقى للقوة والسلطة فى المجتمع .

وهناك مدرسة فى علم الاجتماع تؤكد انه لكى ندرس ظواهر التغير الاجتماعى والثقافى ، فمن المفيد أن ندرك المجتمع كنسق يتحقق توازنه باستمرار ، ولو حتى بعد فترة من التفكك ، ويقصد بالتوازن حالة استقرار عامة ، تترابط فيها القيم

والنظم والابنية الاجتماعية ترابطا وظيفيا ، بقصد تحقيق حالة من التكامل ، كأن تؤكد النظم الدينية النظام السياسى الموجود وكأن تدعم السلطة السياسية الوضع الاقتصادى السائد وتدافع عن شرعيته . كما تؤثر النظم التربوية فى المعايير المقبولة والمعتقدات السائدة وتعمل على تدريب الافراد تدريبا مناسبا لاداء أدوار الكبار .

ولما كان المجتمع الجامد غير موجود ، فمن الضرورى أن نصف التوازن باعتباره حركة و أنه دائم ، ويهدف تحقيق غرض ، ومادام هناك تغير فلابد من حدوث التكيف وتحقيق التوازن . ويرى ايلى أننا عندما ندرس التغير فانه يتحتم علينا دراسة الظروف التى تؤدى إلى قلقلة التوازن وافساده ، ودراسة العناصر التى تعوق التوازن والتى قد تأتى من المجتمع من خلال الانتشار أو التجديد أو الصراع .

الفرق بين التغير الاجتماعي والثورة :

تعنى كلمة الثورة معان مختلفة ، وتعنى التغير الجذرى الكامل والشامل الذى تحدثه اساليب الانتاج أو تسببه قبول افكار جديدة مثل الثورة الصناعية أو التطلع إلى حياة افضل كالتى ينادى بها الثوار فى بلدان العالم المتخلف أو القضاء على الحكومات واجراء تغيرات جذرية فى نظم الحكم مثلما حدث فى مصر عام ١٩٥٢م ومن بعدها الجزائر وماحدث فى ايران فى ١٩٧٩ .

الاستقرار والتغير :

يفترض التحليل الوظيفى عامة درجة معقولة من الاستقرار وثبات السلوك الانسانى . فالانسان لايستطيع أن يدرس أى دور اجتماعى دون أن يفترض أن المعايير التى تحكم سلوك الافراد تستمر فترة طويلة من الزمن . وبالرغم من استمرار التغير فى المعايير الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وبناء الجماعات فثمة قدر اساسى من ثبات واستقرار القيم والمعتقدات والعلاقات وأشكال السلوك خلال فترة طويلة من الزمن . وقد أشار الاجتماعيون إلى المدى الذى تستمر فيه الانماط الاجتماعية فى المجتمعات المتقدمة أو حتى فى المجتمعات الثورية التى يحدث فيها تغيرا سريعا .

ان تفسير استمرار النظم والمعتقدات والابنية الاجتماعية وثباتها يكون أحد

المشكلات الأساسية فى التحليل السوسيولوجى . وكما رأينا فأن التحليل الوظيفى يركز الاهتمام على الأساليب التى نسهم بها الانماط الاجتماعية فى استقرار الانماط الاخرى والمجتمع ككل ، ولكن مقابل ذلك فى الاهمية مشكلة التغير الاجتماعى والثقافى . أى محاولة تفسير التبدل والتحول فى طبيعة الانماط التنظيمية والعلاقات الاجتماعية والابنية الاجتماعية .

بيد أنه من الضرورى أن نفرق بين التغير الاجتماعى والثقافى من جهة وبين التتابع التاريخى للاحداث من جهة أخرى ، أى نفرق بين اهتمامات عالم الاجتماع واهتمامات المؤرخ . فالمؤرخ يهتم أساسا بمجرى الاحداث أما عالم الاجتماع فيهتم بالتحول والتبدل فى العادات والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية . وقد يدرس المؤرخ الافراد الذين يشغلون ادوارا هامة ويتربعون فوق مراكز اساسية مثل رؤساء الدول والملوك ، أما عالم الاجتماع فيهتم بالطبيعة المتغيرة فى هذه الادوار وعلاقات هذه الادوار مع ادوار أخرى ، كما يدرس المؤرخ دراسة تفصيلية أحداث الثورة الفرنسية أو الثورة الفلسطينية أو ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بينما يدرس عالم الاجتماع اشكال الثورات وطبيعتها باعتبارها انماطا مخالفة للتغير الحادث فى النظم . والعلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ علاقة وثيقة والفرق بينهما يكمن فى رؤية كل منهما للاحداث ، ومغزى هذه الاحداث عند كل منهما ، فكل علم يسأل اسئلة مختلفة ويستخدم مفهومات متباينة ، ورغم أن نظرية المؤرخ فى التغير نظرية كاملة التفسير ، فان عالم الاجتماع يناضل من أجل صياغة نظرية فى التغير .

الهوة الثقافية :

يقصد بالهوة الثقافية فترة عدم التوافق والتى تنشأ نتيجة عجز بعض السمات الاجتماعية عن التغير بنفس سرعة العناصر والسمات الاجتماعية الأخرى . والتغير التكنولوجى يسبق عادة تغير العادات والافكار مما يتطلب من العادات والافكار أن تلحق بالتغير التكنولوجى ، وهذا امر صعب مما يؤدى إلى وجود الهوة الثقافية ، ولقد استعمل أوجبرن مفهوم الهوة الثقافية لاول مرة ويقصد بالهوة الثقافية عنده العجز عن تحقيق تطور متناسق. وقد استخدم هذا المصطلح فى الاوقات التى

ازدادت فيها البطالة نتيجة استخدام الاله وعدم وجود قوانين تحمى العاطلين وتبدو الهوة الثقافية أوضح عندما تعجز الحكومات عن تحقيق التكيف مع التغير التكنولوجي والعلمى والاقتصادى بل وبسبب العجز عن تحقيق هذا التكيف انهارت بعغ الامبراطوريات والحكومات وابسط مثال لذلك الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا .

تباين نظريات التغير :

وقد ادلى العلماء والمفكرون بدلوهم فى موضوع التغير . وحاول كل منهم أن يفسر احداث التغير ولكنهم اختلفوا فى التفسير . ولقد نظر كل فريق من اصحاب نظريات التغير الاجتماعى إلى جانب واحد من جوانب تاريخ المجتمع الانسانى وتجاهل رؤية اثر الجوانب الاخرى فى احداث التغير .

فهناك من قال أن التغير هو السبب فى نشأة الحضارات وازدهارها وأنهيارها وهناك من ارجع التغير إلى تراكم المخترعات الجديدة أو انتشار الافكار . ومن أهم النظريات المفسرة للتغير :

١ ــ نظريات الدورة :

مال هؤلاء الذين اهتموا بنمو الحضارات وازدهارها وسقوطها إلى تفسير التغير الاجتماعى فى أطار تطور يأخذ شكل الدورات أو التحول من العصر الذهبى الاسطورى إلى العصر الحالى بما فيه من قلق وتوترات .

ومن الاعمال الهامة المشهورة فى نظرية الدورات لتفسير التغير دراسات شبنجلر وابن خلدون ، حيث رأى كل منهما أن الحضارات والمجتمعات على مدى التاريخ تشبه الكائن الحى ، وتتغير تغيراً آليا يفتقد العملية الجدلية . فالحضارة تنشأ وتتكون ثم تزدهر حتى تبلغ القمة ثم تنهار . بمعنى ان الحضارات والمجتمعات كائن عضوى تنطبق عليه اسباب حياة الكائن العضوى . وقد طور هيجل نظرية الدورات إلى دورات جدلية وراى ان التغير الاجتماعى محصلة صراع جدلى بين قوى متصارعة متعارضة . فهناك القضية ونقيضها ثم الحالة الجديدة التى بدورها

تصير مضية تجد قوى جديدة معارضة لها مما يجدد الصراع ويؤدى إلى نشأة حالة جديدة ، وهكذا يتجدد الصراع . وكان الاساس لهذا الجدل الفكرة التى تحاول أن تحقق ذاتها .

وقد قدم ماركس نظرية فى الصراع الطبقى متأثراً بهيجل وقدتبنى ماركس هذه النظرية عن الوقائع المادية مستخدما الاسس الثلاثه التى وصفها هيجل وهى القضية ونقيضها والمركب الذى يصير قضية فيما بعد . وراى ماركس أن اساس الصراع الجدلى يكمن فى محاولة الانسان توفير احتياجاته المادية فى صراعه مع الطبيعة . ومن ثم فالاقتصاد عامل حاسم فى التغير وعلى نقيض ماركس ظهرت النظرية الوظيفية فى تفسير التغير . ويسيطر على الفكر الغربى اتجاهان فكريان نبعا من الوظيفية يحاولان تفسير مايحدث من تغير . أولهما البنائية الوظيفية والثانى نظرية تحقيق التوازن وازالة التوتر . وتوحى هاتان المدرستان بأن ثمة تغيرات معقولة يمكن أن تحدث داخل البناء وأن ثمة حاجة إلى اعادة تكيف النظم المختلفة ، بيد أن هناك دافعا ملحاً وراء كل التغيرات .

ويرى علماء الاجتماع فى امريكا أن الوظيفية حققت تقدما هائلا فى محاولة فهم التغير الاجتماعى عندما حاولت أن تفسر اسباب استمرار بعض العادات وسيطرتها على سلوك الافراد وكانت العامل الحاسم فى أستقرار المجتمعات حتى إذا ماظهرت عادات جديدة تؤدى الوظائف نفسها حدث التغير .

فمثلا يدل استمرار نظام تعدد الزوجات على مكانة الرجل الهامة فى النسق وقد يتغير هذا النظام إذا ماظهر رمز جديد يعبر عن المكانة الممتازة للرجل .

وتثير الوظيفية مشكلة هامة وهى لماذا يحدث التغير ؟ ويرى انصار الاتجاه الوظيفى ان التغير يتم لسببين : اما (أ) نتيجة للتوترات داخل النسق والتى يتعين امتصاصها أو (ب) نتيجة للقوى الخارجية . فهناك ضغوط دائمة داخل النسق الاجتماعى تنبع من الفروق الفردية . فالجيل الجديد للشباب ليس بديلا ممتازا عن جيل الكبار ، ويحاول الحكام دائما حل المشكلات بأساليب مختلفة لايقبلها الجميع كما يؤدى تزايد السكان إلى بعض الصراعات إذا ماندرت مصادر الثروة مما يؤدى إلى ظهور التوترات بأنواعها .

وقد تؤدى القوى الخارجية إلى نشر أفكار جديدة، فقد تنتشر بعض الأفكار من مكان ما إلى اماكن أخرى مثلما حدث بالنسبة لفكرة الحرية عند انتشارها من فرنسا أو الرسالة الاسلامية عندما انتشرت من مكة والمدينة. وقد يؤدى صراع الحكومات للسيطرة على موارد المواد الخام والأرض وطرق المواصلات إلى إثارة الحروب، وما يتبعها من تغير مفروض على المجتمع المقهور.

وهذا المنظور الوظيفى يختلف كلية عن المنظور الذى يبحث عن نشأة الحضارة وانهيارها. ومن أهم ممثلى الفكر الوظيفى باتجاهيه لسلى هوايت وبارسونز وسوروكين.

نظرية لسلى هوايت:

ثمة عالمان نظريان معاصران اهتما بمراجعة أشكال التطور الثقافى وهما لسلى هوايت عالم الانثروبولوجيا وتالكوت بارسونز. ويتفق الاثنان على أن الرواد من أنصار التطور الثقافى قد قدموا لنا اسهاما واضحاً لتفهم الثقافات الانسانية والمجتمعات. ولقد أدرك العالمان أن مجرى التطور الثقافى معقد وأن المجتمعات كلها لا تتطور فى اتجاه واحد. ولكن بقدر ما هناك اتجاه للتحول من المجتمع البسيط إلى المجتمع المركب المعقد فان مفهوم «التطور» يعد مفهوماً ملائماً ومقبولاً. وقد تميز لسلى هوايت عن بارسونز فى كونه أعطى تأكيدا أكبر للمخترعات والتكنولوجيا. ولما كان الانتشار الثقافى للمخترعات أمرا واقعا فانه لم يهتم بالمكان الأصلى الذى تظهر فيه المخترعات الجديدة وكانت نظريته عن التطور الثقافى نظرية شاملة للجنس البشرى كله. ولا تقتصر على مجتمع معين.

وقد أشار لسلى هوايت إلى نقطة هامة فى تحليله هى نظرية الطاقة فى التطور ومؤداها أنه عندما يعرف الناس مصادر هامة للطاقة فانهم قد يحققون امكانيات أكبر للتطور الثقافى. فعندما سخر الانسان الحيوان لخدمته استهلك الانسان كل الطاقة المتاحة عندئذ وانفق كل وقته فى البحث عن غذائه وارتبط الناس سويا من أجل البحث عن الطعام سواء فى الصيد أو فى العمل الزراعى. وحسب الطاقة المتاحة بدا واضحا امكانية التباين فى العمل عندما انطلق الناس فى العصور

القديمة فى بناء أعمال تساعد على تحقيق التطور الثقافى بدء من تنسيق الجهود وتنظيمها إلى بناء الحصون والمعابد . كما حققوا تقدما فى مجال الفنون ، كما كونوا الجيش من أجل حماية النفس . وكان اكتشاف الفأس فى حرث الأرض اول انتصار حققه الإنسان فى تاريخه . وكانت الثورة الصناعية هى الانتصار الثانى . وبطبيعة الحال عرف لسلى هوايت مصادر اخرى لتباين الامكانيات الثقافية تتضمن مستوى التنظيم والادوات والبيئة .

وتعنى الثقافة عند لسلى هوايت اكثر من تقديم وسائل للمساعدة الاقتصادية فهى تقدم للناس مجموعة من القيم والعادات والمعتقدات ونسق التنظيم ولم يحذف أى فكرة من هذه الافكار بل طور من مكانه النسق الدينى فى تحقيق التطور الثقافى. فالدين والعقيدة أديا إلى تجاوز الإنسان المرحلة البدائية وحققا تماسك الجماعة .

ولقد أكد لسلى هوايت على أن المجتمعات لم تكن لتتطور إلا بزيادة كمية الطاقة المتاحة لاستخدام الانسان وزيادة الانتاج وتحقيق اكبر قدر من تقسيم العمل . وعندما بلغت الحضارات المرحلة المعاصرة ازداد اكتشاف مصادر جديدة للطاقة المتاحة . وفى الوقت نفسه حرم استغلال الانسان وتسخيره بدلا من الطاقة . ولقد ارجع لسلى هوايت كما يبدو لنا كل العناصر الرئيسية للتغير الاجتماعى إلى الطاقة المتاحة .

نظرية بارسونز :

أما بارسونز فقد كان منحازاً اكثر إلى تأكيد البناء الاجتماعى واهمية الافكار . إذ يعتمد انجاز القدرة التوافقية وتحقيق التوازن على تاريخ طويل يبدأ من التنظيم البدائى وينتهى بالمدينة أو الدولة والامبراطورية .

ويرى بارسونز أن اكتشاف الكتابة هو الخطوة الأولى نحو هذا التطور والتغير الذى حول الحالة البدائية للمجتمعات . وقد كان النسق الدينى الذى قنن السلطة والقانون ضروريا للتقدم المنظم المتوازن .

ولاثبات نظريته فى التوازن والتوافق عرض بارسونز امثلة للتطور الثقافى فى مصر

القديمة وروما والحق بهما اليونان باعتبارها مرحلة وسطى كما ان التنظيم فيها مقسما فى وحدات صغيرات .

وقد حقق فراعنة مصر القديمة تقدما كبيرا تجاوز تنظيم المرحلة البدائية بسبب قدرتهم على السيطـرة على عدد كبير من السكـان تحت نسق واحـد ، ولما كانت القداسة التى اضفيت على الفراعنة ترتبط ارتباطا وثيقا بالاستقرار والثبات ونهر النيل. فقد صعب انتشار النسق المصرى إلى خارج المجتمعات الاخرى . كما يرى بارسونز أن نظام الفراعنة يوحد بين القوى الطبيعية وقوى مابعد الطبيعة وهذا الاتصال له اضراره عند بارسونز ، إذ لكى نحقق التجديد والتغير الثقافى يلزم الفصل بين القوى الطبيعية والايمان بالقوى الخارقة للطبيعة .

ولقد قدمت لنا روما فى مرحلة متأخرة عما قدمته لنا مصر نسقا فى التشريع وواجبات وحقوق المواطن ساعد على نشر الامبراطورية الرومانية ، ولكنها اخفقت فى تشريع نظام للسلطة كما أن بعض مواطنيها قد اخفقوا فى تمثل النسق . والتوحد به وكان هؤلاء من العبيد . أما بالنسبة للدين فكان الدين البدائى الذى يخلو من فكرة التوحيد هو السائد حتى ظهرت المسيحية فتبنت روما دعوتها .

بعد مصر وروما عرض لنا بارسونز مجتمع اليونان وهو مجتمع عاش فترة قصيرة نسبيا حتى الازدهار السياسى . ولقد أسهم الشعب اليونانى اسهاما عاما قد يبدو ضروريا قبل ظهور مجتمع روما . وقد عاش فى اليونان منذ الفى سنة اعظم الفلاسفة والادباء الذين تجاوزت سمعتهم وراء حدود المدن اليونانية فأثروا فى الامبراطورية الرومانية قديما وفى الفكر الاوربى فى عصر النهضة .

وقد أسهمت اليونان اسهاما كبيراً فى تحديد حقوق وواجبات المواطن وتعريفها .

وتبين لنا تعريفات كل من لسلى هوايت وبارسونز انها تتضمن صراحة معان تبين أن التطور الثقافى يختلف عن التطور الفيزيقى المادى وان الانتشار الثقافى ممكن . ولقد حققت بعض المجتمعات تقدما كبيرا لتخصصها فى عمل واحد أو اكثر ، ولكنها لم تترك بصماتها على التاريخ . وبعضها قدم المخترعات والابتكارات . ولقد

حققت بعض الابتكارات اللامادية ــ الافكار الجديدة ــ والاديان التى قدمت لنا أعلى مستويات من التنظيم كفلت وحققت القدرة الثقافية على التكيف .

ولقد تحققت الصورة المعاصرة من تطور الانسان عندما ارتبطت القدرة التنظيمية مع التكنولوجيا العلمية . ولقد اشار لسلى هوايت ان المرحلة التالية قد يحقق فيها الكمبيوتر تنظيما اكبر للعمليات وأفضل للتفكير .

سوروكين :

قد رأى سوروكين أن المجتمع كنسق أعلى يتضمن البناء الاجتماعى والثقافى وجماعات الافراد، ويعانى هذا النسق الاعلى من حالة مستمرة من التغير الاجتماعى . ولكن خلافا لنظريات كثيرة سبقته ، رأى سوروكين امكانية تغيير المجتمعات فى اتجاهات مختلفة كثيرة حسب قيم الافراد داخل النسق وقد صورت النظريات السابقة التغيير الاجتماعى اتجاها لحركة ذات اتجاه واحد .

فمثلا كانت فكرة دوركيم عن المجتمعات البدائية انها تتحرك نحو مجتمعات الدولة نتيجة تقسيم العمل . وقد شرح لنا سوروكين ان المجتمعات قد تتحرك جيئة وذهابا بين نمط معين للحضارة ونمط آخر . وأن الكائنات الانسانية قد بدأت تجنى ثمار المعرفة التى مكنتها من السيطرة على اتجاه التغير .

ولكى نفهم حالة التغير الاجتماعى المتواصل ينبغى على طلاب قسم الاجتماع ان يتعرفوا على الانماط الممكنة المختلفة للمجتمع الموجود . ولقد قدم لنا سوروكين أوصافا لثلاث انماط من الحضارات الاساسية وهى . الحضارات التى تؤمن بالموضوعات الحسية والحضارات التى تؤمن بالموضوعات الروحانية والحضارات التى تؤمن بالموضوعات المثالية ، والتى توجد فقط كنمط مثالى ولاتوجد ابدا فى حالة نقاء خالص . وتوجد وتزدهر الثقافة الحسية عندما تتقبل عقلية الناس الحقيقة باعتبارها تلك الاشياء المدركة حسيا . ومن ثم فالحضارات التى ترفع من قيمة الموضوعات الحسية لاتهتم بالبحث عن المعرفة المطلقة . وتميل هذه الحضارات إلى استخدام الممارسة العملية كمصدر للحقيقة . ومن المحتمل ان تكون هذه الثقافة إلحادية او لاأردية لافتقادها نسق للمعتقدات يسمو بالافراد . وهناك تغيرات مادية كثيرة ترجع إلى اختراع التكنولوجيا .

حقيقة ان العالم المادى موجود قبل أن يأتى الإنسان إلى هذا العالم لكن ماأن ظهر الإنسان على هذا الكوكب حتى تعددت الاختراعات المادية التى من صنع هذا الانسان . أما الثقافات التى تؤكد الروحانيات فتجسد كل الخصائص التى تخالف الثقافات الحسية . ويرى المؤيدون لثقافة الروحانيات الحقيقه فى معنى روحانى وتتميز هذه الحضارات بأنها حضارات ذات طابع دينى وتعتمد على الإيمان والوحى كمصادر للحقيقة ، ولاتهتم اطلاقا بالجوانب العملية فى الوجود .

وقد يسعى الشخص المؤمن بالحواس إلى معرفة الظواهر الحسية التى تخضع للملاحظة ، أما الشخص المؤمن بالروحانيات فيتكيف مع الانماط الموجودة ويقبل الظروف السائده فى عالمه . والحقيقة فى الثقافة التى تؤمن بالافكار مطلقة وأبديه . ومنابع التغير فى هذه الثقافة تكمن فى عقول الافراد وفى نوع الافكار التى تعبر عنها هذه العقول .

إما الثقافة المثالية فتجمع بين الانماط الحسية والروحانية ويسمو هذا النوع الثالث من الحضارة على النمطين الآخرين ، لانه يضيف العقل كمنبع للحقيقة ولكى تبقى الثقافة المثالية يتعين أن تتماسك عناصر الثقافة الحسية والروحانية بطريقة تحقق الانسجام . وترى كولسون أن هذه النظرية تعد اجتماعية وبنائية فى ان واحد وإذا ماطبقت تطبيقا خاطئا قد تؤدى إلى شىء من الخلط والوهم مثل الإيمان بالحتمية الاقتصادية . وبقدر ماتؤمن هذه النظرية بالبناء التحتى فانها تؤمن بالبناء الفوقى .

ولكى نصنف المجتمع تحت ثقافة معينة يحتاج الفرد إلى دراسة اعمال الفلاسفة والادباء والاشكال الفنية وتحليلها وأن يرتبها فى فئات .

ولكى نكمل نسق سوروكين عن الثقافة قدم لنا الثقافة المختلطة وهى ارتباط الثقافة الحسية والروحانية سويا . وهى ثقافة تفتقد العقل بوصفه منبعا للحقيقة وقد تعتمد الثقافة المختلطة على الممارسة العلمية إلى جانب اعتمادها على الايمان . ويرى سوروكين أن المجتمعات تتغير وتتحول من حضارات حسية إلى حضارات روحانية والعكس . واحيانا ماتحقق قدرا من الثقافة المثالية عندمايتحقق الانسجام بين العناصر الحسية والروحانية . ولكن احيانا ماتجمع العناصر الحسية والروحانية

بطريقة انفصامية ومن أهم الانتقادات التى توجه إلى سوروكين هى إتهامه أن افكاره مجرد افكار تأملية .

تداخل العوامل المؤثرة فى التغير :

وكما يؤكد التحليل الوظيفى فان احد الصعاب التى تواجه دراسة التغير هى أن عناصر التغير مترابطة بطريقة ما حتى أن التغير فى عنصر ما فى المجتمع يؤدى إلى تغير لاحق فى العناصر الاخرى . ويبدو هذا واضحا عندما ندرس اثر المخترعات التكنولوجية على الإنسان .

وقد اهتم دوركيم بتحليل التغير من المجتمعات البدائية ـــ التى تتميز بالتماسك الالى ـــ إلى المجتمعات الصناعية التى تتميز بالتماسك العضوى . كما اهتم تونيز بتحليل التغير من المجتمع المحلى إلى المجتمع الكبير . كما اهتم بعض الاجتماعيين بتحليل التغيرات التى تطرأ على المجتمع من خلال عمليات التنشئة . ونحن نلاحظ ميل عام عند جيل الكبار إلى اتهام جيل الشباب والابناء بانهم لم ينشئوا تنشئة سليمة وأن هذه التربية غير السويه تضر عملية التغير . كما يمكن أن يحلل التغير ابتداء من التباين بين المجتمعات حسب تقسيم العمل أو المركز والطبقة . وتبدو أكثر التغيرات وضوحا فى المجتمعات التى تطبق اعلى درجات التخصص الدقيق .

كما تعد الزيادة السكانية نقطة بداية هامة لدراسة التغير وتعنى الزيادة السكانية عدم القدرة على استمرار الاعتماد على الأرض الزراعية والعمل فى الزراعة بل العكس تعنى اعلاء قيمة زيادة الانتاج الصناعى لكى نوفر للناس الامن والرعاية والامن الغذائى . كما ادت الضغوط السكانية والتحضر إلى وجود مجتمع يتطلب سيطرة اكبر وأقوى على حياة الناس ، وهذا يعنى أنه ينبغى أن يقبلوا بلا معارضة نظام دفع الضرائب وان يخضعوا للتخصص واحترام الوقت وتنظيمه وتزايد نفوذ القوى السياسية وتشريع اللوائح والقوانين .

تداخل العلاقات بين النظم المتغيرة :

هناك تداخل وتساند وترابط بين الانظمة والانساق التى يتكون منها المجتمع

فإذا ماطرأ تغير فى نسق ما تبعه تغير فى الانساق الأخرى . ومن ثم فقد يتغير شكل ووظائف الاسرة لتلائم ظروف التغير الذى طرأ على النظام الاجتماعى ولتتكيف مع القيم الجديدة لاعضائها .

وهناك مجتمعات سبق فيها التغير الاقتصادى ما طرأ على الاسرة من تغيرات . وهناك مجتمعات تسبق فيها التغيرات الدينية كل التغيرات أو تتغير للاتجاهات والمشاعر الدينية كرد فعل للأوضاع الاجتماعية المتغيرة ، وقد اشار ماكس فيبر إلى أن تغير الاتجاهات الدينية ونشأة البروتستانتيه كان السبب الأقوى لظهور الرأسمالية .

وهذا يعنى أن تغير المذاهب الدينية قد ادى إلى تغير اقتصادى كذلك أصبح التعليم قوة مؤثرة فى المجتمع .

كذلك قد تستدعى قيم واقتصاديات مجتمع معين إلى تغير نسق التعليم بما يتلائم مع طبيعة العصر . وتكشف لنا كل الدلائل أن تعليم بعض المواطنين فى الدول المختلفة قد أدى إلى تكوين الصفوة المتعلمة والتى أصبحت عنصرا متمردا أو ثوريا .

ولاخلاف أن هناك تلاحما بين السياسة والاقتصاد وهناك من يعطى أهمية اكثر للتغيرات الاقتصادية ويعتبرها نقطة البداية فيما يلحق بالمجتمعات من تغيرات . وهى تؤدى إلى احداث تغيرات عميقة فى المجتمع تؤثر فى نسق القيم والمعتقدات وهذه القيم قد تساعد على احداث التغيير أو اعاقته كما اصبح التغير السياسى الذى يهدف إلى بناء دولة قوية ذا أهمية كبرى فى تاريخنا المعاصر كذلك التغيرات التى تنادى بتحقيق العدالة والمساواة وهناك امثلة عديدة عن الترابط بين الانساق وتدل الشواهد على أن ظهور اختراع معين وانتشاره قد يؤثر على قيم الناس .

واختراع السيارة أوضح الشواهد على ذلك فقد ساعد اختراع السيارة على بناء عدد كبير وضخم من المؤسسات الصناعية التى استوعبت بدورها عددا كبيرا من العمال الذى عملوا اعمالا مستمرة وبأجر منتظم مرتفع نسبيا مما ساعد على رفع مستوى المعيشة لهؤلاء . كذلك ساعد تأسيس مصانع السيارات على ظهور

صناعات اخرى مساعدة مثل صناعة البترول وصناعة المطاط كما ادى إلى اختفاء حرف اخرى واندثارها فلم يعد الناس يستعملون العربات التى تجرها الحيوانات فى الانتقال من مكان إلى مكان أو حتى فى العمل الزراعى أو نقل البضائع كما ظهرت التشريعات التى تنظم الحركة والمرور ومهدت الطرق التى تسهل حركة السيارات وانسيابها كما ساعدت السيارات على الاتساع الحضرى ونمو الضواحى وامتداد المدن فى كل الاتجاهات كما ساعد استخدام السيارات على الترويح عن النفس . كما كان لاختراع السيارة وجهة القبيح إذ ساعد على انحراف اخلاق بعض الشبان وانتشار حوادث السيارات ولكن اهم الاثار التى ترتبت على السيارة زيادة الحركة والتنقل من مكان إلى آخر .

عوامل التغير :ـــ

١ ـــ المخترعــات :

تعد المخترعات من أكثر العوامل أهمية لاحداث التغير . وبعد أن عرضنا اثر السيارة كاختراع جديد نسبيا على الحياة الاجتماعية يحتاج الأمر منا إلى وقفة قصيره، لتقديم ايضاح بسيط فهذه المخترعات التكنولوجيه الكثيرة مثل السيارات والذره والمدافع والراديو وآلات الطباعة كلها مخترعات مادية . وهذه المخترعات المادية هى ماتستدعى إلى الذهن عندما نتذكر اثر المخترعات فى حدوث التغير . ولكن هناك اختراعات لامادية هامة مثل الكتابة والنقود والضمان الاجتماعى والبنوك ونظام الائتمان والسمعة الحسنة وحقوق الانسان والديمقراطية والتعاون والشركات وتؤدى المخترعات اللامادية إلى انساق افضل من التنظيم والمبادىء العامة والقوانين .

ولم تكن كل المخترعات التى عرفها الانسان خلال تاريخه الطويل محصلة تخطيط منظم أو نتيجة جهود تبذل للبحث عن اساليب جديدة ؛ فأغلبها وخاصة فى الماضى كانت نتيجة الصدفة وحدها وحتى اليوم تظهر مخترعات جديدة بالصدفة وأن كان اغلبها محصلة جهود جماعية تبذل لاحداث التغيير. وتمول الشركات الاف الباحثين لاكتشاف احدث المخترعات والمنتجات كما تلجأ الحكومات إلى عون الباحثين لوضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعيةوقد يلجأ إلى القانون لتنظيم التغير . وقد شرعت القوانين لتنظيم استخدام السيارة كأختراع جديد .

ويوضح لنا تباين الاشياء المادية والممتلكات المادية التى فى حوزة الانسان الحديث ، أن الانسان مدفوع دائما إلى الاختراع ، وانه قادر على أن يعدل ويحور ويبدل كل جوانب الحياة ، ولكن عدد المخترعين بالنسبة لعدد السكان ضئيل . بل ان المخترع مخلوق نادر ، فالاغلبية العظمى من الناس لايخترع شيئا طوال الحياة . أما المخترعون وهم قلة ضئيلة ، فانهم ينجحون دائما فى تقديم اختراعات واكتشافات تؤثر فى حياة الناس ومجتمعاتهم بل وفى تغيير الانسانية ، وتكون جزءا أساسيا من الثقافة ، بل وتكون قوى مؤثرة فى احداث تغيرات اجتماعية .

وقد بين أجبرن فى عمله الرائد حول هذا الموضوع ان أغلب المخترعات لها قدر ضئيل من الاصالة الحقيقية وأن أغلب هذه المخترعات ماهى إلا اضافات أو تجديدات أو تراكم لعناصر موجودة فى الثقافة ، ويقول أوجبرن اننا لو نظرنا إلى جهاز التلغراف ، نجد لدينا سبق معرفة مثلا عن الكهرباء والملف والبطارية والدائرة . وتتم الاختراعات بمعدل يرتبط ارتباطا وثيقا بعدد العناصر الموجودة والتى يمكن أن تتداخل فى تصنيع الاختراع الجديد . ويبدو لاوجبرن أن الاساس الثقافى للمخترعات السابقة الموجودة هو العامل الاساسى فى تحديد معدل الاختراعات نفسه ، وفى تفسير حقيقة أخرى هى زيادة المخترعات باستمرار ونحن لانستطيع أن ننكر دور الاختراعات فى أحداث التغير فى كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية . فمن منا يستطيع أن ينكر تأثير اختراع الحديد والبرونز وآلة الطباعة والسكك الحديدية والسيارات وادوات الاتصال على الحياة الاجتماعية والثقافية .

ويقرر بعض العلماء أن بعض الاختراعات الأولى والاكتشافات المبكرة فى تاريخ الانسانية حولت طبيعة الحياة الأنسانية ، ابتداء من استعمال النار والأدوات الحجرية والزراعية والسهم والقوس والعجلة وحروف الكتابة والكهرباء والمصباح الكهربائى والحديد والصلب والورق وادوات الطباعة والطاقة التجارية والبارود وأخيرا البترول . إن عملية الاختراعات لن تنتهى فهى عملية مستمرة فكل اختراع معتمد على ماسبقة من اختراعات جديده ويمهد لاختراعات جديدة .

ولقد اثر استخدام الآله ومايتبع من تغيرات اقتصادية على البناء الاجتماعى فى معظم المجتمعات ، وقد أدى استخدام الآله وتحول الانتاج من عمل عضلى يحتاج

إلى قوة الرجل إلى عمل هين يؤديه الصغار والنساء إلى تحول الاسرة من وحدة انتاجية تقوم على الحياة الجمعية إلى وحدة استهلاكية قوامها الفرد ، وعجزت الاسرة عن متابعة التغيرات الاقتصادية المتلاحقة مما أدى إلى فقدانها لوظائفها الاقتصادية والتربوية والترفيهية . وكما تؤثر التكنولوجيا مباشرة فى تغير المجتمعات ، فهناك اتجاه يرى أن الافكار أخطر وأهم من التكنولوجيا فى تغيير التاريخ وتغيير الابنيه الاجتماعية .

ولايقتصر تأثير الآله على الأسرة بل يمتد ليشمل النسق التربوى والنسق الاقتصادى والنسق القرابى والنسق السياسى وإذا كان هناك من يؤكد التأثير الهام للتكنولوجيا فى تغيير المجتمعات . فهناك من يرى أن الايديولوجيات السائدة هى الأخطر والاهم من التكنولوجيا فى تغيير حركة التاريخ وتغيير الابنية الاجتماعية .

ونرى ان الاعتماد متبادل بين تأثير التكنولوجيا والايديولوجيا على الحياة الاجتماعية ، فقد أثر اختراع الالة الكاتبة مثلا على ايجاد وظيفة الضاربة على الآله الكاتبة . وماكانت توجد هذه الوظيفة دون انتشار افكار تحرير المرأة وقد أثر اختراع الالات المتعددة على طبيعة الحياة الاسرية بل وأدى إلى تغيرات عديدة فى العمليات السياسية لم تعرف نتائجها بعد .

وقد ادى اختراع الصمام المفرغ إلى اكتشاف الراديو والتليفزيون والكومبيوتر وكان لكل هذه الاختراعات أثره الكبير على العلاقات الاسرية وتنظيم الصناعة ولكن رغم قوة تأثير هذه الاجهزة على الأسرة فان هذا التأثير لازال فى بدايته .

ولكل اختراع تأثيراته واتجاهاته المتعددة والمتشعبة وقد تكون هذه الاختراعات ايجابية وقد تكون سلبية ، ولكن مانريد أن نوضحه هو أن كل اختراع انما هو محصلة اختراعات سابقة وأن التحول العظيم فى الدول الحديثة من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الحضرى الصناعى إنما هو محصلة اختراعات متعددة . ابتداء من الالات التى تحد من استخدام العمل اليدوى فى الزراعة والاسمدة الكيماوية التى تزيد من غلة الفدان ، والمبيدات الكيميائية لمقاومة الآفات . هذا التقدم التكنولوجى واستخدام الميكنة الزراعية فى الريف والاستخدام الواسع والمتزايد للآلة فى المصانع والمعامل له أثره على الحياة الاجتماعية ويتطلب منها التوافق مع الاساليب

الجديده والتكيف مع طريقة الحياة التى تنشأ من الاستخدام الواسع للآلة .

٢- الازمـــات :

تدفع الحروب الناس إلى اختراع الاسلحة من إجل الدمار . كما تدفع إلى زيادة الطلب على المواد الاولية فى كل انحاء العالم كما تنشر الجيوش افكارا جديدة كذلك تنشر عادات سيئة . وكلنا يعلم اثر الجيوش التى أتت مع الحملة الفرنسية على مصر والمصريين . فكما نشرت هذه الحملة افكارا جديدة غيرت من حياة المصريين وافكارهم ونقلت مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث نشر الجنود الفرنسيون عادات سيئة تتعارض مع اخلاق المصريين ودينهم .

كذلك تتطلب الفيضانات والامراض الطبيعية والزلازل توافقات اجتماعية جديدة . وفى العصور القديمة كانت هذه الازمات تساعد على الهجرة إلى بلدان جديدة . أما الآن فهناك جهود كثيرة تبذل للسيطرة على الطبيعة كذلك قد تؤدى الازمات الاقتصادية إلى البطالة والكساد . كما يؤدى ظهور المخترعات الجديدة إلى انتشار البطالة وازمات العمل .

٣ ــ الانتشـــار :

وهو عامل هام اكثر اهمية من الاختراع . ونقصد بالانتشار عملية استعارة العناصر الثقافية من ثقافة اخرى . ولقد استعارت كل الثقافات عناصر ثقافية اكثر من العناصر الثقافية التى اخترعتها . وهناك عناصر ثقافية انتشرت إلى اغلب بلدان العالم . فالفأس والعجلة والمحراث وحيوانات النقل والنسيج والاطعمة واللغات وحروف الكتابة والورق والحبر والزجاج وآنية الطعام والانية الزجاجية وكل الاشياء التى نستعملها فى حياتنا اليومية ، حتى القصص التى نسمعها مثل كليلة ودمنة وسندريلا وقصص النبوة وحكايات الجاحظ والمذاهب الرمزية فى الادب والموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الجاز انتشرت من مواطنها الاصليه إلى كل بقاع العالم . وكذلك الاديان الثلاثة هبطت فى مصر والشام والحجاز ثم انتشرت إلى كل بقاع العالم.

وقد يقصد بمفهوم الانتشار ــ والذى قدم كتفسير أفضل من الثورة لاسباب

ظهور سمات ثقافية مماثلة فى مجتمعات مختلفة ــ انتقال العناصر الثقافية من مجتمع لآخر . وهذه النقلة أمر لامفر منها ، بالرغم من التعصب القومى والذى قد يدفع بعض المواطنين المتعصبين إلى انكار ديونهم الثقافية إلى بلدان اخرى . فالثقافة الامريكية تدين فى مجموعها إلى ثقافات لا أمريكية ومجتمعات غير امريكية . وكذلك فالحضارة الاوربية تدين بالشىء الكثير إلى الحضارة الاسلامية فما دام هناك احتكاك ثقافى ، فهناك انتشار ثقافى .

ولكن الانتشار الثقافى عملية انتقائية ، فهناك عناصر ثقافية جديدة وافدة قد ترفض ولاتقبل إذا ماتصل المجتمع بانماط ثقافية أجنبية . فاليابان اتصلت بالثقافة الاوربية ، واخذت عنها التكنولوجيا ، بل تفوقت عليها فى هذا المضمار ولكنها لم تقبل فى الوقت نفسه المعتقدات السياسية الغربية ، ولازال على رأس النظام السياسى هناك امبراطور اليابان . ولم يقتصر الأمر على رفض الفكر السياسى الغربى بل حتى الفن الغربى والفلسفة الاوربية لامكان لها فى اليابان .

والسؤال الهام بشأن الانتشار يتعلق بالظروف التى تقبل فيها بعض الانماط الثقافية الجديدة أو ترفض ، وبالعمليات التى تصبح بها هذه الانماط الثقافية الجديدة جزءا من الثقافة الاصلية .

فالثقافة العربية رغم الغزو الفكرى الأوربى والاستعمار السياسى والعسكرى بقيت حافظة لمعالمها . وبقيت اللغة العربية حافظة للتراث ، فالثقافات لاتندثر حتى فى اعقاب الحروب ، ورغم وجود المنتصر والمهزوم ، كما يشهد بذلك التاريخ ، فان المنتصر يراعى دائما التنظيم الثقافى والاجتماعى للمهزومين إذا ماأراد تجنب المقاومة . وفى المجتمع التقليدى الاكثر تماسكا ، فان القوى الخارجية هى العامل الاكبر والاقوى لحدوث التغير اثناء عملية الانتشار . فالتجديد والاختراعات عاملان غائبان وغير متكررين . أما فى المجتمعات الحديثة من جهة أخرى ، فان بعض المخترعات ليست مرغوبة ، ولكنها تشجع بل تدفع اليها كذلك . فالتجديد فى بعض المجالات يمثل التوافق مع القيم الاجتماعية الهامة ، وقد يشجع التجديد التكنولوجى المستمر خلال الاعتقاد التقليدى بانه إذا ماصنع الانسان مصيدة جديدة أفضل للفيران فان العالم كله سوف يلجأ إلى صاحب

الاختراع ويستخدم المصيدة ، ولكن الكفاءة والاختراع تدفع اليهما ايضا الضغوط الاقتصادية . وقد دعم التطور العلمى والتكنولوجى من خلال تنظيم متكامل للبحث والنظم العلمية . وثمة مجالات أخرى تتكافىء مع العلم والتكنولوجيا فى تشجيع التجديد ، رغم وجود مدى كبير من السماح لاكتشاف اساليب وادوات وافكار جديدة فى مجالات الحياة الاجتماعية المختلفه مثل الترفيه واجراءات العمل .

ونتيجة للترابط والتساند بين عناصر المجتمع ، فان التغير فى عنصر معين يستتبعه تغير فى العناصر الاخرى ، وقد لايعلن عن هذه التغيرات وقد يصعب التنبوء بنتائجها . وعادة فان هذه التغيرات غير مرغوبة عند جماعات عديدة فى البداية . فمثلا بعدما ظهرت السيارة لأول مرة استخدمها البعض من افراد الطبقة الاستقراطية كوسيلة جديدة للترفيه والمباهاة ولكن عندما ظهرت فائدتها العملية وقلت نفقاتها ، اصبحت السيارة صورة طبيعية مألوفة فى الحياة الامريكية . وأصبحت صناعة السيارة صناعة أساسية فى المجتمع الامريكى وساعدت على نهضة الولايات المتحدة الامريكية وازدهار اقتصادها بل وتحطيم الحياة الريفية التقليدية .

معوقات التغير :

وكما أن هناك عوامل تساعد على التغير فهناك عوامل تعوق من حركة التغير ابتداء من قوة العادات والتقاليد مرورا بالشك فى جدوى الاختراع الجديد . وقد يتطلب الامر سنوات طويلة لمعرفة جدوى التلفزيون وأثره على اتجاهات الناس وسلوكهم بدلا من الراديو . وأحيانا مانسمع قصصا عن الاضرار التى تلحق بالناس نتيجة استخدام اختراع جديد . ويفضل الناس دائما الأساليب التقليدية المحبوبة بدلا من خوض تجربة استعمال اشياء لم يتعودوها . وقديما نظر الناس إلى المخترعات باعتبارها أشياء تدنس الموضوعات المقدسة بجانب انها مكلفة .

ولاجدال أن ارتفاع تكاليف المنتجات الجديدة عامل لاينبغى أن ينسى فلـه أهميته فى اعاقة التغير وخاصة فى الدول الفقيرة . فالعادات الراسخة وارتفاع اسعار المنتجات والسلع عاملان يرتبطان سويا لاعاقة التغير فى الدول الفقيرة .

والمهتم بالبترول والمستفيد من ارتفاع اسعاره لن يشعر بالراحة ازاء الابحاث التى تجرى من أجل البحث عن بديل اخر له ، سواء فى مجال الطاقة الشمسية أو الطاقة الكهربائية . وسيبدى رأيه المعارض لاستخدام السيارة الكهربائية . ولن يسعد العمال عند سماع نبأ اختراع قد يؤدى إلى الاستغناء عنهم . كذلك قد يؤدى الفهم الخاطىء للعقيدة الدينية إلى اعاقة التغير ، كما يقاوم الاتجاهات المجتمعية للتغير ، وقد تكون مقاومة التغير صلبة وقوية فى البداية مثلما حدث ازاء استخدام حبوب منع الحمل فى بعض المجتمعات ولكن سرعان ماتنتهى هذه المقاومة .

ويمكن أن نقول ان عملية التغير فى مثل هذه المجتمعات هى عملية امتصاص تدريجى للافكار الجديدة . وهى عملية تغير بطىء وترشيد تدريجى للاتجاهات القديمة .

ويؤكد تحليل التغير أهمية دراسة النتائج غير المتوقعة للفعل الاجتماعى أو دراسة الوظائف الكامنة والاحباط الوظيفى للانماط الاجتماعية والثقافية . وقد يؤدى الولاء للمعايير الاجتماعية إلى تغييرات فى التنظيم الاجتماعى والانماط الثقافية . وثمة أمثلة كثيرة شائعة لذلك منها أن أحدى نتائج التنافس الاقتصادى فى بعض الصناعات هى اقصاء عدد كبير من المنافسين ، وظهور الاحتكار كذلك فان السعى إلى المميزات السياسية قد أدى إلى عدم احترام الحكومة والموظفين الرسميين . وفى بعض المجتمعات الزراعية تؤدى قواعد الميراث إلى عدم الكفاءة الاقتصادية للمزارع الصغيرة وظهور الكوارث عند القرويين بسبب المجاعة .

وعندما يحدث التغير الاجتماعى ، تظهر التوترات والضغوط والصراعات داخل المجتمع ، مما يؤدى بالتالى إلى حدوث تغيرات جديدة . وقد ادى نمو الشركات المساهمة الكبرى والتى يقف أمامها العمال قليلى الحيلة إلى الاسراع بتكوين الحركة النقابية ، كما إدى ازدياد التحضر إلى انخفاض معدلات المواليد .. وانكماش حجم الاسرة ، وتكمن مصادر التغير الاجتماعى فى التنافس بين المعايير التقليدية والواقع الملموس الذى يحث الافراد إلى السؤال عن طبيعة النظام الموجود ومدى جدوى تلك النظم التى لم تعد قادرة على اشباع حاجات الافراد والوفاء بالتزاماتهم . واقتراح اخرى بدلا منها .

وعندما تدفع التوترات والضغوط جماعات من الناس إلى البحث عن التغير يظهر مايمكن أن نطلق عليه حركة اجتماعية أو ثورة . ولكن التغيرات التى تحدث فى أغلب المجتمعات إلى حد ما ، هى محصلة فعل منظم من جانب هذه الجماعات فهناك حركة الخومينى فى ايران ، وهناك حركة ماوماو وحركة الضباط الاحرار ، وحركة البوليساريو لتحرير الصحراء بيد أن كل هذه الحركات قد لاتنجح فى تحقيق اغراضها ولكنها تلعب دورا هاما فى المجتمع وتغييره .

وإذا كان هناك من أرجع التغير إلى الاقتصاد أو السياسة فهناك من ارجع سبب التغيرات فى الدول النامية إلى التغير فى نظم التعليم .

التحديث :

وإذا كان بعض علماء الاجتماع المحدثين قد انصرفوا — كما أوضحنا — عن دراسة عملية التغير إلى دراسة عملية التحديث ، باعتبارها العملية الأهم ، فعلينا الآن أن نوضح خصائص عملية التحديث وهى مجموعة خصائص متفاعلة متداخلة .

١ — تكافؤ الفرص بين المناطق الهامشية والعاصمة حقيقة بنائية ثابتة فى المجتمع الحديث ، نتيجة زيادة وسائل الاتصال ، والتى تولد عند الناس الوعى بعضوية النسق الاجتماعى الاكبر .

٢ — الإيمان بالمساواة واهمية المشاركة . فالمجتمع الحديث مجتمع كل المواطنين وهو مجتمع يتميز بانتشار الحركات الاجتماعية المختلفة التى تناضل من اجل المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص .

٣ — انتشار العقلانية والتطور المادى والارتباط بين السياسة والاقتصاد .ونقصد بالعقلانية تطبيق المبادىء العقلية لمنطق العلم عند تفسير السلوك الانسانى . وكان لتطبيق العقلانية فى مجال تقسيم العمل وانتاج السلع والكماليات من كل الانواع أثره السريع فى رفع الدخل القومى ، كما يتميز المجتمع الحديث بازدياد استعمال الآلة .

أما الارتباط بين السياسة والاقتصاد ، فيكشف أن القوة السياسية ترتبط بالقوة الاقتصادية ولافصل بين القوتين . وأبسط مثال لذلك أن دول البترول فى السبعينات أصبح لها شأن فى رسم سياسة العالم .

٤ ـ المعرفة قوة اجتماعية :

الدول الحديثه هى تلك الدول التى توجد بها جهود واعية نحو الاستخدام المنظم للمعرفة المنبثقة من العلم . ولايحدث ذلك كعملية بسيطة للخلق والتطبيق ، ولكن الصفوة السياسية هى التى تقرر أى انواع المعرفة هى المرغوبة ، ومن ثم يوفرون المنح والمساعدات المالية اللازمة للاستفادة منها مثل تطوير الاسلحة ، أو الصعود للقمر أو ازالة ملوحة البحر أو تعمير الصحراء والقضاء على الامراض المتوطنه والقضاء على تلوث البيئة ، وقد ادى الاهتمام بهذا النوع من المعرفة إلى ظهور عمليات اجتماعية جديدة تؤثر على الدور الاجتماعى للعلماء . وتكشف عن تأثيرهم على اتخاذ القرار السياسى والاقتصادى .

٥ ـ ظهور أهمية الروابط :

ازدياد الروابط التى ينتمى اليها الشخص فى المجتمع الحديث . ويعنى انتشار هذه الروابط فى المجتمع الحديث ضعف أو تضاؤل قيمة المجتمعات المحلية التقليدية نتيجة ازدياد الحراك الاجتماعى وانتشار استخدام الآلة .

٦ ـ التكنولوجيا والتحول الثقافى :

إن اهم مايميز المجتمع الحديث استخدام وسائل الاتصال ابتداء من الراديو إلى التليفزيون والصحف والسينما ـ إذ تسهل أدوات الاتصال انتشار الثقافة وتغييرها .

٧ ـ العالمية ومذهب اللذه والنزعة الانسانية :

ظهرت هذه الحركة الحديثه كحركة تهتم بالطبيعة والإنسان باعتباره يسكن فوق هذه الأرض وهى حركة محبة للون الأخضر ونشر هذا اللون يسهم إلى حد كبير فى عدم تلوث البيئة ، والهدف كله تعويد الصغار على حب الطبيعة . وثمة حركات شبابية فى العالم تؤمن وتدعو للعودة الطبيعة وتهاجم زحف المدينة على الخضرة وتلويثها للبيئة .

٨ ـــ ظهور الحركات التخريبية :

إن احد المهام الاساسية للعالم الحديث الآن ، حل التناقض بين النزعات التى تنادى بالعلم والمساواة والحرية والرفاهية والنزعات التى تدق طبول الحرب ، وتنادى بالاستعمار أو تستخدم العنف والقهر لفرض سيطرتها .

٩ ـــ تغيير الابنية الاجتماعية :

وبتأثير تلك العوامل السابقة وانتشار التكنولوجيا والضغوط السكانية تحدث فى المجتمع تغيرات بنائية عميقه . ومن اهمها إذابة الفوارق بين الطبقات . كذلك كان لتأثير التصنيع والحياة الحضرية . وتحسن وسائل المواصلات ، أن تغيرت الحياة القروية التقليديه وبدأت القرية كأسلوب حياة تختفى ، وبدأت مظاهر الحياة الحضرية تغزو الريف ، وبدأ عدد كبير من السكان فى الريف يكتسبون مراكز جديدة تعكس المراكز السائدة فى المدينة كما غزت الريف بعض قيم المدينة . ولم تعد الحياة فى القرية تقوم على العمل فى المزارع . ولم يعد العمل فى الأرض هو أشرف وأرقى عمل وظهرت حرف ومهن جديدة بل بدأ القرويون يهجرون العمل فى القرية ويتحركون إلى المدينة .

١٠ ـــ تنظيم التغيير الاجتماعى :

قد يكون حكما صريحا أن نعلن أن التغيرات التكنولوجية والاجتماعية غير مرغوبه ولاخطط لها فى المجتمع التقليدى ، ولكنها تحدث عفويا . على حين الأمر على عكس ذلك فى المجتمع الحديث . فالمجتمع الحديث ينظم التغير بل ويخطط له وهو اكثر تقبلا واستعدادا له . والناس فى هذه المجتمعات تؤمن أنه لامفر من التغير بل وأهمية الحاجة للتخطيط له .

ويقول على المحافظة عن تحديث المجتمع العربى الحديث ، « تعرف العرب على المنجزات العلمية الاوربية فى القرن التاسع عشر من خلال اتصالهم بأوربا ثم وقفوا منها موقف المشدوه فى بداية الأمر ، ثم مالبثوا ان استوعبوها بعد تأسيس المدارس العصرية فى مدنهم على يد محمد على فى مصر أولا ثم على ايدى الارساليات التبشيرية المسيحية فى آسيا العربية فيما بعد .

وكانت حملة نابليون على مصر بداية اطلاع العرب على منجزات اوربا العلمية واختراعاتها الحديثة ، ولقد وصف الجبرتى بذهول فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والاخبار هذه المخترعات .

ولقد انفتح محمد على الحضارة الاوربية فى مسعاد لتحديث مصر وجعلها دولة عصرية ذات جيش نظامى واوفد البعثات العلمية إلى اوربا[1] . واستقدم الاساتذة والعلماء والخبراء[2] وانشأ المدارس . وكان لهؤلاء دور بارز فى حياة مصر العلمية .

ولقد ادرك العرب منذ القرن التاسع عشر أن من اسباب تفوق اوربا وقوتها اعتمادها على العلوم التطبيقية وتطويرها . ولذلك أقبلوا عليها اقبالا شديدا . ودعا رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى إلى ضرورة اقتباس العلوم الحديثة لتحقيق نهضة المسلمين مؤكدين ان ذلك لايتعارض مع الدين الاسلامى ، وذهب المجددون فى الاسلام امثال الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا إلى أن العلم لايناقض الدين وإلى ضرورة التوفيق بينهما واعتقد هؤلاء أن ربط العلم بالدين كفيل بأن لاتحمل العلوم الغربية الحديثة معها اتجاهات اخلاقية تتعارض والدين الاسلامى .

عدم ملائمة النظام والتغير كمبداين للتحليل :

وترى كولسون أننا إذا مارفضنا مبدأ اجتماعيا متزنا نستطيع بواسطته تفسير الظواهر الاجتماعية مثل فكرة النظام والذى بواسطته نستطيع فهم كل الاحداث الاجتماعية . فاننا مضطرون إلى دراسة الجماعات الاجتماعية وفق اوضاعها فى البناء الاجتماعى . ويستدعى هذا دراسة الجماعات اثناء تفاعلها تاريخيا . ومن ثم ينبغى أن يكون التحليل الاجتماعى تحليلا تاريخيا وديناميكيا . وهذا الاتجاه الذى يؤمن بالعامل التاريخى عند تحليل المجتمعات يتعارض مع الاتجاه الذى يؤمن بالوظيفية . وهناك مدارس كثيرة تهرب من دراسة ماضى الاحداث التى يحاولون تفسيرها . ويرى البعض ان تجاهل احداث الماضى يؤدى إلى وصف هذه الدراسات بأنها غير علمية . ولقد نقد عدد من الباحثين المدرسة الوظيفية ومتغيراتها بعد أن برهنوا انها

---

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة . بيروت الاهلية للتوزيع ١٩٨٣ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٥ .

(٢) على المحافظة : نفس المرجع ص ٢٣٦

تتجاهل الحقيقة الواضحة التى تبدو ــ إذا مادرس الفرد المجتمعات ككل خلال الماضى منذ مئات السنين وهى أن التغير الاجتماعى كان مستمرا وشاملا وعالميا وسواء انقلبت اوضاع الفئات الخاضعة أم تغيرت اشكال الابنية الاجتماعية الكلية .

وثمة اتجاهان فى دراسة المجتمعات ، أولهما يركز على النظام وآخر يركز على دراسة التغير . وعلى كل فالنقطة الهامة هى أن أى حكم سواء على النظام أو على التغير فانه يعتمد على تحليل التفاعل الداخلى للجماعات فى البناء الاجتماعى من وجهة نظر وحيدة الجانب . وبعبارة اخرى فان التحليل البنائى التاريخى يساعدنا إما على فهم النظام واسباب افتقاده وإما فهم التغير ومعوقاته . وثمة امثلة كثيرة للبحث تثير فينا الاسى لما تتضمنه من معلومات زائفة عن كيفية اجراء هذه الدراسة ، وذلك لافتقادها إلى المدخل البنائى التاريخى الذى يربط بين النظام والتغير . وعلينا ان نعرف دعائم النظام والحركات الخفية والعوامل الخفية التى تؤدى إلى ثورات اجتماعية واقتصادية . ومن ثم فان علم الاجتماع هو الذى يساعدنا على تفسير التغيرات التى تحدث فى المجتمع والتنبوء بها إما العلم الذى يهتم بغير ذلك فهو علم زائف . ويترتب على ذلك أنه لاحاجة لعلماء الاجتماع لبذل مزيد من العناية بالتغير ولاحاجة لهم بدراسة التغير باعتباره نقيضاً للنظام كأساس للتحليل ولكن عليهم أن يجعلوا من جماعات الناس المتفاعلين فى فترة زمانية داخل الابنية الاجتماعية محور دراستهم .

ومن الخطأ عندما ندرس التغير أن نتجاهل أن هذا المجتمع اثناء التغير يتضمن بعض الاستقرار . كما يعد من الخطأ أن نفصل بين التغير والاستقرار والنظام . ومن ثم فالمنظور السوسيولوجى الذى يعتمد على التحليل البنائى التاريخى ضرورى لكى نفسر الاستمرار والتغير معا . وهذا المدخل ينبغى أن يكون ديناميكيا لا استاتيكيا . وبالأحرى وكما أشرنا فان سلوك الأفراد والجماعات لايمكن أن يفهم إلا داخل البناء الاجتماعى ولذا فعندما ندرس التغيرات الاجتماعية فان تفسير التغيرات القصيرة المدى فى المجتمع لايمكن أن تنفصل عن علاقاتها مع التنظيم الكلى للمجتمع اثناء تطوره التاريخى . وهذا تحليل جدلى مؤداه نظرية جدلية الأبنية فى النظم الاجتماعية فى المواقف الاجتماعى تقوم على أساس استقصاء تاريخى .

وقد بينت كولسون أن انواع التفاعلات التى تقدم لنا القاعدة الاساسية للتفسير السوسيولوجى للتغير البنائى فى المجتمعات هى تلك التفاعلات التى تؤدى إلى صراع الجماعات المختلفة والتى تشغل اوضاعا متباينة فى البناء ومن ثم فمنابع التغير التى تؤدى إلى الصراع هى صراع يفرضه عدو خارجى ، وقد يكون صراع المجتمع ضد الاحداث الطبيعية التى تنزل على المجتمع والتى لايستطيع افراده السيطره عليها ، أو يكون محصلة اتفاق متبادل بين اعضاء الجماعات . وكان هناك أتفاق بين كل الجماعات الايرانية على الثورة لكن اتفاق الجماعات الثورية قد لايستمر إذ سرعان مايدب الخلاف بينها وهذا ماحدث فى ايران إذ سرعان مانشب الصراع بين الجماعات الدينية والجماعات اليسارية وقد يكون سبب الصراع القرارات التى تصدرها الجماعات الحاكمة وتلك القرارات التى تتعارض مع مصالح الآخرين .

وترفض كولسون العامل الوحيد لتفسير التغير كما ترفض تعدد العوامل لتفسير التغير وهى تؤكد على أن هناك عاملا اكثر تأثيرا كما يتعين الا نفصل عوامل التفسير عن سياق البناء الاجتماعى .

التغير بين الامل واليأس :

سواء أكان الانسان يعيش فى اكثر بلدان العالم تخلفا أو تقدما ، فانه يشعر بوطأة التغير . فالمنتجات الجديدة والاساليب التكنولوجية المستحدثة والوسائل الجديدة لتنظيم النظم الاجتماعية والمناداة بقيم جديدة والشعور بالحاجة إلى حياة أفضل ، أمور موجودة وجودا طبيعيا بيننا . وبدأت اساليب الحياة التقليدية تهتز باستمرار ، وازداد شعور الناس فى العصر الحديث بالغربة والاحباط واليأس نتيجة الشعور المستمر برياح التغير الذى يدفع الناس إلى الحركة ضد رغباتهم وإراداتهم . ولكن مهما كانت قوة التغير فلا رجعة إلى الوراء ولاوقت لوقفة تأمل واسترجاع لما حدث . فنحن نعيش فى عصر وإن بدا متسارع الخطوات ففيه صعد الإنسان إلى القمر وهبط إلى الكواكب محاولا استغلال مابها من ثروات وحرك جبال الجليد إلى الصحراء . وانشأ بها انهاراً وقضى على الكثير من الأمراض وإخترع المضادات الحيوية ، وابتكر الكومبيوتر ، ولم يعد الانسان فيه هو ذلك المخلوق الذى يعمل فى

الزراعة وحدها ، معتمداً على قوة طبيعية مجهولة ، بل اصبح الانسان يعيش فى عصر صناعة الادوات الصناعية والسيطرة على البيئة ، ليجعلها فى خدمته ، ويوفر الجهد البدنى البشرى وراء العمليات الانتاجية . كما ان مستقبل الإنسان عظيم بانجازاته العلمية والتكنولوجية لكنه مخيف بما يحمل بين احشائه من ادوات الدمار النووية التى اوجدها العلم .

الفصل الحادى عشر

المشكلات الاجتماعية

من المشكلات التى تؤرق علماء الاجتماع والنفس ورجل السياسة والدين فى مصر ابتداء من السبعينات مشكلات التطرف والتعصب وحوادث الشغب والعنف التلقائى واغتصاب الفتيات والسوق السوداء والارهاب وأزمة الإسكان والقمامه وتلوث البيئة . هذه المشكلات كلها التى تهدد المجتمع المصرى ليست من قبيل الحوادث الطارئة التى تقع فجاة وبلا مقدمات وإنما كانت تعبيرا عن عوامل متباينة كامنة وظاهرة .

وقبل ان نتقدم إلى الامام ونعرض لآراء علماء الاجتماع وجهود المهتمين بالعلوم السلوكية فى كثير من المشكلات الاجتماعية نؤكد منذ البداية كعلماء اجتماع ان ثمة فرقا بين مشاكل الدول الصناعية الغنية وبين مشاكل الدول الفقيرة ، والتى تتلخص فى المساكن غير الصحية وتدهور الخدمات الصحية والتعليمية والانفجار البشرى ومشكلة الحصول على الطعام والتلاصق الجسدى فى الشوارع ووسائل المواصلات .

بيد أن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية ليس معاصرا ، إذ يعد نشر كتاب اليوتوبيا فى عام ١٥١٦ بداية اهتمام الانسان الاوربى الحديث بالتفكير فى النظام الاجتماعى المثالى ، وقد استمر هذا الاهتمام بعد ذلك حتى هذه الفترة . كذلك اهتم المفكرون الاسلاميون بالواقع الاجتماعى فى بلدانهم . وقدم لنا الفارابى المدينة الفاضلة ، فالاهتمام بالتفكك الاجتماعى والتعفن الاخلاقى والمشكلات المترتبة على ذلك والتطلع إلى مجتمع أفضل ينعم فيه الانسان بالرفاهية ، موضوع قديم قدم الإنسان . وقد اهتم بذلك الفلاسفة والشعراء ورجال الدين والمصلحون الاجتماعيون .

وقد لجأ الانسان إلى العلم الاجتماعى عندما أكتشف عدم ملائمة الانظمة الاجتماعية المعاصرة ، وعجز الفلاسفة والسياسيين عن حل مشكلاته ، وقصد من ذلك البحث عن اسباب هذه المشكلات وتحليل مظاهرها بحثا عن حياة أفضل ، لإيمان الانسان المعاصر أن العلم هو اطار العمل الوحيد لاحداث تغيير اجتماعى مخطط يحقق اكبر قدر من النجاح .

وعادة مايواجه عالم الاجتماع السؤال الاتى : ماالظاهرة الاجتماعية الجديرة بالملاحظة .

نحن نعرف أن عالم الاجتماع بأعتباره عضوا فى مجتمع يوجه جهوده عادة إلى تلك المجالات التى تهمه ، أو يهتم بتلك المجالات التى يشعر هو أن اغلب أعضاء المجتمع المحلى يعانون منها ، أو إلى تلك المجالات التى يعتقد بعكس اعضاء المجتمع أنها أمور غير مرغوب فيها . وقد يركز اهتمامه على ظاهرة اجتماعية معينة . وتصبح القضية اكثر وضوحا عند عالم الاجتماع المهتم بالمشكلات الاجتماعية المعاصرة والملتزم بقضايا المجتمع المعاصر الذى يعيش فيه . والعالم الاجتماعى عندما يهتم بفهم السلوك الانسانى سواء السلوك المألوف أو السلوك الشاذ والاسباب التى تؤثر فى هذا السلوك فانه يهتم بدراسة مجالات الانشطة التى ترتبط بالصعوبات التى تعوق تحقيق اهداف الجماعة أى بدراسة المشكلات الاجتماعية .

وعندما يتصدى العالم الاجتماعى لدراسة المشكلات الاجتماعية ، فأنه يدرسها دراسة علمية ويقوم باجراء بحوث ذات طبيعة اجتماعية ، ويعتبر الظاهرة السائدة فى المجتمع ، هى محور نشاطه . ولاتقتصر مهمة عالم الاجتماع عند دراسة المشكلات الاجتماعية على الوصف والتفسير ، بل يتعين عليه تقديم اسهام ايجابى نحو السيطرة على الأمراض الاجتماعية ومتابعتها والمشاركة فى وضع سياسة اجتماعية واضحة تهدف إلى خير المجتمع ورفاهيته ، وهو هنا يختلف عن المصلح الاجتماعى الذى يقدم الحلول الجزئية والوقتية والسطحية لأزمات أعضاء المجتمع ، أما عالم الاجتماع فيبحث مشكلات المجتمع تبعا لخطوات المنهج العلمى فى اطار البناء الاجتماعى كله .

ويرى دوركيم أنه من الضرورى أن نفرق بين الظواهر السليمة والظواهر المعتلة .

والظواهر السليمه وهى تلك التى تتشكل بصورة يعم وجودها المجتمع كله أما الظواهر المرضيه فتؤدى إلى بعض النتائج الضارة بالمجتمع ، أى إلى اضطراب المجتمع ، وهذا يتطلب من عالم الاجتماع أن يبحث عن أحدى العلامات الداخلية والخارجية التى تقع مباشرة تحت الملاحظة لتأكيد وجود الظاهرة المرضية ، ولكى يقرر العالم الاجتماعى بطريق الملاحظة أو الاستبيان أن الظاهرة تعم المجتمع ــ فأنه يتعين عليه أن يستعرض كل الظروف التى دعت إلى هذه العمومية فى الماضى ثم ينظر بعد ذلك ليرى ماإذا كانت هذه الظروف باقية أم تغيرت ، فإذا ماتبين له أنها لازالت باقية فيحق له أن يصفها بأنها ظاهرة سليمة ، أما إذا وجد أن الظروف تغيرت فانه يحرمها من هذا الوصف . والعالم الاجتماعى يعطى الظواهر السوية نفس الاهتمام الذى يعطيه للظواهر المعتلة فهو يدرس السعادة الزوجية مثلما يدرس التفكك الاسرى والطلاق . ويعطى اهتماما متزايدا للنشاط اليومى المألوف يعادل نفس الاهتمام الذى يعطيه للظواهر المرضية مثل الانفجار السكانى ومشكلات الهجرة من الريف إلى المدينة .

ونحن يهمنا أن نوضح أن السلوك الخاطىء والسلوك الخارج على المعايير أو القانون ليسا وحدهما المظاهر الوحيدة للمشكلات الاجتماعية ، فالسلوك العادى والمقبول أحيانا قد يعد مشكلة اجتماعية مثل السلوك الاتكالى والإيمان بالخرافات وضعف الحاجة إلى الانجاز والفتنة الطائفية . كما هو الحال فى المجتمع المصرى .

تعريف المشكلة الاجتماعية ــ

منذ نشأة العلوم الاجتماعية ، والحوار مستمر ، حول تعريف المشكلة الاجتماعية وأهمية دراستها دراسة علمية . وثمة سؤال يفرض نفسه علينا هل يدرس العالم الاجتماعى ظواهر مثل الفقر والبطالة والآثار المترتبة على الهجرة غير المنظمة من الريف إلى المدينة ، وهل يهتم الاجتماعيون بالآثار المترتبة على سوء الخدمات الصحية أو ضعف الادارة الحكومية . تلك الاسئلة حسمها الرأى القائل بان علم الاجتماع علم انسانى يهتم بدراسة الواقع الانسانى دراسة علمية .

وقد بدأ اهتمام علماء الاجتماع بدراسة المشكلات الاجتماعية منذ صدور كتاب الوود « علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية الحديثة » فى عام ١٩١٠م . الا إن

للنظام الاجتماعي متداولة. هذه المشكلات لا ترقى إلى مستوى الاهتمام بالظواهر السوية. فإذا أحصينا ما كتب عن المشكلات الاجتماعية نجده غزير الحصيلة بل ويفيض السنة. فالنظريات الاجتماعية التي تعالج الانحراف وتدرس مشكلات المجتمع قليلة بالقياس إلى ما طرحت المطابع من موضوعات علم الاجتماع الأخرى.

وقبل أن نعرض النظريات المختلفة للمشكلات الاجتماعية، نوضح المقصود بمفهوم (مشكلة) والمقصود بمفهوم (اجتماعي) وعلاقة علم الاجتماع بالمشكلات الاجتماعية، وهل ثمة مستوى نحدد من ورائه النظرية العلمية للمشكلات الاجتماعية؟.

يقصد بالمشكلة وجود عائق أمام الطريقة المألوفة والمقبولة والمرغوبة للوصول إلى الغاية أو الأهداف الاجتماعية. والمشكلة هي ما يعبر عن الانحراف عن المعايير والقيم باعتبار أن المجتمع يضفي عليها صفات أخلاقية. كذلك تعبر المشكلة عن التصرف الذي يخضع الأنماط الاجتماعية التي يتقبلها المجتمع ويسلم بها. ومن ثم فالمشكلة تعبر عن وضع أو موقف يؤدي إلى انزعاج المجتمع إلى الحد الذي يحاول فيه أن يفعل شيئا للتخلص من هذا الوضع.

أما مفهوم اجتماعي في مصطلح العلم فيدل كما يقول جلين على الظواهر الاجتماعية أو الجمعي ويدل المجتمع في مصطلح الرأي كما يعبر عن التفاعل البشري ويدل حياة الترابط والتماسك والتضامن. وقد يرتبط المعنى الاجتماعي بالمعنى الأخلاقي. فالجريمة تعد لا أخلاقية ولا اجتماعية في الوقت نفسه، ومن ثم نستطيع أن نصف فعلا ما بأنه مشكلة اجتماعية إذا ارتبط بالعلاقات الاجتماعية وبالقيم التي ينظم تفاعل الأشخاص في المواقف ويحدد العلاقات الاجتماعية بينهم.

والمشكلات الاجتماعية كثيرة ومتعددة، فثمة مشكلات اقتصادية وهناك مشكلات صحية، وهناك مشكلات سياسية، وهناك مشكلة التنشئة الاجتماعية وهناك مشكلات التعليم. ويتبين لنا هذه المشكلات أن المشكلات الاجتماعية إنما ليست هي المشكلات التي تنشأ عن الخروج على القانون فقط. فهناك مشكلات تنجم عن الخروج على معايير الجماعة أو التمرد على المجتمع أو العجز عن إشباع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لأعضاء المجتمع. كذلك فهناك

مشكلات تظهر نتيجة للفشل فى التوحد مع القيم الاجتماعية أو العجز عن التوافق مع المجتمع المتغير .

وهناك مشكلات اجتماعية عديدة تعانى منها المجتمعات الانسانية تنشأ نتيجة العجز عن التوافق فى موقف التفاعل . مثل مشكلات الطلاق أو عدم تكيف العمال مع الادارة ومشكلات ازدحام المناطق المتاخمة لمراكز الصناعة ورفض التجديد واستنزاف الشعوب الغنية للشعوب الفقيرة والنمو السكانى المتزايد مع قلة الموارد والدعارة وتعاطى المخدرات والرشوة وعدم كفاءة القيادات فى الدول النامية والدول حديثة الاستقلال والنفوز والتبلد السياسى ومدارس الاعداد الكبيرة ، والتسرب من المدرسة الابتدائية والسوق السوداء والاعلام التليفزيونى الهابط ومشكلات تلوث البيئة :

وعندما نصف مثل هذه المشكلات بأنها مشكلات اجتماعية لها خطورتها النسبية والتى تتفاوت من مجتمع لاخر فهذا يرجع إلى أن كل مشكلة ترتبط بالبناء الاجتماعى . ولذا فاننا عندما ندرس المشكلات الاجتماعية فى مصر فيجب أن ندرسها فى ضوء علاقاتها بالبناء الاجتماعى . فمن المستحيل أن ندرس المشكلة الاجتماعية منعزلة عن البناء الاجتماعى ، كذلك ينبغى على العالم الاجتماعى عندما يتصدى للمشكلات الاجتماعية أن يرى أن المشكلات الاجتماعية ليست نبتة شيطانية توجد فجأة وتختفى فجأة ولاتعبر عن صفة وراثية بل هى دائما وليدة ظروف اجتماعية ومحصلة اخفاق الناس فى تحقيق أهدافهم وحاجاتهم نتيجة تعقد البناء الاجتماعى ، كذلك فالمشكلات الاجتماعية أمر لامفر منه مادامت هناك حياة اجتماعية وتغير اجتماعى ولو بدرجات متفاوتة ، فعندما تتعثر الجماعات فى التوافق مع التغير ، وتعجز عن تحقيق مطالبها وحاجاتها تولد المشكلات الاجتماعية . وهى فى البداية تبدو كامنة ولكن سرعان ماتطفو على السطح وتطفو فى وقت معين وتؤثر على درجة تكيف المواطنين وتوافقهم مع البناء الاجتماعى .

وقد اختلف الاجتماعيون فى تعريف المشكلة الاجتماعية ، بيد أننا يمكن أن نقول استنادا على رأى « فريد مان » أن تعريف المشكلة الاجتماعية يتأثر بآراء هؤلاء

الذين يشغلون مواقع قيادية فى بناء السلطة والقوة ويتحملون مسئولية كبيرة فى تقرير السياسة الاجتماعية .. كذلك فمن الخطأ أن نقول ان كل عضو فى المجتمع يعرف لنفسه معنى المشكلة الاجتماعية . ولكن تراكم الاحكام هو الذى يقرر كما يقول « ميرتون » لماذا يعتبر فعل مامشكلة اجتماعية ؟ وايضا يحدد تراكم الاحكام الأهمية النسبية لكل مشكلة داخل المجتمع . .

طريقة تحديد المشكلة :

وإذا ماأراد العالم الاجتماعى أن يحدد أية مشكلة اجتماعية فانه يتعين عليه أن يتبع القواعد نفسها التى يتبعها الفيزيائى أو عالم النبات عند دراسة موضوعات أبحاثهما .

وتتطلب الدراسة العلمية للمشكلة الوصف الدقيق لموضوع البحث واعطاء صورة شاملة عن الظاهرة مثلما يشخص المريض المرض . بيد أن الأمر فى العلوم الاجتماعية يختلف عن العلوم الطبيعية لصعوبة الوصف الملائم للظواهر التى تخضع للبحث . ولكن قبل الدراسة يتعين على الباحث أن يحدد مفهوماته . ويبين ماالمقصود بالفقر مثلا ؟ أو ماالمقصود بالانحراف . ويتفق أغلب علماء الاجتماع على أن صعوبة الوصف فى المجال الاجتماعى إنما يرجع إلى عدم اتفاق العلماء على تعريفات محددة للظواهر موضوع البحث . كذلك فهناك مشكلات عديدة لم يتنبه اليها العالم الاجتماعى بطريقة منظمة . ولكن الأمر الخطير حقا أن يدرس الباحث مجموعات من الافراد لاتمثل المجتمع تمثيلا صادقا ويعتبر دراستهم دراسة لمشكلة اجتماعية عامة .

ولذا فالشرط الأول للمبدأ فى أية دراسة علمية للمشكلة الاجتماعية وصف الظاهرة موضوع البحث فى مجال اجتماعى يمثل المجتمع تمثيلا صادقا . ويلى هذه الخطوه تحديد المتغيرات التى تسبب الظاهرة موضوع البحث ثم وضع الفروض وتقرير الاحتمالات المختلفة لمجال المشكلة الاجتماعية ثم جمع البيانات التى تثبت هذا الفرض أو تدحضه واستخلاص النتائج ثم الاستفادة من هذه النتائج فى تحسين الظروف الاجتماعية والتنبؤ بأحداث المستقبل .

بيد أن عالم الاجتماع اثناء دراسة المشكلة الاجتماعية يواجه عادة مشكلة قلة المعلومات المتاحة التى تدحض فرضه أو تثبته ، كما يوجه مشكلة تفسير الظاهرة بارجاعها إلى عامل واحد أو اكثر من عامل ، من أجل السيطرة على المشكلة وتفسيرها. فهل يرجع الفقر مثلا إلى سوء النظام السياسى أو العجز الاقتصادى أو إلى ضعف الحاجة إلى الانجاز ، أو زيادة السكان مع قلة الموارد أو إلى الاستعمار ؟ والسؤال الهام هل يفسر الفقر استناد إلى عامل واحد فقط أو مجموعة من العوامل أو إلى هذه العوامل كلها . وهذه الإسباب التى تفسر الفقر تؤكد لنا أن الرغبة فى ارجاع المشكلة الاجتماعية إلى سبب واحد أمر مرفوض .

ومن أجل تحديد المرجع المناسب للتحليل الاجتماعى للمشكلات يتعين على عالم الاجتماع أن يدرس القيم الاخلاقية والمعايير الموضوعية للمجتمع المحلى ومن مسئوليته أن يدرس ويصف ويحدد كلا النمطين وأن يقيس السلوك الفعلى والظروف السائدة ومدى انحرافنا عن القيم والمعايير .

ولكن كيف نقيس المعايير ؟ هناك طرق عديدة لتحديد المعايير المتفق عليها أهمها ، الحصول على أدلة ملائمة تؤكد عدم ترابط الاستجابات اللفظية أو الحصول على أدلة تؤكد اختلاف الاقوال عن السلوك الفعلى ، أو دراسة تاريخ المجتمع لمعرفة مدى أستمرار واستقرار النمط البنائى . ويعد منظور الحكم على السلوك استنادا على المعايير منظورا أساسيا ، لكى تؤكد اطار المرجع عند تحليل المشكلات الاجتماعية وفهمها أى معرفة التباعد الواضح بين السلوك الفعلى ومعايير المجتمع المحلى .

وقد يعبر عالم الاجتماع فى تقديره النقدى لخصائص المشكلة الاجتماعية عما يفترض أنه يمثل آراء المجتمع ، وعما يعتقد أنه نتيجة تأثير الانحراف على إداء المجتمع لوظائفه . بيد أن ميرتون يرى أن تكرار الانحراف ليس كافيا لقياس التباين بين المعايير والسلوك الواقعى ، إذ يعطى الناس عادة تقديرات مختلفة للقيم الاجتماعية والمعايير المرتبطة بها . فمثلا يعرف كل فرد منا أن حادث سرقة شىء يختلف فى قيمته الاخلاقية والاجتماعية عن حادث القتل ، كما يختلف العقاب الذى ينزل على السارق عن العقاب الذى ينزل على القاتل ، ولكن كيف نقارن بين

سلوك منحرف وآخر . هل تعادل جريمة القتل بعشرة أضعاف سرقة رغيف وهل قتل النفس التى حرم الله قتلها جريمة لاتغتفر وقتل شعب بأكمله مسألة فيها نظر ، وهل تتكافىء جريمة سرقة المال العام مع جريمة سرقة سيارة أو مع سلوك الموظف الذى لايبالى بعمله أو مع سلوك الام المؤمنة بالخرافات .

بايجاز شديد نستطيع أن نقول أنه لاتوجد أسس متفق عليها فيما يتعلق بتقدير المشكلات الاجتماعية . ولكن القيمة التى يسقطها الناس الذين يشغلون اوضاعا مختلفة فى المجتمع هى التى تحدد الأساس الكافى للاهمية النسبية التى تضفى على المشكلة الاجتماعية . ويرجع تباين تقديرات الناس للمشكلات الاجتماعية إلى تباين المعايير والقيم التى يتوحدون بها وتفاوت توقعات الناس من الاخرين باختلاف المواقف واختلاف الأشخاص .

ولكى يؤدى النسق الاجتماعى وظائفه أفضل أداء فمن الضرورى أن يتكيف النسق مع سلوك الأغلبية وأن يحترم آراء الاقلية ، وأفكارهم واتجاهاتهم وقيمهم . ونجد فى أحداث لبنان أفضل مثال يكشف عجز البناء الاجتماعى عن اداءوظائفه وعجز النظام عن تحقيق الرغبات الطبيعية للافراد وتحقيق توقعاتهم أو نتيجة عجزه عن كبح شهوات الافراد .

نسبية المشكلات الاجتماعية :

ولكن هل المشكلة الاجتماعية ظاهرة عامة فى كل زمان ، وكل مكان وهل توضع المشكلات الاجتماعية كلها فى مرتبة واحدة أم ترتب وفقا لمبدأ محدد ؟

وهناك مشكلات أجتماعية ونفسية كثيرة ومتعددة مثل تعاطى المخدرات والاسكان وتزايد السكان والطلاق وتلوث البيئة وتخزين القات والصراعات الطائفية وهجرة أصحاب الخبرات من الدول النامية وادمان الخمر وكل مشكلة من هذه المشكلات لها خطورتها الخاصة والواضحة ، بيد أن هذه المشكلات تتفاوت من مجتمع لآخر كما تتباين الاساليب الاجتماعية التى تفجرها وتوجدها ، وهذه نماذج من مشكلات اكثر الحاحا وأشد خطوره . فضعف الحاجة إلى الانجاز ليس مشكلة المجتمع الاوربى . ولكنه مشكلة خطيرة فى كثير من الدول المتخلفة .

ولايعد الانتحار مشكلة فى المجتمعات الاسلامية ولكنه مشكلة تؤرق المجتمعات الرأسمالية . وتكاد المجتمعات التقليدية تخلو من الاضطرابات النفسية التى تعانى منها المجتمعات الصناعية .

وإذا كانت جريمة الأخذ بالثأر تعد مشكلة اجتماعية فى بعض قرى محافظة أسيوط مثل البدارى والغنايم وأبنوب فانها تعد سلوكا يتندر به بين المتعلمين فى القاهرة والاسكندرية . وإذا كانت الرشوة والاختلاسات أفعال ظاهرة فى العاصمتين وبعض المدن فانها أفعال نادرة فى مجتمع القرية . وإذا كانت زيادة السكان تعد مشكلة اجتماعية فى مصر فان قلة السكان تعد مشكلة اجتماعية فى ليبيا . كذلك إذا كانت هجرة اصحاب العقول المتعلمة تعد مشكلة اجتماعية فى البلدان النامية ، فان امريكا أغنى دولة فى العالم تعانى من مشكلة التفرقة العنصرية بين البيض والسود . وقد يصف الشخص المتدين ظاهرة الالحاد بأنها أشد الأمراض الاجتماعية خطورة على حين يصف الباحث الملحد الانسان المتدين بأنه يعبر عن ظاهرة معتلة .

ومن ثم فعندما نصف ظاهرة ما بأنها معتلة فلا يكفى أن نقوم بملاحظة اشكال هذه الظاهرة فى أغلب المجتمعات ، بل ينبغى أن نلاحظ هذه الظاهرة فى مجتمعات معينة فى مرحلة معينة من مراحل تطورها . فالظاهرة التى قد تعد ظاهرة معتلة فى المدينة ليست كذلك فى الريف ، وماقد يعد مشكلة اجتماعية فى مجتمع زراعى لايعد كذلك فى المجتمع الصناعى .

التفسيرات المختلفة فى تفسير المشكلات :

هناك آراء عديدة لتحديد أسباب المشكلات الاجتماعية فالبعض يردها إلى أسباب بيولوجية واتجاه ثان يفسر المشكلات أستنادا إلى تفسيرات نفسية وفئة ثالثة تفسر المشكلات الاجتماعية من خلال المنظور البنائى .

أولا : التفسيرات البيولوجية :

يركز هذا الاتجاه أهتمامه على تفسير المشكلات السائدة والانحرافات استنادا إلى عوامل بيولوجية وافرازات الغدد . ويهتم أنصار هذا الاتجاه بالفروق التكوينية التى

تؤثر فى الظروف التى يستجيب بها الافراد إلى معايير المجتمع . وقد يرجع الانحراف إلى التخلف العقلى والاضطرابات النفسية أو إلى الأمراض المتوطنة أو إلى التشويهات الخلقية . ويؤكد فريمان أن مغزى هذا التفسير لايجب أن يتجاهله الاجتماعيون المهتمون بالمشكلات الاجتماعية .

ثانيا : التفسيرات النفسية :

يرى أصحاب هذا التفسير أن علم النفس قد يسهم فى تقديم تفسيرات علمية للمشكلات الاجتماعية ، ومن الأهمية لنا أن نعرف أهمية مدرسة التحليل النفسى بزعامة فرويد فى القاء الضوء على مشكلات مثل العصاب والمخدرات وادمان الخمور وانحراف الاحداث وبعض الامراض الاجتماعية مثل اللامبالاة . وقد ارجعت مدرسة التحليل النفسى كل مظاهر الانحراف إلى تجارب سنوات الطفولة الأولى . بيد أننا يمكن لنا أن نقول ان بعض انصار التحليل النفسى قد غالوا فى تفسيرهم ، عندما ارجعوا الانحراف والمشاعر العدوانية نحو المجتمع إلى مظاهر الاحباط التى يعانى منها الشخص .

أما أصحاب اتجاه علم النفس الاجتماعى فقد ارجعوا ظهور المشكلات الاجتماعية إلى عدم احترام الافراد للمعايير الاجتماعية وعدم تدعيمهم لها إذ يعتمد تحقيق التوافق بين الافراد والجماعة وبين الجماعات بعضها البعض داخل المجتمع على خلق اطرادات محددة لانماط السلوك والعلاقات ، ويحدد هذا الاطراد الاجتماعى اطار المجتمع التنظيمى ، كما يعرف الحدود التى يجب ألايتجاوزها الافراد ، ويؤدى الخروج عن هذه الحدود إلى تعدد المشكلات الاجتماعية .

ثالثا : المدخل البنائى فى تفسير المشكلة الاجتماعية :

أهتم علماء الاجتماع دائما بالعلاقة بين سلوك الاشخاص ومحصلة هذا السلوك وبين الخصائص البنائية للنسق الاجتماعى . ويرجع هذا الاتجاه إلى دراسات دوركيم عن الانتحار التى بين فيها أن هذه الظاهرة تزداد فى أوقات الكساد واوقات الرخاء الاقتصادى السريع . ويرى دوركيم أن احتمال ظهور اشكال الانحراف يزداد إذا

ماكان النظام الاجتماعى غير مستقر ويتميز بافتقاده التوافق والتماسك بين الجماعات الاجتماعية وزيادة الصراع بين الجماعات .

ومن وجهة النظر البنائية يتوافق سلوك أعضاء المجتمع عندما تتطابق الاهداف الثقافية مع أساليب التنظيم ، ويحدث الانحراف عندما لاتتطابق الاهداف الثقافية مع الوسائل التنظيمية . وقد حدد ميرتون وزملائه بدائل التوافق ، كما اشاروا إلى عدد من النتائج وأشكال السلوك التى تؤدى إلى ظهور المشكلات الاجتماعية أو الانحراف ، وتتضح هذه الاساليب عندما يجهل الافراد الاهداف الثقافية لجماعتهم أو عندما تتصارع أو تتشابه هذه الأهداف عليهم أو عندما تفتقد الوسائل التنظيمية لبلوغ هذه الاهداف .

وقد حدد لنا ميرتون نماذج السلوك التى يتجلى فيها الانحراف وهى :

(أ) التجديد :

مثل جرائم أصحاب الياقات البيضاء والطلبة الذين يغشون فى الامتحانات فهؤلاء جميعا يؤكدون الهدف الثقافى السائد وهو النجاح ولكنهم جميعا يرفضون الوسائل التنظيمية لبلوغ هذا الهدف ، نتيجة العجز عن الحصول على الوسائل المحددة لبلوغ هذه الاهداف .

(ب) الطقوسيه :

ويلاحظ ذلك عند الاشخاص البيروقراطيين الذين يتبعون القواعد الموضوعة دون اعتبار للغايات أو عند الاشخاص الذين يتوافقون توافقا زائدا مع الوسائل التنظيمية على حساب عدم التوافق مع الاهداف الثقافية .

(ج) الارتدادية :

ويمثله المريض النفسى الذى يرتد عن الموقف نتيجة سرعة التغير وهجر الوسائل التنظيمية والاهداف الثقافية معا .

(د) التمــرد :

والمتمردون ينسحبون الثقة من الثقافة والنسق الاجتماعى ، ويرون أن القيم الثقافية لاتعبر عن الواقع الاجتماعى بل تبرر الظلم الاجتماعى . وهم فى الوقت نفسه يبحثون عن بناء اجتماعى جديد له مجموعة جديدة من الأهداف والوسائل الاجتماعية لادراك هذه الاهداف .

وهذا التفسير البنائى مفيد لدراسة المشكلات الاجتماعية لانها تتضمن الشك الفردى وأنساق الضبط الاجتماعى . وقد نسأل هل المشكلات الاجتماعية ظواهر موضوعية أم ظواهر فردية ؟ ومادمنا قد قبلنا التفسير البنائى للمشكلات الاجتماعية فان اسباب المشكلات العديدة توجد خارج الفرد . مما يؤكد موضوعية هذه المشكلات وأنها اشياء تقع خارج ذواتنا واعتمادنا على المنهج العلمى فى وصفها وتفسيرها ، ويؤكد بعض علماء الاجتماع بجامعة شيكاغو هذا التفسير بتأكيدهم أن المشكلات الاجتماعية تعبر عن عمليات اجتماعية مستمرة تؤكد وجود هذه المشكلات . فازدحام المناطق المجاورة لمراكز الصناعة ، وعدم تكيف المهاجر إلى المدينة وأرتفاع معدلات الطلاق والتزوير فى الأوراق الرسمية كلها مشكلات تظهر فى مناطق حضرية معينة ، وتفسر فى اطار النمو الايكولوجى والتغير الاجتماعى .

ويرى روبرت وبارك أنه تكشفت لنا خصائص عامة بعد دراسة مشكلات عديدة :

أ ـــ أنها تؤثر فى عدد كبير من الناس بطريقة ما .
ب ـــ أنها تؤثر تأثيرا سلبيا فى تفضيلات القيم عندهم ، وتعبر هذه القيم عن اوضاع مقبولة .
ج ـــ يعتقد الناس أن هذه المشكلات يمكن أن تحقق فعلا معينا ، ولكن ليس هناك ضرر يلحق المجتمع من وجود هذه المشكلات . أن بعض هذه المشكلات أمر واضح ويمكن القضاء عليه بأتباع المنهج العلمى السليم والبعض الآخر منها كامن ويسرى فى المجتمع سريان النار فى الهشيم ويمتص طاقة أعضائه ، ويعوق من تقدمه رغم عجز الافراد عن التقدم لمحاولة فهمها . ولكن يمكن باتباع المنهج العلمى أن ندرس المشكلات التى

تواجهنا ونعرف أسبابها ليستمتع كل فرد بثمار الحضارة الانسانية الحديثة وليجد الفرصة ليحقق التكيف الاجتماعي المطلوب .

التطور السوسيولوجي لفهم المشكلات الاجتماعية :

اصبح الوضع ملائما الآن لحل مشكلات المجتمع وازاحة الظروف التي تحول بين النسق الاجتماعي وبين اداءه لوظائفه نتيجة لاهتمام علماء الاجتماع بدراسة المشكلات الاجتماعية وظواهر الحياة المجتمعية.. ولكن علماء الاجتماع يختلفون في آرائهم ازاء العالم الاجتماعي الذي يعطي اهتماما إلى متسعة للمشكلات أي إلى العالم الذي يطوع المعرفة العلمية ويستفيد منها عند التطبيق المباشر للمعرفة العلمية وحل المشكلات الاجتماعية .

١ ــ فهناك فريق من الاجتماعيين يرون أن الخطوة الأولى في علم الاجتماع أن يصوغ نظريات عامة للسلوك الانساني على المستوى المجرد وأن تكون هذه النظريات ملائمة لفهم كل مظاهر الحياة الاجتماعية .

٢ ــ وهناك فريق يركز جهوده للحصول على مجموعة من المعلومات التحليلية والوظيفية والتي تستند على الدراسات الامبيقية . وعندما يثار النزاع حول الفائدة الأخيرة لهذه الجهود ، فانهم يدعون بقوة أنه استنادا على هذه المجموعة من المعلومات المتاحة يمكن لنا أن نستنتج تعميمات عن السلوك الانساني .

٣ ــ يقابل هذا الفريق آخرون يركزون اهتمامهم على مشكلات أقل تجريدا ويهتمون أساسا بتطوير نظريات خاصة تفسر جزءا من الحياة الاجتماعية ويعرف هذا الاتجاه باتجاه اصحاب المدى المتوسط ، ويسعى إلى فهم الموقف المعاصر أو بعض جوانبه .

٤ ــ كما أعطى أهتمام لاساليب بحث هذه المشكلات وأيضا الاهتمام بتفسير اساليب التغير وموقف التفاعل . سواء أكانت تعتمد على التفكير العلمي أم لا .

وهناك فريق يهتم بتطبيق اطار البحث السوسيولوجي عند دراساته للتاريخ الاجتماعي للمشكلات . بينما يركز آخرون اهتماماتهم حول الجوانب المعاصرة للحياة

الاجتماعية ، ولكنهم فى الوقت نفسه ينشدون مجموعة محددة صغيرة يدرسونها . وقد انقسم هؤلاء إلى فريقين الفريق الأول يركز اهتمامه على دراسة مجتمع حضرى اكثر تعقيدا ومظاهر الحياة داخل هذا المجتمع والمشكلات التى نجمت عن التحضر ويقابل هذا الفريق فريق آخر يدرس مجتمعات انسانية فى ظروف اقل تعقيدا واكثر بساطة .

ويرى جيلين انه إذا كان غرض علم الاجتماع أن يدرس المجتمع دراسة علمية ووصف التغيرات الاجتماعية وتفسيرها ، فان غرض العلم الاساسى فهم المجتمع أولا ثم وضع برامج وسياسات اجتماعية تترجم هذه الفهم العلمى للمجتمع إلى حركة اصلاح اجتماعى . ولذا يتعين أن تهتم الدراسات الاجتماعية بدراسة المشكلات ومعرفة جذورها والمساهمة فى رسم سياسة اجتماعية علمية يتغلب بها على هذه المشكلة . وهذا يتطلب من علماء الاجتماع ضرورة الاهتمام بالبحث والتجريب عند دراسة المشكلات والاسهام فى رسم سياسة اجتماعية واضحة بدلا من التأمل فى الحلول . وعلى عالم الاجتماع أن يستند فى دراسته للمشكلات الاجتماعية على علوم كثيرة وألا يحبس نفسه فى اطار ضيق . وأن يسعى إلى اجراء البحوث التى تقضى على الفقر بدلا من ضياع عمره فى تصنيف سلوك الفقراء .

ولهذا يتعين عند دراسة المشكلة الاجتماعية للحد من خطورتها أن نلاحظ هذه المشكلة فى علاقتها بالبناء الاجتماعى وبمراحل تطور المجتمع ليسهل تقديم التفسيرات الملائمة . فالمشكلات تتفاوت بين الريف والحضر وبين المناطق الحضرية المختلفة . وهناك مشكلات اجتماعية خطيرة تساعد على تقويض البناء وأخرى بسيطة يسهل القضاء عليها .

ويمكن لنا أن نقول ان الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية صار جزءا مكملا للاتجاه الرئيسى فى علم الاجتماع ، كما أن التأكيد على دراسة المشكلات الاجتماعية أمر له قيمته فى الوقت الحاضر . وكما يقول روبرت ميرتون فالازدواج موجود بين علم اجتماع المشكلات الاجتماعية وعلم الاجتماع التطبيقى ويقول نيسبت ان علم الاجتماع النظرى نشأ نتيجة الاهتمامات الواقعية لعلماء الاجتماع الكبار تلك الاهتمامات التى توازى اهتماماتهم النظرية . وكان كتاب دوركيم فى الانتحار وكتاب الفلاح البولندى لتوماس وزنانيكى نقطة بداية فى دراسة المشكلات الاجتماعية . والافكار الأساسية

فى الكتاب الأول استلهمت من الواقع الفرنسى بعد أن لاحظ دوركيم ارتفاع معدلات الانتحار فى المجتمع الأوربى وأيضا كانت افكار الكتاب الثانى مستوحاة من ملاحظة الارتفاع الناشىء فى معدل الجريمة والانحراف بين البولنديين المهاجرين إلى مدينة شيكاغو .

الأسس المختلفة لتحديد المشكلات الاجتماعية :

أولا : المدخل الاخلاقى :

يحكم الناس عادة على الأفعال بأنها خير أو شر ، معتمدين فى ذلك على التراث الدينى والميراث الثقافى للاديان السماوية باعتبار أن هذه الافعال تعارض المثل والقيم التى تبشر بها هذه التقاليد . وكان الاعتداء على المعايير أو الخروج على تعاليم الكتب السماوية يعد فعلا مشكلة .

بيد أن هناك اتجاها يرى أن التعريف الاخلاقى للمشكلات الاجتماعية يعوق علم الاجتماع وتطور الدراسات العلميه للمجتمع باعتبار أن القيم الاخلاقية نسبية، كما أن تعريف الافعال استنادا على القيم الاخلاقية وحدها يقلل من شأن العوامل الاخرى .

وايا كانت مبررات هذا الاتجاه فقد رفضه الاجتماعيون بأعتباره مدخلا يفتقد الروح العلمية ويعارض الحياد الاجتماعى المطلوب لتحديد خصائص كل ظاهرة .

ثانيا : للمدخل الموضوعى :

لاينكر الاجتماعيون الذين يرفضون الوضع الاخلاقى الحاجة إلى الارتباط بنسق توجيه القيم أو السلوك الاجتماعى ، ولكنهم يلحون على أن تحليل الفعل أو السلوك استنادا على الاخلاق وحدها يعد أمرا متميزا يأباه العمل العلمى . وهم يرون أن مهمة علم الاجتماع ليست اصدار الاحكام القيمية مثل أن القتل أسوأ من أو أفضل من فعل آخر .

وعندما يتصدى علم الاجتماع لدراسة القيمة ، فانه يدرسها باعتبارها موضوعا علميا . وفى حدود ذلك الاطار المرجعى تحدد المشكلات الاجتماعية باعتبارها

ظروفا اجتماعية قائمة أو باعتبارها تعبيرا عن سلوك جماعات أو افراد تعارض المعايير الواضحة لاعضاء المجتمع والذى يناضل اغلبية أفراده عادة لتصحيحها باجراء أفعال جمعية . وليست المشكلة الاجتماعية اعتداء على القيم أو التقاليد الموروثه بل المشكلة هى سلوك اجتماعى يتميز بالخروج على السلوك المألوف .

ويفترض الاتجاه الموضوعى أن اعضاء المجتمع يعرفون ماهو صالح لهم . وتزداد هذه القضية قوة بتأثير حقيقة مؤداها أن المعايير لاتعكس بالضرورة الاتفاق الجماعى لاعضاء المجتمع ، أو حتى أغلبية الاعضاء ، وإنما تشير هذه المعايير إلى توقعات جماعة أو اكثر فى موقع السلطة ومن ثم لاتعبر هذه المعايير عن توقعات الاغلبية . وهذا الاتجاه الموضوعى اتجاه محافظ ويلغى الوظيفة الاساسية للعلوم أى تحقيق توافق الانسان مع البيئة .

ثالثا : مدخل السياسة الاجتماعية :

ازداد التخصص فى السنوات الاخيرة فى علم الاجتماع ، ونشأت تخصصات جديدة ، كل تخصص منها يهتم بدراسة الظروف الموجودة فى بيئة معينة لها خصائص محدودة ، وأيضا يدرس السلوك المرتبط بهذه الظروف كما يعطى اهتماما بالطريقة التى تنحرف بها هذه الظروف عن مجموعة المعايير ويعطى كل فرع من هذه الفروع الاجتماعية اهتماما متزايدا إلى دراسة الضغوط والصراعات .

ولايتبع مدخل السياسة الاجتماعية الرؤية التقليدية التى تؤكد انماطا معينة من السلوك فى الظروف العادية على حسب انماط اخرى أو يهتم بمنهج بحث معين غافلا منهج آخر . ويرى فريمان أن دراسة المشكلات الاجتماعية من خلال اطار مرجع السياسة الاجتماعية – كما يدعى فريمان – تعد مدخلا لعلم الاجتماع لانه يعطى تأكيدا لعدم التجانس وعدم الاستقرار يماثل الاهمية التى يعطيها للتماثلات وحالات الثبات ، ولما كان هذا المدخل يعتبر مدخلا حقيقيا لفهم الحياة الاجتماعية فانه يركز دراساته على البناء الرسمى والتقاليد الثقافية والحاجات النفسية . وعلاوة على ذلك فالاستفادة من مدخل السياسة الاجتماعية يستند على اسس علمية . ويساعد على فهم الظاهرة السوسيولوجية وفهمها . وهذه الرؤية التى تعتمد على السياسة الاجتماعية تعترف بالاسس الاخلاقية التى يقوم عليها السلوك الاجتماعى

ولاتنكر الاسس الموضوعية للظواهر ولكنها تؤكد بقوة ان المدخلين الاخلاقى والموضوعى غير كافيين لتحديد مجال بحث المشكلات الاجتماعية سواء باللجوء إلى مجموعة من القيم الاخلاقية أو معرفة رد الفعل الشعبى ازاء سلوك معين .

وعلى عكس ذلك يدعى علماء الاجتماع المهتمين باتجاه السياسة الاجتماعية أنه ينبغى أن تكون لهم يد فى تحديد موضوع المشكلة ودرجة الاهتمام التى تعطى لهذه المشكلة وطريقة بحثها . وعلاوة على ذلك ينبغى أن يكون عالم الاجتماع مسئولا مشاركا فى الهندسة الاجتماعية التى ينبغى أن تتبع لتحسين الظروف السائدة أو منع ظروف معينة من الاستمرار والتخلص من السلوك غير المرغوب فيه .

ولكن ينبغى أن نعى أن عالم الاجتماع ابن مجتمعه ويرتبط بقيمه ولذا من الصعب أن يتحرر من القيم التى نشأ عليها وتوحد بها ، فعالم الاجتماع انسان يشارك فى الحياة الاجتماعية على تحقيق التغير الاجتماعى المطلوب .

وأصبح المجتمع يتطلب كثيرا من عالم الاجتماع بوصفه عالما اجتماعيا بعد أن ازدادت مظاهر القلق والاضطراب والحيرة التى تسود المجتمع المعاصر . وعالم الاجتماع فى دراسته للمشكلات الاجتماعية محاولا وصفها وتفسيرها لايتصرف تصرف المستبد حتى ولو كان مستبدا عادلا ، ولكنه يتصرف من منظور السياسة الاجتماعية ، وعليه أن يشرح الاساليب التى توصل بها لتحديد المشكلة التى يدرسها ، وعليه أيضا أن يوضح طريقة الاجراءات التى أختار بها المقاييس التى تحدد ضرر أو فائدة هذا السلوك فى المجتمع .

الأسباب المؤدية للمشكلات الاجتماعية المعاصرة :

ترجع اغلب المشكلات المعاصرة إلى عمليات التغير الاجتماعى . وقد اصبحت هذه العمليات الاجتماعية اسبابا محددة للمشكلات الاجتماعية . ولاريب أن هذه العمليات العامة تتضمن وجود البيئات الاجتماعية الكبرى والتى تتحقق فيها التجمعات الانسانية مثل انساق القرابة فى المجتمعات المحلية والوظائف الاجتماعية للسلطة والولاء لافراد التنظيم أو عدم الولاء لهم وعلاقة المعايير بالسلوك الانسانى ،

ومن وجهة نظر علم الاجتماع نرى أن التاريخ الكلى للحضارة هو تاريخ التغيرات المتكررة التى تطرأ على هذه الانساق والوظائف والابنيه الاجتماعية . بيد أن التاريخ الانسانى يتضمن أمثلة لاحصر لها من الاستقرار الاجتماعى والاستمرار المنتظم . وقد أخذت اشكال كثيرة من المشكلات شكلها الحالى نتيجة العجز عن حل الصراعات الناجمة عن الصراع بين القديم والجديد واللذان يعيشان سويا داخل البناء الثقافى .

ويرى نسبيت أننا نشير باستمرار إلى التحضر والتكنولوجيا باغتبارهما أكبر قوتين أدتا إلى التفكك الاجتماعى فى المجتمع الغربى ، ورغم اننا نجد بعض الحقيقة فى هذا الرأى ، فاننا ينبغى أن نفهم فهما واضحا ماذا نعنيه بهذا الكلام فلا المدينة وحدها ولا التكنولوجيا وحدها السبب المباشر وراء ظهور ظواهر مثل الجريمة والانحراف والتعصب . وهناك امثلة كثيرة للسلوك المستقر فى المناطق الحضرية .

والصناعة من اكثر الامثلة التى يفسر بها ظهور السلوك المنحرف . وبالتأكيد لايوجد سبب يربط التكنولوجيا بالتفكك الاجتماعى غير السبب الذى يربط الظواهر المعتله بالحياة الريفية ، فالمشكلات الاجتماعية موجودة فى المدينة كما هى موجودة فى الريف . والاختلافات بينهما ليست اختلافات اساسية فى النوع ولكنها اختلاف فى الدرجة .

وقد اكدت بعض الدراسات أن هناك مظاهر ملحوظه تعبر عن التفكك الاجتماعى موجودة فى البيئات الريفية . وأوضحها الدراسات المتعلقة بجريمة الاخذ بالثأر . ويرى نيسبت أنه رغم الحقائق الفيزيقية للتكنولوجيا والمدينة فهما لايتضمنان بالضرورة اساس المشكلات الإجتماعية ، فثمة عمليات اجتماعية ترتبط ارتباطا تاريخيا يمكن أن تكون السبب وراء التفكك الاجتماعى وتفجر المشكلات الاجتماعية .

ويمكن أن نوضح لنا كمثال لهذه العمليات أربع عمليات اجتماعية لها اهمية خاصة فى المجتمع الحديث وهى :ـــ

أولا : الصراع بين النظم :

يرمز كل نظام اجتماعى يمثل الاسرة ، والمجتمع المحلى والنقابة والمسجد لنمط له وظيفة وسلطات ويتطلب درجات مختلفة من ولاء الاعضاء . ومن المحتمل ان يكون كل نظام قادرا على أن يؤكد ذاته بطريقة كاملة تقريبا على اعضائه وأنه يسيطر على مظاهر وجودهم.فهناك مجتمعاتَ تمارس فيها العائلة السيادة على جميع الاعضاء وتحوى الكل داخلها وتؤدى كل الوظائف الاقتصادية والمدنية والسياسية .. داخل الجماعة الاسرية ، ولايوجد نمط منافس للسلطة العائلية ، كما أن ولاء افراد العائلة لاينازعهم فيه أحد .

أما المجتمع الحديث فقد قامت الدولة التى تباشر سلطاتها على الافراد كما تعددت الانساق الاجتماعية التى تقوم بالوظائف الاجتماعية والاقتصادية والتربوية . ولكل نسق وظائفه وسلطاته كما ان كل نظام يحدد وجوده الانظمة الاخرى ويتفاعل معها وتكون كلها معا النمط الاكبر للسلطة والوظيفة والولاء .

ونحن لايمكن أن نتجاهل تعدد الأنظمة الاجتماعية عند دراستنا لاسباب المشكلات الاجتماعية الحديثة . فتعدد الانظمة اساس كل الصراعات ومظاهر الانحراف .

وتتضح هذه الصراعات اكثر ماتتضح عند المهاجرين من بلد لآخر أو من الريف إلى المدينة أو صراع القيم عند الشباب أو الصراع بين العناصر الثقافية المحلية والثقافات القومية . ويتضح هذا الصراع اكثر اثناء تحول المجتمع من المجتمع الريفى إلى المجتمع الصناعى . أو عند ظهور احزاب جديدة أو اثناء تكوين مناطق حضرية جديدة ، مما يتيح المجال لظهور التنافس بل حتى الصراع بين الغايات والوسائل .

وينعكس هذا التنافس والصراع بين النظم على عقول الناس وشخصياتهم وفى اثناء فترات تظهر مدى استجابات الناس للتغير ، ومدى تمسكهم بالقديم وملائمته لهم ، ومدى تقبلهم للجديد . وسواء كانت نتائج التغير واضحة أو مبهمة فان التغير يصير واقعا عندما تدمج نتائج الغير مع شخصيات الافراد ويظهر تأثيره

على اغراض الناس . وقد يبدو الصراع واضحا بين العادات الراسخة والقيم الجديدة أو بين السلطة القديمة وبين السلطات الجديدة . وقد يبدو التغيير عنيفا وصعبا ، فكل نظام هو نسيج من الوظائف والولاءات والمعانى التى تدمج فى شخصيات الافراد وتؤثر فى حياتهم . ويؤدى التغير فى احد النظم سواء بضمور احدى وظائفه التى تعد حيوية أو باضافة وظائف جديدة إلى تغير مقابل فى بناء النظم ، ومن ثم يؤدى هذا التغير إلى استجابات متعارضة فى عقول الأفراد .

ثانيا : الحراك الاجتماعى :

يرتبط حراك الاشخاص والجماعات والذى يعد صورة واضحة وغالبة فى العصر الحديث ارتباطا وثيقا بالصراع الاجتماعى بين النظم والثقافات . وهناك نوعان من الحراك :

١ ــ الحراك الافقى : ويقصد به الانتقال من مكان إلى آخر .

٢ ــ الحراك الرأسى : وهو الاهم ويتضمن تغيرات لاحصر لها فى مراكز الاشخاص ومراكز الاسر ويؤدى الحراك الرأسى إلى تغيرات فى العلاقات بين الطبقات الاجتماعية وتغير الاوضاع القانونية والاقتصادية والاجتماعية للجماعات . كما يؤدى إلى تغير انماط السلطة والمكانة والقوة فى المجتمع ، فثمة تأثيرات كثيرة تداخلت فى احداث هذه العملية ، ابتداء من ازدهار التجارة وانشاء المدن الصناعية واستعمال السكك الحديدية وظهور الديمقراطية .

وقد أدى الحراك إلى تخفيف حدة الانعزال الاجتماعى والثقافى . ونتيجة لارتفاع معدلات الحراك حدثت تغيرات كثيرة . فقد ادى عدم وضوح معالم الطبقات الاجتماعية ، وعدم اقتصار المميزات الاقتصادية والشرعية على طبقات معينة إلى تغير ملحوظ فى بناء المراكز الكلية فى المجتمع الحديث وصار النضال فى المجتمع الحديث من إجل الحصول على مركز معين أمراً عاديا ومألوفا عند عدد كبير من الناس ــ بيد أن هذا النضال لبلوغ الأهداف العليا قد يحطم حياة بعض الناس، إذا سعى الناس لتحقيق اهدافهم واغراضهم والتى يقبلها المجتمع بوسائل لايقبلها المجتمع .

ثالثا : الفردية :

وقد ظهرت فى المجتمع الحديث أفكار جديدة ، وقيم جديدة أهمها الفردية . والفردية تعنى الانسلاخ عن الجماعة وتحول الفرد للعمل لحسابه ولمصالحه ، وحتى لو تعارضت مصالحه مع مصالح الجماعة فأنه يغلب مصالحه . وإذا ماسادت الفردية يمجد التعاقد وتضعف الروابط الأولية وتبدأ العلاقات القرابية فى الضمور مما يساعد على تحطيم الاستقرار التقليدى ، بيد أن ذلك لايعنى ضمور المجتمع التقليدى بقدر مايعنى ظهور روابط جديدة لتحل محل الروابط القديمة .

رابعا : الانحراف عن المعايير :

كان دوركيم أول من استعمل اصطلاح الانحراف عن المعايير ليشير إلى المظاهر المتعددة للمشاركة الاجتماعية عندما تختفى الظروف الضرورية من امام الانسان ليحقق نفسه . وليدرك السعادة ، وهناك شروط تعنى ان السلوك ينبغى ان يتفق مع المعايير . أن هذه المعايير تكون نسقا متكاملا يخلو من الصراعات يتيح للمرء أن يشارك مع الاخرين مشاركة اخلاقية .

وقد قرر دوركيم انه فى حالة وجود معايير غامضة ومتصارعة وغير متكافئة يفتقد فيها المرء العلاقات الاخلاقية الهامة مع الآخرين أو حيث تفتقد الحدود لادراك السعادة يسود التفكك . ولقد استعمل ميرتون الاصطلاح نفسه ليشير إلى صعوبة تحقيق الافراد لهذه الاهداف ، ولقد ارجع ليوبول انحراف المعايير إلى اختلاط الاهداف إمام الشخص وغياب الروابط الاجتماعية . ويزداد الانحراف عن المعايير فى المجتمعات الحضريه والتى تمتلىء بالمهاجرين النازحين من مناطق ريفية والذين رفضوا معاييرهم وقيمهم التقليدية ولم يمتصوا بعد الحياة الاجتماعية والثقافية فى المجتمع الحضرى .

ويعكس الانحراف عن المعايير حالة صراع القيم التى يعانى منها اعضاء المجتمع وهذا الصراع بجانب أنه يعكس حالة من السلوك المرضى ، فانه يعكس البلبلة التى تسود بين افراد المجتمع ومايشعرون به من عدم الاستقرار .

الفصل الثانى عشر
النظم الاجتماعية

ماالمقصود بنظام اجتماعى ؟ ثمة تعريفات عديدة لهذا المصطلح فى علم الاجتماع . بيد أنه ليست كل التعريفات واضحة ومفهومة . حتى تلك المصطلحات المعروفة بين علماء الاجتماع والاكاديمين . ولقد اكد وليم براهام سمنر على سبيل المثال أن البناء الاجتماعى يتكون من تصور (فكرة .. مبدأ انطباع . وثيقة منفعة) وبناء . والبناء هو اطار أو مظهر ، أو ربما مجموعة من الوظائف . ويؤكد البناء التطور ويزوده بالوسائل ليظهر إلى عالم الحقائق والافعال .

وعلينا أن ندرك ان علماء الاجتماع لايستعملون هذا المصطلح استعمالا ثابتا بما يتلائم مع تعريفهم الخاص لهذا المصطلح . كما تبين لنا اعمال سمنر . وقد ناقش د . ج ! سميث بالتفصيل أهمية الحاجة إلى تعريف يوضح مفهوم النظام الاجتماعى فى كتابه « علم الاجتماع والبحث الاجتماعى » . على أن معظم علماء الاجتماع قد اتفقوا على تغريف واحد اساسى هو أن النظم الاجتماعية هى انماط من العلاقات الاجتماعية يقبلها اعضاء الجماعة . وقد كتب موريس جينز برج فى كتابه علم الاجتماع أن النظم الاجتماعية اساليب مسلم بها ومعترف بها وراسخة تحكم العلاقات بين الافراد والجماعات . وقد عرف ماكيفر وبيج النظم الاجتماعية فى كتابهما المجتمع بأنها اشكال من الاجراءات أو تكوينات اجتماعية تميز نشاط الجماعة بواسطتها ويرجه وينقد أوجه النشاط المتعددة المطلوبة لاشباع الحاجات الانسانية . ومن الاهمية أن ندرك أن مثل هذا التعريف للنظام الاجتماعى يدل على مظاهر للموافقة الاجتماعية ، والرفض الاجتماعى والجزاءات الاجتماعية التى توقع ضد الافراد الذين ينحرفون عن انماط السلوك المسلم بها ، ومن ثم فالنظم الاجتماعية ليست مجرد تعبير عما يحدث فى موقف محدد فى مجتمع معين ، فهى تعمل لتحديد ماينبغى أن يؤدى . ومن ثم فالنظم الاجتماعية تعد جزا من النظام المعيارى للمجتمع ولهذا تعتبر وسائل للضبط الاجتماعى .

وبطبيعة الحال هناك انماط أخرى من المعايير التى تعمل لفرض الضبط الاجتماعى ومن الاهمية أن نميز بين الضبط الاجتماعى والنظم الاجتماعية . وثمة فروق كثيرة بين هذه الانماط والنظم الاجتماعية تتداخل سويا مما يجعل التنصيف المنهجى أمرا صعبا . ومن هذه الفروق طريقة التمييز بين المعايير على اساس نوع الجزاءات المطبقة . فبعض القواعد يدعمها مجرد نبذ المجتمع للخارجين عليها . بينما تدعم القوة الفيزيقية قواعد اخرى . وترتبط هذه التفرقة إلى حد ما مع درجة الاهمية المرتبطة بالقاعدة فى المجتمع وكيفية ظهور هذه القاعدة سواء قد ظهرت عن طريق التشريع أم ظهرت دون وعى جمعى بها . واخيرا فثمة ارتباط واضح بين هذه المعايير ودرجة التلقائية التى تبدو عند الالتزام بالقاعدة والسرعة التى تتغير بها القاعدة . بيد أن هذه الارتباطات تقريبيه . إن مافعله علماء الاجتماع هو تجميع المعايير فى فئات عديدة واسعة تسمح بتداخل معايير التفرقة تداخلا كبيرا مما يجعل التنصيف أمرا فجاً غير متقن . واستنادا على ذلك يفرق علماء الاجتماع عادة بين مايطلقون عليه اداب السلوك والعرف والقانون .

وأغلب الانماط المطبقة فى سلوك الحياة اليومية هى اداب للسلوك Folkways وهذه الانماط هى اساليب سلوك راسخه رسوخا نسبيا متفق عليه ، وينظر اليها باعتبارها ملزمه فى المواقف العادية ، ولكنها ليست ملزمة الزاما مطلقا . وتدعمها اساليب للضبط الاجتماعى غير رسمية (مثل النميمة والقيل والقال والنبذ من المجتمع والنكت الساخرة ، ولكنها تفرض القهر الرسمى) ولاتتكون هذه الانماط بطريقة غامضة غير منظمة .

فمثلا من اداب السلوك تناول ٣ وجبات يوميا والجلوس على المائدة ونوع الاطعمة التى يتناولها الافراد . وكيفية استخدام الموائد والمقاعد ؛ ولايعد الخروج عليها خرقا للقانون ، كما نجد ان اداب السلوك فى المجتمع الريفى قد تتطلب من الفرد أن يجلس على البساط أو حول المائدة « الطبلية » ويتناول الطعام بيديه . فالعادات الشعبية تجعل الحياة ممكنة عند الكائنات الانسانية وطبيعتها التلقائية تتيح مجالا لعقولنا للتفكير فى المشاكل الاكثر اهمية . وتتكرر الآداب السلوك الشعبية كثيرا فى الروتين اليومى للافراد وللجماعات حتى انها تتحول إلى عادات فى التفكير والفعل وتشكيل المسلمات التى لاخلاف عليها فى حياتنا العقلية .

وهكذا فآداب السلوك الشائعة تمكننا من التنبوء بسلوكنا وسلوك الآخرين فى موقف معين بدقة تجعلنا نشعر ببعض الطمأنينة والنظام فى حياتنا . وأن الشعور « الطمأنينة » الذى توفره أداب السلوك الشائعة هو مايجعل السفر إلى الخارج مثيرا عند البعض ومثبطا للهمة ومثيراً للرهبه عند البعض الآخر الاقل جسارة وقد تعد المأكولات غير المألوفه والغريبة والعادات الغريبة بمثابة تغيرات طفيفة بالنسبة للذين يسافرون إلى الخارج صيفا ، ويثير اختلاف اللغة ونسق التخاطب عجب وقلق وازعاج لهؤلاء الذين كانوا يأملون أن يفهمهم الغير فى اماكن تبعد بآلاف الاميال عن بيئتهم . واللغة مهما كانت نوعيتها وعموميتها وذيوعها هى وسيلة الاتصال من خلال الصوت بين افراد المجتمع . كما انها أداة لتوصيل الافكار ، ومن ثم فقد تكون هذه الوسيلة غير ملائمة بالنسبة للذين لم يتعودوا هذه اللغة ، مهما كان ذكاء هؤلاء الأفراد فى المجتمع ، أو درجة تكامل المجتمع الأصلى . وفى الحقيقة فان عدم رغبة الغريب فى الالمام بلغة الجماعة الجديدة ، يفسر دائما من جانب اعضاء المجتمع الجديد بأنه قلة ذوق مقصودة .

ويمكن عادة انتهاك بعض اداب السلوك الشعبية السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه الشخص أو عندما ينتقل إلى المجتمعات الاخرى . إذ يمكن للمرء أن يتناول القهوة فى المعزى أو يتناول الطعام فى غير اوقاته ولكن من المستحيل أن تنتهك كل القواعد إذ قد يجد المرء نفسه منبوذا من انعقد الاجتماعي ، وقد يعد بقاء الفرد فى الجماعة عسيرا للغاية لا لمجرد أن الضغوط الخارجية أو الفيزيقية قد استبعدته ولكن لأن الاحساس الداخلى يرفض سلوكه . فالشخص الذى نحن بصدده قد تكون اسباب عدم توافقه فى موقف معين هى نفسها اداب السلوك الشعبية فى اغلب المواقف الاخرى التى يجد نفسه فيها .

والجزاءات التى تفرضها الآداب الشعبية هى نفسها اداب السلوك . فهذه الجزاءات معتدلة ، وقدتتضمن تأنيب الشخص ، بطريق التعبير المباشر أو غير المباشر باستنكار سلوكه أو التعبير عن الامتعاض . ويترتب على ذلك أن الفرد الذى توقع عليه هذه الجزاءات ينبغى أن يكون هو نفسه عضوا فى الجماعة التى خرق اداب سلوكها . وإذا ماانتهك الشخص نفسه اداب السلوك انتهاكا مستمرا

فالعقوبة اشد . وكذلك فاذا انتهك الشخص نفسه مجموعة كبيرة من معايير مختلفه فمن المرجح أن يكون العقاب الذى ينزل عليه بسبب فعله اكبر من العقاب الذى ينزل عليه لو انتهك معيارا واحدا .

والجزاءات التى تدعم الاداب الشعبية للمجتمع أقل قسوة من تلك الجزاءات التى تدعم العرف ، بسبب الاعتقاد بأنها اكثر اهمية لتحقيق الرفاهية الاجتماعية ، على حين أن اداب السلوك لاتصل إلى هذه الدرجة . وعادة مانسلم بالعرف باعتباره عنصرا اجتماعيا هاما للغاية فى طبيعة تكوين البشر . وإذا ماأصبح العرف مشكلة فى حياة الناس يبدأ الناس فى مراجعته ويعملون على تغييره ، والايمان بالعرف يأخذ شكل الاسطورة ، وتعبر عنه الطقوس فى صورة رموز ، وتجسده الافعال فى شكل السلوك المستقيم ، وينظر إلى العرف على انه اخلاقى . كما ان انتهاكه إثم لااخلاقى.. ولايحتاج العرف إلى تبرير لانه يوجد بحكم كونه صوابا ، وليس موضوعا يغيره الحوار أو القصد أو يخضع للتحليل ، كما يتعرض من ينقد الاعراف للنقد الشديد . وثمة شعور بالتماسك بين الناس الذين يشتركون فى نفس الاعراف لتماثل مشاعرهم . وثمة شعور بالمقاومة والعداء نحو اى شخص يؤمن باعراف مغايرة . وفى حين أن اداب السلوك الاجنبية ترفض فحسب لانها تعارض اداب السلوك القديمة والاعمال الرتيبة السائدة ، فان الاعراف الاجنبية المستوردة الوافدة تزعج الناس ازعاجا شديدا وعميقا لانها تجرح وتؤذى المشاعر الأساسية .

وتحدد بعض الاعراف العلاقات المتبادلة بين شخصين ، وهناك اعراف صارمة تحدد سلوك كل من الطبيب والمريض ورجل الدين والشخص الذى يلجأ اليه والمحامى والمتهم والزوج والزوجة . وهناك قواعد اخلاقية اكثر عمومية فى طبيعتها مثل النصح بأن يكون الشخص امينا ودؤوبا وعفيفا وطاهرا . وهكذا فنحن لانمتلك فقط قواعد اخلاقية معينة تتطلب سلوكا من نوع معين . لكننالدينا قواعد اخلاقية عامة تطالب الالتزام بقواعد خاصة ينبغى أن تطاع من الجميع . وبهذا الاسلوب تحاول الاعراف أن تؤكد قوتها . ولكن القواعد الاخلاقية لاتنجح فى ذلك دائما . وإذا مانجحت فى ايجاد تنظيم معين لتدعم قوتها فانها تتحول إلى قوانين ونادرا ماتعزز كل القواعد الاخلاقية إذ يقتصر التدعيم على القواعد الأكثر أهمية وحدها .

ولما كانت الهيئة التشريعية ليست دائما على استعداد لتشريع العرف الجديد ، فالعرف الجديد الذى لم يكن جزءا من الميراث الاجتماعى ، يصير قانونا عرفيا وتضم هذه المقولة كل شيء يتجاوز كونه اداب السلوك ولم يصل بعد إلى القانون التشريعى .

ومع نمو النظم السياسية فى المجتمع الكبير والتخصص المركز والتعليم يظهر القانون الرسمى الكامل إلى الوجود . وتشريع القانون شيء يتطلب تروى الفكر والموضوع اكثر من اداب السلوك أو العرف . وهو نتاج الفكر الواعى والتخطيط والصياغة المتأنية المتروية والتطبيق الارادى . والقانون ضرورى فى المجتمع المعقد ليجعل الحياة فى المجتمع المعقد ممكنة والاشياء التى تشرع فى قوانين تبدأ عادة من العرف . ومن أجل هذا يعرف القانون احيانا باعتباره عرفا . ويفرض عقابا معينا تمارسه السلطة التنفيذية وإذا لم تكن القوانين مدعمة من آداب السلوك والعرف ففرصة فرضها ضئيلة وغالبا ماتكون عرضة للاحتجاج .

وتؤدى القوانين وظيفة حقيقية فى مجال معين ومحدد ، وهى وسيلة لتدعيم اداب السلوك فى المجتمعات التى تتعدد فيها المصالح والجماعات وتتراكم فيها الثقافة وتتزايد فيها وسائل الاتصال المحسنة التى اخلت بتماسك المجتمع المحلى . ونتيجة لذلك يحل محل المجتمع الصغير مجتمع اكبر اكثر ديناميكية واكثر اتجاها نحو العلمانية والسلم من المجتمع المحلى .

وربما بعد هذا البحث المستفيض عن طبيعة ووظيفة المجموعات الاساسية من المعايير التى يفرق بينها علماء الاجتماع نكون فى وضع يسمح لنا أن ندرس علاقة هذه المجموعات من المعايير بالنظم الاجتماعية نفسها دراسة اكثر فهما واكثر عمقا ، ولقد ناقشنا المعايير الاجتماعية فى اطار مقولات أوسع . كما علقنا احيانا واصدرنا احكاما عرضيه على التداخل بين هذه المقولات . وفى الحقيقة فان اداب السلوك الشعبية والعرف والقانون تنزع إلى الارتباط سويا بطريقة منظمة مكونة انماطاً « متشابكة للضبط الاجتماعى » تراعى بدقه اثناء اداء المظاهر المختلفة للسلوك الانسانى . ونحن نطلق مصطلح النظم الاجتماعية على انماط السلوك الاجتماعى المتشابكة والمتداخلة والمعقدة إلى حد كبير .

ويمكن لنا أن نعرف النظام بأنه مجموعة من العادات الشعبية وآداب السلوك والعرف والقوانين المتماسكة والمترابطة سويا والتى تقوم بأداء وظيفة أو اكثر. والنظام جزء من البناء الاجتماعى يظهر التنظيم المحكم وتميز الوظائف. وقد صدق دافيد كيجزلى عند قال انه بدون آداب السلوك الشعبية والعرف والقانون لن توجد نظم اجتماعية.

فعلى سبيل المثال يتضمن الزواج مجموعة من العادات الشعبية واداب السلوك يلتزم بها اسرة كل من الزوجين عند اتمام المصاهرة. كما تتضمن فترة الخطوبة وتقديم الشبكة وعقد القران ودفع المهر واجراءات عقد القرآن، كما يتضمن الزواج مظاهر عديدة للعرف أهمها العفة والطهارة فى مرحلة ماقبل الزواج والاخلاص فيما بعد الزواج والحقوق المتبادلة بين الزوجين، وأخيرا يخضع الزواج لقوانين معينة تنظمه مثل قانون الاحوال الشخصية وتوثيق عقد الزواج وحق الطلاق والحماية من الاستغلال والتكافؤ وتحريم زواج المحارم. وتستند كل تلك المعايير سويا على بناء محدد، هو نظام الزواج، والذى له معنى فى حد ذاته ككل مما يؤثر على السلوك ومما يترتب عليه من اداء وظائف اجتماعية وفردية معينة مثل الانجاب وتربية الاولاد والمسئولية الواجبة نحو الابناء، وتنظيم المعاشرة الجنسية وتبادل العاطفة والاعلاء بها على المستوى الفردى.

وبالمثل يمكن لنا أن نقول أن النظم السياسية والاقتصادية والدينية يمثل كل منها مجموعة من العادات الشعبية والعرف والقوانين المترابطة سويا.

وهكذا يتبين لنا فورا الاهمية الكبرى لهذه المجموعات المعيارية لدى عالم الاجتماع. أن الطريقة السريعة لدراسة النظام الاجتماعى الكلى للمجتمع هو أن نفهم النظم الكبرى الموجودة به والعلاقات بين هذه النظم. فإذا كنا ادركنا وفطنا إلى التركيبات الاقتصادية والسياسية والدينية والعائلية للمجتمع واستطعنا أن نرى كيف تتداخل هذه التركيبات سويا، فاننا نستطيع أن ندرك أبرز السمات والصور فى النسق الاجتماعى الكلى أما السمات الاخرى فسمات ثانوية.

وعادة مايدرس المتخصص بناء تنظيمى واحد مثل الاسرة ويتجاهل النظم الاخرى. ولهذا المدخل فائدة تحديدمقدار المعلومات التى يحللها الباحث مما

يسهل له ربط الحقائق الاجتماعية مع النظرية الاجتماعية بطريقة لم ينجح فيها المتخصصون الاخرون نجاحا مرضيا . ومن جهة أخرى فثمة حاجة ماسة إلى بحث النظم الاجتماعية على أوسع مجال من اجل تطوير نظرية عامة عن السلوك الاجتماعى بدلا من صياغة نظرية جزئية .

ولقد ظلت طبيعة العلاقات المتداخلة للنظم الاجتماعية موضوعا للحوار السوسيولوجى . فعلى سبيل المثال أعطى ماركس أهمية كبرى لارتباط النظم الاقتصادية ببناء النظم الاجتماعية الأخرى ، وترتب على ذلك محاولة فيبر تعديل بعض نتائج ماركس . وقد أهتم علماء كثيرون من المعاصرين بالتأكيد على أن العلاقات المتداخله بين النظم تعتمد على طبيعة المجتمع الكلى الذى توجد فيه هذه النظم .

ويمكن لنا أن نشبه العلاقات المتداخلة بين النظم الاجتماعية المختلفة بالعجلة وهى وحدة من الاجزاء تتداخل وتتساند سويا فى البناء والوظيفة ، والاسرة هى مركز هذه النظم وهى أول نظام يواجهه الفرد وهى أشبه بمحور العجلة . أما أجزاء العجلة فأشبه بالنظم الاجتماعية الاخرى مثل النظم التعليمية والدينية والسياسية والاقتصادية . أما الاطار فقد يكون المجتمع المحلى الذى تعمل فيه النظم الاجتماعية .

أن تتبع تطور كل نظام اجتماعى على حدة يشغل نشاط علماء الاجتماع الاكاديميين. والاتجاه التقليدى فى انجلترا مثلما يحدث فى اماكن أخرى يرى أن دراسة كل من الاسرة والدين والقانون والتدرج الاجتماعى موضوع بحث قائم بذاته عن اصل كل من هذه النظم . فمثلا هل وجد نظام الاسرة فى المجتمع الانسانى دائما ؟ هل جاء وقت نشأت فيه الاديان والنظم الاجتماعية وحلت محل انساق المعتقدات المرتبطة بالايمان بالقوى الخارقه للطبيعة مثل السحر ؟ وهل جاء وقت على الانسان عاش فيه حالة من الديمقراطية البدائية ، عندما كان الانسان يعيش حياة البربرية السعيدة تقوده قيادة تلقائية طبيعية دون أن يلتزم بقانون أو عقاب . ولم يكن للقانون ضرورة عندئذ ؟

وقد تعود علماء الاجتماع على وضع اسئلة مثل هل بناء الاسرة البشرية فى

نشأته أبوى أم أموى ؟ وقد ظهرت تلك الاسئلة عندما سيطرت الداروينية الاجتماعية على البحث ومجالات التفكير الاجتماعى . وتتطلب تلك الاسئلة التى تدور عن أصل تطور الاسرة الانسانية استخدام الوثائق التاريخية والعادات الفولكلورية والاساطير. وحتى يمكن دراسة الاسرة دراسة مباشرة ، فإنها تدرس من نطاق واسع فى اغلب المجتمعات البدائية فقط . وكان ثمة افتراض فى أن بناء الاسرة فى تلك المجتمعات البدائية مماثل للاشكال الاولى للأسرة الانسانية وان دراسة هذه الاسرة قد يلقى الضوء على اصل العائلة الانسانية وتطورها . ويفترض أن الاسرة الانسانية المعاصرة ، مثلها مثل كل انساق المجتمع ، ذروة عملية تطورية طويلة ولاتحتاج إلى دراسة مباشرة . وكانت نتائج هذه الدراسات التى استمرت متأثرة بالداروينية الاجتماعية متناقضة وغير حاسمة ومتنافرة . وقد اكتشف كل من مورجان وانجلز أمثلة على وجود الشيوعية الجنسية وجماعات الزواج فى المجتمع البدائى ، على حين قدم وسترمارك دليلا على أن الاسرة البدائية تتميز بالزواج الأحادى والاخلاص . وبالمثل كانت هناك محاولات متناقضة لاثبات ان الاسرة الاموية هى الشكل الاول لتنظيم الاسرة . إلا أن سير هنرى مين اثبت أن الاسرة الابوية وجدت بين الاشكال الاولى للاسرة . وقد قدم بافون بريفولت الدليل على أن الاسرة الاموية سبقت الاسرة الابوية . ولما كانت الادلة دائما غير واضحة ويستطيع كلا الجانبين أن يجد المعلومات لتدعيم فكرته الايديولوجية . فلم تحسم القضايا . وفى النهاية هجرت محاولات اكتشاف اصول تطور الأسرة ومراحل هذا التطور باعتبارها موضوعات غير مثمرة فى البحث .

وقد أدى عدم الثقة فى المدخل التطورى عند دراسة الأسرة باعتباره بحثا اجتماعيا فى النظم الاجتماعية إلى الكف عن المحاولات الأخرى لتقصى التطور التاريخى لاشكال اسرة معينة خلال سنوات طويلة . وعلى عكس ذلك اختار علماء الاجتماع دراسة الاسرة فى المجتمعات المعاصرة تأكيدا على اهمية شكل اجتماعى معين وهو الاسرة الفردية باعتباره ظاهرة اجتماعية سائده .

ولم تعد ثمة مشكلة عما إذا كانت العلاقات الزواجية علاقات دائمة أم وقتيه أو عما إذا كان تعدد ازواج أم تعدد الزوجات أم اباحية جنسية وعما إذا كانت الظروف تتعقد إذا ضمت الاسرة اعضاء لايعترف مجتمعنا بعضويتهم والحقيقة التى

تقف إمام كل الحقائق هى أن الزوج والزوجة واولادهما القصر يكونون فى كل مكان وحدة مستقلة عن باقى المجتمع الصغير . وتفسر لنا الوظائف الضرورية التى تؤديها الاسرة النووية وصعوبة اداء جماعات اجتماعية اخرى هذه الوظائف عموميتها . وتؤدى الاسرة النووية أو العلاقات المكونة لها أربعة وظائف اساسية للحياة الاجتماعية الانسانية ١ ـ الوظيفة الجنسية ٢ ـ الوظيفة الاجتماعية ٣ ـ الانجاب ٤ ـ التنشئة الاجتماعية . وبجانب ذلك فالاسرة عادة ماتقوم باداء وظائف اخرى . ولكن هذا ليس امرا شائعا . إذ كان الاب مثلا هو الذى يلقن اولاده الدين ، ويعودهم على العباده ويبث فيهم قيم الايمان وقد تكون الاسرة هى الوحدة الاولى فى الملكية أو الأخذ بالثأر أو الترفيه . كما يعتمد المركز الاجتماعى على وضع الأسرة اكثر مما يعتمد على انجازات الشخص .

ويعتمد البناء الاساسى للاسرة النووية على تحريم مضاجعة المحارم[1] ويستتبع ذلك ان الاسرة النووية لاتستمر خلال الزمان أولا ولاتدوم اكثر من جيلين ويشكل الجيل الثالث اسرا جديدة . ويتم تبادل الزواج بين اناث وذكور الاسرة النووية ومن ثم ينتمى كل راشد بالغ إلى اسرتين نوويتين : ١ ـ اسرة التوجيه التى يولد فيها الشخص والتى تضم الأب والأم والاخوة والاخوات ٢ ـ اسرة الانجاب التى يكونها الشخص عند زواجه والتى تضم زوجته والابناء من الذكور والاناث . وتعد قاعدة تحريم مضاجعة المحارم وامتداد ذلك إلى خارج الاسرة وقواعد الانساب مصدرا لكل المعتقدات والعلاقات القرابية ومصلحات القرابة . ويؤدى اتساع نطاق تحريم المحارم إلى التداخل بين الاسر وبذلك يلعب هذا النظام دورا هاما فى تكامل المجتمعات البسيطة والفردية .

ولكن عمومية الاسرة النووية لايعنى ابدا ان بناء الاسرة متماثل فى كل مكان بل على العكس من ذلك فبناء الاسرة يتباين تباينا كبيرا . ومن امثلة هذا التباين اختلاف عدد الزوجات وطبيعة السلطة الاسرية وقوة الروابط وكيفية اختيار الطرف الآخر والمسكن وطبيعة العلاقات بين الوالدين والابناء وطبيعة العلاقات مع الاقارب . بيد أنه من الممكن أن نقيم تمييزا واضحا بين انساق الاسرة ، أى بين

---

(١) راجع الاية رقم ٢٣ من سورة النساء .

الاسرة النوويه المستقلة نسبيا والانساق التى تدمج فيها الاسرة النووية فى جماعة اكبر مثل الاسرة الممتدة (العائلة) .

بيد أن الاسرة النووية سمة مميزة للمجتمعات الصناعية الحديثة ويرجع ذلك إلى نمو الفردية التى تعكس نظام الملكية الفردية والقانون والمثل والافكار الاجتماعية العامة التى تحقق السعادة الشخصية لتأكيد تحقيق الذات وإلى الحراك الاجتماعى والمكانى ولقد تأثرت الاسرة بتزايد تدخل الدولة فى شئون الانسان . فلم يعد معتمدا كليا أو تماما على اسرته فى أوقات الشدة وهكذا يعتمد تماسك هذا الشكل الاسرى واستقراره إلى حد كبير على طبيعة نسق الاسرة النووية بدلا من اعتماده على النفع المتبادل فى العلاقات الشخصية بين الزوجين والوالدين واولادهما . ويتزايد تماسك الاسرة النووية الفردية عندما تشمل اطفالا صغارا : ولكن كلما كبر الاطفال يبدأ ضعف العلاقات . وفى البداية يتداعى الترابط من خلال تأثير جماعات الرفاق واخيرا الحراك الاجتماعى والمكانى .

وتوجد اشكال الاسرة الكبيرة الحجم فى المجتمعات البدائية والبسيطة والمجتمعات غير الصناعية . فالعائلة الممتدة توجد فى سوريا والسعودية ودول الخليج وليبيا والسودان مثلما توجد فى ريف مصر .

والتوحد مع الاقارب فى كل اشكال الاسر هو المسألة الحاسمة الهامة من وجهة نظر عضو الاسرة . وهو الذى يجعل جماعة الاسرة مؤثرة . بيد أن هذا التوحد لاضرورة له وليس شائعا . إذا كان نسق الثقافة يحدد القرابة بروابط الدم فقط . فعلاقات القرابه تقوم على ادوار اجتماعية معروفة ومقبوله تحدد فى مصطلحات علم الانساب — فى القاب النسب لاحسب الروابط البيولوجية ومن ثم يمكن بالتبنى[1]

(١) التبنى غير الاقرار بالبنوه ، إذ التبنى معناه ان يتخذ الانسان ابن غيره المعروف نسبة ابنا له أو يستحى مجهول النسب ويتخذه كولده ، وقد كان التبنى معروفا فى الجاهلية فكان الرجل يجعل ابن غيره ابنا له فيضمه اليه ويلحقه بنسبة فينتسب اليه دون ابيه ويرثه كأحد ابنائه من النسب واستمر نظام التبنى مدة من الزمن فى صدر الاسلام إلى أن نزل قول الله تعالى « وماجعل عياءكم ابناءكم ذلك قولكم بافواهكم .. وبهذا النص نسخ نظام التبنى الذى كان متبعا فلا يكون المتبنى ابنا لمن تبناه ..لان النسب لايقبل التحويل والابطال أو غير ثابت النسب . ولايترتب على التبنى أى حق من الحقوق الثابتة بين الابناء والاباء فلا يلزم احدهما بنفقة الآخر ولا بأى حق من حقوق البنوة والأبوة ولايتوارثان ولاتحرم مطلقة أحدهما على الآخر ومن تبنى فتاة فله أن يتزوجها مالم يوجد مانع من الزواج (عمر عبد الله : احكام الشريعة اسلامية والمعارف ١٩٥٦ ص ٢٢

ان يصبح الشخص ابنا أو ابنة لابوين لايرتبط بهما الشخص بأى علاقة دم . كما ان الابناء غير الشرعيين واللقطاء يشير اليهم بأنهم بلا أب ولا أم أما فى مجتمعنا فالروابط الاسرية تقوم على الصلات الدموية .

وقد وجه الانثربولوجيون الاجتماعيون اكثر جهودهم لتحليل انساق القرابة فى مجتمعات معينة ، وأجروا دراسات مقارنة بين القرابة فى هذه المجتمعات . ويعكس هتمامهم حقيقة أن القرابة اكثر اهمية فى المجتمعات البدائية وهى عامل اساسى فى تأكيد الوحدة الاجتماعية ، كما تكون الاطار الذى يحدد الوظائف الاقتصادية والاجتماعية ومن خلاله تكتسب الحقوق والواجبات ويتلقى الشخص المساعدة من المجتمع . ومن ثم فان الطريقة الاكثر فاعلية لدراسة البناء الاجتماعى فى المجتمع البدائى هى أن نبدأ بتحليل نظام القرابة . بيد أن علماء الاجتماع عندما درسوا مجتمعاتهم والمجتمعات المجاورة لهم . لم يعطوا نظام القرابة إلا قدرا قليلا من الاهمية اللازمة واللائقة به فى تأكيد اهمية البناء الاجتماعى لانهم افترضوا فعلا فى أن القرابه تلعب دورا قليلا فى حياة المجتمعات الصناعية التى تعد موضوعا اساسيا عندهم مع الالمام بما يقوله المؤرخون عن هذه المجتمعات الصناعية .

بيد انه من الواضح الآن انهم فعلوا ذلك لانهم يدركون ادراكا كاملا بناء هذه المجتمعات واشكال الاسر الموجودة بها . وقد بينت دراسات كثيرة اجريت خلال السنوات العشر السابقة ان الطبقة العاملة الصناعية هى التى تأثرت تأثرا قويا بالتغيرات والتحولات الاقتصادية ، وان القرابة لازالت تحتل مكانة هامة فى ضبط سلوك الافراد وانها نسق يحقق تبادل المساعدة بين الصغار والكبار . كذلك فالقرابة وبناء الاسرة لهما اهمية بين الجماعات التى تحتل مكانة عالية فى الدراسات الاجتماعية . ومن ثم فقد اجريت دراسات فى السنوات الاخيرة عن الحراك الاجتماعى بين افراد الاسر ولمعرفة العوامل التى تؤثر على شكل التعليم الذى يتلقاه الصغار ومدى اتاحة الفرصة لابناء الطبقة العاملة للعمل فى الوظائف ذات المكانة العليا وإلى أى مدى تؤثر مهنة الأب على مهنة الأبن . وهل السبب فى الزواج هو تكوين الاسرة . ولكن الزواج ليس هو اصل الأسرة ، وكما يدرس الاجتماعيون أثر

الزواج والطلاق على استقرار الاسرة كنظام اجتماعى وضرورة استمرار نظام الزواج ليؤكد استقرار نظام الاسرة ، ومهما كانت اوجه النقد التى توجه إلى هذه الدراسات فإنها ذات اهمية لنا فى توضيح اثر الاسرة على المراكز الاجتماعية التى يشغلها الصغار .

وقد كشفت لنا معظم الدراسات أن التحول فى شكل الاسرة من الاسرة الكبيرة العدد (العائلة) إلى الاسرة الصغيرة الحجم يرتبط ارتباطا شديداً بالتحولات التى تحدث فى البناء الاقتصادى ـــ التحول من الاقتصاد الزراعى إلى الاقتصاد الصناعى ـــ وأن التغيرات الاقتصادية تؤثر على تزايد أو تناقص حالات الزواج والطلاق .

وكما يهتم عالم الاجتماع بدراسة الاسرة يعطى اهتماما متواصلا للنظام الدينى منذ اوجست كونت وسبنسر ثم دوركيم وماكس فيبر . بيد أن اهتمام عالم الاجتماع بالدين يختلف كل الاختلاف عن اهتمام رجال الدين . اى انهم لايهتمون بنفس الاشياء ولابنفس المعلومات ، أى ان مجال دراسة كل منهما يختلف عن مجال دراسة الآخر ولايهتم علماء الاجتماع بتحليل الدين تحليلا نقديا لبيان اصله وبنائه ومدى صدق النصوص الدينية ، بل يوجهون اهتمامهم لمعرفة ماإذا كان استخدام وقبول هذه النصوص يؤثر على السلوك الاجتماعى الظاهر ، وهم لايهتمون مباشرة بتتبع تطور وقبول المفهومات الدينية الجديدة ولكنهم يهتمون بدراسة ماإذا كان قبول المفهومات الدينية الجديدة يرتبط بظهور جماعات اجتماعية جديدة أو اعادة بناء الجماعات الموجودة ام لا ، وعما إذا كانت الجماعات الدينية الجديدة أو التى اعيد تنظيمها ترتبط بانماط النشاط وصور التعبير الاجتماعى المختلفة التى تختلف عن نشاط الجماعات الاخرى وتعبيراتها .

وإذا كان رجال الدين يدرسون الفقه والشريعة والعقيدة ، فان علماء الاجتماع قد انصرفوا إلى دراسة سلوك المؤمنين ، ومن ثم وقع علماء الاجتماع فى الخطأ عندما فهموا بأنه بالامكان دراسة سلوك المؤمنين . وبهذه المناسبة فمن المهم ان نلاحظ انه رغم ان رجال الدين فى الغرب يمكن من آن لآخر أن ينقدوا الدراسات السوسيولوجيه للدين استنادا على اسانيد عقلية وفكرية فانهم لايعارضونه على اسس وقواعد اخلاقية . إذا لاتوجد فى هذه الحالة المرارة التى توجد عند رجال

الكنيسة تجاه فرويد وتلاميذه الرواد الذين درسوا الدين . ويعتمد تفسير هذا التناقض على عدد من العوامل اهمها ان مناخ الدراسات العقليه لم تعد تسيطر عليه اصنام الفكر التقليدبة عند اجراء الاستقصاء العلمى لموضوعات محدده كان الدين واحدا منها . ورغم ذلك فهذا التفسير يعد تفسيرا جزئيا . حيث تداخلت الفترة التى قام بها علماء الاجتماع بالدراسة المباشرة للمؤسسات الدينية مع فترة النزاع بين انصار فرويد ورجال الدين . ويكمن الفرق الجوهرى بين عمل علماء الاجتماع مثل تايلور وماريت وبين فرويد فى ان علماء الاجتماع بحثوا عن تفسير الظاهرة الدينية ولم يحاولوا اهمالها . وعلاوة على ذلك فان افتراضهم بأن الدين ظاهرة اجتماعية ضرورية . واشارتهم بأن دين التوحيد يمثل ارقى اشكال الديانات التى عرفها الانسان . واكثرها سموا لاقل تحديا للدين من تفسير فرويد ان الدين اثر من المعتقدات وتجارب الانسان البدائى . وبناء على ذلك حاولوا توجيه الاهتمام والانتباه إلى أهمية الدين لدى الانسان باعتباره منبعا للاستقرار النفسى والاجتماعى . وهناك محاولات يقوم بها العلماء المعاصرون لاجراء دراسات عن الطوائف الدينية الصغيرة مثل الطائفة الشاذلية أو السنوسية . وقد تخلت هذه الدراسات عن الرؤية الشاملة للدين وحاولت ان تربط الانتماء الدينى بالبيئة الاجتماعية لتعبر عن اهتمام متزايد بالدين كموضوع لابحاث سوسيولوجية خطيرة .

وهناك بعض الاخطاء التى ترتبت على تركيز الاهتمام على بناء انشطة الطوائف الدينية الصغيرة ، التى ينتمى اليها قلة من المؤمنين بها ، إذ ترك مثل هذه الدراسات بعض الاسئلة بلا جواب مثل كيف وإلى اى مدى يؤثر الانتماء إلى جماعة دينية معينة على سلوك فرد أو جماعة فى المجتمع الاكبر . ولاتبدو هذه المشكلة الخاصة معقدة فى المجتمع الذى يفصل بين الدين والدولة ، ولكن تبدو هذه المشكلة واضحة فى بعض المجتمعات الفرنجية حيث توجد قلة من الناس متعصبة دينيا . على انه من الواضح حتى فى الدول الغربية مثل انجلترا أن نجد ان الاغلبية من السكان تربط الدين بالاخلاق والسلوك وتجعل منبع الالتزام بالاخلاق فكرة الثواب والعقاب فى الآخرة .

ويوضح لنا نظام الملكية نقطة اشرنا اليها فى البداية وهى أن النظم الاجتماعية

تترابط سويا فى علاقات معقدة وقد حاولت مجموعة من الدراسات التى اجريت مبكرا الاهتمام بتطور نظام الملكية . وحاولت ان تفرق بين الاشكال الاساسية للملكية ، أو بين مراحل تطور الملكية كنظام فى المجتمع الانسانى . ولقد صاغ علماء الاجتماع نظرية المراحل الثلاث عن تطور الملكية . فالمرحلة الاولى حيث لايوجد إلا القليل من التباين والظلم الاجتماعيين وحيث تمتلك الجماعة المصادر الاقتصادية على المشاع كما يسيطر عليها المجتمع سيطرة محكمة . والمرحلة الثانية تتزايد فيها الثروة وتشتد مظاهر عدم المساواة والظلم الفادح ، وتخرج الملكية الفردية والجمعية عن سيطرة المجتمع . المرحلة الثالثة يتكون خلالها الوعى للقضاء على الظلم وعدم المساواة ومحاولة استعادة سيطرة المجتمع على مصادر الثروة . وقد رفض مفكرون معاصرون فى كل مكان فكرة التطور الاحادى للملكية ، بينما لم يهملوا الاهتمام بتطور اشكال معينة خاصة بالملكية بمعنى رفض بعض علماء الاجتماع لفكرة تقسيم صورة الملكية إلى الشيوعية البدائيه فالعبودية ثم الاقطاع ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية . ولكنهم اعطوا تأكيداً بأن الملكية كنظام اجتماعى قد اتخذت صورا خاصة فى البيئات المختلفة .

لقد اكد هؤلاء تعقد العلاقات الداخلية بين نسق الملكية وتنظيم الصناعة والطبقة الاجتماعية والتنظيم السياسى وأنساق الايديولوجية . وكان من نتائج دراساتهم البرهنة على السمة الاساسية لوظائف الاسرة فى المجتمع الانسانى وتباين هذه الوظائف الاسرية حسب تباين النظم الاجتماعية الاخرى . وقد اوضحوا أن العناصر الاخرى فى المجتمع تحدد الاساليب التى بها تؤدى الاسرة النووية وظيفتها فى التنشئة الاجتماعية للصغار . فالاسرة تنشأ الطفل ولكنها لاتبدع القيم التى تنقلها . فالقيم من صنع الدين والايديولوجيا السياسية والطبقة التى تنتمى اليها الاسرة . فالطابع الاساسى للاسرة النووية فى أى مجتمع تحدده النظم الاجتماعية الاخرى . ولكن الاسرة لاتحدد هذه النظم . وبالمثل فالتغير الاجتماعى يطرأ على النظم الاجتماعية الاخرى ولايبدأ من الاسرة ، ولكن الاسرة تتغير استجابة للتغيرات الاخرى .

وهذا التعقد فى العلاقات الداخلية بين النظم الاجتماعية هو مايجعل دراستها مشوقة عند العلماء الاجتماعيين ومثيرة للرهبة والخوف فى الوقت نفسه .

الفصل الثالث عشر
التنظيمات الاجتماعية

كان اغلب الناس قبل الثورة الصناعية يعيشون فى القرى ، مثلما يعيش الناس حاليا فى البلدان المتخلفة . وكان صاحب الارض فى القرية يتحكم فى مصائر الناس . واحيانا مايؤجر جزءا من الارض للزراعيين . وكان صاحب الأرض يتيح فرص العمل لعمال التراحيل مقابل الاجر البسيط الذى يكاد يكفل الحد الادنى للمعيشة لهم .

وكان تنظيم العمل فى الريف ، عملا من اعمال العائلة الكبيرة العدد لا الاسرة الزواجية الصغيرة العدد . الشائعة فى يومنا هذا ، وكان على كل عضو فى الاسرة أن يسهم بما يقدر عليه من عمل ابتداء من طور طفولته حتى الشيخوخة . وبالتالى يمكن أن يكون محل رعاية وعناية اعضاء عائلته عندما يحين الوقت الذى يحتاج فيه إلى مساعدتهم . ومثلما كان مالك الأرض ينظم اسرته حول العمل التعاونى فى الأسرة ، كان المستأجرون والعمال يقتدون به . وعلى العموم كان بمقدرة أغلب الناس أن يواجهوا اسباب القلق الاجتماعى من خلال مساندة العائلة عندما ينفجر بركان أو تنتشر الاوبئة الفتاكة أو ينزل بهم بلاء أو مصيبة وكان الايمان بالدين حاميا للمؤمنين من القلق الاجتماعى . وكانت رابطة الدين من اقوى الروابط التى تدفع الناس إلى التضامن والتكافل ، ومن التنظيمات الاجتماعية الهامة غير تنظيم العمل تنظيم الدولة ، وهذا التنظيم يضم جماعة الصفوة التى تؤلف طبقة الحكام . كما يضم ايضا المتعلمين الذين يكونون جماعة موظفى الدولة ، أما عامة الشعب فقد عزلوا عن جماعة الصفوة من الحكام والموظفين والسياسيين بسبب اميتهم . ويتميز عامة الشعب عامة بقلة رأسمالهم وضآلة ممتلكاتهم وانخفاض مستوى تعليمهم .

وربما كان تنظيم الحرفيين فى المدينة اكثر التنظيمات تعقيدا وكانت الورش دول صغيرة تتميز بالسلطة والمسئولية المحددة الواضحة على مستويات مختلفة ابتداء من صاحب الحرفة فالاسطى وتسلطه فالعامل الحرفى البارع وأخيراً الصبى وكانت جماعات الحرفيين تنظيمات اجتماعية صارمة مغلقة تقدم المساعدة لاعضائها(xx) وتقدم هذه الجماعات الحرفية المساعدة لافرادها فى حالات خاصة .

وقد اشار كتاب وصف مصر الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية إلى أن الصناعات المصرية حينئذ كانت تنحصر فى اقاليم مصر فى الحرف التى تفى بالضرورات الاولى وفى الاعمال اليدويه التى تتناول بعض المنتجات الزراعية التى تفى بأشباع حاجات الاستهلاك اليومى أما فى المدن فيعمل عدد صغير من العمال فى بعض الورش التى تصنع الاقمشة والسجادومعدات الحرب . ومن هذه الحرف حرفة صناعة الفخار وحرفة النسيج . أى تصنيع القطن أو الحرير أو الكتان وحرفة الحصر ، باعتبار ان الحصر فى مصر تمثل نوعين من الاحتياجات الاولية باعتبارها اثاثات ضرورية . كما تقوم مقام المفارش التى تغطى موائدهم ، أو صناعة الزيوت أو صناعة السكر وهناك النحاسون والحدادون وصناع الجلود .

وتنهض اغلب الحرف فى مصر على ماتنتجه ارضها ويمارس المصريون حرفهم

(xx) العمل الحرفى ، عمل يدوى ويتولى العامل اليدوى بنفسه او معاونة اسرته او عدد محدد من المساعدين له العمل لحسابه الخاص فى انتاج سلعة يقوم ببيعها . وقد ظهرت الحرفة ، عندما دخلت الجماعات الانسانية الأولى مرحلة الزراعية وتربية الماشية ، ففى ذلك الوقت كان الانسان قد توصل إلى انتاج آنية من الفخار وإلى صنع النسيج اليدوى وعرف كيف يصهر المعادن ويصنع منها ادوات العمل . وهنا أصبح من العسير الجمع بين هذه الاشكال الجديدة للعمل وبين الزراعة . ومن ثم تكونت داخل الجماعة الانسانية البدائية فئة من الافراد يزاول كل منهم عملا من هذه الاعمال وبمرور الزمن تحولت منتجات هؤلاء إلى منتجات للمبادلة اى إلى سلع . هكذا نشأت الحرفة . وقد ازدهرت الطوائف الحرفية فى ظل المجتمع الاقطاعى ، فكان لها تأثيرها الواضح على الاقتصاد . وكان هدف هذه الطوائف حماية الحرفيين من المنافسة . كما تلزم اعضائها باتباع اساليب معينة فى الصناعة وتقف فى وجه أى تعديل أو تحسين فى ادوات العمل وتمنع ادخال اى اختراع جديد حتى لايتميز احد المنتجين على غيره ، ولكن نتيجة للاكتشافات الجغرافية واستخدام الالة لم تعد الطوائف الحرفية قادرة على مسايرة انطلاق القوى الانتاجية . بل تحولت إلى عقبة امام التغير .. ثم ظهرت الصناعات اليدوية التى كانت بداية لتخطى الانتاج الحرفى ولتعديل ظروف الانتاج (الموسوعة الاشتراكية) .

على مستوى البدائية التى ترددوا اليها ، كما أن عمل الإنسان وعمل الحيوان اقل تكلفة مما قد يتكلفه استخدام الآنه (وصف مصر ـ المجلد الرابع) .

وفى دراستنا للتنظيمات الاجتماعية سنهتم إلى حد كبير بتنظيمات العمل لان اغلبية اعضاء المجتمع من العاملين الذين يقضون حياتهم فى العمل اساسا . فافراد الطبقة الفقيرة يعملون مثلهم مثل افراد الطبقة العليا والبيروقراطيين. ولكن افراد الطبقة الفقيرة يعملون عملا شاقا ويعيشون حياة تختلف عن حياة الموظفين والسياسيين .

كما يتعين علينا أن ندرس تطور تنظيم العمل ومإدى اليه من ظهور الطبقة الحديثة من المهنيين والروابط المهنيه للطبقة الوسطى والتنظيمات الادارية ذلك لأن الطبقة الوسطى الحديثة لم تكن قد ظهرت وتطورت على النحو الحالى لتقدم مساهمتها فى التنظيمات الاجتماعية فالناس كانوا إما فقراء يعملون عملا شاقا وإما اغنياء يقضون وقتهم بلا عمل أو فى العمل فى وظائف الحكومة .

ولقد زعزع استخدام الآلة على مدى واسع بعد الثورة الصناعية ونظام الانتاج الكبير كل انماط الحياة المستقرة من قبل . ولقد انجذب افراد الاسرة للعمل فى المصانع التى تدار بالطاقة بدلا من الجهد البدنى وعملوا فى حفر الترع وشق الطرق ، ومد قضبان السكك الحديدية ، وبناء المدن ، وتشييد المصانع ، وظهرت ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة حيث تتاح فرص عمل اكثر ، وكان لعملية الهجرة اثارها على طريقة الحياة التقليدية وظهرت اشكال جديدة من السلوك وتحويل العمل من نطاق الاسرة وسيطرتها إلى نمط الانضباط الصناعى .

كما ظهر نمط العمل الجديد الذى ترتب على استخدام الآلة ، كما ظهر النزاع بين العمال واصحاب العمل حول حقوق وواجبات كل طرف ، مما ادى إلى الصدام بين الجانبين وتدخل الدولة للاشراف على العمل وتنظيم العلاقة بين العمال والجهاز الادارى واصحاب العمل .

ولكن فكرة تنظيم العمل والانضباط الصناعى بتدخل الدولة وسن التشريعات لم يتقبلها اصحاب العمل إلا بعد مضى وقت طويل . ومن مظاهر تدخل الدولة فى تنظيمات العمل سن القوانين لتنظيم عمل النساء والاحداث . والتأمين ضد

البطالة وعدم السخرة وتحديد ساعات العمل.وتهدف قوانين العمل أساسا إلى منع استغلال الانسان ، ويتحقق ذلك من خلال (أ) كفالة العمل لكل مواطن (ب) ضمان حرية كل فرد فى اختيار العمل الذى يتفق مع مواهبه وقدراته (ج) مكافأة العامل حسب كمية عمله ونوعه مع ضمان حد أدنى للاجور يكفى لتحقيق مستوى لائق لمعيشة العامل واسرته (د) ضمان اجر مساو للعمل المتكافىء (ه) توفير ظروف العمل بما يحقق اكبر قدر ممكن فى الانتاج[1] .

وكان الهدف من تنظيم العمل الحد من بؤس وشقاء الطبقة العاملة وقد بدأ هذا التدخل من الدول لتنظيم العمل ابتداء من منتصف القرن الماضى.ونحن فى مصر لم نعرف أول خطوه لتنظيم العمل إلا عام ١٩٠٩ عندما صدر التشريع المنظم لتشغيل الاحداث ، أما تنظيم عمل المرأة فقد تأخر حتى الثلاثينات من هذا القرن . كما صدرت القوانين التى تنص على حق العامل فى التعويض بسبب اصابات العمل فى عام ١٩٣٦ ولقد صدرت الكثير من التشريعات لصالح العمال بعد قيام ثورة ١٩٥٢ .

وقد صاحب فكرة السيطرة على تنظيم العمل وتدخل الدولة الدعوة إلى تكوين نقابات عمالية . ونقابات العمال هى جمعيات تشكل لاغراض المساومة الجماعية بشأن شروط الاستخدام ولتنمية مصالح اعضائها الاقتصادية والاجتماعية عن طريق الضغوط على الحكومات والهيئات التشريعية فى المشاركة فى تنظيم الصناعة .

وترجع نشأة النقابات فى مصر إلى مابعد الغاء نظام الطوائف الحرفية فى عام ١٨٩٠ إذتكونت فى ذلك العام نقابات عمال مصانع السجائر ثم زادت الحركة إلى انشاء النقابات بعد الحرب العالمية الأولى . الا إن معظم النقابات التى تكونت كانت ضعيفة فى مواردها وفى قيادتها ثم جاءت ثورة ١٩٥٢ وقررت حق العمال فى تكوين نقابات لهم ذات شخصية اعتبارية .

ومن الافكار التى صاحبت تنظيم العمل فكرة حق العمال فى ملكية ادوات الانتاج وهى فكرة كانت ملحة . كما ظهرت محاولات لتجربة النظام التعاونى .

(١) ليب شنب : شرح قانون العمل .

والتعاون تنظيم اقتصادى يقصد به تجمع أصحاب المصالح المشتركة من الضعفاء اقتصاديا بغية تحقيق مايلزمهم من خدمات عن طريق المعاونة المتبادلة فيما بينهم وتحررهم من استغلال الوسطاء من الرأسماليين . ويرجع تاريخ الحركة التعاونية فى مصر إلى عام ١٩٠٨ حينما دعما عمر لطفى إلى الأخذ بالتنظيم التعاونى لتحقيق الاستقلال الاقتصادى للبلاد والتغلب على مايواجهها من ازمات اقتصادية .

ولقد عرض لنا تشارلز بيرو فكرته عن النسق ذى الثلاث مستويات مبينا أن التنظيمات تتأثر بعوامل ثلاثة :

١ ــ النسق الثقافى الذى يضع الاهداف الشرعية .
٢ ــ النسق التكنولوجى الذى يحدد الوسائل المتاحة للوصول إلى هذا الهدف .
٣ ــ البناء الاجتماعى للتنظيم الذى يتضمن اساليب فنية معينة بطريقة ماتسمح لانجاز الهدف . وهذه العوامل الثلاثة متداخلة ولايمكن تجاهل واحد منها . فالنسق الثقافى يحدد التشريع والنسق التكنولوجى يحدد مستوى العمل . ويبدو أن أهم هذه العناصر هو البناء الاجتماعى .

ولقد ظهرت افكار عديدة تتعلق بتنظيمات العمل فى القرن ١٩ وكانت ابحاث فيبر من أهم الدراسات التى اجريت حول بناء نمط التنظيمات . ولقد نبه إلى الطريقة التى اضفت على التنظيمات البيروقراطية مزايا اكبر من المزايا التى كانت تضفى على النظام الارستقراطى التقليدى أو نموذج القائد الملهم .

فالتنظيم البيروقراطى تحكمه قواعد معروفة . وتلك قواعد منطقية وعقلانية ولاتخلو من المسئولية . ولقد حدد لنا فيبر سمات وتنظيمات الخدمة المدنية على النحو الآتى :

١ ــ الحقوق والواجبات التي تحددها القرارات التنظيمية التنفيذية .
٢ ــ تحديد طبيعة السلطة بين الرتب التى تنظم تنظيما منسقا .
٣ ــ تنظيم التعيين والترقيه واستنادهما على الاتفاق التعاقدى .
٤ ــ التدريب المهنى كشرط رسمى للوظيفة .

٥ — المرتبات النقدية المحددة الثابتة .
٦ — الفصل بين الوظيفة ومن يشغل الوظيفة بمعنى أن الموظف لايملك وسيلة للادارة ولايمكن أن تورث وظيفته .
٧ — اصبح العمل التنفيذى مهنة كاملة تتطلب كل الوقت .

وقد بين فيبر المزايا الاتية للتنظيم البيروقراطى :

التفوق فى الخبرة الفنية نتيجة زيادة الدقة فى العمل ، والسرعة فى الانجاز ، وقلة الغموض فى اللوائح ، وتنظيم السجلات والوثائق ، والاستمرارية والشعور بالحذر ، واضطراد العملية ، وتسلسل الرئاسات ، واختزال الوظائف مما إدى إلى تركيز وسائل السلطة التنفيذية ، مما كان له تأثير حاسم على تقريب الفوارق الاجتماعية والاقتصادية كما تحقق مجموعة من علاقات السلطة الدائمة والضرورية .

وقد توقع فيبر انه لابد من النمط العقلى والترشيدى والشرعى والمنطقى ليحل محل الاشكال الادنى كفاءة . ولكن ليس كل العلماء مقتنعين بكفاءة هذا التنظيم مثل فيبر . فنحن الآن نتحدث عن العبودية والروتين والسلوك البيروقراطى والالتزام بأوقات العمل لانجاز العمل ، وعن الروتين والتأشيرات الحمراء ، ونحن نستعمل هذه المصطلحات لنقيم عدم كفاءة العمل والاداء البيروقراطى ، وخاصة إذا كنا من المتعاملين مع بعض المصالح الادارية التى تتعامل مع الجماهير .

وقد اهتم بعض الاجتماعيين والسياسيين بهذا التناقض الظاهر بين مايقتضيه المنطق من كفاءة العمل البيروقراطى والسلوك الفعلى عند بعض البيروقراطيين . على أن هذا الاهتمام لم يحقق تقدما ملحوظا فى فهم هذه الظاهرة .

ومنذ فترة حديثة بدأ بعض علماء الاجتماع اعادة دراسة افكار ماكس فيبر وبينوا أن المشكلة تكمن فى ان صغار الموظفين قد يعملون بكفاءة اكبر املا فى الترقيات حتى إذا نالوها تغلب الطابع البيروقراطى عليهم وبدأ عيب التنظيم يظهر . ومهما يكن الأمر فالتنظيم البيروقراطي اكثر ترشيدا واكثر عدلا من التنظيم الابوى الطبقى المستند إلى اصول طبقية . على أن من عيوب التنظيم البيروقراطى إن السلطة كلها تصدر من أعلى هيئة . والتى تصدر قراراتها بعيدا عن المشاكل التى

تتناولها هذه القرارات . فالقرارات تصدر من رئيس المصلحة أو المستشار الفنى او نتيجة الدراسات المكتبية التى قام بها رجال الادارة .

ولكن بعض العلماء بينوا أن الوضع لاينطبق على كل التنظيمات البيروقراطية . فثمة تنظيمات تستمد السلطة من قراراتها عن موقف العمل ، وانه يتعين علينا أن نتراجع إلى الوراء لنتتبع تطور هذا التفكير الاخير عن التنظيمات . وتعد مدرسة الادارة العلمية مدخلا آخر يؤكد اهمية ترشيد الجهود وتطبيق المنهج الاكثر منطقا عند دراسة تنظيم العمل . وترى مدرسة الادارة العلمية أنه نتيجة للنظام البيروقراطى ظهرت طبقة المديرين الجدد من المهنيين الذين يقومون بدراسة الاوضاع ويفترضون مايرونه لكفاءة العمل . ولم يقتصر تطبيق الادارة العلمية على الجهاز الحكومى بل امتد إلى جهاز الأعمال التجارية .

وقد عرض بعض العلماء افكارا جديدة عن بناء التنظيم . كما قدم البعض الآخر افكارا عن كيفية تحسين العمل على المستوى الفنى . ولما كان هدف عالم الاجتماع دراسة البناء الاجتماعى فمن المفيد أن نستمر فى دراسة الافكار المتعلقة بترتيب ادارة العمل فى نظام تسلسل الرئاسات .

ومع ان العلماء الذين يتمسكون بنظرية الادارة العلمية يرون ان هذا الشكل من التنظيم هو افضل اشكال التنظيم اطلاقا . لكن البحث اللاحق أظهر أن الادارة العلمية نوع من البناء قد يكون كفأ فى ظروف معينة ولكنه غير ملائم فى ظروف اخرى .

ولقد قام طومسون باعادة تحليل البراهين على تأثير التكنولوجيا على بناء التنظيم . وقد اشار إلى أن الدراسات قد انصرفت بصفة اساسية إلى مجال بناء التنظيم فى الصناعة الانتاجية (التى تهتم بالسلع المصنوعة من المواد الخام) وقد سلمت هذه الدراسات بأن التنظيم قد يختلف من صناعة لاخرى . إلا أنه برهن على وجود معدلات اخرى لتنظيم العمل ايضا ، إذ تهدف الصناعات (التى تهتم بالسلع المصنوعة من المواد الخام) ، إلى تطبيق التكنولوجيا لمدة طويلة ، وتهدف تحقيق معدل ثابت فى الانتاج . وتشغيل المصنع بأقصى قدرة انتاجية ، ويقابل ذلك التنظيمات التجارية والبنوك والتى وصفها بأنها تقوم بدور الوسيط فى

التكنولوجيا . وإذ توفر اساليب الاتصال الضرورية فى المجتمع الحديث ، وتحاول أن تقدم المعايير القياسية للعمل وقواعد البيروقراطية بقدر الامكان ، كما أن المستشفيات والخدمات العسكرية وقطاع البناء لديها مستوى تكنولوجى إما مكثف أو عادى إذ أنها تقدم خدماتها تبعا لمطالب للعملاء مع مراعاة الموارد المتاحة مما يترتب عليه اختلاف الابنية فى هذا المجال .

وقد اشار طومسون إلى أن اختلاف البناء فى كل حالة يرجع إلى أن التنظيم يحاول فى كل حالة أن يحمى مركزه التكنولوجى . إذ أن هذا المركز التكنولوجى هو سبب قيام البناء منفصلا عن غيره . ويحدد مساهمته الخاصة فى المجتمع ويبنى حول هذا المركز مجال العمل اى بيئة العمل التى تعمل كحاجز على استقرار البناء ضد تذبذبات العرض والطلب سواء من ناحية العملاء أو الزبائن وموردى المواد الخام ، ومستوى العمل ورأس المال والادوات ومكان العمل والمتنافسين على الاسواق والمصادر والجماعات التنظيمية وهى الحكومة ونقابات العمل والروابط والمؤسسات الداخليه.ويراعى البناء فى اعداد التنظيم ماستكون عليه البيئة . ويستند تقسيم سامبسون على فكرة ان الامر يتطلب نوعا مختلفا من البناء عندما يتكاثر عدد الموظفين الذين يشغلون الوظائف الهامة التى تحملهم المسئولية فى اتخاذ القرار الذى يختص بمظهر من مظاهر علاقة التنظيم بالمجتمع المحلى .

وقد ساير طومسون تريست فى اهمية ادراك التنظيم كنسق اجتماعى يتكون من مجموعة من الانساق الفرعية . وهو نفسه جزء من نسق اكبر ، والحقيقة ان دراسة الادارة العلمية لم تتجاوز فى دراستها النسق المغلق للتنظيم وعلاقاته الداخلية ، ولكن سامبسون يرى أن الضغوط الخارجية هى التى تحدد العلاقات الداخلية. ويحتل الموظفون المهنيون مثل الاطباء فى المستشفى وضعا خاصا له سلطة قوية لاعتماد المستشفى اعتمادا كليا على خدماتهم . ولكنهم بالمثل يعتمدون على المستشفيات للحصول على التسهيلات التى يحتاجون اليها لممارسة عملهم ، ابتداء من المساعدة الفنية عالية المهارة والادوات المتخصصة .. وهلم جرا بيد أن هذا الشد والجذب بين الطرفين لايوجد بنفس الطريقة فى الصناعة .

وقد رأى طومسون أن دور المشرف والسلطة التى تعلوه تساعد على تكامل

المصالح المتصارعة للتابعين . بيد أن السلطة فى التنظيمات المعقدة أو الكبيرة لاتستطيع أن تؤدى كل التكامل الضرورى ، ووجد ان التنظيم البيروقراطى عندما يضع معايير قياسيه ثابته من خلال اللوائح المستقرة قد يستغنى عن اتخاذ القرارات الصغيرة التى غالبا ماقد تتناقض مع قراراتهم السابقة . فالمعايير القياسية ادت إلى تطور اقسام ادارية متخصصة مثل شئون العاملين واقسام التكاليف والتسويق . وإذا كانت اللوائح والقواعد الادارية قد نظمت اتخاذ القرارات فى المجال الصناعى ، فان سامبسون يرى أن هذه القواعد غير مجدية فى مهن تتطلب مهارة خاصة مثل المستشفيات حيث يلزم من حين لآخر أن يشترك الخبراء فى دراسة مشاكل التنظيم والحلول التى يعرضونها . ففى هذه الحالة لاأهمية اطلاقا للوائح تنظيم العمل حيث تهتم المستشفيات والهيئات المحلية أن تجمع بين خدمات عالية الجودة وكفاءة مثالية فى استغلال الموارد .

ولقد اهتم بعض علماء الاجتماع بعملية اتخاذ القرار داخل التنظيمات لاكتشاف المتغيرات التى تؤثر على هذه العملية من اجل السيطرة عليها . ويعتقد اعضاء جماعة الادارة العلمية أنهم يستطيعون الوصول إلى الوسائل لاثبات المتغيرات فى نمط الانتاج ، وقد اكتشفوا ان عليهم دراسة مشكلة شكوى العاملين وتوقعات الادارة وكيفية انجاز العمل ، ومن ثم فقد ادركوا بأن ثمة مجالا للمساومة العملية أو الخفية .

ونتيجة لذلك فقد أنشأت الشركات الكبرى اقسام للبحوث من اجل تنظيم العمل وسعيا وراء حلول جديدة لمشكلاتهم باستخدام علماء مدربين فى مجالات مختلفة ليكونوا فريق عمل وتطلعوا إلى البحث فى اسباب عدم كفاءة المديرين بدلا من البحث عن اسباب عدم كفاءة العمال .

ورغم ان الملكية ليست قضية حقيقية . فان المشاركة فى ادارة التنظيم لازالت موضوع اهتمام علماء الاجتماع . ولقد اهتم عدد من العلماء بالبحث عن اسباب اغتراب الموظفين(×) والعمال فى مجال التكنولوجيا وقد لخص لنا بلمير جهود هؤلاء

(×) يقصد بالاغتراب وهو ظاهرة اجتماعية معاصرة التعبير عن وضع معين يعانى فيه الانسان من الوحدة والعزلة والضياع والضعف بعد ان يسلب منه عائد جهده ويشعر بامكانية ان يحل الاخر محله فى العمل بسهوله ، ويعنى الاغتراب ايضا شعور الشخص بالقلق والعجز واختلاط المعايير والقيم والانعزال (د . محمد سعيد فرح دراسات فى المجتمع المصرى ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧) .

العلماء الذين برهنوا على أن التكنولوجيا قد تطورت عن النظام الحرفى الذى كان يعنى اندماج العمال فى عملهم ويرونه تعبيرا عن الذات وتقديرا لها.ولكن عندما تقدمت التكنولوجيا نشأت ظاهرة الاغتراب بسبب سيادة نظام الصناعة الآلية التى لامعنى لها عند العمال . وقد خلق انتشار هذه الصناعات شعورا بالعجز والعزلة واغتراب الذات عند العمال . ولقد تنبأ بلمير بأن الصناعة الالية الاوتوماتيكية سترجع للعامل قدرا من السيطرة على عمله وستعيده إلى الارتباط بالمجتمع باعتباره عضوا نافعا . وقد اثبتت الدراسات من جانب آخر أن العمل لم يعد الشغل الشاغل لمعظم الموظفين باستثناء المهنيين ، فالعمال الان يعملون من اجل الحصول على مزيد من الدخل ويتطلعون إلى قضاء وقت فراغهم كما يودون بدلا من البحث عن عمل . وصارت علاقات العمل هى العلاقات الهامة الوحيدة خارج الاسرة .

ويرى اتزيونى انه بالامكان تقسيم التنظيمات إلى انواع ثلاثة تبعا للانماط التى يتوقع كل نوع منها ان ينديه مرؤوسيه . وقد حدد هذه الانماط على الوجه الآتى :

١ — النمط المعيارى الاخلاقى .
٢ — النمط النفعى .
٣ — النمط القهرى .

وينظم النمط الاخلاقى الخدمات العامة التى يحتل فيها المهنيون مكانه الصفوة أو القيادة مثل الاطباء والمدرسين ، إذ تضع هذه المهن المعايير الاخلاقية لممارسيها ولعملائهم . ويتوقع المهنيون ان يرضخ الاخرون لهم لما لهم من خبرة وبما يقدمونه من خدمات للجميع . والناس من جانب آخر ترغب فى التعاون معهم لما فى ذلك من خير لهم . أما التنظيم الفعلى فيضع تحته كل الاعمال التجارية والصناعية . ويتوقع أن تدفع الحوافز المالية العمال إلى بذل اقصى جهد كما يستخدمون احيانا الافكار الايديولوجية الجذابة للدعوة إلى مطالبهم . ونتائج هذا المدخل متغيرة ، إذ يستجيب بعض العمال على نحو جيد بينما لايهتم الاخرون بذلك لان الامر غير واضح لديهم ، والبعض يغترب عن الواقع الذى يعيش فيه .
أما التنظيم القهرى فهو التنظيم الذى يفرض افراده ، وعلى كل عضو من اعضائه

التزام قواعد محددة للسلوك مثل ذلك مثل التنظيم العسكرى والسجون وقد يستخدم العقاب والتهديد لغرض الاذعان والسيطرة من اعضاء النسق مهما كانوا سواء أكانوا مواطنين أو موظفين .

وعلى حين تضاءلت اهمية الملكية فى دلالتها وتزايدت المعرفة باهمية المشاركة فى ادارة التنظيمات . فقد صاغ دوبين المشكلة على النحو الآتى : ان العامل الحاسم فى القوة الاجتماعية المنبثقه من التكنولوجيا الصناعية هو القدرة على تجديد الاتجاه الذى تتطور خلاله التكنولوجيا الحديثه ، ولكنه استطرد قائلا أن هذه القرارات لايتخذها المديرون وحدهم بل يتخذها المديرون مع رؤساء مختلف اقسام العمل والمشرعون والمنافسون والمستهلكون وبعض اعضاء النقابات العمالية ، وقد حددت القرارات على النحو الاتى : الاساليب التنظيمية التى تحدد طبيعة العمل وتقسيمه بين مختلف الصناعات وخطط الاستثمار واوضاع الاستقرار التنظيمى .

وثمة مداخل عديده لعلم اجتماع العلاقات الصناعية . والحقيقة ان دراسة العلاقات الصناعية لها اهمية خاصة عند علماء الاجتماع المهتمين بالصراعات التنظيمية الداخلية للنقابات والادارة . ولكن ثمة اهتماما اكبر قد يعطى الآن للصراعات بين النقابيين انفسهم والصراعات بين النقابات المختلفة ، والصراعات داخل السلطة الادارية .

وقد اهتمت بعض المداخل باغتراب العامل والذى يرتبط بضعف اندماج الاعضاء فى التنظيم . كما اهتم بعض العلماء بعدم قدرة التنظيم على اداء وظائفه فى اطار اغتراب أو فشل الاعضاء فى الاندماج . كما ظهر اتجاه بعد الحرب يهتم بالديمقراطية الصناعيه . وتلك الفكره تعنى ان مواطنى المجتمع الديمقراطى ينبغى أن يتوقعوا ان تكون مسئوليتهم فى اداء العمل قدر مسئوليتهم فى قضاء اوقات الفراغ للمساهمة فى تقديم الافكار من اجل تحسين العمل ، ولايقتصر دورهم على أن يكونوا مجرد اعضاء تابعين فى التنظيم . وهناك يرى أن ماينبغى أن ندرسه هو الفهم الافضل لادوار الادارة أو تحسين الاتصال بين العمال والادارة بدلا من تقديم حل جديد للصناعة بتطبيق الديمقراطية التى تتطلب ان يبدى الناس اراءهم ، فى تنسيق العمل . وتشير الدراسات اللاحقة التى قام بها اخصائيون فى العلاقات الصناعية إلى ان العمال يمكن ان يستمروا فى معارضة

الادارة معارضة فعالة من خلال السماح بابراز دور النقابات بصفتها معارضة قوية ضد الادارة . ولكى تكون المعارضة حقيقية وسليمة ينبغى أن تكون الادارة قوية ايضا . وقد اكد أغلب الباحثين على أن الادارات كانت تفتقد المبادرة فى تعاملها مع النقابات ، وتلجأ دائما إلى مواقف الدفاع ، كما كانت محدودة فى افكارها .

وربما كانت النقابات المهنية اكثر اهمية من النقابات العمالية فى التاريخ المعاصر . ولقد ظهرت اهمية الجماعة المهنيه مؤخرا نتيجة ازدياد اعداد خريجى الجامعات وبعد ماتحطم التعليم التقليدى وظهرت انماط التعليم الحديث . فالهدف من هذه المعاهد اعداد المهنيين المهرة والاخصائيين فى الخدمات التى تعتمد على المهارة وتقديم المشورة للآخرين مقابل اجر . ولكل مهنة ادابها لتأكيد اعلاء مستوى المهنة والممارسة الشريفة مما يدفع اعضاء المهنة الواحدة إلى الارتباط سويا فى . نة خاصة بهم تميزهم عن الاخرين .

والمهن الحرفية ذات اهمية خاصة لان اعضاء النقابات المهنية يعدون جماعات ضغط قوية يعملون من أجل الاصلاح الاجتماعى أو ضده وتميل اغلب المهن التقليدية الراسخة إن تكون محافظة لتحافظ على مكاسبها ، ولكن عندما تتحرك نقابة مهنية للقيام بفعل اجتماعى يظهر أثر التعليم مدى تحمل المسئولية الاجتماعية باعتبارهما قوتين مؤثرتين نحو التعبير . وقد صار العمل الحديث ذا أهمية خاصة فى تحديد المكافآت الاجتماعية والاقتصادية للافراد فان لم يعمل الشخص وتعطل عن العمل عجز عن الحصول على قوت يومه وخلق نظام العمل الجديد اخلاقا للمهنة تميز سلوك العاملين فى كل مهنة وأهم مظاهر العمل الحديث :

١ ــ التخصص الواسع فى جميع الوظائف .
٢ ــ ازدياد الوقت المحدد للعمل .
٣ ــ تأكيد أهمية التنافس فى العمل .
٤ ــ اضمحلال الحرف اليدوية .

ويتفاعل التنظيم المهنى دائما مع البناء الاجتماعى الاكبر ويلعب دورا هاما فى النشاط الاجتماعى والاقتصادى لافراد الجماعة ويؤدى اغراضا عامة بطريقة ناجحة . والعلاقات الاجتماعية داخل التنظيم المهنى علاقات . شخصية وسطحية ورسمية يحددها نطاق العمل ، كما لايمتلك افراد التنظيم المهنى جزءا من

رأس مال التنظيم الذى يعملون به ، ولايتأثر مباشرة بالكسب أو الخسارة كما قل عدد الملاك فى المجتمع الحديث .

كما انفصلت الادارة عن الملكية فى المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة ولم تعد الادارة الجديدة تتأثر مباشرة بالربح .

ويرى بعض علماء الاجتماع أن :

١ ــ الأجر النقدى جزءا العمل هو وسيلة مباشرة فى الحياة وكسب العيش وارضاء حاجات الاخرين فى المجتمع الحديث واصبح الافراد يقدرون ويقيمون حسب قيمة العمل الذى يؤدونه ويحتل الافراد الضعاف فى اعمالهم مكانهم فى اسفل التنظيم المهنى . ويرقى الافراد المتفوقون فى عملهم إلى قمة التنظيم المهنى كما يرقى المجتمع الحديث من قيمة الفرد العامل إلى المراتب العليا دائما .

٢ ــ ان ازدياد التخصص المهنى يؤدى إلى ازدياد الحرية الشخصية وازالة الفوارق بين الطبقات .

إلا أن اختيار المهنة والانتماء إلى تنظيم مهنى معين ليست عملية سهله وتجعل الحياة مشكلة منذ البدء إذ حتى فى الحالات التى يوفق فيها الفرد ويختار المهنة التى تتوافق مع قدراته وصفاته والتى يميل إلى ممارستها فانه لايبقى فى وضعه إلا نادرا وأنه دائما يغير مهنته إذا مارق فى عمله أو اخفق فيه . وهذا يعنى ازدياد الحراك المكانى والاجتماعى للفرد وتغيير بيئته ووضعه ومكانته ومركزه فى بعض الاحيان ، مما يؤدى إلى تغيير علاقات الفرد باستمرار وتغيير الجماعات التى ينتمى اليها ويضعف من السيادة العائلية ويقوى من أهمية التنظيم المهنى .

المراجع العربية

(١) احمد تيمور :
معجم تيمور الكبير فى الالفاظ العامية تأليف احمد تيمور ، تحقيق حسين نصار ـــ القاهرة . الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .

(٢) بشير العوا :
الاسرة بين الجاهلية والاسلام . دمشق دار الفكر الإسلامى .

(٣) جون ركس:
مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية . ترجمة محمد الجوهرى وآخرين . الاسكندرية منشأة المعارف ١٩٧٣

(٤) عبد الباسط محمد حسن :
تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الاجتماع . مجلة عالم الفكر . المجلد السادس . العدد الثانى ص ٥٧٧ ـــ ٦٢١

(٥) عزمى اسلام
الفرد نورث هوايتهد . عالم الفكر . الكويت . العدد الثانى يوليه ١٩٧١

(٦) « على المحافظة »
الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة . بيروت الاهلية للتوزيع ١٩٨٣

(٧) عمر فروخ
الاسرة فى الشرع الاسلامى . بيروت المكتبة العربية ١٩٥٠

(٨) محمد سعيد فرح
مشكلات فى المجتمع المصرى الفصل الأول . الاسكندرية الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧

(٩) محمد سعيد فرح
البناء الاجتماعى والشخصية . الاسكندرية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠

(١٠) محمد سعيد كيلانى
ترام القاهرة . القاهرة دار الفرجانى ١٩٦٨

(١١) محمد لبيب شنب
شرح قانون العمل . الطبعة الثالثة . القاهرة . دار النهضة العربية ١٩٧٦

(١٢) مصطفى الشهابى :
معجم الالفاظ الزراعية الفرنسية والعربية . القاهرة . جامعة الدول العربية ١٩٥٧

المراجع الاجنبية

Abraham. J.H
The Orijions and Growth of Sociology.
Middlessex. England Penguin Books 1973

Babbie Eavl.R.
Survey Research Method.
Belmont. California Wads Worth Pub Com. 1973

Chinoy Earl
Sociological Perspective
N.y.Random Hause 1954

Coulsons Margaret:
Approaching Sociology. Acritical Interoduction
By Margaret Coulson and Carol Riddell
P6 th etition Condon, Routledge & Kegan Poul 1977

In Kles Alex.
What is Sociology 4th Printing
New Jersey. Prentic- Hall. 1965

Mitchell, Duncan
A Dictionary of Sociology
London Routdlege & Kegan Paul 1969

Lazerfield P.F:
Main Trendshin ociology.
London. George Allen & Unwin & td 1973

Merton,R:
Contem porary Social Problems. By R. Merton and Robert Nisbet N.y. Harcourt 1966

Mitchell Duncan
Sociology London: Routledge & Kegan Paul 1970

Scotson John:

Intro ducing Society 2 thed
London Routledge & Kegan Paul 1977

Theodorson, George:

A modern Dictionary of Sociology By George Theodorson and Achilles.
G.Theodorson N.Y. Thomag.Y. Crowell Com 1969.

Wright. F.J :

Basic Sociology 2th ed: London. Macdonald & Evons 1973

Young Kimball:

Systematic Sociology. Text and Reading by Kimball yound and Raey mond
Wmack New DelHi East Went Press 1972

الفهـرس

الموضوع		الصفحة
الاهـداء .		٥
تصدير .		٧
المقدمة .		٩
الفصل الأول	مفاهيم العلم .	١٧
الفصل الثانى	العلم والعلوم الاجتماعية .	١١٣
الفصل الثالث	التعريف بعلم الاجتماع .	١٣٣
الفصل الرابع	تاريخ الفكر الاجتماعى .	١٦١
الفصل الخامس	اسباب تطور علم الاجتماع المعاصر .	١٩١
الفصل السادس	صلة علم الاجتماع بالعلوم الانسانية الاخرى	٢٠٣
الفصل السابع	طرق البحث فى علم الاجتماع .	٢١٥
الفصل الثامن	المجتمع والثقافة والشخصية .	٢٢٥
الفصل التاسع	العمليات الاجتماعية .	٢٣٧
الفصل العاشر	التغير الاجتماعى .	٢٥٣
الفصل الحادى عشر	المشكلات الاجتماعية .	٢٨٩
الفصل الثانى عشر	النظم الاجتماعية .	٣١١
الفصل الثالث عشر	التنظيمات الاجتماعية .	٣٢٥
المراجع .		٣٣٩

رقم الايداع ٧٢٠٠ / ٨٧
الترقيم الدولى ٠ - ٣٧٠ - ١٠٣ - ٩٧٧